

مكتبة
الأدب
المغربي



جبران خليل جبران

في درامنة عقلية - تركيبيّة لأدبه ورسمه وشخصيته

فؤاد بركات

دار النشر
بيروت

جبران خلیسل جبران

فی مکتبہ تعلیماتیه - ترکیبیه
لا ادبیه و زسجه و شخصیه

غسازي فؤاد براکرس
مکتوب فی الادب

جبران خلیل جبران

فی مداسۃ تحلیلیۃ - ترکیبیۃ
لادبیۃ و دسۃ و شخصیتہ

دار الکتاب البنانی
تلطون ۱۹۷۷ - ۱۹۸۰ - بیروت ۱۹۸۱ - مکتبۃ
بیروت - بیروت - بیروت - ۱۹۷۷

جميع الحقوق محفوظة
دار الكتب
بغداد - بيروت
١٩٧١ م
بيروت - لبنان

صدرت هذه الطبعة الجديدة المنقحة
بمناسبة
الاخفا لاني سنة جبران العالمية
الموافق لمرور
نصف قرن على وفاته
١٠ نيسان ١٩٨١

اهراء

إلى الروح النقية البهية الراتبة في سماء النعم
حيث لا ظلم ولا غلام ، ولا شراب ولا لثم !
إلى النفثة الإلهية التي حملت قيود اللحم والدم
لتخارج الزمان والمكان ، خارج العدم !

إلى القوس النورانية المتوجة كالف شمس !
الطابية في صيدها اليوم والغد والأمس !
المنزهة عن شهوة العاين والفهم واللمس !
من لا سبيل إلى الاقتراح بها إلا سبيل الرمس !

إلى المسيلات الروحية التي نغمت نسيم الحذر في ملايين النفوس ،
وسكنت حبس بحال وجمال المحبة في أعاجيب الكون !

إلى القوة العلوية التي هبطت ممثلاً وراء المحذرات
لتنجلي في « داهش الناس » رجل الله والمفكرات
فخاطبني وبساركفي وشئت في زخم الحياة !

إلى الروح القوي أوجت « رسالة الضباب »
تندد العاصف فيها بالعذاب واليباب
إذا لم يزعزع عن غيبه ويكلم الضباب !

إلى الأم الروحية المولودة في الأزل والكاينة إلى الأبد
التحيا لما حقه « فتح الأرز » إليها وهو في ظلمة الجسد

الم روح جذبات
مابعة لبنيات.

غاري بروليس

محتويات الكتاب

إيضاح وشكر ١٦ - ١٥

توطئة ٣٨ - ١٧

أ - مرور الدراسة : التصاعد الجبراني - الدراسات السابقة في جبران - تصورها من نفس الكثير من منطلقات أدبه وورسه وسلوكه لعدم إنقاذها من الدراسات النفسية - نهضة الأبحاث النفسية المطبقة على الأدب والفن في القرب وتسرّجاً إلى

البلاد العربية - بعض نتائجها ٢٣ - ١٧

ب - سيكولوجيا الفن وصلة دراستنا بها : ماهية سيكولوجيا الفن وتميزها عن أنواع الأبحاث الأدبية المختلفة - موضع دراستنا منها ٢٥ - ٢٣

ج - ميزة دراستنا وفرسها : الإفادة من نتائج علم النفس لمحاولة فهم جديد لجبران فيه تمثيل لأحكام نقدية كثيرة مرسلّة في شخصه وإنتاجه ، وتعليل وتأويل لقواميس والمنتقشات والتطورات في إنتاجه وسلوكه ٢٨ - ٢٥

د - خطة الدراسة : (١) اختيارنا المنهج التجريبي وجعل منطلقنا واقع جبران الأدبي الفني - دليل التنقيص هو هيئة الموضوع وتركزه . (٢) قسا الدراسة : التحليل المحوري - أهميته في إيضاح التجربة المبودية والتجربة الألفية صلي ضوء تأثيرات الطفولة . التركيب النفسي - أهميته في إيضاح التطور المرحلي أو ثبات الخط الجبراني الفكري على ضوء الجهد الإرادي والمثل الأمل المنسق والتأثيرات المختلفة الطارئة في أطوار العمر جسيماً ٢٢ - ٢٨

٥ - المختبر الجبراني : المصادر والمستندات الجبرانية المستمدة في هذه الدراسة
(المذكرات والمراسلات والمخطوطات والمؤلفات والرسوم والتسجيلات) . . ٢٤ - ٢٨

القسم الأول : جبران في دراسة تحليلية ٣٩ - ٢٢٢

الفصل الأول : محور معاداة السلطة ٤١ - ١١٤

تمهيد ٤١ - ٤٢

١ - مظاهر الصريحة في إنتاجه :

معاداته السلطة الاجتماعية العامة - معاداته السلطة الأبوية - معاداته سلطة رجال الدين - معاداته سلطة الأغنياء : إبراز حقارة الفني النفسية حيال سمو الفقير الروحي - إشقائه الفني بماله - إشقائه بحبه ٤٢ - ٥١

٢ - محاولة تحليل المحور نفسياً ٥١ - ٨٥
تمهيد : البيئة النفسية وأثرها - طفولة جبران وآثارها الشعرية واللاشعورية ٥١ - ٥٧

أ - الأصل المحوري : الشعور بالثونية ٥٨ - ٦٣

ب - الروايد الطارئة ٦٣ - ٧٢

ج - الأمراض المباشرة للشعور بالثونية في سلوكه : الخجل - الخوف من الأثنياء الكبيرة ٧٢ - ٧٤

د - الأمراض الارتدادية للشعور بالثونية في سلوكه : التمييز النفسي بالثبات الفات : في نزعة طوفانية تكاد تكون عامة - في نزعة استقلالية بالغة - في طلب التفوق الخليلي - في السبل القذابة للفني - في المبالغات والادعاءات - في محاولة إثبات رجولته تجاه المرأة ٧٤ - ٨٥

٣ - محاولة تأويل المحور نفسياً في آثاره ٨٥ - ١٠٧
تمهيد ٨٥ - ٨٦

أ - إثبات الذات في طلب التفوق : في الآداب والفنون العملية - في أدب جبران وروحه ٨٦ - ٩٢

ب - إثبات الذات في معاداة السلطة عبر إنتاجه : في وجهها الاجتماعي العام - في وجهها الأبوي - في وجهها الديني - في وجهها المال ٩٢ - ١٠٧

خاتمة ١٠٧ - ١١٤

الفصل الثاني : محور الأم ١١٥ - ٢٢٢

تمهيد	١١٥
١ - مظهر المحور المبرمج في إنتاجه	١١٥ - ١٢٠
٢ - محاور تحليل المحور نفسياً :	١٢٠ - ١٥٨
أ - الأصل المحوري	١٢١ - ١٢٥
ب - الأم كقوة	١٢٥ - ١٣٧
ج - تعلقه بالأم ومصدر الحب في حياته : تعلقه بالأم وراء سلوكه الجنسي الخامس -	
هـ أمهات جبران : خلا القاصر - سلطنة ثابت - ليلي ميشيل - ملوي حاسك	
- ماري محوري - سي زياته - بربارة بانغ	١٣٧ - ١٥٨
٣ - محاور تأويل المحور نفسياً في إنتاجه	١٥٨ - ٢٢٢
تمهيد	١٥٨ - ١٥٩
أ - الأم المتصاعدة : شخص الأم - صوت الأم	١٥٩ - ١٦٨
ب - المحبة - الأم : الثمرة المبرجة - النصف الآخر	١٦٩ - ١٨٠
ج - الأبدية - الأم	١٨٠ - ١٩٠
د - الطبيعة - الأم : الطبيعة حلة - الأرض - البحر	١٩٠ - ٢٠٣
هـ - الوطن - الأم : أم واقفة وابن غائب - أم طيلة وابن عطف	٢٠٣ - ٢١٨
خاتمة	٢١٨ - ٢١٩

القسم الثاني : جبران في دراسة تركيبة ٢٢٣ - ٤٢٩

تمهيد : غراض أخرى للايضاح في الحب جبران وفنه :	
أ - التطور المرحلي للفكر الجبراني في إنتاجه ، وما ينتج من معتقدات . ب -	
خط الثبات الفكري الجبراني في إنتاجه : لزومه المؤلفات الثبوتية في الأطوار جديماً	
- هيمته وجه قناسري على مختلف المراحل - سيطرة النزعة الإصلاحية الروحية	
وتجديد الأمم والموت على إيداعه كله . أهمية للدراسة التركيبية النفسية في تحليل	
هذه الظواهر وتأويلها	٢٢٥ - ٢٢٧

الفصل الأول : مراحل إنتاجه الثلاث ٢٢٨ - ٢٨٦

أ - الدراسة النفسية التركيبية والترتيب الزمني لتأليف آثاره الأدبية	٢٢٨ - ٢٢٩
ب - مظهر تطور المرحلي الفكري الجبراني :	٢٢٩ - ٢٧٨

١ - مرحلة الحب	٢٢٩ - ٢٤٧
٢ - مرحلة القوة	٢٤٧ - ٢٦٤
٣ - مرحلة المحبة الروحية وتوازن التنقلات	٢٦٤ - ٢٧٢
خاتمة	٢٧٢ - ٢٧٥

الفصل الثاني : محاولة تحليل وتأويل تفسيري للمراحل الثلاث . ٢٨٧ - ٣٥٤

تمهيد : الشخصية والموضوعية الباطنية في تراثها النفسي	٢٨٧ - ٢٩٠
أ - عهد الاضطراب النفسي :	٢٩٠ - ٣٢١
١ - مرحلة الحب	٢٩٠ - ٢٩٥
٢ - مرحلة القوة	٢٩٦ - ٣٠٠
٣ - نداء الطاقات النفسية المظلمة : طاقة القوة في دور الحب - طاقة الحب في دور القوة - طاقة القوة المظلمة في الدورين	٣٠٠ - ٣٠٥
٤ - أعراض الاضطراب النفسي في حياته وإنتاجه	٣٠٥ - ٣٢١
ب - عهد الاتزان النفسي :	٣٢٢ - ٣٥٤
تحقق الذات والسلام النفسي - شروط المساعدة لقيام هذا العهد	٣٢٢ - ٣٢٧
ملكووت السلام والاتزان النفسي	٣٢٨ - ٣٣٧
ميزة هذا العهد : وحدة الشخصية وسلامها - اكتمال المراتب النفسية الثلاث	٣٣٧ - ٣٤٧
خاتمة	٣٤٧ - ٣٤٩

الفصل الثالث : خطُّ البَيَات في المراحل الثلاث : اتِّحاده

المقامي يسوع الناصري	٣٥٥ - ٤٢٣
تمهيد : تحقق الذات والقتل الأمل	٣٥٥ - ٣٥٦
١ - يسوع الناصري يتكون خطاً أمل لخير إن : مساعدة الظروف البيئية الطفولية - موقفه من أمه وأبيه يدفعه إلى الاتحاد الملامي بالناصري - دور الإرادة في هذا التوجه - اهتمام جبرائيل بيسوع : سماتانه ذكرى الصلب - أسلامه من يسوع	٣٥٦ - ٣٦٦
٢ - ميزات يسوع جبرائيل الخاصة :	٣٦٦ - ٣٧٥
الإنسان الكامل	٣٦٧ - ٣٦٨

القوي الجبار	٣٦٨ - ٣٧١
القاهر المبدع	٣٧٢ - ٣٧٥
٣ - مزايها يسوع الدابة وانتمكسها في آثار جبرائيل وسلوكه :	٣٧٥ - ٤٢٣
أ - الاستشهاد : محله الانتماء القلبي بالصلوب فيها إثبات حاجاته النفسية -	
- التأثيرات الصريحة للصلوب في إنتاج - التسويات الرمزية للصلوب في آثاره .	٣٧٥ - ٣٩٧
ب - مزايها يسوع الأسرى : النفسية - الألام المظهر - الإصلاح الروحي - الفزعة	
الانسانية - كفتاح المراتين - القرية الروسية الرسولية .	٢٩٧ - ٤٢٣
خاتمة	٤٢٤ - ٤٢٩
التفاهير	٤٣١ - ٤٩٣
نهرس المصادر والمراجع	٤٢٣ - ٤٤٦
نهرس الرسوم والصور الفوتوغرافية والمنطوقات الصورة	٤٤٧ - ٤٥٣
نهرس الأعلام	٤٥٥ - ٤٦٨
جدول المصطلحات النفسية الواردة في الدراسة	٤٦٩ - ٤٨٨
لوحة ببيان الأهم الوقائع في حياة جبرائيل	٤٨٩ - ٤٩٣

الفصل الثاني

ثماني سنوات استغرقت رحلتي في العالم الجبراني . في أربع تعرفت معاه ، وارتدت جوامع ، وسبرت أسواره ، وقصفت أسرارها ، وفي أربع أخرى تسكت البقي وعرضته على المتفكرين العارفين يختبرون طعمه فأكثفته ، ويقطعون شكله فأعدته ، حتى أصبح الحصيد ، بعد الجهد المديد ، عزيزاً ناضجاً مستجداً اللون ، سبغ اللذائق ، قدمتته ، فخرراً ، على مائدة المعرفة ، وفي ذلك بعض حزائي .

وحدث من رحلتي بيضع غنام : اكتشفت نوعاً جليداً من السفر ، عبرت الكلمات والرسوم ، يجاوز إحصاء العين ووعي الفنان نفسه ليخل في متاهات العقل الباطن ورموزه ، وعبرت شكلاً جليداً من الحياة ، إذ عاينت جيران معايشة استيطانية حتى كأنه تكس في ، فوجدتني ، في نهاية المطاف ، أؤمن بما يؤمن ، وأنظر إلى الكون مركبة وغير مركبة كما ينظر ، وأحاطني من قيود الرب ما كان يحاني ، فأثوق إلى الموت ثوبي إلى ملك حبيب ، وخطبت معرفتك علم النفس ، فووضت صجه ، وقررت بعده ، ووقفت على تفرعاته وتناقضاته ، حتى حدثت في جيني كتاب مستقل هو « مدخل إلى سيكولوجيا الفن » .

وكان عليّ ، وقد اتخذت أدب جبران ورسمه مادةً لدرسي ومُطعماً لبحثي ، أن أحيط بالمخطوطات والرسوم في مُتحفهِ ، فعدّ يدُ المساعدة لي الصديق الحميد الأديب حبيب مسعود إذ كان إرثُ جبران الفني في هُدهدته ، فالتفتُ نحو مئة وعشرين صورة لرسومه ومخطوطاته ، غير أن بعضها لم يُحالفهُ النجاح ، فراجعتُ القيمين على المُتحف بعده ، لإعادة تصويره ، لكنهم أصرّوا على الرفض بحجة اتّخاذ قرارٍ في ذلك ، ولم يتلّوهم عن موقعهم كونُ الغاية إنشاءَ دراسة تُسهم في جلاء النواضير وتقدّم العلم وإذاعة المجد الفني اللبناني ، فاضطّرتُ ، إذ ذاك ، أسفاً معتزلاً ، إلى إثبات الصور كما هي .

ولا يسعني إلاّ توجيه الشكر العميم إلى الدكتور جبّور عبد النور الذي رَوّضَ جموحَ قلبي بحلمه وعلمه ، وطبّعتني على منهجيته ، وأكسبني النظرةَ العادلَ في الأمور وسلامةَ التحريّ للدقائق اللغّة وصحةَ الوقائع ، ورافقتني مراقبةَ الدليل الخبير الأمين في الطريق الوعّث الطويل ، حتى عجتُ من طول أناته وجليل علمه وحميد صفاته . كذلك أوجّه شكرِي الجزيل إلى كلِّ من أثار لي مضامعةً أو أسدى عوناً ، وأخصُّ بالذكر الدكتور ميشال الأار رئيسَ معهد الآداب الشرقيّة والدكتور سعيد البستاني أستاذ الآداب العربيّة في الجامعة اللبنانية ، والدكتور سهيل بشروني رئيسَ دائرة اللغة الإنكليزيّة وآدابها في الجامعة الأميركيّة ، والدكتور منير شمعون رئيسَ قسم علم النفس في المعهد الفرنسي العالي للآداب في بيروت .

أخيراً ، سهيلاً لتيسير الرّسْمِ ، أُنثتُ نظر القارئ الكريم إلى أنني أدرجتُ في نهاية قسم القهارس لوحةً يابيّة لأهمّ الوقائع في حياة جبران ، راجعاً العودة إليها كلما اقتضى الأمر .

فلزي براكس

توطئة

مَجَرُّ الدِّراسة :

ما برح جبران أحد أقطاب الحداثة في اهتمامات الأدب العربي الحديث^(١) ، وما زالت دائرة قراءته ، في العربية والإنكليزية ، تزداد اندياحاً^(٢) . وفصلاً عما حققه إنتاجه من حضور دائم ، صريح أو خفي ، في النشاط الأدبي المعاصر ، فإن شخصيته الفذة نفسها غدت مثار اهتمام جديد ، إثر اكتشاف مذكرات ماري هاسكل (١٨٧٣ - ١٩٦٤) ومجموعة الرسائل الضخمة التي تبادلها^(٣) . هذا التصاعد الجبراني دعانا إلى الاضطلاع بدراسة مميزة تستم ما وضعه السابقون .

ما كُتِبَ في جبران تنوّعه ثلاثة أنواع : نوعٌ تختلط فيه الحقائق

(١) يشهد على ذلك مهرجان جبران العالمي الذي أقيم في بيروت من ٢٢ - ٣٠ أيار ١٩٧٠ . فقد أسهم في إلقاء محاضراته نخبة من أدياء العالم ، وصعدت ، بمناسبه ، عدة مصنفات حول جبران .

(٢) تجاوز مبيع « النبي » في طبعه الأميركية ، ربع مليون نسخة سنوياً ، منذ ١٩٦٥ ؛ طمأن بأن ما بيع من نسخته ، منذ صدوره ، تقصى المليونين (Times, 13 August, 1965) .

(٣) لودعت هذه المذكرات والرسائل مكتبة جامعة نورث كارولينا في أمريكا . ويرد فصل كشفها لقراء العربية إلى توفيق صايغ ، عام ١٩٦٦ .

بالأوهام ، وينساق صاحبه في أسلوب روائي ، فإما أن يجمع به انفعال المناصرة والإيمان حتى التخيّل المحموم والتصديق الأعمى ، كما الحال في مصنف برباره ياتغ ^(١) ، وإما أن يستهويه عرض الذات ، فيصبح الراوي بطل الرواية ، وكان المثافة استغوته فاستبد به نزو غي إلى فضح المثالب متكرراً بالحرص على الواقع ، وحدته رغبة مستورة في رفع الحالة عن رأس جبران ليحيط بها رأسه ، كما الحال في كتاب ميخائيل نعيمة ، حسبما ذهب نقاده ^(٢) ، وإما أن يسربل صاحبه بالرصانة ، مدافعاً عن الفضيلة ، فإذا تحت ثوبه ميل لتجني على صاحب النبي : « بتلك الكرامة الروحية التي جعلت شخصه ، وقلقه بفساد النية لتهديم الأخلاق والأديان ، كما الحال في محاولات أمين خالده ^(٣) . ونوع ثان يحاول التوفيق بين التقيضين وتحاشي أخطاء الطرفين ، فينتج تارة ، ويفشل طوراً ، لعدم التزام التحري الدقيق ، ولازلاقه »

BARBARA YOUNG, *This man from Lebanon: A study of Khalil Gibran*, (١) New York, A.A. Knopf, 1945.

وليس في نقد مصنف ياتغ : K. HAWI, K. Gibran, p. 77-80 وكذلك : أنطون كرم -

محاضرات في جبران خليل جبران ، ص ٦

(٢) جبران خليل جبران : حياته ، موته ، أدبه ، فنه ، بيروت ، دار صادر ودار بيروت ، الطبعة الأولى ١٩٣٤ . مجلة النقاد على نعيمة كانت شديدة ، ويمكن تبين بعض معالمها في المصادر الآتية : توفيق صايغ - أضواء جديدة على جبران ، ص ١٣ و ٢٤ - ٢٧ و حول طلاقة جبران بنعيمة ص ١٩٠ - ١٩١ ؛ فليكس فارس - رسالة المنبر إلى الشرق العربي (١٠ يناير ١٩٣٦) ص ١٥٣ - ٢٢٥ ؛ عيسى الناعوري - مجلة الرسالة (جوني ٤/٢ ص ٦٢ - ٦٣ ؛ الحكمة ٤/٦ ص ٣٣ - ٣٤ ؛ الأديب ١٠/١٥ ص ١٢ و ١٥ ؛ خليل هنداري - مجلة الرسالة (حز) ، ١٩٣٥ ، ص ٢٣٨ ، ٢٧٩ ، ٥٥٩ ، ٥٦٩ ؛ حسن كامل الصيرفي - المقطع ج ٨٦ ، عدد ٢ ص ٢٤٢ ؛ إيليا أبو ماضي - السمر ١٩٣٥ ، عدد ١٨ ص ١٨ - ٢١ ؛ عبد المسيح حداد - النصب الأندلسية ١٩٤٨ ، عدد ٩ ص ٤٤٢ ؛ شكر الله البحر - الأندلس الجديدة ١٩٣٥ ، شباط ، ص ٢٨ ؛ أنطون كرم - محاضرات في جبران خليل جبران ، ص ٦ - ٧ ؛ طسي زكا - بين نعيمة وجبران ، وخاصة الفصل الثالث ، ص ١٤١ - ١٤١ ؛ كندي فرحود كندي - ميخائيل نعيمة بين قارئه وطارفيه ، ص ١٥٢ - ١١٨٢ K. HAWI, K. Gibran, p. 73-77 .

(٣) محاولات في درس جبران ، بيروت ، الطبعة الكاثوليكية ، ١٩٣٣ .

أحياناً ، في ما زل " به المختصون ، ومثاله مُصَنَّف جميل جبر ^(١) ، وكتابات أنثي أوتو ^(٢) ، ومؤلف حذقان سكبك ^(٣) . ونوع " ثالث استقام فيه التحقّق ، واعتدل البحث متبّعاً منهجيةً علميّة ، قلّل الخطأ ، وتدرّج الشكّط ، كما الحال في دراسة خليل حاوي ^(٤) ، ومباحث أنطون كرم ^(٥) ، وكتاب روز غريب ^(٦) . ولا نجد لزماً علينا أن تفصّل النقد لهذه المؤلفات الرئيسة أو لسائر ما كُتِبَ في جبران ^(٧) ، فلذلك لا يتنمّ دراستنا ، ويته عن غرضها ، فجعل مُستفاداً منها بعضٌ من وقائع الحياة المحقّقة نلعم إليه حيثما يجب .

والأبحاث التي تناولت أدب جبران كادت تستند ، في مجموعها ، استعراض معانيه الظاهرة وقيمه الإصلاحية وصيغه الفنية ، وتحليل عوامله التاريخية والاجتماعية والثقافية ؛ لكنها لم تبلغ الناية في فسر " لفر شخصيته وتحليل تطوّراتها ، وتحليل متناقضاتها ، واقتحام هيكل الأسرار في أدبه وخاصة في فنّه ؛ ذلك بأنّ الدارسين لم يُعيدوا من المكاسب التي حققتها الأبحاث الأدبية

(١) جبران : سيرته ، أدبه ، فلسفته وروسه ، بيروت ، دار الريّاني ، ١٩٥٨ .

(٢) ANNIE SALEM OTTO, The Parables of K. Gibran, N.Y., The Cit. Press, 1963 — The Art of K. Gibran, Port Arthur, Texas, Hinds Printing Co. 1965.

(٣) الزّعة الانسانية عند جبران ، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ، ١٩٧٠ . وهذا المصنّف رسالة جامعية ، لكن صاحبه ، على محالوت أن يلتزم فيه نهجاً علمياً ، لم يستفد من الأبحاث الرصينة الأخيرة التي وضعت في جبران ، قبله ، وخصوصاً الرسائل المتبادلة بين جبران وحاسكل .

(٤) KHALIL S. HAWI, Khalil Gibran, His Background, Character and Works, Beirut, A.U.B., 1963.

(٥) محاضرات في جبران خليل جبران : سيرته وتكوينه الثقافي ، مؤلفاته العربية ، القاهرة ، معهد الدراسات العربية العالية ، ١٩٦٨ .

(٦) جبران في آثاره الكتابية ، بيروت ، دار المكشوف ، ١٩٦٩ .

(٧) انظر تفصلاً هذه الدراسات في " جبران خليل جبران : مختارات ودراسات " لسهيل بمروقي ، ص ١٢٩ - ١٤٨ من القسم العربي ، وص ١٦٢ - ١٦٥ من القسم الانكليزي .

في سيكولوجيا الفن" (١) ، فظل "إلم" من آرائهم ونغمياتهم حول سلوكه وإبداعه الفني على حيز أو تباين أو تضارب . وهذا يرسم الخط المميز بيننا وبين السابقين ، فقد اغتصوا لهم نهجاً قديماً أدبياً تاريخياً ، والترمنا نهجاً يستفيد من نتائج الأبحاث النفسية . ولنا ندهي أننا نقدم دراسة سيكولوجية بالمعنى العيادي ، فلذلك يخرج عن اختصاصنا ، إنما هي محاولة تحليلية تأويلية لإضاءة ما كان متحياً في فهم أدب جبران ورسمه وشخصيته .

إن دراسة الأدب والفن على ضوء علم النفس أصبحت منهجاً مألوفاً لدى الباحثين الغربيين ، وبدأت تثق طريقها في المباحث النفسية المربية ، فلنا أول من يقوم بها . فقد وضعت في الغرب عشرات الدراسات السيكولوجية المعتمدة شق المذاهب النفسية ، ولا سيما منحى التحليل النفسي الذي وضع أسسه سيغموند فرويد (١٨٥٦ - ١٩٣٩) ومنحى علم النفس التحليلي الذي أرسى قواعده كارل يونغ (١٨٧٥ - ١٩٦١) . (٢) أما في اللغة العربية فقد

- (١) باستثناء محاولة فلسفية وجيزة لسان خاله نشرت في مجلة "للقضايا المعاصرة" ، بيروت ، ج ٤ ، ١٤ ، تموز ١٩٧٠ . وقد اطلعتنا ، مؤخرًا ، وبعد إجتاز دوامتنا ، حل رسالة ضرورية حل الآلة الكاتبة تقدمها الآنسة ناهدة الطويل إل قسم علم النفس في الجامعة اللبنانية بعنوان " شخصية جبران خليل جبران - دراسة نفسانية " ، فلذا بها لا تصدى المنة صفحة ، وتقتصر على دراسة شخصية جبران دون أدبه ورسمه ، ويطلق عليها التحليل الفرويدي . وقد سبق للآنسة المذكورة أن اتصلت بنا قبل إصدار رسالتها فأطلعتنا على بعض أفكارنا .
- (٢) من المناسي السيكولوجية المطبقة على دراسات الفن ، يجدر بالذكر ، أيضاً : المنحى الاستيعاني وزهلاء فيشر (١٨٠٧ - ١٨٨٧) ، ولويس (١٨٥١ - ١٩١٤) ، وفولكلت (١٨٨٤ - ١٩٣٠) ، وفروس (١٨٦١ - ١٩٤٦) ، وسومان (١٨٦٢ - ١٩١٥) ، وشيلر (١٨٧٤ - ١٩٢٨) ، وباش (١٨٦٣ - ١٩٤٤) ، والمنحى التجريبي ووالده فستر (١٨٠١ - ١٨٨٧) ، وفوتس ، والمنحى الفينومينولوجي وأعلامه غايغر (١٨٨٠ - ١٩٣٨) وهارتمان (١٨٨٢ - ١٩٥٠) ، ودورفون ، ومنحى النقد التحليل النفسي كالي وضع أسسه باللاز . ومن أراد التسق في هذه المناسي فليراجع المصادر الآتية :

F.T. VISCHER, Aesthetik oder Wissenschaft des Schönen; TH. LIPPS, Aesthetik, Psychologie des Schönen und der Kunst; J. VOLKELT, System der Aesthetik; K. GROOS, Der ästhetische Genuss; — Beiträge zur Aesthetik.

سبقتنا عدة محاولات . ولعلَّ الفضل الأوَّل في إبراز الاتصال الوثيق بين الأدب وعلم النفس ، بصورة واضحة ، يعود إلى أمين الخولي في مقالته حول «البلاغة وعلم النفس» (١٩٣٩) ^(١) ، و«علم النفس الأدبي» (١٩٤٥) ^(٢) .
وبعد أصدر محمد خلف الله أحمد كتابه «من الوجهة النفسية في دراسة الأدب ونقد» (١٩٤٧) الذي يعدُّ أول محاولة عربية لدراسة الصلة بين الأدب وعلم النفس على أسس موضوعية ، ثم أصدر حامد عبد القادر «دراسات في علم النفس الأدبي» (١٩٤٩) ، ومحمد النويحي «ثقافة الناقد الأدبي» (١٩٤٩) ، و«نفسية بشر» (١٩٥١) ، و«نفسية أبي نواس» (١٩٥٣) ، كذلك أصدر مصطفى سويف «الأسس النفسية للإبداع الفني في الشعر خاصة» (١٩٥١) ، وعز الدين اسماعيل «التفسير النفسي للأدب» (١٩٦٣) ^(٣) .

stik; E. MEUMANN, Einführung in die Aesthetik der Gegenwart; — System der Aesthetik; MAX SCHELER, Wesen und Formen der Sympathie; V. BASCH, Essai critique sur l'esthétique de Kant; — La poétique de Schiller; — Titien; — Schumann; — Etudes d'esthétique dramatique. G. FECHNER, Zur experimentale Aesthetik, I II; W. WUNDT, Grundzüge der physiologischen Psychologie. M. GEIGER, Ueber das Wesen und die Bedeutung der Einfühlung; — Beiträge zur Phänomenologie des Ästhetischen Genusses; — Zugänge zur Aesthetik; N. HARTMANN, Zur Grundlegung der Ontologie; — Der Aufbau der realen Welt; — Aesthetik; M. DUFRENNE, Phénoménologie de l'expérience esthétique, I : l'objet esthétique, II : la perception esthétique. G. BACHELARD, Formation de l'esprit scientifique; — Lautréamont; — La Psychanalyse du feu; — L'eau et les rêves; — L'air et les songes; — La terre et les rêveries de la volonté; — La terre et les rêveries du repos; — La poétique de l'espace; — La poétique de la rêverie; — La flamme d'une chandelle.

(١) مجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة ، ج ٤ م ٢ ، ص ١٢٥ - ١٦٨ .

(٢) مجلة علم النفس ، ١ م ، ص ٣٩ - ٥١ .

(٣) لعلَّ أول الإشارات النفسية في الدراسة العربية وودت في أبحاث طه حسين سنة ١٩١٨ حول «حياة الآداب» (الجريدة - يناير ١٥ ، ١٩ ، ٢١ ، ٢٦ ، ٢٩ ، وفبراير ٣ ، ٧ ، ٢٨ ، ومارس ٨) . وتلتها مباحث مبكرة لبناش محمود العقاد حول ابن الرومي وأبي نواس . لكن هذه المحاولات لم تكن قد ظهرت فيها أية معالم نهج نفسي حزين ، باستثناء دراسة «أبي نواس» التي سلطت فيها شخصية الشاعر على ضوء «ترجيبة» شاذة .

فالصنيع الفني، على كونه عملية إبداعية قائمة بذاتها تضبطها قوانين فنية مستقلة، يبقى على صلة وثيقة بقوى الفنان الواحية واللاواعية، من حيث إنه نشاط إنساني راقٍ ينجم عن عوامل نفسية، وتشدُّه إلى صاحبه الأواصر حينها التي تشدُّ الولد إلى أمه، إذ هو في باطن مُبدعه يُصور، وفيه يبتدئ وينضج. وإنها لحقيقة ثابتة وعاما الفنان أم جهلها^(١). كذلك لا بُدَّ للصنيع الفني من أن يزأج وجهه الاجتماعي وجهه سيكولوجي شخصي بصورة دائمة. فالجانب «علم الاجتماع الاستطقي» قدَّم شارل لالو «السيكولوجيا الاستطقية»؛ يشهد على ذلك نسقٌ طويلٌ من الدراسات النفسية حول مفهومه الحيوي للفن^(٢). ولتين كانت شخصية الفنان أشبه بالنافذة يُطلُّ منها على منظر الفن، أفيمكن تجاهل تأثير وضع النافذة واتجاهها ومدى ضيقها أو اتساعها على الرؤية نفسها! والفنان الحق، إن اختار أشياء من العالم، فما انتقلت على أناه، فلم أكثر شيئاً دون آخر؟ وإذا كانت الموضوعات والأشكال مفروضة عليه أكثر مما هي معروضة لانتقائه، أفليس للتجارب الفكرية والوجدانية والحركات الخيالية أبعاداً وجذورٌ مختلفة اختلاف أصحابها؟ وقدرة التلقُّط عينها ألا تحمل معياراً أولوفاً ذاتيين؟ وإن كانت مهمة الفنان ابتكار عالمٍ خيالي، فما علته تباين مباني هذا العالم، حتى في البيئة الواحدة والعصر الواحد والثقافة الواحدة، إذ فيها المحافي والسقيم، والمُعقَّد والبسيط، والآمين والمضطرب! فالفن الذي يبدو الأبد عن الذاتية، في ظاهره، يبقى متسماً بطابع شخصي. وليست الذات السطحية وحدها هي ما يُفصح الفنان عنه؛ فالصنيع الفني يُعبّر، بالدرجة الأولى، عن الأنا الخفي العميق، الأنا اللاشعوري، المتكوّن من مجموعة دوافع وصور

C.G. JUNG, Problèmes de l'âme moderne, p. 345; l'âme et la vie, p. 273. (١)

CH. LALO, L'expression de la vie dans l'art, 1933; — L'art loin de la vie, 1939; — L'art près de la vie, 1942; — Les grandes évanescences esthétiques, 1947; — L'économie des passions, 1947. (٢)

وقوى مُعْتَمَةٌ تَفَلَّتْ مِنَّا وَتَجَرَدْنَا بِغَيْرِ وَحْيِنَا . وَلَيْسَ نَادِرًا أَنْ يَشْعُرَ الْأَدِيبُ
أَوْ الْفَنَانُ أَنَّهُ بِقَدْرِ مَا يَخْلُقُ صَنِيعَهُ يَكْشِفُ نَفْسَهُ ، فَكَأَنَّهُ يَسْتَرِعُ ، شَيْئًا
فَشِئًا إِلَى ضَوْءِ النَّهَارِ ، نَتَقًا مِنْ ذَاتِهِ الْمَجْهُولَةِ ^(١) .

سيكولوجيا الفن وسيلة دراستها :

إن تكن هذه الدراسة تمت إلى الأبحاث الأدبية بوشائج ، منها العناية
بقصص سيرة الأديب واستكشاف معاني أدبه وتحليلها ، فهي تعدّها لتوثق
بعض صلاتها بسيكولوجيا الفن إذ تُعْنَى بدرس الظواهر النفسية الشعورية
واللاشعورية المتعلقة بإبداع الصنيع الفني وبمخاض صاحبه . وسيكولوجيا الفن
تتميّز عن « علم الجمال » أو « الإستطيقا » بمكانها الحصريّ والتي غرضها
الأحكام القيسية لدى تطبيقها على التمييز بين القبح والجمال ^(٢) . ففي حين
أن دراسة الفن السيكلوجية تناول الكيانات النفسية ، لا يُعْنَى « علم
الجمال » بالمتنوّق وبالفنان وآثاره إلاّ كصدر للتقويم أو ك موضوع له . فالإستطيقا
بهذا المعنى المحدود هي « علم مقياري » قد يُعَدُّ ثالث المنطق والخلقيّات في
الثالوث الذي غرض أحكامه الحقّ والخير والجمال ، كما تتميّز عن « فلسفة
الفن » بأنّ هذه الأخيرة تعني « كلّ تأمل فلسفيّ في الفن » وبالتالي تدع موضوع
تأملاتها بكيانه الراهن وخصوصاً بأسسه السيكلوجية ، دون متناولها المباشر .
ف« فلسفة الفن » ، بهذا المعنى ، هي « فلسفة خاصّة » ، مثل فلسفة التاريخ أو فلسفة
الدين اللتين لا تتحدّثان عن التاريخ الفرديّ أو الدين الشخصي إلاّ عرضاً ،
في حين أنّ سيكولوجيا الفن تتمركز في الذاتي والمعنويّ الحيّ ^(٣) .

J. BERTHELEMY, *Traité d'Esthétique* (1re partie : Psychologie de l'art), (١)
p. 60.

A. LALANDE, *Vocabulaire technique et critique de la philosophie*, art
Esthétique, p. 302.

J. - P. WEBER, *La Psychologie de l'Art*, p. 1-2. (٢)

كذلك تميّز عن « علم الفن » الذي ينطوي على عرض القواعد الأساسية للإنتاج الفني المتغيرة بتغير العصور والحضارات ، او على مباحث نظرية هي للفن بمثابة المساحة الهندسة ، والطب الفيزيولوجيا ، وعمل المهندس للفيزياء والكيمياء ^(١) . وفي الحالتين بإمكان علم الفن أن يهمل شخص الفنان او المتفوق ، في حين أن استجابات الأخيرين هي ما يعني سيكولوجيا الفن بالدرجة الأولى ^(٢) . وتتميز ، أخيراً ، عن « الدراسة النقدية » التي تعتمد ، في فحصها الآثار الفنية ، مبادئ موضوعية أو ذاتية مستمدة من مذهب استيطقي معين ^(٣) .

وإذا تعدّر دمج سيكولوجيا الفن كلياً بأحد ضروب المباحث التي ذكرنا ، فهي تطابق كسلاً منها ، جزئياً ، بحيث يكفي أن نخفل الكلام على الماهيات وموضوعية القيم حتى تصبح الاستيطقا مندرجة في سيكولوجيا الفن . وحسبنا أن نوجه التفكير الفلسفي شطر التأمل الباطني أو الخلدس حتى تربط سيكولوجيا الفن وفلسفته وشائعه وثيقة . ويكفي ألا نرسل النظر في تقنيات الفن وطرائقه بمزول عن استجابات المتفوق ، وأن نسمي إلى كشف «السوائد» ^(٤)

(١) E. SOURIAU, L'Avenir de l'Esthétique, p. 74.

(٢) J. - P. WEBER, La Psychologie de l'Art, p. 2.

من ذهبوا إلى فصل « علم الفن العام » عن الاستيطقا الألماني أوتيز EMILE UTITZ (١٨٨٢ - ١٩٥٦) الذي وضع مصنفاً بعنوان « أساس علم الفن العام » (١٩١٤ - ١٩٢٠) Grundlegung der allgemeinen Kunstwissenschaft وفيه يبيّن أنه إلى جنب «الاستيطقا» التي تدرس طبيعة الوقائع وقيمتها ، ثمة مكان لمعلم الفن الذي يتناول قوانين الفن ويساعدنا على تفهم الصنيع الفني من الناحية التاريخية والقيمة . وقد ذهب شبه هذا المذهب وريثه WORRINGER (مولود سنة ١٨٨١) ودسوار MAX DESOIR (١٨٦٧-١٩١٧) الذي يرى أن علم الفن العام يدرس القيم الإنسانية والدينية والوطنية والعلمية الكبرى التي في مهمة الفن الأساسية للتعبير عنها .

(٣) J. - P. WEBER, La Psychologie de l'Art, p. 2.

(٤) ارتأينا وضع كلمة « سوائد » ترجمة لعبارة dominantes وهي مجموع الصفات والشروط العامة والشكلية التي يقتضيها صنيع فني ما ، ومن دونها لا يحقق وجوده ، وهي تختلف باختلاف الفنون (ibid., p. 102) .

الصريحة لمختلف الفنون ، على السطح وفي أعماق التأمل الاستطيفي ، حتى يغدو « علم الفن » فرعاً أو قطاعاً من سيكولوجيا الفن بل من التحليل النفسي للفن . وأخيراً إن الدراسة النقدية ، من غير أن تختلط بأي اختلاط بسيكولوجيا الفن ، ليست أقلّ تأميمًا لها ، لأن الناقد هو مُتَدَوِّقٌ محترف منوط ، بصفته هذه ، بالدراسة السيكلوجية ، ومُسَهِّمٌ ، في الآن نفسه ، بإبداعاتها ، وهكذا تقع سيكولوجيا الفن ، مع احتفاظها بكيانها وملاعها الخاصة ، في خطّ نسقٍ من النظريات والمناهج المعنية بالصنع الفني . فهي أشبه بلوحة دَوَّارةٍ ينعكس عليها مجموع خطوط القوى التي تحتاز ميدان الفنون الجميلة ، ومن هنا خطَرُ شأنها للفيلسوف والسيكولوجي والفنان نفسه .^(١)

على هذا الضوء ، يفتتح ليضاح أن دراستنا لا تتخذ موضعها بين الدراسات السيكلوجية الصرفة ، فهي دراسة أدبية ، أصلاً ، توكت على بعض المبادئ النفسية محاولة فهم جبران على أضواء جديدة لم تسلك عليه من قبل . ولذلك فهي لا تلتزم مذهباً نفسياً مُعَبَّئاً ، سواء أكان منحي التحليل النفسي الفرويدى أو منحي علم النفس التحليلي اليوناني ، أو سواهما من المناحي ؛ ذلك بأن غايتها ليست تبرير نظرية سيكلوجية ، أو اختبار مدى نجاحها في التطبيق ، أو معالجة أمراض نفسية ، بل محاولة فهم ظواهرات تخللت إنتاج جبران وسلوكه وبقيت مستغلقة في الدراسات الأدبية النقدية العادية ، ولم تتناولها الأبحاث النفسية العربية . وهذه الغاية هي التي حددت ميزة دراستنا وغرضها .

ميزة دراستنا وغرضها :

إن اعتمادنا القواعد النفسية أتاح لنا ، من جهة ، أن نفهم جبران فهماً جديداً فنعدُّه الكثير من الأحكام النقدية المُرسَّكة في شخصه وإنتاجه ، ومن جهة أخرى ، أن نَقْدِمَ تحليلاً وتأويلاً للفرواض والتناقضات والتطورات في آثاره وسلوكه . فالدارسون لم يصيبوا في جعلهم أدبه صورة مطابقة لحياته ،

(١) Ibid., p. 3 - 4.

دائماً . فليس للفن وظيفة تصوير الحياة وتكثيفها فحسب ، بل له أيضاً عدة وظائف سيكولوجية أخرى . منها أن يكون علاجاً نفسياً فيه تمريض أو عزاء عن الواقع ، أو إكمال له أو فرار منه . فالآخرون بالحكم القائل « الفن صورة الفنان » ، أو « كما الأثر هكذا الإنسان » ، لا يسمّهم إلا أن يستهجنوا كل صنيع ففي مبادئ حياة صاحبه بمعناها العملي . لكن استنكارهم غير مبنّي على أية قاعدة صحيحة . فهذا الحكم النقدي الشائع قائم على خطأ مرده إلى النظرة التي كانت تجعل طاقة الإنسان النفسية قوةً موحدةً يستحيل تجزؤها ويتجه نشاطها اتجاهاً معيناً واحداً . فقد أظهرت دراسات الشخصية أن الإنسان مجموع من الوحدات النفسية المتنوعة في قواها واتجاهاتها ضمن وحدة الشخصية الكبرى ^(١) ، وأن بعضه في صراع دائم مع بعضه ^(٢) ، وإذا كان كيانه في قدراته ورغباته وأفكاره وأفعاله الإرادية الواعية ، فهو ، أيضاً ، في « طبيعته » ^(٣) وعجزه وخاوفه ودوافعه اللاواعية . ولهذا السبب ، كثيراً ما يضع الفنان في آثاره لا ما هو عليه حقيقةً ، بل ما يظن أنه هو ، أو ما يريد أن يصبح ، أو ما يعجز عن أن يكونه ، أو ما يخاف أن يصير إليه . وفي جميع هذه الأحوال السيكولوجية يجب أن يُقال : « الصنيع ليس كالإنسان » ^(٤) ، إذا قصد بالإنسان تحقيقه الإرادي المباشر .

كلّ ذلك لم يُصب الدارسون في تضخيم أثر البيئة العامة في تكوين شخصية جبران وصنائه ، إذ إن المحيط الفاعل في الإنسان وإنتاجه إنما هو مجاله النفسي ، ذلك بأن بيئة المرء الحقيقية لا يدخل فيها إلا ما له تأثير في خبرات الفرد الشخصية ^(٥) . ولا شك في أن للعوامل الثقافية دوراً جليلاً في تكوين

(١) R. CATTELL, La Personnalité, t. II, p. 919.

(٢) التحليل النفسي ، في جميع وجوهه ، يقوم على إثبات هذه الحقيقة .

(٣) أراءنا كلمة طيف ترجمتها لكلمة « Ombre » التي دلها يونغ على القسم الساي من الشخصية .

(٤) CH. LALO, Notions d'Esthétique, p. 34.

(٥) انظر D. HUISMAN, Encyclopédie de la psychologie, p. 30 - 31. كذلك جيلفورد

- مبادئ علم النفس ، مجلد ٢ ، ص ٥٢٩ .

شخصية جبران وتوجيه أفكاره . فالتقليد الأدبي المسيحي وكتابات فرنسيس
مراش الحلبي (١٨٢٦ - ١٨٧٣) ، ثم فرومبته كان لها آثارها في أسلوبه ،
ولا سيما في طوره الأول ، ورموز بلايك (١٧٥٧-١٨٢٧) تطلعت أشباحها
في عدد من رؤاه ورسومه ، كذلك آراء دارون (١٨٠٩ - ١٨٨٢) ونيتشه
(١٨٤٤ - ١٩٠٠) وريتان (١٨٢٣ - ١٨٩٢) مدته بإجماعات جمّة ،
والمعتقدات الدينية الهنكية وآراء إمرسون (١٨٠٣ - ١٨٨٢) وثورزو (١٨١٧ -
١٨٦٢) في الروحانية والحرية والحياة الطبيعية تركت شيئاً من سماتها في
نظراته . وقد عالج أثر هذه العوامل الثقافية في جبران معالجة سريعة أو
مستفيضة كثير ومن الباحثين ، حريّ بالذكر منهم كرم وحايي وغريب
وجبر وسكيك . لكنّ اعتمادنا المبادئ النفسية أظهر أنّ البيئة الثقافية ، كاليئات
الأخرى ، لا تشكل سوى الإطار العامّ والمادة الخام التي ستعالجها وتكيّفها
طاقات جبران النفسية . وهذه الطريقة الجديدة ، قد تستطيع دراستنا أن تفسّر
مفصلات وافرة كانت ما تزال قائمة في أدبه وقتّه وشخصه ، على كثرة الأبحاث
التي تناولته .

فما سرّ اتصال جبران من التفني بالحبّ والجمال إلى الاشارة بالقوّة والتمرد
قال تمجيد المحبة الإنسانية الشاملة ؟ إنّ دراسي جبران السابقين كادوا
يحصرون على مرحلته الأولى بفقره وفجيته بلويه ، وعلة المرحلة الثانية بتأثره
بفلسفة نيتشه ، وعلة المرحلة الثالثة بيسار حاله ونجاح أدبه ، وقد يزيدون عليهما
فرضه التمكري . غير أنّ محاولة الاستفادة من المكاسب السيكولوجية أعضاء
سبيل التخلّل في أعماق نفسيّته ، فانتكشت أسرار تلك التحولات وعواملها
المختلفة ، وانجذبت أعراضها ونتائجها في حياته وأكاره .

وعلى التطوّر الذي أصاب جبران ، ومن جرّاته اخضت أعراض لتظهر
أخرى ، بقيت عدّة ظاهرات ملازمة إنتاجه ومواظته ، من البداية حتى
النهاية ، كحمية الألم والموت والحرية والإصلاح ، وظلّ وجهان مشرقين في
أدبه ورسومه : وجه الأمّ ووجه الناصري ، واستمرّ الأسلوب الفنوي مراقفاً

له ، على تغيير نبراته وأعماقه . فقد أناحت الاستماعة بالأبحاث النفسية تعليلاً وتأويلاً جليدين هذه الظواهر ، وبيّنت أن حملته على رجال الدين والحكم ، وعلى الأغنياء ، لم تكن لمجرد النور وشهوة العظمة ، وأن طلبه الموت لنفسه ولإبطاله لم يكن ناجماً عن موقف إنزامي منه أمام محضلات الحياة ، وأن تغلبه بالطبيعة وبالحرية والألم لم يكن شعوراً رومنتياً فحسب .

لقد كشفت هذه الدراسة عن أن ما يميز جبران ويبرز فلوذيته ، حقاً ، هو تكوين "نفسى" ، إن شككت مادته الخلق حوامل البيئة بمختلف وجوهها الطبيعية والاقتصادية والسياسية والاجتماعية والثقافية ، وبمفهومها البيكولوجي كوسط ذاتي ، فإن قلبه النهائي تضارعت على صياغته طائفة نفسية محورية متأصلة جذورها في طفولة الرواية واللاواعية ، وجهود إرادي مسوق بمشكل أعلى معين . بهذا الضوء تيسر الكشف عن سرّ البدلات والمقارقات والممسيكات في حياته وإنتاجه ، وعن كيفية التوصل والتكامل بين سلوكه وأدبه ورسمه ؛ علماً بأن تأثير العوامل النفسية لا يقتصر على المضمون الفكري فقط ، بل يطل الخيال في توجهاته وتفتححات صورته ، والمعبارة في رموزها وتلوّنها ، وهذه عناصر لا يستغني عنها متفوق الفن . والتلوّيق إن لم يستطع النفاذ إلى الحقيقة الموضوعية النفسية في كل صنيع فني يبقى مجرد المكاس للذاتية المدارس المتأمل وأزماته الباطنية ، جيداً عن واقع الفن المدروس . وكما حدثت غائتنا من البحث ميزة هذه الدراسة وحرصها ، فإنها أمّلت علينا أيضاً غطتها .

خُطّة الدراسة :

أن يكون الخُطّة الدراسية شأن جليل ، ذلك لا ريب فيه . فهي تصل بناء الباحث الذهني والنفساني بما يباله ، فيكون أثرها بالغاً في فهم الوقائع وصحة تفسيرها وتعليلها . ويقدّر ما تكون الخُطّة سليمة وعامة ، نهجاً ونظرة ، تكون نتائج البحث أقرب إلى الصحة وأدعى إلى الاطمئنان . وقد

أصبح واضحاً أن "نهج التجريبي" هو غير ما يُحمد في البحوث العلمية حتى النسبة منها ، ولذا التزامه فجعلنا واقع جبران الأدبي الفني أشبه بمختبر لدينا ، ننتقل منه إلى ما يوازيه من واقع الحياة . ولكي نهج الدرب الآمن أكثرنا منزع النظريات النسبة قوة التفسير والتأييد لما هو حاصل . من غير أن تفرضها فرضاً مسبقاً على منهجنا ، خوفاً من أن نُساق إلى تسخير البحث لما فيصبح مجرد وسيلة لتبريرها وتأكيدنا ، فتأتي النتائج اعتبارية نصتية .

وإذْ خُدا من سُنن علم النفس النظر إلى الحياة الباطنية كوحدة دينامية تكاملية تطوي على ظاهرات سيكولوجية يتمدّد فهمها إلا على ضوء الكل ، واعتبار الانتاج الفني امتداداً سلوكياً معقداً وراقياً لحياة الفنان ، بحيث يكون للمصير الإبداعي والمصير الحيائي تليل واحد ، فقد توجب علينا ، وفاءً لخطتنا التجريبية ، أن نبحث في إنتاج جبران عن البؤر الفكرية الوجدانية التي تستطبع المعاني والمصور والرموز في صناعته الأدبية والفنية عماها تكون الدليل إلى نفس الفنّان الجبراني . وسيلنا إلى اكتشاف هذه البؤر هو هيمنة العناصر الموضوعية والتعبيرية في أدبه ورسمه . ذلك بأنّ هذه الهيمنة بما تحمل من تكرار وتركيز نصيين . لا بدّ من أن يكون وراءها حركة باطنية معينة تفتح فكراً وعاطفة وغياًلاً . وبعد التمهّص والتتبيب ، اتضح لنا ستّ بؤر مركزية فكرية وجدانية هي أشبه بأقطاب جاذبية تدور في أفلاكها جُلّ الخواطر والشواهر والأخيلة ، وهي : **عبادة السلطة والسطوة واللام والاهتمام بالناصري ، والفني بالحبّ ثمّ تمجيد القوة والكراسة بالحببة الشماعة ، ومظاهرها تنبسط في إنتاجه على تنوع في الأهمية والتفاعلية وامتداد الأثر . فكان لا بدّ من اعتماد خطة دراسية منهجية تبيح تليلاً واضحاً وتأويلاً وافياً لهذه المظاهر الحيوية سواء أبرزت مباشرة وفي جلاء تام ، أم مدكورة عبر نحوجات وهزجة ^(١) .**

(١) نهي (بالصورجات الرمزية) : الصلوات ، الر ، القديسات ، الموضوعية التي تحمل حلولاً ومزجاً دينامياً لا شعورياً على الموضوع المركزي الأسيل .

ولما تأكد لدينا ، بالتحقيق التجريبي ، أن معاداة السلطة والتعلم بالأم ، دون باقي الظواهرات ، ينسبط فعلئها ، أنفياً ، على حياة جبران بعد فته ، مؤثراً في تصرفاته ومواقفه وطابعاً سلوكه بطابع غريب ، ويمتد ، أيضاً ، عمودياً ، غائماً في طفولته ، متأصلاً فيها ، فقد سمينا هاتين الظاهرتين المحبوتين محورين نفسيين . وتبدى لنا أن لهذا أصلين ديناميين - قد يتدحجان في جذر واحد - نعتشهما نجارب وأوضاع عاناها جبران في سنه الأولى ، فتكررت فيه طاقة وجدانية فكرية مركزة استطاعت ، لقوتها ، وحدتها ، أن توجه مصيره ، وتسج قسماً جليلاً من قماش حياته وإنتاجه . والأصل المحوري يلقي المقتدات النفسية القرويدية برقية إلى طفولة الانسان . ولكن رأينا من الآمن أن لا نصر على العودة ، دائماً ، إلى اللاشعور الجنسي ، ولا سيما الطفولي الأقصى منه ، في كل سبتر وتعليل للمحور النفسي ، لما يحمل ذلك من مجازفات قد تغضي إلى التيهان في التخمينات والقرصيات . فالمتغضي ، في موقعنا ، بلوغ نقطة في مجرى التهان النفسي بوسعها ان تتيح تعليلاً كافياً لسلوكه وإنتاجه ، وقد تلقى هذه في الوعي كما في اللاوعي ، وفي الطفولة الأولى كما في الطفولة الثانية . وقد يكون للأصل المحوري تطلل لا شعوري أبدي في الطفولة ، لكن الأمر لا يعنينا في هذه الدراسة ما دام غرضنا ليس معالجة جبران من مرض نفسي ، بل اكتشاف البواعث النفسية الآيلة إلى تضير فته وحياته وتعليلها بصورة وافية . وقد ظهر لنا أن هذه الطاقة الدينية المحورية كانت تنلدي وتكتشف دوماً بأحداث وأوضاع تطرأ على جبران ، في مختلف مراحل حياته ، بحيث تتطور حدتها وطاقتها وطرق نشاطها . وقد يتحوك الشعوري إلى لاشعوري ، مع الزمن ، فيكون له نصيب في مهمة العقل الباطن . وكان المحور النفسي بقايا عتيقة حية من تجارب جبران الطفولية لا تنفك أصداها تتجاوب في حنايا نفسه ، تتجدد بلبس أقمشة مختلفة ، وتقاوم القضاء بتطور يلائم الزمن الطاريء ، من

غير أن تفقد جنودها الأصلية المتفرسة في تربة الزمن الأول^(١) . استناداً إلى

- (١) إن تحليل مظاهر الإنتاج الفني بالسيرة إلى التجارب الطفولية يكاد يحسم عليه علماء النفس . بيد أن كيفية التحليل تختلف شياً فثقله . فلا يفسر فرويد ، دائماً ، نشاط الإنسان وخصائص الفن ، بمقتضى أوديب ، ، يزيد أدل عليه ، الشعور بالهوية ، ، ويشيف يونغ ، ، أمانة القوة ، ، و ، اللاشعور الجسدي ، ، بينما يجتهد شارل برونون في أن يصل بين قضايا علم النفس الكلاسيكي الكبرى والمفاهيم الفرويدية الأساسية ، ، محاولاً الجمع بينهما وبين نظرات المذاهب التحليلية المختلفة ، ، فهو يكتشف ، ، مثلاً ، في تحليله النفسي للكاتب هنري لا سقداً واحداً ، ، بل عدة سمقات . وقد قام بغير بدراست حديثة لعدة شعراء ، تنكب فيها عن مفهوم ، المذهب الفرويدي ، ، ليكتشف في طفوليات الشعراء تجارب نفسية متنوعة وجهت إبداعهم ، ، فيما بعد ، وترامت آثارها من خلال ، موضوعات مهيمنة ، حل شعرهم Thèmes . وقد حاولنا ، نحن ، أن نستفيد من هذه الدراسات التحليلية جليلاً ، ، وما يحسن حلوها . والله ليحسن ، كما فعلنا ، ، مراجعة الكتب الآتية لتكوين فكرة توضيحية عن المناسبي المذكورة :
- SIG. FREUD, *Délire et rêves dans la « Genèva »* de Jouven, tr. fr. par Marie Bonaparte, Paris, Gallimard, 1971.
- *Un souvenir d'enfance de Léonard de Vinci*, tr. fr. par Marie Bonaparte, Paris, Gallimard, 1927.
- *Essais de psychanalyse appliquée*, tr. fr. par M. Bonaparte et E. Marty, Paris, Gallimard, 1971.
- A. ADLER, *Connaissance de l'homme*, tr. de J. Marty, Paris, Payot, 1955.
- *Le tempérament nerveux*, tr. du Dr Rostiel, Paris, Payot, 1955.
- *Le sens de la vie*, tr. du Dr. H. Schaffter, Paris, Payot, 1955.
- C. G. JUNG et von FRANZ, HENDERSON, JACOBI, JAFFE, *L'homme et ses symboles*, Pion-Royal, Paris, 1964.
- *La psychologie de l'inconscient*, tr. par Dr. R. Cahn, Lib. de l'Univ. Georg et cie, S.A. Genève, 1963.
- *Métamorphoses de l'âme et ses symboles*, tr. de Y. Le Lay, Lib. de l'Univ. Georg et cie, S.A. Genève, 1953.
- *Types psychologiques*, préf. et tr. de Y. Le Lay, Lib. de l'Univ. Georg et cie, S.A. Genève, 1958.
- *Essais de psychologie analytique*, tr. de Y. Le Lay, éd. Stock, Paris, 1952.
- CH. BAUDOUIN, *Le symbole chez Verhaeren*, Genève, Mont-Blanc, 1924.
- *Psychanalyses de l'art*, Alcan, 1929.
- *Psychanalyse de Victor Hugo*, Genève, Mont-Blanc, 1943.
- J. - P. WEBER, *La psychologie de l'art*, P.U.F., Paris, 1961.
- *Genèse de l'œuvre poétique*, Gallimard, Paris, 1960. (Thèse principale de Doctorat de lettres soutenue en Sorbonne).

ما أوضحنا ، ارتبأت أن نجعل لدراستنا قسماً أولاً سمّيناه : « جبران في دوائه التحليلية » ، وحده تحليل التجربة الفنية وتأويلها ، ألقياً وصودياً ، على ضوء تأثيرات الطفولة .

وقد تبين بالدراسة التجريبية أن ثلاثاً من البؤر الفكرية الوجدانية الأخرى - أي التفتي بالحب وتمجيد القوة والكراسة بالمحبة الشاملة - لا تُهيمن معاً على كلية حياة جبران وإنتاجه ، بل يتوزع نفوذها ثلاث مراحل متعاقبة ، مستقلة كل منها بطور معين ، مع استمرار ظلال خفيفة لها متداخلة متشابكة . وذلك يعني عدم ارتباطها ارتباطاً حسيماً بالأوضاع الطفولية ، بل اتصالها بظروف نفسية طارئة متطورة ، ذات عوامل مختلفة باطنية وخارجية . خلاوة على ذلك ، اتضح لنا أن اهتمام جبران بالناسري ، في أدبه ورسمه ، كما في حياته ، لم يكن عارضاً ، ولم يتجلى في مرحلة دون أخرى من أطواره الثلاثة ، بل كان اهتماماً كلياً دفعه إلى بذل جهد إرادتي مُضْنٍ مديد في محاولة اقتلاعية مصيرية للتوحد بمثل الأعلى . هذه الظواهر كان لا بدّ من تحليلها ، والتحليل المحوري كعملية تستهدف الفوس إلى جلود الظواهر النفسية لاستطلاق عليها في الطفولة ، ليس في رسمه إعطاء الجواب الشافي عليها ، ذلك بأن الطاقة النفسية لا يظهر جميعاً فعلها ، ولا سيما اللاشعوري ، مُحللاً ومتجهاً إلى الخارج فحسب ، بحيث يُحمّل العقل الباطن الكائنات والأحداث ، بصفتها موضوعات خارجية مستقلة عن الذات ، مدلولات رمزية ، بل يظهر أيضاً مركباً ومتجهاً إلى الداخل ، بحيث تفقد الموجودات والمحددات ، آنذاك ، مجردة تميز عن حالات النفس ومراتبها ، يتعدّر فهمها الأتم على ضوء التحليل وحده ^(١) . كذلك لزوم أحصاق اللاشعور ، دون الشعور ، بمُبتأ الكثير من أسرار السلبية الإبداعية ، لأن الوعي دوراً في التوجيه والاختيار والبراعة الفنية . فالدافع اللاشعوري كثيراً ما يقرن بدافع واعٍ غلاق . ولئن كانت ألوف الفنيات يُعطين إحساساً بنّ الجنسية

(١) انظر C. O. JUNG, *Psychologie de l'Inconscient*, p. 152 - 167.

بصوغها مدكرات يومية ، فالتأني ، على حد تعبير فالتين ، لا تأتي واحدة في كل مليون تتمتع بصفات ودوافع فنية خلقة نظير برونتس أو جين أوستن ^(١) . ولذا ، حرصاً على رفع الحجب عن القواميس والمتناقضات والتطورات في إنتاج جبران ، وعلى إبراز خطه النفسي عبر الحياة والإبداع ، بصورة أجمل وأوفى ، كان لا بد من قرن التحليل المحوري بتركيب نفسي - هو موضوع القسم الثاني من دراستنا - نجمل انكسارات تكوينه في السلوك والقيم ، متبعين الفرصة ، هكذا ، لاستيعاب الأحداث والتقلبات النفسية الطارئة على جبران في مختلف أطوار عمره ، إذ ليست مشكلات الإنسان وأوضاعه الطفولية ، كما لو وضحت كلون هورني ، هي للمسئلة فقط عن حالته النفسية الراثة ، بل إن مشكلاته وأوضاعه الحاضرة مسؤولة عنها أيضاً ^(٢) . ولا بد للجهد الإرادي ، صراحةً بالمثل الأعلى المحتق ، من الإسهام الخطير في تكوين الواقع النفسي ^(٣) .

وإننا بقرنتنا التركيب النفسي إلى التحليل المحوري ، نكون قد سعينا إلى فضّ مغلفات جبران عبر استجلاء العوامل النفسية المحركة الماضية والحاضرة التي أسهمت في صوغ ذاته ، وإلى رسم صورة تامة ، وسع الإمكان ، عن تكوينه النفسي في موجته ، كما في وحدته وكنيته ، وتأثيراته عبر مختلف أطوار الزمن والحياة . ولكن ، ما هي المواد الجبرانية الأولية التي كانت موضوع اعتبارنا وتحقيقنا لبناء هذه الدراسة ؟

(١) C. W. VALENTINE, *The experimental psychology of Beauty*, London, Matheson & Co., 1962, p. 25.

(٢) D. HUISMAN, *Encyclopédie de la Psychologie*, t. I : A. VERGEZ, p. 35. إنتر (٣) من أجل تكوين فكرة إشاحية عن التركيب النفسي وتأثير المثل الأعلى في توجيه نشاط الإنسان وتكوينه الباطني ، نتمن مراجعة المصدرين الآتين ، كما فعلنا :

Dr A. STOCKER, *De la Psychanalyse à la Psychosynthèse*, Beauchamps et ses fils, Paris, 1957.

WILFRIED DAIM, *Transvaluation de la Psychanalyse : L'Homme et l'Absolu*, tr. de l'allemand par P. Jundi, Albin Michel, Paris, 1956.

المصدر الجبراني :

اعتمدنا في هذه الدراسة المصادر والمستندات التاريخية والأدبية والفنية التالية وكانت لنا أشبه بمختبر تجريبي :

أ - مذكرات ماري هاسكل والرسائل المتبادلة بينها وبين جبران ، من سنة ١٩٠٨ حتى ١٩٣١ . وقد جمعت أنثي أوتو معظمها في كتاب ^(١) ضم ثلاثمئة وتسع عشرة رسالة من جبران إلى ماري ، ومئتين وست رسائل منها إليه ، كما حوى عدداً غير قليل من مذكراتها اليومية . وتعتبر هذه المستندات ، لبساطة الأداء فيها وعفويته ، من أهم مصادر الدراسة .

ب - كتاب توفيق صايغ « أضواء جديدة على جبران » ^(٢) ، وهو خلاصة ، يغلب عليها العرض لا التحليل ، للرسائل والمذكرات الآتفة الذكر . وقد وجدنا في الكتاب إشارات إلى مذكرات يومية لم تشتمل عليها مجموعة أوتو ^(٣) .

ج - رسائل جبران لسائر أصدقائه ، وأهمها ما جمعه جميل جبر ^(٤) . أما الأخرى فقد ألع إليها أو أورد صورها خليل حاوي في كتابه المذكور ، وحبیب مسعود في « جبران حياً وميتاً » ^(٥) . وجدير بالذكر أن أسلوب هذه الرسائل تضاعف فيه البساطة والعفوية ، وغلبت الصبغة الأدبية .

(١) The Letters of Kahlil Gibran and Mary Haskell, arranged and edited by ANNIE SALEM OTTO, Smith and Co. composers inc., 1970.

(٢) منشورات الدار الشرقية للطباعة والنشر ، بيروت ، ١٩٦٦ .

(٣) نسى لنا أن نطلع حل مجموعة الرسائل والمذكرات المتصلة بجبران ، كاملة ، في أفلام مصورة ، بفضل توفيق صايغ . ويمكننا التأكيد أنه لم يبق أي مستند ذي شأن من المجموعة خارج كتابي أوتو وصايغ .

(٤) رسائل جبران : صفحات مطوية من أدب جبران الخالد ، بيروت ، دار بيروت ، ١٩٥١ .

(٥) جبران حياً وميتاً : مجموعة تشتمل حل مختارات ما كتب ورسم جبران خليل جبران وما قيل فيه . قدم لها وحى بتأليفها وإخراجها : حبیب مسعود . الطبعة الثانية ١٩٦٦ ، بيروت ، دار المريحي للطباعة والنشر . الطبعة الأولى صدرت في سان باولو - برازيل ، عام ١٩٣٢ .

د - ذكريات يوسف الخوريك عن رفيقه جبران^(١) ، وهي حكاية حال الفنانين الصديقين ، دونما تكلف أو مواربة ، سحابة إقامتهما معاً في باريس بين ١٩٠٩ و ١٩١٠ .

هـ - مجموعة مخطوطات عثرنا عليها في متحفه ، أهمها مسودات رسائل وُجّهت إلى ميّ زياده (١٨٨٦ - ١٩٤١) ، وبحث في « فلسفة الدين والتدين » ، وخطبة سياسية اجتماعية أُلقيت سنة ١٩١١ . وقد أوردنا في دراستنا ، صُوراً لبعضها ، واكتفينا بالإشارة إلى بعضها الآخر^(٢) .

و - مؤلفاته العربية وقد ضمّتها جميعاً « المجموعة الكاملة لمؤلفات جبران خليل جبران »^(٣) ، باستثناء تمثيلية « ملك البلاد وراعي الغنم » التي ألّفها نعيمه بكتابه^(٤) ، و « الولايات التسع »^(٥) ، واثني عشرة مقالة أو قصيدة متفرقة أدرجها حبيب مسعود في مصنّفه ، هي « إلى المسلمين من شاعر مسيحي » ، و « ابو العلاء المعري » ، و « لكم فكرتكم ولي فكرتي » ، و « الخريف » ، و « لكم لفتكم ولي لفتي » ، و « أكرم الحياة » ، و « أنا اللحر » ، و « أحب من الناس العامل » ، و « يا زمان الحب » ، و « كلتنا يصلي » ، و « الشرق » ، و « ماذا تقول الساقية »^(٦) .

(١) ذكرياتي مع جبران - حررتها ادفيك جريديني شيبوب ، بيروت ، دار الأسد ، ١٩٥٧ .
(٢) يقول خليل حاوي ، في مقدمة كتابه ، انه عثر ، بين المخطوطات في متحف جبران ، على ثمان قصائد عربية روحانية المضمّن ، وعلى « تمثيلية » بلا عنوان ، من نحو ١٥٠٠ كلمة ، موضوعها القومية السوديّة ومأساة لبنان في الحرب العالمية الأولى . ولكننا لم نشر على أي أثر لهذه المخطوطات (؟) .

(٣) بيروت ، مكتبة صادر ، ١٩٥٥ .

(٤) جبران خليل جبران ، ص ٢٦٩ - ٢٧٨ .

(٥) « كلمات جبران خليل جبران » ، جيمس أنطونيوس بشير ، مصر ، ١٩٢٧ ، ص ٢٥ - ٢٦ .

(٦) جبران حياً وميتاً ، ص ٣٧ - ٣٨ ، ٧٢ - ٧٥ ، ٩٥ - ٩٨ ، ١٢٩ - ١٣١ ،

١٣٢ - ١٣٦ ، ١٥٩ - ١٦٢ ، ٢٠٤ - ٢٠٥ ، ٢٠٦ - ٢٠٧ ، ٢٠٨ - ٢١٦ ، ٢١٧

٢٤٧ - ٢٥٥ ، ٢٦١ - ٢٦٢ .

ز - مؤلفاته الانكليزية ، وقد اعتمدنا الأصل مباشرة ، دونما الاستمالة بالنصوص المترجمة إلا نادراً ، لما يشوبها من مساوي قد يكون لها مبرر لغوي ، أحياناً ، ولكنها تُضلل الباحث النفسي^(١) .

ولا بدّ ، هنا ، من ملاحظتين : الأولى أن جميع كتابات جبران الانكليزية بدءاً بالمجنون^(٢) حتى «الثالث»^(٣) ، كانت لا تُنشر قبل أن تدقّق ماري هاسكل في عباراتها وتصحيح ما يمكن تصحيحه^(٤) . غير أن التعديل ، وهو طفيف غالباً ، لم يؤثر في الخصائص النفسية للمضمون والتعبير . أمّا الثانية فتتملّق بمحديقة النبي^(٥) . فبرباره يانغ - التي أصدرت الكتاب بعد نحو ستين من وفاة جبران (١٩٣٣) - تزعم أن صاحب «النبي» كان قد أعدّ قطعاً مختلفة ، ولكنه لم يربط ما بينها ، ولا وضع تصميماً لتأليفه . فرأت واجباً عليها أن تُخرجه في صيغة نهائية . وبينما تذكر أن الشاعر قال أشياء كثيرة عن «الحديقة» استيقظت ذكراها في ذهنها ، تعلن في موضع آخر : « لقد بدا لي وما يزال يبدو أن جميع الصفحات التي كان لا بدّ من أن

(١) مثاله ترجمة ماورد في «الثالث» (The Wanderer, Heinemann, London, 1965, p. 89) «عندما نبلغ قلب أبينا البحر» (المجموعة الكاملة المترجمة، بيروت، دار صادر ودار بيروت، ١٩٦٤ ص ٤٤٤) . ولا جدال لدى الباحثين النفسيين في أن «البحر» رمز غيبي للألم ، وخطأ فادح الاستمالة من «الأم» في الانكليزية «بالأب» في العربية الفلاحة بين العبارة وبين جنس «البحر» المذكور في لغة الضاد . كذلك ترجمة «The Vulture» (The Forerunner, Heinemann, London, 1963, p. 53) «الشوكة» (المجموعة الكاملة المترجمة، ص ٧١) ، في حين أن ترجمتها الصحيحة «العقاب» ، وهي ذات دلالة نفسية تاريخية أسطورية صافية ، نوقسها في حيت .

(٢) The Madman ، صدرت طبعته الأولى سنة ١٩١٨ ، عن A. Knopf, New York .

(٣) The Wanderer ، صدرت طبعته الأولى سنة ١٩٣٢ ، عن A. Knopf, New York .

(٤) يمكن التحقق من ذلك بمراجعة الرسائل المتبادلة بينهما ، ولعل أول إشارة لتصحيح وردت في ١١ كانون الثاني ١٩١٥ ، وآخر إشارة في ٦ نيسان ١٩٣١ ، أربعة أيام قبل وفاته .

(٥) (The Letters of K. Gibran and M. Makell, p. 388, 675.)

(٥) The Garden of the Prophet ، صدرت طبعته الأولى عن A. Knopf, New York .

أكتبها في حديقة النبي صدرت مباشرةً من وجهه عدد مدرك ، فكانت ، كما قال جبران ، الشعر الذي هو كلمات لا بد منها في الموضع الذي لا بد منه ^(١) . فيستين أن عملها لم يقتصر على ربط القطع بعضها ببعض ، إنما تعداه للابتكار ، حتى أنها أدخلت تعديلاً على ما خطه جبران نفسه ، كما يظهر من المقارنة بين الأصل في الصفحتين المخطوطين من الكتاب وما يقابلها في الصيغة النهائية ^(٢) . فازاء هذا الاختلاط في التأليف والعبث بالأصل ، غذا غير مأمون للباحث النفسي أن يعتمد نصوص الكتاب على أنها تمثل تمثيلاً صحيحاً دقيقاً نفسية جبران . ولدى مراجعة ما بوسع الكتاب أن يكسب دراسي فيما لو صح اعتمادُه ، تبين أنه لا يمدّها بأي جديد على الإطلاق ، والخصائص النفسية التي يمكن استخراجها منه كانت أسطح في تأليفه السابقة ، بحيث تأتي الحديقة تأكيداً لما سبق ، لا كشفاً لخصائص جديدة . فضلاً عن أن في الكتاب ما تُرجم عن العربية وحُشِر فيه ، كقالة « الويلات التسع » ^(٣) ، و « نفسي مثقلة بأعمارها » ^(٤) .

ح - رسومه المنشورة في مؤلفاته والمائلة في متحفه ببشري ، وهي تُعدّ بضع مئات ^(٥) . وقد ضمت دراستنا نحو مئة وعشرة منها .

(١) B. YOUNG, This man from Lebanon, p. 123-124.

(٢) The Garden of the Prophet, p. 18-19.

(٣) The Garden of the Prophet, p. 10. وردت في كلمات جبران خليل جبران ، ص ٢٦ - ٢٥ .

(٤) The Garden of the Prophet, p. 38-41. وردت في « القلائع والطرائف » ، المجموعة ج ٢ ، ص ١٧٧ - ١٧٩ .

(٥) كان صبراً جداً أن نتحقق تواريخ قسم كبير من هذه الرسوم ، قبلها هنت أرقامه ، وبعضها خلا من التاريخ ، والآخر فطاه الإطار . أما عددها فيتنازع الأربماسة والحسين ، حسبما ذكر لنا القيم على المتحف ، بينها نحو مئة صورة لرؤوس يمثل مظهرها مشاهير الرجال .

ط - تحقيقات شخصية أجريتها صيف ١٩٦٧ و ١٩٦٨ مع شهود من
المعتقلين الأحياء ممن عرفوا جبران وعاصروا طفولته أو حداثة (١) .

ي - الوقائع المتحررة المحققة الواردة في الدراسات السابقة (٢) .

ذاك هو المختبر الجبراني الذي أجرينا فيه تجاربنا ، ومنه كانت انطلاقتنا
لدراسة تحليلية تركيبية تتناول جبران في أدبه ورسومه وشخصيته .

(١) منهم السيدة أسى يوسف حنا القضاير ، وكانت جاراته ، وقد عرفت والده وعبيرت طفولته ؛
والسيدة شمس طوق التي نزلت وأُسرة جبران في مبنى واحد في بوسطن ، عدة سنوات ؛
والسيد حنا أسعد غطار رحمه من سكان مزوجة مار أليش ، وقد عرف جبران صبيًا . ولم
نعمد أقوالهم إلا بعد أن رأيناها مقيدة بوقائع متحررة أخرى .

(٢) كان مولدنا ، بالدرجة الأولى ، حل ما اعتبره لو حققه يوسف الخداد مسلم جبران في معهد
الحكمة ، ولإيها أبي ماضي ، وجورج غير الله ، وغليل حاوي وانطون شطاس كرم .

القِسْمُ الأول

جبران

في ورثته تحليلية

الفصل الأول محو معادلة السلطة

ليس من إنسان إلّا فيه غريزة العدوان ، فهي متدججة في جيلة الكائن الحيّ سواءً أكان بشراً أم حيواناً . ولتّين كانت عند المجماليات ذريعة لتأمين حاجات عيشها الجوهرية ، فهي في الناس مصدر غضبهم ووزعائهم التهديمية . لكنّها ، حسب فرويد ، تنجم عن غريزة أساسية هي الموت مثلما تصدر غريزة الجنس عن غريزة أساسية أخرى هي الحياة ^(١) . غير أنّ التّرة العدوانية تتخذ لها في أدب جبران وقتّه هدفاً معيناً هو السلطة . وبذلك تتميز عن التّرات العدائية العادية بنوعية غرضها وحدة نشاطها . وما دامت معاداة السلطة قد اكتسبت صفة محورية ^(٢) ، حسبما ألمنا في التوطئة ، فلا

(١) S. FREUD, Essais de Psychanalyse « Le Moi et le Ça », p. 196 et suiv.

كذلك P. DACO, Les prodigieuses victoires de la psychologie moderne, p. 86.

(٢) هذه التّرة العدوانية الشاملة ضد السلطات امتدت إلى إنتاجه العربي كله ، إلا ما وضعه منه في « عهد الاتزان النفسي » الأخير الذي سيقتضيه حالته من غير أن يلاقي الأمراض الارتدادية الأخرى التي تولدت عن « الأصل المحوري » حسبما ستوضح في حينه .

بُذِّعَ من إبراز مظاهرها الصريحة في إنتاجه ، ثم محاولة تعليلها وتأويلها . وقد ارتأينا أن نُسِّجَ منهجاً يتحلل من العام إلى الخاص ، فننتقل من حملة جبران على السلطة الاجتماعية الممنوعة العامة في الشرائع والتقاليد ، ثم نقف عند ثلاثة مظاهر خاصة منها تجسدت في الأب ورجل الدين والنفى سواء أكان حاكماً أم محكوماً^(١)

١ - مظاهر الصريحة في إنتاجه :

إن السلطة الاجتماعية مستمدة من تقاليد وشرائع سنّها البشر وتوارثها الخلف عن السلف . ومع أنها لا تخلو مما هو شريف وعادل - على تطورها وتبدلها عبر الأجيال - فإن جبران حملَ عليها حملة عامة مُركّزة ، غير مُستثْنِ أي وجه من وجوها . فإذا تساءل مُستنكراً ، عهدَ كانت القضايا البنائية تشغله : « الشريعة - وما هي الشريعة ؟ من رآها نازلةً مع نور الشمس من أعماق السماء ؟ وأي بشري رأى قلب الله فعلمَ مشيئته في البشر ! »^(٢) فإنك تسمعه ، يوم استشرف العالم ، يقول : « اتبعت الأجيال من ضفاف الكنج إلى شاطئ القرات إلى مصب النيل إلى جبل سينا إلى ساحات أثينا إلى كنائس رومية إلى أزقة القسطنطينية إلى بنايات لندن فرأيت العبودية تسيّر بكل مكان في موكب مذابحها ويدعوها إلهاً ، ثم يسكبون الخمر والطيوب على قدميها ويدعوها ملكاً ، ثم يحرقون البخور أمام تماثيلها ويدعوها نبياً ، ثم يخرون ساجدين لديها ويدعوها شريعة ، ثم يتحاربون ويتقاتلون من أجلها ويدعوها وطنية ، ثم يستسلمون إلى مشيئتها ويدعوها ظل الله على الأرض ، ثم يحرقون منازلهم ويهدمون مبانيهم بإرادتها ويدعوها

(١) يجدر بالذكر أننا رامنا التسلسل التألفي الزمني في عرض الشواهد الأدبية الموضوع الواحد أو الفكرة الواحدة ، بصورة عامة ، وبمسن الرجوع إلى بحثنا في التسلسل التألفي الزمني لأثار جبران الأدبية في الفصل الأول من القسم الثاني من هذه الدراسة .

(٢) م . ك . ج ١ ، الأرواح المنهدة : صراخ القبور ، ص ١٣٣ .

إنهاءً ومساواةً ، ثمَّ يحدّون ويجاهدون في سبيلها ويدعونها مالاً وتجارة ... فهي ذات أسماء عديدة وحقيقة واحدة ومظاهر كثيرة بطوهر واحد ... » (١) أنها سلطة الشرائع والتقاليد الاجتماعية يرفضها في أي شكل تمثّلت ، ومهما تكن آراء الآخرين فيها يبقّى واقفاً تجاهها موقف المتمرد الثائر .

والمظهر الخاصّ الأول للسلطة هو الوالد . ولا ريبَ في أنّ للآباء سلطة طبيعية أقرّها البشرُ في مجتمعاتهم وعصورهم قاطبةً ، وعنها تولّد لإجلالُ الأقدمين بل تقدّيسهم ، أحياناً ، للآباء والأجداد . لكنّ جبران قاصّهم عداءً شاملاً ، شأنهم شأنُ السُلطات الأخرى . وقد نهجَ ، لقضاء مأربه ، مسلكين : إمّا أن يتجاهل الأب في إنتاجه ، على شدة اهتمامه بإبراز الأمّهات وهذا شكلٌ من أشكال العداوة الصامتة ؛ وإمّا أن يمسخ الأب ، إذا ما ذكره ، مشوّهاً وجهه بتحقيره وإبرازه قاسياً أو غيباً ، أو مصدر شقاء وإذلال لأولاده . ففي أبيه ، تراه يجعل والد « يوحنا المجنون » فقطلاً مُغتَلاً ، يخافه ابنه ، فلا يقرأ الأناجيل إلّا سرّاً ، متلفّناً بتحدّر بين الآوّة والأخرى نحو والده النائم الذي منعه عن تلاوة ذلك الكتاب » ؛ كما يجعله صدى لأقوال رئيس الدبر وأفكاره ، يناصره ضدّ ابنه ، إذ يشهد أمام الحاكم قائلاً : « طالما سمعته يهذي في وحدته ... وهو مجنون يا سيدي » ؛ وهو إن سأل الرحمة له ، فلنأمن مصلحته الشخصية ، لأنّ يوحنا كان يُعيل والديه (٢) . وفي « مضجع العروس » يجمع بين والد العروس « الذي أقامه القدر ولياً » والرجل الذي « اختاره لها الكذب بعلاً » و « الزهور التي ضفّرها الكاهنُ لكيلا » وهـ الشرائع التي حبكتها التقاليد قيوداً ، لتتخلّى العصيّة المتمردة عنهم جميعاً ، دونما أسف ، وتتبع حبيبها (٣) . وفي « الأجنحة المتكسّرة » يُصوّر والد

(١) م . ك . ج ٣ ، المواصف « العبودية » ، ص ١٧ .

(٢) انظر حرائر المروج - م . ك . ج ١ ، ص ٩٠ و ٩٨ و ١٠٣ .

(٣) الأرواح المتمردة - م . ك . ج ١ ، ص ١٢١ .

سلمى كرامه خيماً ، واهن الارادة ، مستسلماً لشبهة الأسقف الذي يرى أحكامه توحّدت وأحكام القدر ، وإذا تسأله ابتثّه عطمة القلب ، متأهية : « هل هذه هي إرادتك يا والدي ؟ » لا يجيبها بغير التنهّدات العميقة ^(١) . وبعد أن اتّسمت آفاق جيران الذمينة ، وأخذ يعالج قضايا معالجة أشمل وأعمق خرج فيها من النطاق اللبناني إلى المجال العالمي ، ظلّ محور معاداة السلطة يُسهم في نسج قضايته الوجدانية الفكرية . ففي « حفار القبور » يحمل السرّ حل سلطة الآباء المشكّلة باستمرار حضورهم السلوكيّ العسكريّ في أبنائهم شرطاً من شروط التقدم والنضوق في الحياة : « إنّ بليّة الأبناء في هبات الآباء ، ومن لا يحرم نفسه من عطايا آباءه وأجداده يظلّ عبد الأموات حتى يصير من الأموات » ^(٢) . ويرى علّة السبودية العامة « يتوارثها الأبناء عن الآباء مثلما يتوارثون نسمة الحياة » ^(٣) ، ويعمل الخضوع البريّ النفسيّ للسلطة الأبوية أشبه بتحنيط نفوس الأجيال الطالعة ، يقول : « وأغرب ما تقيتُ من أنواع السبوديات وأشكالها السبودية العمياء ، وهي التي توثق حاضراً الناس بماضي آباءهم وتُنبئ نفوسهم أمام تقاليد جلودهم وتجعلهم أجساداً جديدة لأرواح عتيقة وقبوراً مكلّنة لنظام بالية » ^(٤) .

أما المظهر الثاني للسلطة فيتمثّل برجال الدين ، وسلطانهم في الشرق يكاد يكون مستغرقاً لاسترقاق التاريخ . وليس حدّثاً مألوفاً أن يمصاهم امرؤٌ خاصّة في الأوساط المسيحية . لكنّ القرن التاسع عشر ، ولا سيّما نصفه الثاني ، شهد بداية تحركات فكرية ثورية تنادي بضرورة إعادة النظر في العقائد الدينية إثر تسرب أفكار الموسويّتين الفرنسيّين وآراء دارون (١٨٠٩ - ١٨٨٢) وريتان (١٨٢٣ - ١٨٩٢) إلى نجبة من المفكرين اللبنانيين في طلبتهم شبل

(١) م - ك - ج ٤٢ ص ٣٧ .

(٢) المراسف - م - ك - ج ٤٣ ص ١٠ .

(٣) المصدر السابق : « السبودية » ص ١٧ .

(٤) المصدر السابق نفسه ، ص ١٨ .

شميل (١٨٦٠ - ١٩١٧) و طرح انطون (١٨٧٤ - ١٩٢٢) . غير أن هذه الحركة كان قد سبقها تراشقٌ تهمة لاذعة بين الكاثوليك والبروتستانت من جهة ، والكاثوليك والأرثوذكس من جهة أخرى ، تبادلوا في أثناءها حملات نقدية شديدة على صفحات مجلاتهم ^(١) . ولا شك في أن جيران أفاذ من هذا الجحور المحموم لبشع هجومه على الكهنة . فمن يستعرض مؤلفاته العربية تبرز نغمة حبيته حملاته المذابية الضيقة عليهم ، وقد تكون شدتها بنسبة ما كانوا يتمتعون به ، عهدته ، من سيطرة على وعابهم في جبل لبنان . وهي تتخلل عرائس المروج والأرواح المتمردة والأجنحة المتكسرة ودمعة وإشامة والمواكب والمواصف ^(٢) . ولو رسمت خطاً بياناً لتطور الصنف المذابي

(١) رابع مقال أنطالوس مزج ، و شاول الفكر العربي المسيحي سنة ١٨٦٦ . في : الفكر العربي في مائة سنة ، ص ٢٥٢ - ٢٩٦ . وما ذكره أن : ميخائيل مشاققة الإنجيل انقضت سنة ١٨٦٤ على من دعاهم ، بالبابويين ، التضاض النسر ، ضارباً شاماً حيث يلزم ، متكرراً القوس الإنجيلي بعد الفترة الرسولية لينكر على الكنيسة الكاثوليكية إلهيتها ، وناعماً الطريقة القبطية بكاملها بأنها : اشراخ شيطاني فيج . (ص ٢٧٩) . ومن ذهب للتصق في الموضوع فليراجع ، رسالة الموسومة بالدليل إلى طاعة الانجيل ، تأليف المعلم ميخائيل مشاققة . ويذكر برجزي زيدان أن أسعد الشهاب (شقيق أحمد فارس) كان : فانية عصره . ذكاه ولفظه ، فاتفق أنه ترك مذهب والده وانتحل المذهب الانجيلي فغضب عليه البطريرك وما زال يتهدده ويسومه المذاب ألواناً حتى يرجع عن رأيه فلم يزده إلا تمسكاً وإسراءاً ، إلى أن آل ذلك إلى موته (١٨٣٠) بدير قنوين في صفوف شبابه شر مودة . ولا يزال أهل ، وديار لبنان يتعدثون بقصته إلى الآن . (نهاية النهضة العربية ، ص ١٩٠) . وقد حطم الأمر على أخيه أحمد فارس فتلذذ القيلاد ناعماً عليها وحل من سببوا موت شقيقه ، رابع : مقال على السبق في ما هو القاريك ، وعامة ص ١٨٧ - ١٩٤ حيث يذكر مصرع أسعد ويعرض ببعض القبايل . ومن يطالع محاكاة خليل الكافر ، لا بد له من أن يلاحظ أن حادثة أسعد الشهاب كانت لها مطلقاً تاريخياً .

(٢) رابع في الميسورة الكاملة : ج ١ - عرائس المروج : : يوحنا المجنون ، ص ٨٩ - ١٠٤
الأرواح المتمردة : : ضجج العروس ، ص ١٥١ و : خليل الكافر ، ص ١٥٢ - ٢٠٩
ج ٢ - الأجنحة المتكسرة ، ص ١٨ و ٤٠ - ٤٦ و ٥٨ : دمة وإشامة ، ص ١٢٢
و ١٢٤ : المواكب ، ص ٢٤٤ ج ٣ - المواصف : : الشيطان ، ص ١١٥ - ١٢٨ ،
و : السم في الجسم ، ص ١٥٤ .

نحورهم تشككت لك ذروته في قصة « خليل الكافر » حيث يُفرغ جام غضبه ،
غير تارك صفة « قيحة » إلا الصفا بهم ، معصاً دونما استثناء :

« أنصفون أبنا المسلمين الضعفاء من هو الكاهن الذي نهايونه وتقيمونه
وصياً على أفلس أسرار نفوسكم ؟ اسمعوني فأبين لكم ما تشعرون أنتم به
وتخافون إظهاره .

« هو عائن بطنه المسيحيون كتاباً مقدساً فيجمله شبكة يصطاد بها
أموالهم ، ومراء يقتله المؤمنون صلياً جيلاً فيمتشفه سيفاً سنياً ويرفضه فوق
رؤوسهم ، وظالم يسلّمه الضعفاء أعناقهم فيربطها بالمقاود ويوثقها بالقيم
ويقبض عليها بيد من حديد » ولا يتركها حتى تسحق كالفضار وتتبدد
كالرماد .

« هو ذئب كاسر يدخل الحظيرة فيظنّه الراعي غروفاً ويثام مطمئناً ،
وعند عجيء الظلام يشب على التاج ويختفها نجيعة إثر نجيعة .

« هو تهيم يحترق مواقد الطعام أكثر من مذبح الميكل ، وطامع يتبع
الدينار إلى مغاور الجن ، ويمتص دماء العباد مثلاً تمتص رمال الصحراء
قطرات المطر ، ويخيل يحرص على أنقاصه ويدنّخر ما لا يحتاج إليه .

« هو عتال يدخل من شقوق الجدران ولا يخرج إلا بسقوط البيت ،
ولص صخري القلب يتزع درهم من الأرملة والفلس من اليتيم » .^(١)

فانك لتشمر بكلماته كأنها سهام المسومة تطلق إلى نحورهم ، أو
الحجّم الأكلة الصاعرة يقذفها صدره المترد المحموم . ويلون أسلوبه في
مهاجمتهم : فبينما تُحسّ كوخترات الإبر ، إذا به يجرّح كدبة حادة ؛
وفيما تراء يقض كالسيف يبر ، إذا به يهوي كجلود يسحق ؛ وبينما
تحتس سفريات كالرياح الساعنة ، إذا بك تهيبّ قلماته نهب كالأعاصير

(١) م . ك . ج . ١ ، الإرواح المصروفة ، ص ١٩١ - ١٩٢ .

فتقطع الجلود . اسمه يتاج إرصادة قائلا : « هو مخلوق صليب له منقار النسر ، ومقابض النسر ، وأنياب الفصح ، وملابس الأفعى . خلوا كتابه ومزكوا ثوبه وانفخوا الخبث ، واضلوا به ما شئتم ، ثم هودوا وضعوا اللبثار في كفة فينظر لكم ويبتسم بحجة . اصفروا غده وابصقوا بوجهه ودوسوا عقه ثم أجلسوه على موالدكم فيتناسى ويتهلل ويحل حزانه لينمو جوفه بما كللكم ومشاربكم . جدلوا حل اسم ربّه واظفوا بقائده واسخروا بإيمانه ، ثم ابعثوا اليه بجرّة من الخمر أو بسلة من الفاكهة فيساعكم ويبرركم أمام الله والناس »^(١) .

أما المظهر الخاص الثالث لسلطة الاجتماعية فأبرز ما يشتمل في أدبه بالأغنياء . فقد تلقوا من سهام عدائته العدد الأوفر سواء أكانوا حكاماً سياسيين أم أثرياء عاديين . وقد اتخذ انتفاضة عليهم ثلاثة مسارب : إبراز حقارة الفتي النفسية حيال سمو التقير الروحي ، وإشقاء الفتي بماله ، وإشقاؤه بحبه . فمرنا البائبة باسمة مظلومة ، وظالمها هو «ابن القصور ذو المال الكثير والنفس الصغيرة» ؛ وإن داستها نعال الأثرياء بقساوة ، فهي لم تحف عطرها ، وعزائها في كونها « زهرة مسحوقه » لا « قدماً ساحقة »^(٢) . ورشيد بك نعان إقطاعي ثري عاظم على التقاليد ، لكنّه سطحي التفكير ، مادّي الميول ، يحتجب لنفسه السخرية والاستهزاء ، « داست (وردة) قلبه وتركته ميتاً بين حوافر الحياة » ؛ في حين أن خصمه ، (عشيق وردة الفاني) ، فني فقير ، إنما وحي الميول ، ينسكب من حبه شعاع لطيف^(٣) . وفي « صراخ القبور » يبرز الأمير حاكماً شريراً يصدر على متهمين ضحاة أبرياء أحكاماً بالغة القساوة والقطاعة لأن « خصوصتهم أقرباء . ويقف جيران على قبور ضحايا السلطة متنهداً ولسان حاله يقول : « ولو لامست شعلات تنهدياتي أشجار ذلك الحقل لتحركت وتكرمت »

(١) المصدر السابق لنفسه ، ص ١٩٢ .

(٢) م . د . ج ١ - عرائس المروج ، ص ٨٥ .

(٣) د . د . ج ١ - الأرواح النمرقة ، ص ١٠٧ - ١٢٦ .

أما كنيتها وزحفَت كتابَ كتاب وحاربتَ بقضائها الأمير وجنوده، وهذمتْ
 يملوحها جدران الدبر على رؤوس رجاله^(١). وفي «مضجع المروس»، يحمل
 المريس غنياً مشرفاً، كهلاً غشياً سكيراً مثكلاً، كما يحمل المدحوبين المحتلين
 برسه على شاكلته، تُغريم الشهوات والافاذات الحسية، وتهمهم سطحياتُ
 الحياة وتوافهاتها، وينتهم بلسان المروس «بالخنازير»^(٢). وفي «خليل
 الكافر» يدع عدداً من الشيخ عباس يتقلبون ضدّه شامتين، والشعب يتألب عليه
 ناقماً، وراحيل تخاطب الجمع، مبرّرة عن غضب جبران على السلطة،
 بكلمات «تفرض» كالصواعق على رأس الشيخ: «ها قد أبانت السماء قاتل
 جاركم وأنبيكم وأوقفت أمامكم، فانظروا إليه واقروا جريمته مكتوبة على
 وجهه المصفر. انظروه متحملاً جازعاً. تأملوا كيف قد سترَ وجهه بيديه
 كيلا يرى عبودكم عذبةً إليه. انظروا السيد القوي مرتجفاً كالقصبه المرغومة.
 انظروا البليار العظيم مرتاعاً أمامكم كالعبد الخاطي». إن الله قد أراكم على
 حين غفلة غشياً هذا المقاتل الذي تخافونه، وأبان لكم النفس الشريرة التي
 جعلني أرملة بين نسائكم، وتركت ابنتي يتيمه بين أبنائكم^(٣). وفي
 «الأجنحة المتكسرة» يصبّ جبران جام تحقيره على منصور بك غالب،
 فيجمله «مادياً كالتراب وقليلاً كالقولاذ وطامعاً كالقيرة ..» «تخشد في
 نفسه وتتنازع» عناصرُ القاسد والمكروه مثلما تتقلب العقارب والأفاعي على
 جوانب الكهوف والمستنقعات. «كما يحمل» إزادة، «سلمى كرامه سامة
 الاخلاق روحانية المبول» حتى إن من يزورها به يكون قد قبّده «بسلال
 التكهن والتعزيم جسداً طاهراً بجيفة متنة»، جامعاً في قبضة الشريعة القاسدة
 روحاً سماوية بذات ترابية...^(٤) وفي «دمعة وإنسانة» يُقيم جبران

(١) المصدر السابق، ص ١٢٧ - ١٢٩ وعامة ص ١٣٨.

(٢) المصدر السابق، ص ١٤٠ - ١٤١.

(٣) المصدر السابق، ص ١٩٦ - ١٩٩.

(٤) ١. م. ك. ج. ٢ - ٣ أجنحة المتكسرة، ص ٨٦، ١٨١، ١٩١.

مقابلات تناول الغني والفقير في عدة مواقف ، مستهدفة تحقير الأول وتعجيد الثاني : يولد ابن الأمير فتهتف الجموع وتهزج لولادته ، غير دارين انه سيصبح حاكماً مطلقاً برفاههم ، ويولد ، في السكينة ، ابن الأرملة الفقيرة التي أمات رفيقها الضعيف تفسد الأمير المتسلط ، بينما سكان المدينة يمجّدون القوي ويحتفرون ذواتهم ، ويتغنّون باسم المستبد ، والملائكة تبهكي على صفرهم .^(١) ويحضر الموت أمام الغني « فاذا هو جبان ، خسيس النفس ، متشبّث بحطام الدنيا ، مُضجّ بكلّ غال لديه ، حتى يوحده ، في سبيل الإبقاء على حياته ، إذ إنّه « عبد الحياة الترابية » ، يقبض الموت نفسه ليفظها في الهواء . ويحضر أمام الفقير ، فاذا هو تائق إليه ، غير آسف على الحياة الدنيا ، إذ إنّ ابن الروح ، يأخذ الموت نفسه ويضعها تحت جناحه ليمعدها إلى الأبدية .^(٢) وبين الولادة والموت يقارن جيران مواقف الرئي بمواقف الفقير : فالأغنياء لا يأوون إلى أسرهم الناعمة ، قبل إطلالة الصباح ، وبعد أن يكون السهر قد أضناهم ، والخمرة استلبت عقولهم ، والرقص أرهقهم ، والقصف أذبلهم ، بينما يسهر الفقير بين زوجته وأولاده « فلا يخفي المزيج الأول من الليل حتى يكون الجميع مسلمين لملك الرقاد . وتطلع الشمس فهبّ الفقير إلى حقله ، يسقيه من عرق جيئه ، تحت وطأة الحرّ ، « ويستثمر ويطعم قواه أولئك الأغنياء الأقوياء الذين ... ما برحوا خاضعين لسنة الكرى الضيل في صروحهم الشاهقة »^(٣) . وإذ يستعرض ملوك الأرض وحكامها ويترامهم مُطْلَقِينَ في حرّيتهم واستبدادهم تحتذه المقارنة بينهم وبين الأسد « الملك السجين » في قفصه ، فيمجّده ليُزري بهم قاتلاً : « أمّا ملوكها فليست أسداً نظيرك بل هم مغاليق عجيبة لهم مناهد النور وبرائن الضيق والسنّة العقارب ونقيق الضفادع » .^(٤)

(١) م . ك . ج ٢ - دسة وابسامة ، « طفلان » ، ص ١٤٩ - ١٥٠ .

(٢) المصدر السابق ، « حنينان » ، ص ١٨٠ - ١٨١ .

(٣) المصدر السابق ، « بين الكوخ والقصر » ، ص ١٤٧ - ١٤٨ .

(٤) م . ك . ج ٣ - الموصف ، « الملك السجين » ، ص ٢٧ .

ولا يكفني جبران بتحقيق النفي وتمجيد الفقير فقط ، بل إن نزعته العدائية تقضي بأن يشقى الثري بماله وجبه . حتى النفي الذي تتيح له ملاسات جبران النفسية أن يكون شريف النفس . فماله أن يسمح له بحياة هنيئة . هكذا حكّم جبران على والد سلمي كرامه بالشقاء ، كما قضى عليها بالنفس . تقول سلمي لجبران : « أنا جارية أنزلني مالٌ والذي إلى ساحة النخاسين فارتاعني رجلٌ من بين الرجال » ، ويقول جبران قبلها : « إن أموال الآباء تكون في أكثر المواطن مجلبة لشقاء البنين ... فلو لم يكن فارس كرامه رجلاً غنياً لكانت سلمي اليوم حيةً تفرح مثلنا بنور الشمس » ^(١) . وإذا كانت تلك حال النفي النبيل الأخلاق ، فكيف حال الثري الخسيس ؟ في « أمس واليوم » ، يصور جبران نفسية الموسر ، فاذا لهم يواكبهُ ، والقلق يقرضهُ ، فيندكر ماضيه حينما كان راعياً للغنم . ويقارن بين حياته السابقة وحياته الراهنة : فاذا الفقر رفيق السعادة والطبيعة والطهر والحرية ، وإذا النفي رفيق الشقاء والمدنية والمهر والعبودية . ولا يطمئن جبران قبل أن يوزع النفي أمواله على الفقراء ، لأنها أموالهم ، ويعود إلى صفوفهم ^(٢) .

أما شقاء النفي بحبه فتستشف صورته في قصص جبران التي محورها الحب . ففي « رماد الأجيال » و« النار الخالدة » يشقى ناثن بحبه إذ يكون ثرياً ، ثم ينعم به إذ يولد فقيراً في تفتن لاحق ^(٣) . وفي « وردة الهاني » يقضي على رشيد بك نعمان بأن يفشل في حبه ويعيش حياة ناعسة لأنه في عداد الأغنياء . ^(٤) وفي « الأجنحة المتكسرة » كان لا بدّ لعدائية جبران ضد السلطة الاجتماعية من أن تجعل الصراع على الحب ينتهي باشقاء الخصم الثري ، فلا يتمتع بلحظة سعادة مع قريبته .

(١) م . ك . ج ٢ - الأجنحة المتكسرة ، ص ٤٦ و ٤٢ .

(٢) م . ك . ج ٢ - دمة وابسامة ، ص ١٢٥ - ١٢٧ .

(٣) م . ك . ج ١ - حرائر المروج ، ص ٦١ - ٧٤ .

(٤) م . ك . ج ١ - الأرواح المتسرعة ، ص ١٠٧ - ١٢٦ .

هذه النماذج من المظاهر الصريحة المتمثلة في إنتاج جيران لعدائته المستحكمة ضد السلطة في مختلف أشكالها الأبوية الطبيعية والدينية والاجتماعية لا يمكن أن تكون وليدة صدقة ، ذلك بأن لكل نتيجة سبباً ، فلا بد من أن تكون ثمار حركة نفسية وأعراض علّة باطنية يقتضى الكشف عنها ونبشُ جنورها.

٢ - محاولة تحليل المحور نفسياً :

لا بد ، أولاً ، من أن يوضح أن المعنى الشائع الذي ذأب الباحثون في أدب جيران على استشفافه في « البيئة » يكاد يقتصر على الناحية الجغرافية السكنية او الاجتماعية العامة ، خالياً من أي مدلول نفسي مُحدد مُصيب . فاذا أشاروا ، مثلاً ، إلى أنه نشأ في « بيئة » سادها الاستبداد أو الاقطاعية ، فانما يقصدون وطنه او بلدته . وهذا المدلول لا يناسب الباحث الأدبي المعتمد على مبادئ علم النفس ، إذ إنَّ البيئة ، في نظره ، هي مُجْمَلُ العوامل الظرفية المؤثرة التي يتلقاها الفرد منذ ابتداء حياته الرحمية حتى وفاته. فمعنى البيئة السيكولوجي دينامي ، إذ ليس وجود الشخص في مدينة ما يعني أنَّ الأنظمة والعدادات والأوضاع الاجتماعية والاقتصادية والأشياء المادية والأحداث التي فيها أصبحت تشكل بيئته الحقيقية ، فلا يدخل في بيئة المرء إلا ما يكون له أثر في خبراته الشخصية ^(١) ؛ ولذا ، فالمجال الذي تجري فيه التصرفات لا يُحدد خارج ذاتية الفرد ، فهو وسط ذاتي سيكولوجي سمّاه وكسكلُ « العالم المحيط » بالشخص ^(٢) ؛ والإحاطة ، هنا ، تعني جواراً نفسياً لا طبيعياً ^(٣) ، ينحصر في مراحل أخطرُها « مرحلة الطفولة » ^(٤) التي تكاد الأسرة تستأثر فيها بالتأثيرات الأبلغ في تكوين شخصية الطفل ^(٥) .

(١) انظر جيلفورد - مبادئ علم النفس ، مجلد ٢ ، ص ٢٩٩ .

(٢) UEXKULL . « العالم المحيط » ترجمة تقريبية لعبارة UMWELT الألمانية .

(٣) انظر D. HUISMAN, Encyclopédie de la psychologie, p. 30-31 .

(٤) درج علماء النفس على سجل الطفولة مرحلتين : أولى تنتهي في نحو الثالثة من العمر ، وثانية تنتهي في نحو الحادية عشرة .

(٥) انظر R. CATTELL, La personnalité, t. II, p. 462 .

واستناداً إلى ما أوضحنا ، فإنّ المقدّمات « اليشبة » التي غالباً ما يصدر الباحثون بها دراسة الأدب والأدباء ، لا تمتّ الكثير من محتوياتها بأية صلة إلى المجال النفسي الذي يحيط بالأدب حقاً ، وإن كان ثمة من رابط فلا يكون الرابط السيكلوجي الآمن . حتى إنّ بعضهم يصرف همه إلى إبراز صورة عصر بأكله على أنه بيئة الأديب ، فيجدّ في جلاء خطوطه الكبرى ويُسهب في وصف أحداثه الجمل . مستعياً عن « الطفوليّات » التي تكتنف ذلك الانسان ، فاسياً أنّ ما يُسهم في صياغة المرء ليس الحوادث الضخم لكن الأبلغ تأثيراً في نفسه ، والأصل في هزّ تكوينه ، والأرسخ جفوراً في لاوعيه ، وبكلمة ، الأقوى حضوراً وتغلغلاً في تجاربه الشخصية . فبعد الحميد والسلطنة العثمانية ، على ضخامتهما ، ما رأيناها أشدّ تأثيراً في مصير جبران الحياتيّ والفنيّ من هناتٍ طفوليّة لم يسبق باحثٌ أن قدّرَها حتى قدّرها وأنزلها المنزلة التي تستحقّ .

ولطفولة جبران دوران جليلان في بناء شخصيته وفنه : دور شعوريّ تستحيل فيه حلاوات الطفولة إلى ذكريات تظلّ عالقةً في خاطره ، حاضرةً في وعيه ، ترفد أحلامه ورؤاه الفنيّة ببراءةٍ مستحيّة وأخيلةٍ مُفتلدةٍ من عيطه الطبيعيّ ، ودور لاشعوريّ تحشد فيه أشياء من مرارات الطفولة ومُحظّرات الاجتماع وسائر ما انسحب من عقله الواعي ليحتلّ عقله الباطن ، مصعباً قوّة ديناميّة هي الأفضل والأقوى والأخطر في بناء مصيره الانسانيّ والفنيّ .

طفولة جبران الواحية بذكرياتها المستحيّة هي التي نستشفّها في قوله : « إنّ الأشياء التي يحبّها الطفل تبقى مطبوعةً بين أعشار قلبه حتى الشيخوخة ، وأجمل ما في هذه الحياة ... هو أنّ أرواحنا تبقى مرفرفة فوق الأماكن التي تمعّنا فيها بشيء من اللذة . وانا من الذين يحفظون ذكرى الأشياء مهما

كانت بعيدة ودقيقة ، ولا يدعون خيالاً من خيالها يضمحل مع الضباب .^(١) إنَّها الطفولة الهائلة الصفيّة التي واكبت خياله ودخلت إنتاجه متمشلةً في ذكرياته لعشرة لطيفة وسويّعات هنيئة كان يملأها أخوه بطرس بملاوة أغانيه ، لمأشاته السوافي متأملاً فيها عادياً معها ، لاستشرافه الطلول والشلالات والأودية العميقة والجبال السامقة المحيطة ببشري (صورة رقم ١ و ٢) . لفرحه مع الأشجار والأزهار والأطيّار وجلوسه قرب الكنائس والأديار^(٢) (صورة رقم ٣) ، للشمس الشارقة من وراء صتّين أو فم الميزاب والشمس الغاربة الحزينة الباكية ، للرعاة يتفَيّأون ظلّال الأشجار نافخين بشبّابهم ومغمضين سكينه البريّة بأنغامهم ، للصبايا يحملن الجرار على مناكهنّ^(٣) « القرويّ اللبناني يفلح الأرض أمام عين الشمس وقد كلّكت قطرات العرق جبينه وألوت المتاعب ظهره^(٤) ، لحكايات سحرية لفيلة كانت تلور « أيام الشتاء بقرب المواعد بينما التلّوج تساقط والأرياح تولول بين المنازل^(٥) » ، ليلة الميلاد يهبّ فيها إلى الكنيسة مع كلّ من في القرية ، فيجوسون العتمة ، على الثلج الصبيّق الهادي ، حاملين المتاعل ، حتّى إذا انتصف الليل صعدت الأجراس والشيوخ والأولاد نشيداً واحداً كأنه من مواليد الليل ، فيُخَبِّل لجبران الطفل ، عنده ، أن قبة الكنيسة الصغيرة قد انفتحت على السماء^(٦) .

هذه الطفولة الواعية الذكري ألّح إلى أثرها بعض الباحثين دونما حُكوفٍ على دراستها أو استكشاف عمّا وراءها ، وإياها عني الدكتور انطون غطّاس كرم حيث قال : « لا مربة بأنّ خوالج الطفولة وصورها ، ستظلّ

(١) من رسالة إلى ابن صه نخله جبران بتاريخ ١٥ آذار ١٩٠٨ . (رسائل جبران ، تقديم جميل جبر ، منشورات مكتبة بيروت ، ١٩٥١ ، ص ١٧) . وقد أبرزنا عبارة « تمثنت فيها بشي من الله للفت النظر إليها » وهذا القصد ينطبق على جميع الصبغات المبرزة في الدراسة .
(٢) انظر المرجع نفسه ص ١٦ و ١٧ . وكثيراً ما كانت غابة ديرمار سرّكيس مسرحاً لأحلامه .
(٣) انظر رسالة جبران إلى أمين الغريب في ٢٨ آذار ١٩٠٨ (رسائل جبران ، ص ٢٦ و ٢٧) .
(٤) انظر رسالة جبران إلى نخله جبران في ٢٧ أيلول ١٩١٠ (رسائل جبران ، ص ٢٩) .
(٥) انظر B. YOUNG, This man from Lebanon, p. 167.



شلالات قاديشا

(صورة رقم ١)



(صورة رقم ٢)

جبال بشري الشامخة واديتها العميقة



(صورة رقم ٣)

غابة مار سركيس

موصولة البقاء في معادلة الإبداع لديه ، وبأن جوانب الاختراع في لوحاته ، ورؤاه ، وحينه الربيعي ، وثورته الداخلية ، ونزعه الرومنطيقية ، وملاحم الطبيعة ونوعية الشعور بتلك الملاحم ، بكل ذلك النصص الصوفي الكوفي جيباً ، لا تُعْلَلُ بمزول عن جنود هذا التكوين الأول^(١) . لكنّها ، مع ذلك ، ليست الأهمّ في طفولة جبران ، ولا الأجلّ أثرًا في تكوينه النفسي . فشمّة طفولته اللاواعية بترعائها وميوها وأزمانها التي تفهقرت من أمام حضرة العقل الظاهر لتتجّع في غياهب العقل الباطن متحفّزة ومشكّلة أحد الأسباب القويّة النامضة للكآبة التي كانت تلفّ ذكريات طفولته الحلوة . فجبران كان يشعر بازدواجية القرح والحزن في نفسه أوان يحتاجه ذكريات صباه الأول ، لكنّه إن كان قادراً على تبيين سبب القرح ، فقد كان عاجزاً عن نبش سبب الكآبة ، لأنّ الأول في تناول يده ، أمّ الثاني فنان في أعماق لا شعوره ، ومع ذلك يلازمه حجباً ، على جهله إياه ، أقرب إليه ، على نأيه عن ذكرياته . وأعزّ على قلبه من حلاوة الأول ، مع مرارته . ذلك بأنّه بعدّ جلوره في أحداث وأوضاع كانت لها اليد الطولى في تخطيط مصيره وحبك نسج حياته . يقول جبران في رسالة جوابيّة إلى ابن عمّه نخله : « وصلت رسالتك في هذه الساعة وقد ألححت نفسي وأحزنتها في آن واحد ، لأنها أعادت إلى ذاكرتي رسوم تلك الأيام التي تفضّت كالأحلام ، ولم يبق منها سوى الأشباح الكثيرة التي تجمي مع نور النهار وتذهب مع ظلمة الليل ... وقد يكون احتفاطي بأشباح الأيام الغابرة سبباً لكآبتي وانقباضي في بعض الأحيان ، ولكنّي لو خيّرْتُ لما أبدلتُ بأحزان قلبي أفراح العالم كلها^(٢) . جبران يظنّ أنّ احتفاظه بذكرى الأيام القصيّة ، على تولّيها ، قد يكون سبب كآبته ، لكنّ ، أليس ظنه صميم الحقيقة أمّ ، نراه ، يلامس هامشها ؟ أفلا تُغَلّت العلة من قبضة شعوره الوضيء لتضطن في أغوار نفسه المعتمّة ، محصّنة

(١) الدكتور انطون عطاسي كرم - محاضرات في جبران خليل جبران ، ص ٢٠ .

(٢) من رسالة إلى ابن عمّه نخله جبران بتاريخ ١٥ آذار ١٩٠٨ (رسائل جبران ، ص ١٦ و ١٧) .

منبعة ؟ وهيهات ، إذ ذاك ، أن يبلغ فعل^١ الوعي من ذكرياته ما يبلغ فعلها^(١).

الدور الشعوري من طفولة جبران هو بمنزلة السطح من البحر تراه كل حين ، والدور اللاشعوري بمنزلة أعماق البحر لا يراها إلا الغائص فيها . الحركة التي تتولد على سطح البحر تبقى ملازمة سطحه ، لا تحرك إلا القشرة الخارجية ، أما الحركة العنيفة التي تولد في الأعماق فقد تنزل البحر كله مربيته وغير مربيته . هذه الخطورة اللاواعية في طفولة جبران ، بل طفولة كل فنان ، لم يعمرها دارسو شاعرنا اهتماماً وافياً ، بل لم ينتبهوا لها ، حتى أن الدكتور أنطون غطّاس كرم يجعل من الذكريات العالقة بخاطر جبران القيسم الواعية الوحيدة التي يُعَوَّل عليها ، معتبراً أن كل ما هو غير واع قد مات في ضمير صاحبه وزال بزواله^(٢) . وهنا تكمن إحدى المفارقات بين ما اعترفته هذه الدراسة وما آلت إليه الدراسات السابقة .

فقد استبان لنا أن الجوار الذاتي ، أو أن طفولته ، تبلورت فيه أحداث^٣ قد تكون نافهة في ذاتها ، لكن العوامل النفسية نشطتها ، جاعلة منها العناصر الأقوى جاذبية واستمراراً في مجال جبران النفسي ، بحيث شكلت بؤرة حية دينامية تمخضت بالأصل المحوري لمعاداة السلطة المهيمنة على قسم جليل من إنتاجه .

(١) ليس بوسع الانسان ، في الأغلب ، أن يكشف ، بنفسه ، ما انسحب من وعيه ، ويفهم حله اللاشعورية وحقيقتة . وقد يرفض التأويل والتحليل اللذين يحليهما المحلل ، لوانع نفسية ، لكن رفضه لا يؤثر في صحة الواقع الذي يكشفه الدرس والتحليل ، كما لا يؤثر إنكار متهم لاذنب اقترعه في إثبات الذنب عليه ، إذا توافرت الأدلة والقرائن ضدّه . انظر :

S. FREUD, Introduction à la psychanalyse, Payot, Paris, 1964, p. 37-47.

(٢) يقول الدكتور كرم : « كان أول ما يمول عليه شتات من الذكريات التي ظلت عالقة في خاطر جبران ، ترافقه كأنها وأحداث تأتيه من عالم الطفولة والصب ، فيستد من هذا العالم الأول متاحف رؤاه ، ومنه يستمد نوع الشعور الطلق البريء المزجج بالأحلام . عندها ينحصر هذا العهد الأول من حياته بخاطرات من الذكر ، ما دامت هي القيم الواعية المستقاة ، وما دام غير المدون منها وغير الواعي قد مات في ضمير صاحبه ، فزال بزواله ، واستحال الوقوف عليه » (محاضرات في جبران خليل جبران ، ص ١٦ و ١٧) .

أ - الأصل المحوري - الشعور بالدونية: إن إدراك الطفل وضعه الضعيف المتخلف بالنسبة الى البالغين يجعل كل وجود بشري، حسب رأي أدلر، يبدأ بشعور بالدونية، على تفاوت في القوة والضعف. ومن هذا الشعور تنطلق دوافع 'تأمين' للطفل غاية يترقب أن تمدّه بالراحة والطمأنينة وأمان المصير، وترسم الطريق إلى تلك الغاية^(١). لكن تحقيق التوازن انفعلي يقضي، بموجب قوانين النمو السوي، أن يتقبل الطفل راضياً ضعفه ونقصه بالقياس إلى الكبار، وهذا يلزم المربين فهم أوضاع الطفولة وعقليتها. بحيث تلائم أساليب التربية والمعاملة المستوى الذهني العاطفي الذي يكون الطفل عليه^(٢).

وإذا تحرّينا أساليب التربية السائدة جبال لبنان في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، رأيناها مبنية، في الغالب، على النظام الرادع القاسي المستصغر شأن الولد. فالأهل لا ينظرون بعين الجدل إلى مطالب أطفالهم، ولا يعرفون لهم بأي من حقوقهم إلا إذا أقرّوه هم حقاً. وفي حين أنهم يعاقبونهم على ذنوبهم الطفولية كأنهم راشدون، نراهم يفرضون الصمت عليهم في مجالس الكبار أو الانسحاب من حلقاتهم ومحافلهم، فضلاً عن أنهم يتخذون أعمالهم هزواً وتصرفاتهم سخرية^(٣). وهذا السلوك التربوي من شأنه أن يذكي حدة

(١) A. ADLER, Connaissance de l'homme, p. 63-64.

(٢) الدكتور يوسف مراد: مبادئ علم النفس العام، ص ٣٧٢.

(٣) عدة مقابلات مع قدامى بشري، صيف وخريف ١٩٦٨. ويبدو أن البشراويين كانوا يفرضون النظام التربوي الصارم بسرد حكايات الحرب والخساسة والبطولة على مسامع أطفالهم. (انظر الخوري اغناطيوس جميع - المشرق، مجلد ٣٠، ص ٥١١). وجدير بالذكر أن جو الاحترام العام لم يكن أقل صرامة من الجو التربوي. فقد ذكر الخوري جميع في مقاله حول بشري (المرجع السابق، ص ٣٦٧) أن أهلها كانوا يتبعون، في تأدية الاحترام، ما قيل في الكتاب المقدس: ان الله تعالى أمر موسى أن يخلع نعليه عند تقدمه إلى المليكة المضطربة نازلاً. ولذلك كانوا يخلعون الحذاء من أرجلهم، متقدمين حفاة، مطأطين الرؤوس، ولا يجلسون إلى أن يأذن لهم كبير المنزل. وإذا سحح بالثعابين كانوا يقولون: «دستو يا شيخ». وعند تركهم صاحب المقام كان رجوعهم وراء إلى أن يصيروا خارجاً. أما سلامهم فكان أولاً برمي اليد إلى الأرض، ثم وضعها على القلب، ثم وضعها على الرأس والرقم. غير أنه نقل إلينا أن هذه الطقوس الاحترامية داخلها بعض التعديل في أواخر القرن التاسع عشر.

الشعور بالذنب في نفسه الطفل ويجرّه الى أزمة نفسية شاملة ^(١).

في مثل هذا الإطار التربوي الخشن الصارم ، نشأ جبران ، يكتف بضبط المحيط عليه والد يصح أن نتمتع بما نعت به بيار دافكو كل منسلط ، ألا وهو : « الشخص المرهق » او « آكل الطاقة » ^(٢) . فقد كان متصفاً بمدة التهيج الغضبي التي اذا ما أضفنا اليها ثقافته البدائية ^(٣) ومشاداته مع زوجته ^(٤) ، وإدمانه الخمر ^(٥) ، وخلافه المتكرر مع شقيقه عجد ^(٦) ؛ تحصل لدينا أن بيت خليل جبران كان من البيوت التي يتعدّر أن ينمو الطفل فيها براحة وطمأنينة وحرية . بل إن تصرف الأب لزاء ابنه كان تصرف المتسلط المتحكم الذي لا يراعي حرية الشخصية ، ولا أوضاع الطفولة وحقوقها ، فهو يطلب من ولده أن يفهمه ويلبّي رغباته . بدل أن يحاول هو فهم عقلية صغيره وتأمين حاجاته النفسية . فخليل جبران كان لابنه الموهوب الحساس ^(٧) ،

(١) انظر A. ADLER, Connaissance de l'homme, p. 64-65.

(٢) P. DACO, Les prodigieuses victoires de la psychologie moderne, morabou, (٢) انظر أيضاً K. HAWI, K. Gibran, p. 82. استناداً إلى مقابلات أجراها سنة 1960, p. 133.

(٣) كانت ثقافته لا تتعدى معرفة بدائية بسيطة لقراءة والكتابة والحساب (عدة مقابلات صيف ١٩٦٨) . انظر أيضاً : K. HAWI, K. Gibran, p. 82. استناداً إلى مقابلات أجراها سنة ١٩٥٧ .

(٤) فشل زواج خليل جبران بكاملة وحده لكنه III عدة أشخاص منهم السيدتان أمسي حنا الصاهر وشمس طوق في مقابلة صيف ١٩٦٨ . انظر أيضاً : المكشوف ، عدد ١١١ ص ١٨ وكذلك : K. HAWI, K. Gibran, p. 83. استناداً إلى مقابلات أجراها سنة ١٩٥٧ .

(٥) عدة مقابلات صيف وخريف ١٩٦٨ . انظر أيضاً : لعمري - جبران خليل جبران ، ص ٢٣ و ٢٥ و ٢٦ و ٢٣ وكذلك : K. HAWI, K. Gibran, p. III.

(٦) نكثت لينا السيدة أمسي حنا الصاهر أن عجد جبران كان أشد إيماناً بالقسرة من شقيقه خليل ، وأشد طمعاً لدى سكره ، وكثيراً ما كان يرى في بيت أميه صانعاً مريداً يشاهده ، كما يراه الخزل أرماعاً .

(٧) إن سلوك جبران ولده كانا سرعين تجلت لهما حساسية التلهيق ، وتراوح بين رقة وهيفة وغضب حاد ؛ وهذه الإزدواجية وسعت منذ طفولته المبكرة حتى أيامه الأخيرة ، واكتسفت بهالة من التمدد والتمزق . (انظر أطول كرم - محاضرات في جبران خليل جبران ،

من جهة ، وادعاً قاسياً يُثير الرهبة في نفسه ، فيحطوه طفله ويغضاه بدل أن يحبّه ويحترمه ^(١) ، ومن جهة أخرى ، حاجزاً صفيحاً يصدّ ميوله ورغباته ويحاول سحق مواهبه وانطلاقاته . وكثيرة هي المناسبات التي كان الأب يُفرغ فيها جام غضبه على فتاه ، فيكيل له الضرب أو يخلد فراشه وكتبه في «نهر» البلدة ، فيفرّ المصير الوجيل من وجه والده الساحط ، ملتبساً إلى أحد أنسابه أو جيرانه ^(٢) . وقد تكون مناسبة الإثارة عند جبران أو إثارة المطالعة على ما أوكل إليه من رعي بقر وماعز ، أو رفضه مرافقة والده إلى مزرعة مرجحين ، أو انصرافه إلى «توسيع» جدران منزله بالتصاوير المهمة ، أو رسمه أحد زعماء المنطقة رسماً يحلو من الاحترام الواجب الوافي ^(٣) ، أو لإكبابه على

— ص ١١١ كذلك (B. YOUNG, This man... p. 145). إلا أن كفة التهج العنفي فيه كانت الرابضة ، كما يبدو ، عند كان نزاعاً إلى تذكر موافقه الانتمائية الساحطة ، وأما حدة طبعه الطفولي الكثائر . يخبرنا على لسان يانغ : «إذا صح التنقل ، أنه كان كلفاً بالمواصف منذ طفولته المبكرة ، ولأن الحالة النفسية المتضخمة في نفسه كانت تبيد في انقلابات المواقف ما يمررها ، ويقول : «لست أدري كيف احتلوني ... لقد كنت بركناً صغيراً ، كنت زائراً صغيراً» (B. YOUNG, This man from Lebanon, p. 3, 7).

(١) انظر K. HAWI, Gibran, p. 83.

(٢) مقابلة مع أسى حنا القضاير ، صيف ١٩٦٨ . وقد أثيرنا السبعة المذكورة أن جبران كثيراً ما كان يهرب من سنط والده ، لاجئاً إلى منزل أحد جيرانه من آل حنا القضاير . (٣) نقلت القصة أسى حنا القضاير ، صيف ١٩٦٨ ، أن جبران رسم مرة على جدار الغرفة التي أقامت فيها أسرته والمكائنة في بناطه راعي بك حنا القضاير حاكم المنطقة ، صورة هذا الأخير ، لكن عالية من الرأس . أنظر أيضاً : سليم البزري ، في بلدة جبران ، المصور ٢٩ نيسان ١٩٥٥ ، ص ٢٨ . وقد أصر القصة على حنا القضاير أنهم اقترحوا خطأ جسيماً حينما طرخوا جدران الغرفة للملكية وألفوا التصوير عليها ، إذ كان بالإمكان الاستفادة من قمتها الطفولية المتأرجحة . وقد تكون موجبة جبران تحركت إثر الإحساس على جملته من رسوم ليوناردو دافنتي وصلته به أمه . وتجليل بربره يانغ هذا الحادث بضعه في السلسلة من صوره ، وتذكر ، نقلاً عن جبران ، «إذا صح التنقل ، أنه بعد أن قلب صفحات المجلد ، لبضع لحظات ، انقلب باكياً وأسل من الغرفة متأثراً بنشد الفرحنة . وقد أحب ، من بعد ، ليوناردو حياً عظيماً . وكان أبوه يتهمه إذا ما رآه ساعياً تائباً أمام جملته الرسوم ، فيجيبه صارخاً : «مالك ولي ؟ أنا لظالم» (B. YOUNG, This man... p. 7). أما حصر تلك الرسوم

ملء حواشي كتبه المدرسية بصُور الأشخاص والحيوانات والرياحين^(١) ، أو الفزاة قرب دبر مار سركيس يُصوّر أشياء بالقلم أو القلم^(٢) . ولما كان مقياس الولد الناجح في تلك الربوع ، عهدت ، نشاطه في معاونة والده وسُجمل أسرته ، وذكاءه العملي الضمي ، فقد اعتبر خليل جبران ابنه قاشلاً ومُحبباً الآمال ، وجهت في الحيلولة دون تفاقم «جنونه» . فضلاً عن أن انصرافه إلى التصوير دون أثرابه ، وشغوفه في تصريفاته الخيالية الحائلة عن مجسوع رفاقه — إذ كثيراً ما لوحظ ، منفرداً ، يتأمل في ساقية تجري أو في رجة الأحصاق أو شمسة الأعمالي ، أو يتفعل كتبياً في حقل أو غابة ، أو يسترق ، واهجداً ، في نسمة ناي^(٣) — جعلنا الكثيرين من العامة في المنطقة يتحدكون عن جبران «الأهل» أو «المجنون» وعن جبران «المسكون»^(٤) .

وتُصارى القول إن جبران لم يُسَحِّ له ، في هذا الوسط السلطي المُرَق ، أن ينمو بحرية ويظهر للآخرين عاري الحقيقة ، وأن ينعم في ظل والده بحلاوة الطمأنينة وحسن المعاملة^(٥) . فإقراط القسوة عليه ، وتشديد الضغط ، وصد-

— فقيه عدة فروغ : إما أن تكون أنه قد استطاعها من البرازيل ، وإما أن تكون من مقنيات جده الخوري اسطفان رحمه ، وإما أن تكون قد بلغت الأسرة من إرسالية إيطالية تألفت في بشري في القرن التاسع عشر . أما ما ذكره شارل القرم (مجلة الرسالة مجلد ١ ، عدد ٧ ، ص ٥) من أن والده دأود قد وصل جبران بمختارات من رسوم أعلام النهضة الإيطالية بعد انتمائه إلى مدرسة الحكمة ، فلا علاقة له بالمجموعة التي وقعت لجبران في طفولته .

(١) حبيب سمود - جبران حياً وميتاً ، ص ١٢ (نقلاً عن بحث لم يذكر اسمه) .

(٢) عدة مقابلات ، صيف ١٩٦٨ ، انظر كذلك « المصور » ٢٩ نيسان ١٩٥٥ ، ص ٢٨ .

(٣) حبيب سمود - جبران حياً وميتاً ، ص ١٢ و ١٣ (نقلاً عن رفاق جبران لم يذكر أسمائهم) .

(٤) عدة مقابلات في صيف وخريف ١٩٦٨ . وقد شد عن ولي العامة قليلون من المثقفين أبرزهم

سليم حنا الصاهر الذي استشف وراء شغوف جبران لبثني نبوغ ، حبساً ذكرت لنا نسبته السيد المصطفى حنا الصاهر ، خطب عليه وأكثر من ملازمته حتى أثارت رفاقه له شائعة بمضهم فكانوا يرددون : « ماك وطفلا الولد تملي معه ، وأنت الطبيب الكبير » ؟ .

(٥) انظر المجلد ٣ ، عدد ١٠٦ ، ص ٩ : رواية بولس فيلطار كيروز ، وهو ابن

عمة جبران (لا ابن خاتمه حبساً أعلن أنه كثير انطون كرم - محاضرات في جبران ، ص ١٢ ،

خليل والده بولس هي شقيقة خليل جبران) .

رغبته ، وازدراء مطالبه ، وتجاهل حقوقه ، واحتقار شأنه ، ومعاكسته في ميوله وحاجاته ، قد تكون أثارت في نفسه ، ربما منذ السنة الثانية ، تضحكاً في شعوره بالدونية ، وبالتالي رفضاً قاطعاً لواقعه ، مما جعله يبحث عن كل ما يؤمن له التمييز النفسي الكافي .

وأرجح الفطن "أن" الأوضاع التي اكتنفت طفولة جبران الثانية وصباه قد ساعدت على تعزيز شعوره بالدونية وترسيخه . فالمدرسة التي تلقى فيها علومه الابتدائية كانت ، شأن سائر المدارس عهدئذ ، مشحوناً بنظامها بالقسوة والمعاملة المذلّة للشخصية ، بحيث يسوغ القول إن "قضيّب الأب سمعان" (١) كان ، في نفس جبران ، امتداداً لسلط والده . كذلك فتوح أبيه بالعمل والحياة النافهين وقصوده عن طلب الجلي (٢) وعُسر حاله (٣) ، في بيئة كان قوام التضامير فيها

(١) أنه لما أصبح من ثابلاً ، في صيف ونهرين ١٩٦٨ ، من قداس كيرشرايين ، أن المسألة القسرية المهيبة كانت جزءاً لا يتجزأ من نظام مدارس المنطقة ، عهدئذ . انظر أيضاً : جيل جبر - جبران ، ص ١٨ ، كذلك K. HAWI, K. Gibran, p. 183 .

(٢) كانت غاية خليل جبران من الحياة تقتصر ، بعد زواجه ، على محاربة القسوة وإدخال التبغ والقهوة . أما عمله فكان موزعاً بين تعداد الأديام والماعز ، على ظهر الحصان ، في جرد بشرى وجوارحه وجباية الرسوم من أصحابها لقاء أجرة يتقاضاه من التصرفية ، ولحصانه بما يملك في مزرعة مرجعين (من أصال الحرم - لبنان) . عدة مقابلات ، صيف ونهرين ١٩٦٨ .

(٣) نطقت البنت السيدة أسى القصار ، صيف ١٩٦٨ ، أن والد جبران ، فضلاً عن الأمير الخلي كان يتقاضاه من التصرفية ، كان يدفعه نحو خمس مئة مد قصب في العام من مزرعة مرجعين التي كان يملك القسم الأكبر منها ، مع بعض قطبان من الماعز (انظر أيضاً الدكتور انطون كرم - محاضرات في جبران ، ص ١١ و ١٢) . كذلك كان يملك ، في بشرى ، فضلاً عن منزله المتألف من غرفة وحيمة ، حائزاً لبيع الأقمشة ، ويرجع أن يطرس كان يدهم . ويبلغ من وادائه وأبلاكه أنه لم يكن فقيراً أبداً كما اتحد بعض المدارس إظهاره ، ولا ناصاً في فردا ومحبوبة كما حلا لآخرين ليرازده ، إنما كان أقرب إلى متوسط العيش . لكن نظراً لعدد أفراد الأسرة وسهول الحياة العامة ، من جهة ، ولاتساع مصروف القراء الشخصي على قوته وتبته وعسرته ، لم يكن يعمل ليلين للأسرة وغنى اقتصادياً مريحاً ، بحيث يمكن القول أنها كانت في صرلاً في بصر .

الرأى والمجد والجاه ، لا بدّ من أن تكون جميعها قد أسهمت في شعور شعوره بالدونية محمّلة إياه معنى اجتماعياً إضافياً منذ طفولته الثانية . ولعلّ أحد العوامل الفعّالة في إذكاء هذا الشعور ، بوجهه البليد ، وهي جيران أن أسرته تسكن بيتاً ضيقاً ذا غرفة واحدة (صورة رقم ١٥) في حين أنه ، على بضعة أمتار فقط منه ، يدلّ قصرٌ بطوي على نحو سبع عشرة غرفة يسكنه حاكم المنطقة راجي حنا الضاهر ^(١) . علاوة على ذلك ، فقد انتقلت الأسرة ، وجيران في نحو السادسة من عمره . إلى السكن . اضطراراً ، في القبر ذي الغرفة الواحدة ، المستوي قاعدةً علفيةً تحت ذلك القصر القمقم ^(٢) (صورة رقم ٦ و٧).

ب - الروايات الطارئة : يبدو أنّ أزمة الشعور بالدونية تبدل أن تتحلّ انحلالاً طبعياً بعد مفارقة جيران عهد الطفولة وولوجه طور المراهقة والشباب ، أحدثت تتعدّد وتفاقم تأزمها في نفسه ، مفتتيةً بروايات طارئة جديدة ، ومصحبةً ، على الأرجح ، ضرباً من العصاب . هكذا ، انتقل جيران من حالة كان يمكن أن تبني جزئية عارضة ، لو سحقت لها الظروف ، إلى وضع مَرَضِيّ قسريّ دائم تظهر أعراضه وتنعكس ردود فعله على شخصيته ، سلوكاً وإنتاجاً ، في مختلف الأحوال ^(٣) . أمّ الروايات الطارئة فقد ولّغتها ظروفٌ وأحداثٌ مفاجئة

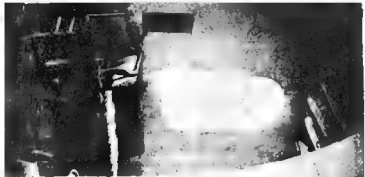
(١) انقلنا صورة هذا القصر ، صيف ١٩٦٨ ، وقد برشر عنه (صورة رقم ٧) .

(٢) عدة مقالات ، صيف ١٩٦٨ ، مع أفراد من آل حنا الضاهر ، ولا سيما السيدة أسي . لم ينتج لنا اكتشاف الأسباب الحقيقية لانتقال أسرة جيران إلى السكن الجديد الذي لا يبعد عن الأول سوى بضعة أمتار . لكننا نرجح أن البيت الأصلي أصابه القضي ، ولم يتمكن والده جيران من إصلاحه ، فأخذ الانتقال إلى قبر الحاكم الجوار ، وقد كان يلقي له مع أرائه بعض الكلمات . وبنت جيران الأصلي ، كما يشاهد حالياً ، في بئر ، أدخلت فيه إصلاحات جمة .

(٣) انظر في ما يخص تأثير الشعور بالدونية في حياة الطفل ومصوره :

A. ADLER, *Connaissance de l'homme*, p. 63-64.

. F. DACO, *Prodigieuses victoires de la psychologie moderne*, p. 212.





منزل جبران الأسيل بعد ترميمه وتحسين جواره (صورة رقم ٥)



مسكن جبران في طفولته الثانية : قبو يشكل قاعدة خلفية لقصر الحاكم
(صورة رقم ٦)



(صورة رقم ٧)

أطلال قصر الحاكم راجي بك حنا الشاهر



(صورة رقم ٨)

منزل حلا الشاهر باقيا على قدمه

أطلعها عليه سيرُ الحياة ، فأرغفت إحساسه بالتقص والمذلة ، وضاعفت الشحنات المكبوتة في لاوعيه . ولن يفيدنا تقرّي دقائقها وتعاريفها ، فحسبنا منها ما سطعت دلالاته ونفدت تأثيره في مراهمته وشبابه .

فقد نُقِلَ إلينا ^(١) أن جبران بعد أن أنهى دروسه الابتدائية في مدرسة القرية ، واجتذب سلوكه الشاذ - بالنسبة الى محيطه - انتباه سليم منصور حنا الضاهر ^(٢) وعطفه ، أخذ الطبيب الشاعر يُذكي شوق الصبي الى الاستزادة من المعرفة ، ويحتمسه لاستكمال دروسه في معهد الحكمة البيروني حيث تلقى هو علومه . ولأقت الفكرة المينورة في نفس جبران أرضاً طيبة ، فتمت سريعاً . وذات أمسية رافق الفتى أباه الى منزل آل طنّوس الضاهر ، وأنصت الى والده يسأل الشيخ ، في خشوع ، أن يعلم ابنه على نفقته « اذا أمكن » ، في معهد الحكمة . وتولّى الإجابة أحد أنبياء الشيخ الحاضرين ، فنصح الصبي أن يبحث عن عترة يرعاها ، فتفقه أكثر من المدرسة ، وعلى الأثر ، غادر جبران منزل الضاهر خجلاً مضطرباً ^(٣) . ولا بدّ من أن تكون نفس جبران الحساسة ، بل البالغة التهيّج ، اجتاحتها حينئذ موجة جديدة من انفعالات الدونية « ستسيم آثارها سلوكه وإنتاجه ، مع الأيام .

(١) مقابلة مع السيدة أسي الضاهر ، صيف ١٩٦٨ .

(٢) ورد في « تاريخ بشري » الحوري فرنسيس رحمه (ص ٤٤٠ - ٤٤٢) : أن « سليم منصور حنا الضاهر » كان نشاطياً بارعاً وشارعاً محمداً . أبصر النور في بشري سنة ١٨٦٥ ، وأتم دروسه الابتدائية والثانوية في مدرسة الحكمة . وقد ضرب بهمم وافر في أدب الفنين حتى أخذ بأزمة النظم والنثر ، وكان له من ذلك مجموعة ثمينة لمبت بها أيدي الضياع . توفي سنة ١٩١٠ .

(٣) روى جميل جبر ما يشبه هذا الخبر ، لكنه لم يذكر في روايته سليم حنا الضاهر وعلاقته بجبران ، ولا المصدر الذي استقى منه خبره . انظر كتابه : جبران ، ص ١٨ و ١٩ .

وما انْ نَزَحَ جبران الى بوسطن ^(١) ، بصحبة أمه وأخيه وأخوانه ^(٢) ، هارباً من الجوع والضغوط الخاق - جوَّ أبيه المستلَّط وامتداداته المحقَّرة - حتى وجد نفسه مُرغمًا على القطن ، ثانيةً ، في مسكنٍ وضيقٍ يقوم في الحسبيّ الصينيّ ، أقفل أحياء المدينة وأقفرها عهدئذ ^(٣) ، فانطوى على نفسه يميناً شعوره بالدونية وقد تفاقم ألماً وعفناً ، وانداحت انمكاساته وأصدائه في شخصيته .

(١) انقل معظم القارئين حل أن أسرة جبران هاجرت ، باستثناء الأب ، إلى بوسطن ، سنة ١٨٩٥ . ويحدد ايليا أبو ماضي تاريخ وصولها في شهر حزيران من هذا العام (مجلة السير ، المجلد ٣ ، عدد ٣ ، ص ٥٢) ؛ بينما يمينه جميل جبر في أوائل السنة (جبران ٢ ص ٢٠) . ويشذ عن هذا الرأي الدكتور خليل حاوي إذ يحسب سنة ١٨٩٤ ، مستعاً ، كما يبدو ، إلى مقابلات أجراها في صيف ١٩٥٧ (K. HAWI, Gibran, p. 84) . ولدى استفتائنا قدامى بشري لم يتحصل لدينا ما ينقطع به الأمر .

(٢) تزوجت كاملة رحة ، في قرآن أول ، نسيها حنا عبد السلام رحة ، وصحبت إلى البرازيل حيث توفي خلفاً ابناً وحيداً هو بطرس . وقد عادت به أمه إلى مسقط رأسها حيث افتن بصوتها وأولع بها خليل جبران . وقد رزقت من زواجها به جبران وهو البكر ويصغر بطرس بست سنوات ، ثم مريانه وتصغر جبران بثلاث سنوات ، فسلطانة وتصفره بنفس سنوات . (يجمع كل ذلك مؤرخو جبران وعارفو أسرته . انظر ، بخاصة ، مجلة السير المجلد ٣ ، العدد ٢ ، ص ٥٢) .

(٣) مقابلة ، صيف ١٩٦٧ ، مع السيدة شمس طوق التي كانت تسكن أسرة جبران مبنى واحداً في بوسطن . انظر ، أيضاً ، جميل جبر : جبران ، ص ٢٠ ؛ ونعيمه : جبران خليل جبران ، ص ٣٦ ، وما يقوله الأخير كشاهد عيان :

« في بوسطن أحياء مختلفة لمختلف الأميركيين الدنلاء . وكلها حقير وقذر . وأحقرها وأقارها هي الصينيين . مروت فيه يوماً ، في صيف سنة ١٩٢٥ ، فكنت أضيق متديلاً على أنفي لشدة الروائح المتصاعدة من كوم الأقدار الملقاة في الشوارع وفيها تشور البطيخ والبيض والموز وانتشرت المطابخ السابحة في بحيرات صغيرة من السوائل اللزجة . ولذباب عليها أمراس ومهرجانات . والكلاب فيها صيد وفير . وعن جانبيها بيوت كالمخاريط الجدران عابسة الداخل تطل حليق من بعض نوافذها قصان وكلسونات تنشف في الهواء إن عزت الشمس ، وأسماها صبية وبناث من صينيين وسوريين وإيرلنديين ولعبيون وينشاجون وينشاجرون . ذلك هو الحي الذي اختاره في بدء هجرتهم أكثر السوريين الذين فصلوا بوسطن للارتقاء . فجاورت فيه تارجيلة التيباك تارجيلة الأفيون ، وكان بينهما ما يكون بين الجيران . ولك أن تصور لنفسك هذا الحي كيف كان في عام ١٨٩٥ حين حلت فيه كاملة رحة جبران مع أولادها الأربعة » .

وعهدَ حلّوله الثاني في لبنان^(١) ، استكمالاً لتعلّمه في معهد الحكمة ، أخذ يُوالي تردّده ، صيفاً ، الى منزل الشيخ طنوس الضاهر الذي اجتذبت ابنته الحلوة (حلا) قلب الفتى الطامع العائد^(٢) . لكن شقيقها الشيخ اسكندر^(٣) أثاره طمعُ « ابن راعي الماعز » في حبّ أخته ، فحطّر عليها مقابلته ، وأوصل اليه من يبلّغه كلاماً تقلّدَ في نفسه ولا نفاذَ المدية^(٤) . ولم يكن خوري القرية

(١) وصل جبران إلى بيروت في ٣ آب سنة ١٨٩٨ ، وذلك خلافاً لما ذكر معظم الدارسين من قبل ، وهذا التاريخ مكتوب بخط يده في الورقة الأخيرة من كتاب حمله معه من أميركا في جملة كتب إنكليزية كانت ما تزال محفوظة في حوزة ابن عمته بولس البطار كيروز في بشري منذ عام ١٨٩٨ . ويظهر أن جبران كان يمضي عطلة الصيف في بيت نسيه بولس ، إذ لم يكن في القرية من يخدمه . وقد ساكنه قرابة ستة أشهر . أما الكتاب فهو :

THOMAS BULFINCH, The Age of the Fable, Beauties of Mythology, Tilton & Co., Boston, 1871 (488 p.).

وهو هدية تلقاها جبران من FRED HOLLAND DAY مصور معروف في بوسطن عرض رسوم جبران للمرة الاولى سنة ١٩٠٤ (B. YOUNG, This man from Lebanon, p. 185) . انظر الدكتور أنطون غطاس كرم - محاضرات في جبران ، ص ٢٥ و ٢٦ .

(٢) كانت تكبر جبران بعامين . ويذكر جيل جبر أنها وقفت من جبران موقفاً عطوفاً مؤثراً يوم نصحه معها الشيخ عزيز بالتفكير عن عزّة ؛ وقد كانت يومئذ في عامها الثالث عشر . ولكن الباحث لم يذكر المصدر الذي استقى منه الخبر .

(٣) أبلقتنا السيدة أسمى حنا الضاهر أن الشيخ اسكندر لم يكن حاكم المنطقة (كما ذكر الدكتور خليل حاوي في K. Gibran, p. 88) ، ولم يشغل أية وظيفة عائلة او مقاربة ، إلا أنه حين ، في أواخر حياته ، كاتباً عدلاً في منطقة بشري . والصدارة في آل الضاهر لم تكن ، آنذاك ، لشيخ طنوس أو ابنة اسكندر ، بل لراعي بك حنا الضاهر . وفي حين أن هذا الأخير كان صاحب قصر تناصر غرغه السبع عشرة ، فنزل الشيخ طنوس ، والده حلا (انظر الصورة رقم ٨) ، لم تكن غرغه تجلوز الثلاث .

(٤) نقلت الينا السيدة أسمى الضاهر أن جبران أبلغ ما كان يردده الشيخ طنوس : « السراية ان انحط لها شكله الماس ما ينتحط على الراس » . وأضافت أن والده حلا كان يحب طلاب بناته : « اطلع لسند ربنا وقل له ليش خلقتي تحت وخلقتهن فوق » . وقد تبين لنا أن آل الضاهر كانوا يؤثرون إبقاء بناتهم حازبات على أن يزوجوهن من لا يساووهن في الدرجة الاجتماعية .

المؤيد لرأي الشيخ ^(١) إلا ليدفع في نفس جبران جرعات جديدة كثيفة من الإحساس بالنقص والمهانة ، ويزيد الأهل المعنوي حدةً وتقيداً . فلا يبارح الفنى عهد المرافقة إلا تكون نفسه قد أصبحت فريسة وحش الشعور بالدونية الثلث الأروى : التسلط الأبوي ، والتسلط الاجتماعي ، والتسلط الديني . ووحده الأول كان كافياً ليجتاح شخصيته ، ويمتص طاقته ، فكيف وقد نَبَتَ الى جانبه رأسان ضاريان !

أما في عهد الشباب فقد نَكَثَتْ في نفسه الجرح ، وضاعفت فزيفه ، اليدُ التي طالما قبلها وباركها في رسائله ، وتوسم فيها مصلاً العزاء ^(٢) ، أمني ماري هاسكل . ولعل أول صلعة أنزلتها به تفضيلها صديقته شارلوت ^(٣) عليه ، ما بين ١٩١٠ - ١٩١١ . والتفضيل كان يعني لجبران إلحاحاً على دوفيته ، لا بالنسبة للرجال فحسب ، بل بالنسبة للنساء أيضاً . تذكر هاسكل ، في يوميات حزيران ١٩١٥ ، أن جبران باح لها بعظم الآلام التي منته بها في مرحلة المفاضلة تلك ، ويضيف قائلاً : « ولو أنك خطوت خطوة أخرى الى الأمام ، لقلت لك : إنني أكرهك ! ولا أريد أن أرى وجهك قط من جديد ما دعت حية ! » ^(٤) . واستعود دوفيته المكبوتة لتنفجر سنة ١٩١٣ ، إثر تصرفات قاسية بدرت منها نحوه وآذته في كرامته ورجولته إيذاءً مرّاً ^(٥) . وفي رسالة مهيبة الى جبران (تموز ١٩١٥) ، تعرّف ماري

(١) مقابلة مع السيدة أمى الضاهر . أكد الخبر أيضاً جميل جبر : جبران ، ص ٢٧ . ولكنه لم يذكر المصدر الذي استقاه منه .

(٢) سنوضح دورها هنا في محور الأم .

(٣) إينى السيناتور تيلر Teller of Denver ، كاتبة مسرحية ، برزت في عصرها كفائفة من حق المرأة في الانتخابات . كانت صديقة ماري هاسكل الحميمية ، وقد صورها جبران . (The Letters of K. Gibran and M. Haskell, Preface & p. 2) .

(٤) توفيق صايغ : أضواء جديدة على جبران ، ص ٩٤ .

(٥) تكتب ماري هاسكل في مذكراتها هذا العام أن جبران قال لها : « لقد آذيتني كما لم يؤذي انسان آخر قط . ليس لأحد مالت أنت من قوة على إيذائي . لقد قلت لي أشياء مرة جداً لم يقلها لي أحد ما قط . لقد جعلتني أنأثم أكثر تقريباً مما جعلني أي شيء في حياتي ... » ، إل أن يقول لها : « أنا مثل طفل ، ولست مثل كلب » (المصدر السابق ، ص ٩١) .

بذنبها ، وبصرها إياه في صحته وإنتاجه وموقفه من الناس ، وبجملها شخصيته ، وتقدم على ذلك ، مبديةً عجلها من تصرفها السابق . ومما تقول : « إن نفسي عاملتك ، كأنك دوني » ^(١) .

أخيراً ، نذكر أمراً كان ذا أثر فعال في إذكاء الشعور بالدونية في نفس جبران ، وهو وعيه ، في أواخر العقد الثالث من عمره ، أنه ذو جسم ضعيف صغير الحجم يجعل فئة من النساء لا يشعرن بوجوده ، وذلك بعد تعريضه هاسكل به ^(٢) . وقد لاحظت بربارة يانغ ، أيضاً ، أن قصير قامته كان يربكه ويُعبطه دوماً ^(٣) . وذكرت أنه قال عن النساء اللواتي يظهرن حبه : « إنهنَّ يُحِبِّينَ في الشاعر والرسام ، ويتمنَّين لو يملكنَّ بعضه . أما أنا ذاتي - فلنهنَّ لا يصرفني ولا يعرفني ولا يحبيني » ^(٤) .

ولا ريب في أن جبران كان مدركاً ، منذ حدثته ، أنه صغير البنية ، ولكنَّ شعوره الناتج عن وضعه الجسماني بقي مكتوماً حتى هتكت الحجاب عنه بدو صديقته الأمريكية ، فتبدت ، إذ ذاك ، حقيقة المؤلة الجارحة . وسبَّحت ذلك فيه آثاراً نفسية واعية ولا واعية نلَّع إليها في سياق كلامنا على الأعراض الارتدادية التي ولدها الشعور بالدونية في سلوكه ، وخاصةً في محاولته إثبات رجولته تجاه المرأة .

خلاصة ما قدَّمنا أن محور الشعور بالدونية ولَّده في نفس جبران الطفل تسلطُ والده وقوته ، وضاعفت حركته الامتداداتُ التسلطية الأخرى ، ثمَّ عززت نشاطه روافدُ طارئة في صباه ومراهقته وشبابه ، كان من أهمها إحساسه بدونية وضعه الاجتماعي إزاء أهل السلطة والبراء ، ودونية وضعه

(١) The Letters of K. Gibran and M. Haskell, p. 431.

(٢) مذكرات هاسكل ١٩١٥ . انظر توفيق صايغ : أضواء جديدة على جبران ، ص ٩٧ .

(٣) B. YOUNG, This man from Lebanon, p. 126.

(٤) تذكر يانغ في المصدر نفسه أن طول جبران لم يتجاوز خمس أقدام وثلاث أو أربع بوصات
Ibid., p. 129.

الجسماني حيال النساء والأصحاء الأشداء . وقد مدّ هذا المحور حقول جاذبيته على جميع أقطار حياته ، وكانت له تأثيرات مباشرة ، وتأثيرات ارتدادية غير مباشرة في تصرفاته ومتجانه .

ج - الأعراض المباشرة للشعور باللونية في سلوكه : أما التأثيرات المباشرة فهي رأس أعراضها يبرز الخجل والخوف من « الأشياء الكبيرة » . فالتخجل عُرِفَ جبران به ، منذ صغره . وقد عجز ذكائه وتفوقه على أثرابه عن القضاء عليه ، لأنه من آثار اللونية اللاواعية . وتبدّت مظاهر خجله في سلوكه العام ، كما في مواقفه من الأمور الجنسية . فالحياء كان ييمن عليه في المجالس ، فيعروه الارتباك ولاسيما في المواقف المفاجئة ^(١) ، مُدْ كان صغيراً . وستلازمه هذه الحالة الشاذة في كل مراحل حياته . فهي باريس يشهد عليها يوسف الخوريك ^(٢) ، كما تشهد عليها في أميركا ماري هاسكل ^(٣) ، ثم بربارة يانغ التي ذكرت ارتباطه وتردّده في استقبال الناس وردوده عليهم ومخالطتهم ^(٤) .

أما تصرفه الجنسي فالحياء كان يشوبه أيضاً ، منذ لقاءاته الواعية الأولى مع النساء . فموقفه من حلا الضاهر كان موقف الخجل المضطرب لا الوقح الجريء ^(٥) ، كما يروق بعضهم أن يُظهِره ، كذلك سلوكه ، في باريس « إزاء الحسن حتى القواني يحلسن له عارياتٍ ليرسمهن » ، كانت مغمورة بالحياء ^(٦) .

(١) السيدتان أسى الضاهر وشمس طرق .

(٢) الخوريك : ذكر ياتي مع جبران ، ص ١٤٦ .

(٣) مذكرات هاسكل ١٩١٥ ، انظر صايغ : أعضاء جديدة على جبران ، ص ٩٢ .

(٤) B. YOUNG, This man from Lebanon, p. 12.

(٥) أكدت لنا ذلك السيدة أسى الضاهر . ويبدو أن سيدة الضاهر أخت حلا أكدت لخليل حاوي في مقابلة لها سنة ١٩٥٧ . ويظهر أنها كانت تحضر لقاءات جبران لشقيقتها . انظر :

K. HAWI, K. Gibran, p. 88.

(٦) يخبرنا صديقه يوسف الخوريك أن روزينا - وهي فتاة إيطالية فقيرة بسيطة ، كان تجلس عارية أمام جبران ليرسمها - غلبت ثيابها مرة ، إذ كان مريضاً ، فلهذا سلسلة وثلاثة أسلور غبية كانت معه ، ففرحت روزينا بها فرحاً عظيماً ، ثم سارعت لتلصق يد جبران لقبها ، فقال لها يوسف :

وسنة ١٩١٢ ، يوح جبران لصديقه هاسكل أنه ظلّ صبيّاً من الناحية الجسدية حتى وقت متأخر ، فهو لم يبلغ طور الرجولة النفسية إلاّ قبل أربع سنوات أو خمس ، وأنه كان حبيّاً يصارع خجله^(١). لكن هذا الخفر الجنسي ، إن كان وراءه محور الشعور باللونية ، ففي أساسه أيضاً بواعث أخرى ، نرجى الحديث عنها الى مواضعها .

أمّا المَرَض الآخر فهو الخوف من الأشياء الكبيرة . يقول جبران لماري هاسكل سنة ١٩١١ : « طيلة حياتي كنتُ أخاف - ربما لم تكن « أخاف » الكلمة المناسبة - أحجم عن الأشياء الكبيرة الجبّارة - عارفاً أنها موجودة ، أحبّها وأرغب فيها كأنما سرّياً - لكن أخاف من مواجهتها . كنتُ أنصرف الى ما هو جميل ، ما هو لطيف ، ما هو رفيق ، ما هو مُعزّز^(٢) . تُرى ، أليس لأنّ في الأشياء الكبيرة وجه السطوة ورهبة التسلّط ، كان « يخاف من مواجهتها » ، كما كان يخاف مواجهة والده في صغره ؟ فجعله هربه من القاسي والرهق يطلب اللطيف والمُعزّي . إنّ هذا سيكون من أغراض بحثنا في محور الأمّ . لكنّ جبران كان يرغب « خفيّة » في الأمور الكبيرة . إنّ عقله الباطن في نشاطه « الخفي » كان يعمل في وجهتين : فالشعور باللونية هو فعله المباشر ، لكنّ قانون التعويض النفسي كان يفرض عليه فعلاً ارتدادياً هو إثبات الذات . ولذا كان لا بدّ لهذا النشاط الارتداديّ حينما اشتدّ ضغطه ،

== - على غده .

فخضبت وجنتاه بالدم ، وكفك وجنتا جبران ، وتركها ثقيله دون أن يمرّ على إعادة القبلّة ! لقد كان حياً ، مجيد فنون الفزل فقط في الكتابة والكلام . لم يكن جبران ، إبان وجوده في باريس « دون جوان » كما يزعم البعض ! . (الحويلك : ذكرهائي مع جبران ، ص ١٢٦) .

- (١) مذكرات ماري هاسكل ١٩١٢ . انظر توفيق صايغ : اشواء جديدة على جبران ، ص ١٩ .
سنوضح في القسم الثاني من هذه الدراسة « جبران في دراسة تركيبية » سبب هذا التحول ومناه .
(٢) مذكرات ماري هاسكل ١٩١١ . انظر توفيق صايغ : اشواء جديدة على جبران ، ص ٢١٧ .

من أن يؤكد وجوده . فبعد أن يعترف جبران بخوفه من الأشياء الكبيرة في حياته الماضية ، يعلن ، وهو في سنة ١٩١١ : « أما الآن فأنا أريد الأشياء الجبارة التي تتركها تبني بناءً نبيلًا ، التي تشق الحرب على الشر والدناءة »^(١) . لكنّ الأعراض الناجمة عن إحساس جبران بالدونية - وراجع الفطن أنها عصابية -^(٢) لم تكن مقصورة على الخجل والخوف من الأشياء الكبيرة ، فثمة ، أيضاً ، القلق والسوداوية والانزالية ، وهي ظاهرات سنرجيّه المحدث عنها الى فصل « الاضطراب النفسي » في القسم الثاني من هذه الدراسة ، لأن وراءها عوامل أخرى متشابكة لا يتيسرُ درسها إلاّ عل ضوء تكوين جبران النفسي المرحليّ .

د - الأعراض الارتدادية للشعور بالدونية في سلوكه : أمّا الأعراض الارتدادية - أو غير المباشرة - ففانيتها كانت أن تؤمن له الراحة والطمأنينة والشعور بالمساواة^(٣) ، أي أن تُقيم تكافؤاً في عقله الباطن بين قوى الجذب والدفع ، يتحصّلُ عنه إلبات الفئات الذي ينبغي أن يُعَيَّرَ عن غريزة حبّ الظهور العادية الكائنة في كلّ إنسان . ومن أجل بلوغ هذه الغاية اتّجه نشاطُ جبران السلوكي في ستة مسارب : نزعة عدوانية تكاد تكون عامة ، ونزعة استقلالية ، وسعي عموم للتفوق كسائر تضحماً ثمّ تجاوزاً لطلبه المساواة ، وعملٌ موصول مُضَنّ ، ومبالغات وادّعاءات ، وتأكيد رجولته تجاه المرأة .

فنبشُ التسلط الأبويّ القابع في عقل جبران الباطن كان يرفقه ، فتهيجُ نفسه مطالبةً بالتحرّر من عبوديته ، وبالتالي التملّص من قيد كلّ سُلطة والتمرد عليها ؛ ذلك بأنّ كلّ شعور « عصابي » بالدونية - وهو راجع الوجود

(١) المصدر السابق نفسه .

(٢) انظر ص ٤٢ .

(٣) انظر ADLER, Connaissance de l'homme, p. 64.

عند جبران - يُحمّل فرقة عدائية وفق ما يذهب اليه أدلر ^(١) . يقول للماري هاسكل ، سنة ١٩٢٣ : « ثلاثة أشياء عملت لي أكثر مما عمل لي أي شيء آخر في حياتي : أمي التي كانت مدعشة جداً وتركتني وشأني ، وأنت التي آمنت بي وبتناجي ، وأبي الذي حاربني واستغزني للقتال » ^(٢) . تلك كانت نقطة الانطلاق ، كما يبدو . حاربه أبوه ! فليرد الحرب ضده . لكن ما دام العقل الواعي لا يقبل ذلك ، بفعل الرقابة الخلقية الاجتماعية ، فليتحمل العقل الباطن ، بطبقته المعتمة ، البعثة عن قوانين الأخلاق وسُنن الاجتماع ، مهمة محاربه . وبما أنّ اللاشعور يؤدي وظيفة على صعيد الرمز ، فكل سلطة تستصحب ، لديه ، امتداداً للسلطة الأبوية ، ولذلك يُقتضى قتالها . ثم أخذت دائرة العدائية في لاوعيه تتداح حتى شملت معظم الناس . يقول ، عام ١٩١٤ ، إنه بدأ يصير تدريجياً مثل « عجنونه » ، فهو يعرف أن الناس طيبون ، لكنه ما ان يُجالسهم ويُحادثهم حتى يُدخاله قلقٌ شيطاني ورغبة في إيذاهم معنوياً ^(٣) . أفلا يسوغ أن يكون ضعفه ، قل شعوره باللونية هو الذي دفعه الى شتم السلاح في وجه عالم كان عقله الباطن يتوهمه ضده ، ومن العدائية تولد البغض ؟ وبعد أن تستيقظ المعرفة فيه ، وتستفيق المحبة في المرحلة الأخيرة

(١) Ibid, p. 63.

(٢) توفيق صايغ - أسوأ جديدة حل جبران ، ص ١٠٤ .

(٣) انظر المصدر السابق ، ص ٢٢٥ .

إن النزعة الإيذاية تحلت في سلوك جبران « مذ كان صغيراً . فقد نقلت إلينا السيدة أسى الفاضل أنه صور ، مرة ، حماراً على رأسه قلنسوة سوداء ليكيه بخوري القرية . وقد عزا نعيمه (جبران ، ص ٣٠) سبب هذا الرسم إلى أن معلمه الخوري فرض عليه كتابة الأمثلة السرمائية عشر مرات . ويبدل أن ينفذ جبران القصص ، رسم الصورة المذكورة ، وجعل في إحدى أذني الحمار كتاباً ملئاً ، وفي الأخرى عجلة ، فعاقيه الخوري ، ثانية ، بأن « زربه » . وقد أُلحنا ، في أوائل هذا الفصل ، إلى أن السيدة أسى الفاضل ذكرت لنا بأنه صور ، في صباه ، راجي بك حنا الفاضل حاكم المنطقة جسماً بلا رأس .

ونقل رفيقه داود سماده ، أيضاً ، أنه كان يميث ، أحياناً ، في المدرسة يرسم صور كاريكاتورية من بينها أنثى شامل يوسف أحد زملائه في الصف (مجلة الحكمة ، السنة ٢ ، عدد ١ ، ص ٢٨) .

من حياته ، بلغت الى قصه يحاسبها على ماضيها قاتلاً : « ما أبغضتُ إلاَّ كان
البغضُ سلاحاً أدافع به عن نفسي ، ولكن لو لم أكن ضعيفاً لما اتخذتُ هذا
النوع من السلاح » (١) .

كذلك تمخضت حركة إثبات الذات عن فزعة استقلالية عنيفة اكتشفتها
أمه فيه منذ طفولته ، إذ عرفت أن حبه الحرية المطلقة يجري في عروقه مجرى
دمائه ، ولذا كانت قلماً ترجره (٢) ، وقد تتبعنا بعض مظاهر هذه النزعة في
سلوكه عهد الحكمة : فقد وقد من أمريكا إلى لبنان وحيداً ، وكان استقلاله
في تصريح شؤونه يُربحه ويُعزّيه (٣) . وإذا واجه معلمه الخوري يوسف
الحدّاد (١٨٦٥-١٩٤٩) (٤) . قال له : « أنا المسؤول عن نفسي ، لا أمي ولا أبي ،
وإن لم أتلّ مطلوبتي فتشت عن غير هذه المدرسة التي تتعلق بحرفية القانون
ولا تفهم تلاميذها » (٥) . وإذا نجح الفتى العتيق في تسجيل اسمه في الصف الذي
أراد ، فانه كاد يترك المدرسة لرفضه قصر شعره المسترسل ، ولم يتخلّ
الإدارة عن طلبها (٦) . وهكذا أثبت ذاته بين رفاقه ومعلميه جميعاً ، ذلك

(١) البائع والطائف ، م . ك . ج ٣ ، ص ١٨١ .

(٢) B. YOUNG, This man from Lebanon, p. 9.

(٣) Ibid., p. 55.

(٤) اسمه قبل ان يسام كاهنًا « عبد الأسد » . وله وترعرع في عين كفاح ، قضاء جبيل . بدأ
تدريس البيان في مدرسة الحكمة سنة ١٨٩٩ . علم جبران العربية ، وبعد أن عاد صاحب
« الذي » إلى أمريكا أهدى إليه قصة « الأجنحة المتكسرة » وكتب عليها « أنت أولى بأول
بواكري » ، وثابر على مراسلته إلى أن كتب الحدّاد إليه يلموه على مهاجمة رجال الدين
فضغط المكاتب . آثاره المطبوعة : أثور فوق بريطانيا - مسرحية أدبية تاريخية ؛ اللبنانية -
رسالة وجهها إلى المهاجرين يكي فيها لبنان زمن الحرب المالية الأولى ؛ ملك السجون -
مسرحية أدبية تاريخية ؛ التنجوى أو لبنان بين الانتداب والاستقلال ، في جزئين ؛ المرونة -
رواية أدبية تاريخية ثنائية ؛ اللقاء - مسرحية دينية . وله آثار مطبوعة تضم المرأة والحقيقة
و « الأشباح » وديوان شعر ومجموعة مقالات ورسائل (انظر نمر ناضر : الخوري يوسف
الحدّاد الكاتب ، وخاصة ص ١ و ٥ و ٢١ و ٣٨ - ٤٣) .

(٥) مارون عبود - جدد وقدمه ، ص ١٤٠ - ١٤١ .

(٦) جبيل جبر - جبران ، ص ٢٤ .

بأنه كان ، على حدّ تعبير معلمه ، « شديد التمسك برأيه »^(١) . وقيل عودة الشاب الطموح إلى بوسطن ، يكتب إلى والده من بيروت : « إنك تشكّ بمعرفتي صالحني وما هو لازم لتحسين المستقبل وتحسينه »^(٢) . ولو لم يكن الشك واقعاً ، فعلاً ، في نفس الوالد ، والرهبة منه ما تزال قائمة في نفس الولد . لما حذّر جبران أباه من الشكّ بمعرفة مصلحته الشخصية : « كنّه فعلٌ رفض لا واعٍ للسيطرة الأبوية أقدم عليه القنّى المتعشّش إلى التحرّر والاستقلال . بعيداً عن والده .

ومدّ و«ج» جبران طفولته الثانية أخذ يتشوّف إلى الكبار . واكتشف أن واحداً من أولئك الكبار يفهمه ويمطف عليه ، فأكثر ملازمته . وكان الطبيب الشاعر سليم حنا الصاهر^(٣) : التعويض النفسي شرع يمارس وظيفته . ولا ريب في أن عودة جبران إلى لبنان ليستكمل دروسه العربية في معهد الحكمة ، إنما صدرت عن دافع نفسي لإثبات الذات : فالبلد الذي أذلّ ذاته يجب أن يُثبت فيه ذاته . أي يُعيد الاعتبار إليها^(٤) . والدافع المحموم إلى التفوق تتجلى آثاره في سلوك جبران . أيام الدراسة . يقول عنه معلمه الخوري يوسف الحداد

(١) مارون عهود - جدد وقماء ، ص ١٤٠ .

(٢) رسائل جبران ، ص ١٠ - ١١ . وقد أرخ جميل جبر ، خطأ ، الرسالة في ٥ نيسان ١٩٠٥ . والصواب ١٩٠٢ . لكنه استترك خطأه في كتابه : « جبران » ، ص ٣١ .

(٣) أمنا إلى ذلك سابقاً .

(٤) إن حركة إثبات الذات التي كانت تسير جبران تستبعد رأي ميخائيل نعيمة في أن فكرة عودته إلى لبنان إنما أطامها أهله ليخفوه من امرأة أميركية أوقعت في حبالها . فالمناطق السيكلوجي يقتضي أن تكون فكرة العودة قد انبثقت من دافع داخلي في نفس القنّى ، ثم نزل أهله عند رغبته راضين أو مضطرين ، خاصة أن السفر نفقات باهظة ، عليهم أن يتكفلوها . وأن يكون دافع العودة شخصياً يؤكده إيليا أبو ماضي (السير ، المجلد ٣ ، العدد ٢ ، ص ٥٢) ، وبرباره مانغ نقلا عن جبران نفسه (This man from Lebanon, p. 53-54) . كذلك أكدت الأمرنا السيدة شمس طوق جابرهم في المسكن ببوسطن (مقابلة صيف ١٩٦٧) . انظر أيضاً جميل جبر : جبران ، ص ٢٢ .

إنه كان « طموحاً تحت مهماز لا رفق معه ، يجدّ ليجدّ ناظرأ في أفق بعيد »^(١) .
ولئن دفع إثبات الذات جبران إلى طلب الرُفعة والتفوق ، بطريقة فظة سريعة ،
فهو لم يدعه ، أيضاً ، يتصرف تصرف الآخرين . كان يقضي منه أن يلفت
انتباههم إليه ، فيعترفوا بوجوده . ولذا نراه يلجأ إلى التفرد في زيّه وشعره
وهندامه (صورة رقم ٩) « متعمداً أن يجتذب أنظار رفاقه »^(٢) .

وفي بوسطن ، وقبيل أن يؤمّ باريس ، اشتدّت حركة إثبات الذات في
نفسه ، فاذا الشهرة ليست غرضه وكفايته ، بل يشهد سماعه إلى الأبعد منها ،
إلى الأعمال الجلتى التي سكنت أشباحها وعيه ولا وعيه إشباعاً لنويته الجوى
وإرواء لمطشها المحموم^(٣) . وبعد أن أحدث إصدار كتبه الأولى^(٤) رعدة
في الأدباء والباحثين من أهل بلاده ، داخلته القوة ، فضاغف إثبات الذات فيه
عمله ، وطالبه بتظيم مدة وتوسيعه ، حتى يقول في باريس : « أنا ... عازم
على أن أهرّ أعصاب الأميركيين وأنفخ في أوساطهم بوتي »^(٥) . وهذه الرغبة
سيُفصح عنها ، مجدداً ، بصورة أوضح ، بعد عودته إلى العالم الجديد ، إذ

(١) مارون عبود : جند وقدماء ، ص ١٤٠ . ويزيد يوسف الحداد (في المصدر نفسه) أنه ،
بعد أن عرف أن جبران لا يحسن من العربية إلا المترجمة ، قال له : « أفلا تعلم أن العلم يرقى
درجة درجة ! فأجابته الفقى : « وهل يجهل الاستاذ أن الطائر لا ينتظر السلم في طيرانه » .
(٢) يقول داود سماعيل رفيق في معهد الحكمة أنه كان « حسن المتدّام ، يلبس القبة المكوّبة العالية ،
ويحف عليها ياقة ، له شعر كثيف طويل يستمر إلى الوراء على طراز شعراء المصروفغانيه » .
(مجلة الحكمة ، السنة الثالثة ، العدد ١ تشرين الثاني ١٩٥٣ ، ص ٢٨) .

(٣) يقول في رسالته إلى أمين التريب في ٢٨ آذار ١٩٠٨ : « يوجد في حياتنا ... شيء أسمر
وأشرف من الشهرة ، وهو العمل العظيم الذي يستمدى الشهرة ، وأنا أشعر بوجود قوة كامنة
في داخل نفسي تريد أن تتخذ لها من الأصال الكبيرة ثوباً جديلاً ، أشعر بأن جبران قد جاء
هذا العالم ليكتب اسمه بأحرف كبيرة على وجه الحياة ، وهذا الشعور يلزم نفسي ليل
ونهار » (رسائل جبران ، ص ٢٥) .

سنوضح في القسم الثاني « جبران في دراسة تركيبية » أن سنة ١٩٠٨ شكلت منعطفاً جديداً
في تكوين جبران النفسي ووجهه شطر القوة .

(٤) الموسيقى ، هرائس المروج ، الأرواح المصردة .

(٥) يوسف الخليل : ذكرىاتي مع جبران ، ص ٢٤ .

الفتى الطامح حاملا سيف الجبان الذات
(صورة رقم ٩)



يعلم لصديقه هاسكل (١٩١١) أنه « جئنا إلى تثبيت ذاته في أميركا » (١) . لكنّ التعريض النفسي ملوح ، يقتضي منه أن يساوي العظماء والمتفوقين شيئاً ، فهو لا يحفل ، ولا يتروى ، ولا يحسب لطاقت الإنسان والزم من حساباً . إسمعه يخاطب صديقه الخويك في باريس : « إن بنجامين فرنكلين عزم في سن الخامسة والعشرين على التوصل إلى أوج المعرفة والحكمة ، وتمّ له ما أراد... وما نحن في السابعة والعشرين وعندنا مطامح كبيرة فماذا حققنا منها ؟ قلّ لي بربك ، يا يوسف ، هل تلاحظ في شيئاً من القصص يمكنني إصلاحه ؟ » (٢) . القصص لم يكن فيه ، بل كان فيه ذكاء حادّ وطموح وثاب وراهما صوتٌ دونيك بعيد قريب يهتف في أعماقه الممتنة ، فيخطي صراخه طبقات من إلبات الذات .

يبدو أنّ رغبة جبران الملحة الجائفة إلى الشهرة والقوة والتفوق ، تحقّقاً لمهمة التعويض النفسي ، دفعت إلى الإكباب على العمل إكباباً مُهنيّاً صير حياته جهداً متواصلًا لا راحة فيه . وأغلب الظنّ أنه كان يعاني توترًا نفسيّاً دائماً يمكّسه لادعائه عن تصرفاته ، فإذا أشغاله « أشبه شيء » بسلسلة ذات حلقات أخذ بعضها برقاب البعض (٣) . أيكون عقله الباطن هو الذي يزرجه في الطريق الشاقّ ، إثباتاً لذاته ، فيشعر بثقل دفعه له ، من غير أن يعرف مصدره ، فيقول وهو في باريس : « يعلم الله أنني مثل دولاب يدور ليلاً ونهاراً حول الأشغال والأعمال . كذا تتلاعب السماء بحياتي . وهكذا يسيرني القدر حول نقطة معلومة لا أستطيع الحياض عنها » (٤) . تُرى ، أيكون « قدره » عقله الباطن . وفي محور الدونيكية يدور حوله دولاب عمره ، فيرى نفسه عاجزاً

(١) توفيق صايغ : أسرار جديدة على جبران ، ص ١١٤ .

(٢) يوسف الخويك : ذكرياتي مع جبران ، ص ٤٣ .

(٣) من رسالته إلى أمين القريب في ٢٨ آذار ١٩٠٨ (رسائل جبران ، ص ٢٤) . ورد كذلك في رسالته إلى نخله جبران في ١٥ آذار ١٩٠٨ (المصدر السابق ، ص ١٨) : « أنا أحب العمل ، يا نخله ، ولا أدع دقيقة من وقتي تمر بلا عمل » .

(٤) من رسالة إلى نخله جبران في ٢٧ أيلول ١٩١٠ (المصدر السابق ، ص ٢٩ - ٣٠) .

عن الحياء عنه ، لأنّ حوله كانت تُنْسَج قماشة حياته ! هذا العمل الدائب
الموصول كان منطلق جبران النفسي اللاشعوري بِحُثْمِهِ . فقيه لإثبات ذاته التي
أضناها الشعور بالدونية : أي فيه عزائه وراحة نفسه وإحساسه بوجوده . ففي
٣٠ نيسان ١٩٠٨ يقول لما ري هاسكل : « إني أكثُر في العمل ، وفي عملي
يحدوني شوقُ طفلٍ ضائع إلى أمّه . وإني أصبحتُ أعتقد أنّ رغبة الإنسان في
الكشف عن ذاته هي أقوى من جميع المجاعات وأعَمَق من أيّ عطش » (١) .
وهل يعني « الكشف عن ذاته » غير إثبات لما ، وهل أمّه سوى رمز الراحة
والعزاء ؟ أن يكون في العمل المتواصل الشاقّ علاجٌ لدونيته : هذا ما صوّره له
عقله الباطن . فتوالى اعتراقاته بالعمل « المعزّي » « المحيي » ، مدة سنوات ،
غير واعي سبب علته . يعلن ، عام ١٩٠٨ ، « أمّا الأيّام التي تكون فيها نفسي
راقدة وفكرتي خاملة ، فهي أمرٌ عندي من العلقم وأشدّ قساوة من أيّاب
الذئاب » (٢) ، ويصرّح ، عام ١٩٠٩ ، بأنه لا يشعر بسكينة وسلام إلّا وهو
يعمل (٣) ، وسنة ١٩١٠ ، « بأنّ الحياة بلا عمل تماثل الموت » (٤) ، وسنة
١٩١١ ، بأنه لا يحيا إلّا أوان يعمل (٥) . وإذ ينصحه أطباؤه ، في أواخر حياته
بضرورة الكف عن العمل ، سنة كاملة ، يرى ذلك أشقّ عليه من المرض (٦) .

هل حقّق جبران ، فعلاً ، راحته وسلامه في عمله الدائب المُضني ؟
- لا ، بل هكذا كان يظنّ . غير أنّ نفسه التي كانت في صراع مرير مع
الدونية ، كانت تنفض ، أحياناً ، ذاتها ، وتنضح باضطرابها (٧) . فاذا العمل

(١) The Letters of K. Gibran and M. Haskell, p. 7.

(٢) رسالته إلى نخله جبران في ١٥ آذار ١٩٠٨ : رسائل جبران ، ص ١٨ .

(٣) توفيق صايغ : أضواء جديدة على جبران ، ص ٢١٤ .

(٤) رسالته إلى نخله جبران في ٧ آذار ١٩١٠ : حبيب سمود - جبران حياً وميتاً ، ص ٥٠٧ .

(٥) توفيق صايغ : أضواء جديدة على جبران ، ص ٢١٥ .

(٦) من برقية إلى ميخائيل نعيمة بتاريخ ٢٦ آذار ١٩٢٩ : نعيمة - جبران خليل جبران ، ص

٢٦٨ ؛ ورسائل جبران ، ص ٩٣ .

(٧) حبيب سمود : جبران حياً وميتاً ، ص ٥٠٥ ؛ ورسائل جبران ، ص ٣٠ .

المرحى الخوثر الذي نوحهم فيه الهواء يتحرك إلى داء . ألم يبح بدخاثة ، في سنيه الأخيرة ، ليرباهه ياتخ ، فقال : « إن بي داء العمل »^(١) . وبالوعي القريب نفسه ، شعر منذ سنة ١٩١٢ ، أن السلام الذي يحلم به ، في حياته ، إنما هو مجرّد وهم ، وأنه لن يتمتع بأية راحة . قبل أن يوسّوه القبر - هناك وسط التلال في لبنان^(٢) . لقد أراد جبران أن يقضي حل داء القلوبية بداء العمل ، فانتهى جهده الخوثر المتواتر المحطّم بالقضاء على حياته ، لأنه أذا به ذوبان شحنة تحت لجة عظيمة التوهج . لكن هذا الجهد كان ، في الوقت عينه ، إحدى القواعد المكنية التي بنيّت عليها عظمتُه .

جانب آخر من حركة إثبات الذات تلقاه في المبالغات والادعاءات التي لجأ جبران إليها كسند يرضه في وجه ذلك المدّ المعاني اللاواعي من أمواج القلوبية^(٣) . وقد واجه بها صديقته هاسكل وياتخ ، وتناولت أسرته وشخصه . أمّا أسرته فقد ادعى أنها تبيلة ذات ماضٍ حافل بالأعجاد ، مزدحم بالحكام والأمراء ، وحاضرها ليس دون ماضيها شرقاً ووثراء . بل إن جدته لأمّة كانت ابنة أغني رجل في لبنان . والثقافة في أسرته رفيعة عريقة واسعة سواء في المعرفة أم تعدّد اللغات ، حتى أنه يحلم والنته تتكلّم الفرنسية والإيطالية والاسبانية والانكليزية عدا العربية^(٤) . ولما شخصه فهو يبالغ في إظهار نبوغه المبكّر في الفن والأدب ، وفي اهتمام ذويه به ، إذ يعملهم يخصّصون له عدد

(١) B. YOUNG, This man from Lebanon, p. 128.

(٢) توفيق صايغ : أسواء جديدة على جبران ، ص ٢١٥ .

(٣) لم يصب توفيق صايغ في قوله عن مبالغات جبران وادعاءاته : « لم يكن لها أي لزوم أو جدوى » (أسواء جديدة على جبران ، ص ١٥) . فالحقيقة أنها كانت ضرورية لنفسه ، وتبرها في أنها رجع تمويش السور السور بالقبولية .

(٤) المصدر السابق : ص ١٥ - ١٧ علماً بأن مزاعم جبران عن ماضي أسرته وثقافته جده لأنه ليست غفلة كلياً ، كما يظن بعضهم ، إنما تشويهاً اثباتاً للذات . راجع « تاريخ بشري » فخوري فرنسيس رحمه ، ج ١ ، ص ١٢٥ - ١٢٦ ، « تاريخ سوريا » الطران يوسف القيس ، المجلد ٧ ، ص ٢٨٠ ، المجلد ٢ ، ص ١٠ ، ص ٢٦١ - ٢٦٢ .

مربّين يحملونه اللغات ، في يته ، أو ان طفولته الأولى . كذلك ينال في إظهار اهتمام الناس والصحف بانتاجه ، وهو ما يزال صبيّاً في الرابعة عشرة من عمره ، وفي إلحاح مواطنيه عليه بأن يحكمهم . أمّا الأمر الأخر فهو ادّعاءه القدرة على علم النبأ ماضياً ومستقبلاً ، ولا سيما فيما يتعلّق بأدوار حياته السابقة او حياة صديقته هاسكل وياتق ، وعلى القيام باختبارات صوفيّة كاشفة^(١) .

ولئن داخلت حركة إثبات الذات ، في وجهها الشخصي الاجتماعي ، موقف جبران من هاسكل وياتق ، فلا بد من أن يكون وراء موقفه الجنسي ، أصلاً ، الدافع اللاشعوري نفسه : تأكيد رجولته تجاه المرأة . فان صحت رواية ميخائيل نفسه عن علاقة جبران الأولى بالمرأة الأميركية الثلاثينيّة ، فإنها تؤكد ما ذهبت اليه . فالجبل — وهو من أعراض الشعور بالدونية — باد في تصرف جبران ابن الرابعة عشرة ، إزاء المرأة ، كما يظهر ، أيضاً ، إصراره على رفض ولودته وتأكيد رجولته^(٢) .

(١) انظر تفصيل ذلك في المصدر السابق ، ص ٢٧ - ٢٨ ، كذلك :

B. YOUNG, This man from Lebanon, p. 93-95

ويجدر بالذكر أن تلك المبالغات والا دعاءات تصدرها جبران على صديقيته الأميركيّين لسببين : أولاً أن مواطنيه يعرفون حقيقته وحقيقة أسرته ، فلا مجال لواجبهم بتغير الواقع ، وثانياً أنه أراد بذلك المزاعم أن يرجع مد الإيذاء — التي أصابت به ماري هاسكل (وهي رمز للمرأة الأميركية) شعوره بالقوّة — جزراً بصيها وأخواتها الأميركيّات ، حيثاً فيه ذاته . وإذنا نميل إلى القول أن ادعاءاته ، وإن يكن فيها غريب من الغموض النفسي ، لم تقل ، أسهلاً ، من المزاج المستعمر لسذاجة الصديقين وبراعة تصديقها أقواله .

(٢) انظر نفسه : جبران ، ص ٣٩ - ٤١ . وهو يحمل جبران بواجبه اخيه ، إذ يكشفون علاقته بالأميركيّة ، بقوله : « حتى متى تنظرون إليّ فتركتم إليّ صبيّ جاهل ؟ أنا اليوم رجل ، ولي الحق ان الفعل ما أشاء وأذهب حيث أشاء » . وإذا نقول له الأميركيّة ، في عظام الخوار : « لقد أعطيتني زهرة شبابك ، يا خليل — لقد أعطيتني وجعك » ، يجيبها : « بل لقد أعطيتني وجعتي » . لكن لا يستأ أن ننظر إلى رواية نفسه إلا بين الحذر ، فإننا لم نصل على مصدر آخر يؤكد ما « فضلاً من الجور الروائي الذي تساق الاحداث فيه » .

ولا يمحا إلا أن نستشف وراء حبّ جبران الأول ، أي حبّه لحسلا للفنّان^(١) ، عمل محوّر الشعور بالتبوية في طبقته الأبوية والاجتماعية . فالنفس المبثورة بتسلط والد قاهر ، والمذكرة باستكبار آل الفنّان ، قد يكون دفعها الفحل الباطن إلى الدار التي أُميتت فيها ، يطالبها بالتعويض هناك . فحبّ حلا وبالتالي الطموح إلى تزويجها ببنان إعادة الاعتبار لذاته الجريح ، وإثباتاً لما أنكره عليه التسلط والاستلاء من حقّ الرجولة^(٢) .

وهكذا ، يقضي المنطق النفسي بأن يكون إثبات الذات الدافع الأصلي الدائم في موقف جبران من جميع النسوة اللواتي برزت أسماؤهنّ في حياته ، بعد حلا الفنّان ، لا سيما أنّ وعي جبران ضعفه الجسماني^(٣) سيضعف نشاط محوّر التبوية في نفسه ، وبالتالي عمل إثبات الذات . وقد ألمنا إلى الألم العظيم الذي أصابه عندما عرّضت صديقته ماري بصغر حجمه ووهن بنيته . فهذا العامل الجليد المنذّر شعوره بالنقص سيثير فيه رجماً جنسياً عنيفاً تتجلى آثاره في وعبه ولا وعيه . يقول ماري ، سنة ١٩١٤ ، أنه ، عل ضعفه الجسماني يُحيه دفء جنسيّ كثير ، وليس فيه ما هو غير عاين . لو مهمّ^(٤) . وفي ٢ آب ١٩١٥ ، يكتب إليها : « لست قوياً جداً جسدياً ، ولكنني أستطيع بهذه

(١) اعتبرناه الحب الأول لأن الموقف العاطفي المصحح تجلّى فيه للمرة الأولى .

(٢) يقول جميل جبر إن جبران قال ، ذات يوم ، خلا : « إنك تزترين طبعاً حياة القصر على حياة الكوخ . وإني سأفنيك قصراً حيناً ينتزع السحاب ، بعد أن أعود » (جبران ، ص ٢٨) . هذا القول الذي يعني جبر أنه لنفك عن حلا الفنّان نفسه ، إنما يؤكد حركة إثبات الذات وراء حبّ ابن الكوخ لآية القصر .

(٣) لعلّ لأول مرة وعي جبران فيها ضعفه ، فاستثار ذلك إثبات ذاته ، كانت يوم مرض في باريس ، فالتفتض يقول لصديقه الخويك : « أنا ، ولا ربيب ، سأبوء قبلك ، يا يوسف ، أوجعك من الآن ، أن تضع حلّ فبري أسداً يزجر » (الخويك : ذكرياتي مع جبران ، ص ٨١ - ٨٢) وكثيراً ما أصابه المرض ، بعد ذلك . حتى أنه يكتب لماري عسكل في ٧ كانون الثاني ١٩١٤ : « يجب أن تكوني قد ملكت سامي وأنا أسئلك عن سمني المرضية . لكنك لطيفة جداً . ولا أظن أن مارك ليسيف الذي مرض غالباًه . The Letters of K. Gibran and M. Haskell , p. 297 .

(٤) مذكرات عسكل لسنة ١٩١٤ . انظر توفيق صايغ : أضواء جديدة على جبران ، ص ٨١ - ٨٢

القوة الجنسية الضئيلة التي لديّ أن أتاج السير ، وأعمل كلّ ما أريد أن أصعله ^(١) . انه تحدّي لرادة القوة المدعومة بتأكيد ثلاث الواقع المزيل .

وتروي برباره بانغ انه ، بعد إصداره كتاب «التي» ، وعلى أثر قراءته فصل «الزواج» أمام بعض الزائرات ، سأله إحداهن : «أما أحببت قط ؟» فانفض غضباً وقال : «سأعبرك شيئاً قد تجهلينه . إن الكائنات الأوفر غنى بالطاقة الجنسية ، على هذا الكوكب ، هم المبدعون ، الشعراء والنحاتون والرسامون والموسيقيون . وهذا منذ البدء كان . والجنس لديهم هيئة جميلة رفيعة ، وإنه لميل دائماً وحسبي دائماً ^(٢) .

أما عقله الباطن فقد لاقى التمويض «النفسي» فيه مغناً طبيعياً مسوراً ، عبر أحلامه . يكتب إلى ماري هلسكل ، سنة ١٩١٤ ، عن حلم رآها فيه تراقص رجلاً مديد القامة وهي تضحك . وفي العام التالي يحدثها عن أحلامه المتتابعة ، كل ليلة ، وفيها يرى نفسه طويلاً ضخماً بلقة . ولا يستيقظ إلا الحسرة في فمه : «آه ، فإذا أنا صغير جداً في فراشي ^(٣) . أحلام جيران هذه تملأ المهمة السيكولوجية التي افترضها كارل يونغ ، أي إعادة الاثتران إلى الجهاز النفسي كآلة عن طريق عملية التمويض ^(٤) .

٣ - محاولة تأويل المحور نفسه في آثاره

لقد اتضح مما تقدم أن المظاهر الطسريّة لمادة السلطة في إنتاجه - سواء استهدفت الشرائع والتقاليد العامة أم أشخاصاً معينين تحكروا في الآباء ورجال الدين والأغنياء حكماً وعاديين - شكّلت محوراً كان له أصل نفسي كونه بؤرة انفعالية وجدانية في طفولته ، ألا وهو الشعور بالدونية الذي

(١) The Letters of K. Gibran and M. Hankali, p. 433. (١)

B. YOUNG, This man from Lebanon, p. 129. (٢)

(٣) انظر توفيق صايغ : أسوأ جديفة على جيران ، ص ١٠٢ .

C. G. JUNG, L'homme et ses symboles, p. 49 & 52. (٤)

الغنى ، مع كروار الأيام ، بالروافد الطارئة فزاد حدةً ونشاطاً . وقد تولدت عنه ، في حياته ، أعراضٌ مباشرة ، وأعراضٌ ارتدادية تمثلت في حركة إثبات ذاته ، كتعويض نفسي . وهذه الحركة التي لم تكن المظاهر الصريحة لمعاداته السلطة إلا ثماراً لها اتخذناها دليلاً أولياً عليها . لا بد من أن يكون لها امتدادات وانعكاسات خفية . ولنقل "توجّجات" رمزية في أدبه ورسمه . فكيف تمثّلت هذه ؟ وما تأويلها .

أ - إثبات الذات في طلب التفوق عبر إنتاجه : أن يكون كصانع الأدبية الفنية . أحياناً ، ما للأحلام من مهمة التعويض النفسي عن واقع محروم أو معز . فهذا سبيل ينتجه غير قليل من مولدات الفكر البشري . فالأديب ، أو الفنان . والحالة هذه . يطلب من إنتاجه أن يُشبع . لا شعورياً . ما حرّمته إيمانه الحياة أو ما عجز عن تحقيقه . والأدلة موفورة تقتصر منها على بضعة شواهد : ففي سيرة تولوز لوتريك^(١) توضيح مثير لصيرورة الفنّ إشباعاً للحرمان . فقد كان الوليد الأخير في سلالة من الصيادين والفرسان . فأصابه حادثٌ بتر ساقيه وأقصده قزماً عاجزاً عن الملاهي الرياضية التي يقضيها مزاجه وخصائصه الروائية . وإذا بذلك الأجدم لا يعلم . في رسومه ، إلا باليقان . تلك التي يتألم من حرمانه إيماناً يهبها خلاقه طوبى وعقبة ، فتحتل رسومه بالخيالة والواقعات وراكبي الدراجات وغيرهم ممن تؤدي الأرجل لهم مهمات رئيسة^(٢) . كذلك مثّل ماريّاً بلانشار^(٣) ساطع الدلالة في هذا المجال ، فقد كانت عيلةٌ حداثاً محرومة من مباحج المرأة العادية . فإذا هي تتألم لنفسها بملء رسومها لموماتٍ خصبة^(٤) . وفي سيرة نيشه^(٥)

(١) HENRY DE TOULOUSE-LAUTREC (1864-1901)

(٢) R. HUYGHE, *Dialogues avec le visible*, p. 254-255. انظر

MARIA BLANCHARD. (٣)

Idem. (٤)

FRIEDRICH NIETZSCHE (1844-1900). (٥)

يُصبح الفن "تحقيقاً رمزياً لا عجز الفنان عن إنجازه في واقع العمل". فحياة الفيلسوف الألماني كانت سلسلة من الهيبات ، عكست حلقها الأولى مرتبة وهزال بنيت ثم انقراض نلامه عنه تدريجياً . وتواصل خطها في اعتزاله الياسر ونميشه من راتب كاتما أجري صدقة عليه . ونشأت بين وبين بضعة رجال انحصهم فاخر ^(١) صداقات حبيبة لم تلبث أن انقلبت إلى كراهية عظيمة . كذلك شدته إلى بضعة نساء مودة وقضت عند حبة الحب ، فما جاوزته إلى قيران أو حتى إلى علاقة جنسية ضلعية . ذاك فضلاً عن حساسية حادة تميز بها وقابلية للتهدج منطلة لازمة ، وكاتما كانت نعدته للأصالح الثورية الجملتي ولتخطي القيسم التقليدي ، فاذا هي تُستهلك في اغترابات تتنرى سعيًا وراء مأوى مُسرّ خصة في جاف الأقاليم صيفاً وشتاء . فاذا أضفت إلى ذلك موهبة أدبية خارقة ظلت مغفورة طول عمره ، فما أفرغت الحياة عليها مجداً وشهرة إلا بعد أن أفرغت من عقله ، لما استغربنا أن يكون ذلك الضعيف العنيف قد شحّن أفكاره ما كان يرغب في تحقيقه ، فأعباه وضعه الجسمي والمعنوي . ما عجز عن إنفاقه عملاً ، أنفق كتاباً وفكراً ، فاذا خامل الجسم يُشيد هيكل القوة والصحة والعمل الكثيف ، وإذا الحبيبي أمام النساء بمنع الفريزة الجنسية مركزاً ممتازاً في الفن وفي بناء العالم ^(٢) .

ومما اتبته علم النفس أن كل ولد تعيش فيه رغبة لا شعورية في أن يكون والده قوياً مجيداً ، وأن يكون مُرشداً معصوماً من الخطأ ، لا تشوبه شائبة . ذلك بأن الأب يجب أن يقود ابنه إلى أرض الموعد ، أرض الرجولة المسؤولة . لكن الأب ، إذا لم يكن متزن الشخصية ، مُشبعاً حاجات ابنه اللاواعية ، مائلاً وظفته كرشد لا يخطئ ، فإن الولد سيصلطم به ، وبدل أن يكون والده وسيلة تساعده على مساواته فتخطيه ليهتنق دوره الرجولي

RICHARD WAGNER (1813-1884). (١)

CH. LAO, L'économie des passions, p 193-226. الفر (٢)

و « تفادى » الطبيعي الجنسي والاجتماعي ، يهقر الولد عاجزاً عن حلها
« تفادى » (١) .

ولما كان ولد جبران لا يملأ مهمته المتوجبة وصفاته المتقضاة في لا وحي
ابنه ، فقد ظهر تراجع الفني من « تفادى » الطبيعي الجنسي والاجتماعي على
الصعيد الواقعي ، ليحل محله تمويض نفسي على الصعيد الفني . فإذا هو الماشق
العظيم . إنما في أدبه ورسمه ، والمحارب الخطير إنما بقلمه ، والمصلح
الاجتماعي الكبير لكن على صفحات الورق .

ويبدو أن جبران حاول في سيره التصاعدي أن يبحث عن بديل رمزي
لأبيه ، وكان يصح أن يكون ذلك البديل حزباً مثالياً يرمز إلى السلطة الأبوية
المترفة عن الشوائب ، فأنشأ الحلقات الذهبية ، سنة ١٩١١ ، (٢) وأرادها
معصومة عن الخطأ ، لا يتلما عيب ، قوامها التجرد وروح التضحية ، وحذفها
التقصاء على المقاسد التي رأى بعضها في والده (٣) . لكن حزب مات ولما يدرج .
لأنه شامع مثالياً حتى النهاية القصوى ، كما كان عقله الباطن يشاء أباه . ومرة
أخرى عجز جبران عن التفادى الواقعي الاجتماعي . فقد كان المجال الطبيعي
لعمله ينسبط في الشعر والرسم لما يستوحياه من الأحلام ويستلهمانه من العقل
الباطن . إذن ، فلتتسطح حركة إثبات ذاته عبرهما . ولئن تحمل مضامين
إنتاجه أهدافاً نبيلة مختلفة ، فيمكن اعتبار كل إنتاجه ، أدبياً ورسمياً ، عملية
نفسية لإثبات ذاته أيضاً والتضريح عن أزماته . ذلك بأن غاية الأولى العامة
كانت تأكيد شخصيته ومنحه الشهرة في عيون الناس ، وبالتالي الفوز بالطمأنينة
النفسية .

(١) انظر P. DADO, Triomphe de la Psychanalyse, p. 303-308.

(٢) انظر K. HAWI, K. Gibran, p. 154-157.

كلارك هبيل جير : جبران ، ص ١٠٠ - ١٠٢ ، وانظر كرم : محاضرات في جبران خليل
جبران ، ص ٦٦ - ٦٢ .

(٣) انظر P. DADO, Triomphe de la Psychanalyse, p. 308-309.

« كان بي دافع عظيم لأصير شاعراً ورساماً » قال ، ذات يوم ، لبريارد
 يانغ ، وهو يذكر جبهته إرادته وإرادات ذويه ، وإصراره على العودة إلى لبنان
 لاستكمال دروسه ، ثم سكّت وضربت الطاولة بقبضته ضربة عنيفة ، ثم نهض
 وقعد قائلاً : « وهاءنذا شاعرٌ ورسامٌ ! هاءنذا شاعرٌ مُجيد ورسامٌ مُجيد ،
 وأحبُّ قصائدي ورسومي ، وإني لأحتف به في الطُرُق لو وددتُ فعله ^(١) .
 حدثت ذلك بعد إصدار « النبي » ، وجبران بصعد في طريق مجده الفني .
 لقد كان إنتاجه فعلٌ مُحددٌ . مُحددٌ لمن ؟ — لعظه الباطن ! لشعوره بالدونية !
 للناس جميعاً ! وبوجه الجميع أثبت ذاته .

وعطش جبران إلى الشهرة والقوة والتفوق ينمكس ، أحياناً قليلة ، صراحة ،
 في موضوعات أدبه وفنّه . ففي « يا بني أُمّي » ^(٢) ، يشبه جبران ذاته المؤكدة
 المستوية بالأسد ، فيخاطب مواطنيه قائلاً : « أأمدك كلحمائم لأرضيكم أم
 أزجرك كالأسد لأرضي نفسي ؟ » . وفي « البشعة الطموح » ^(٣) ، يسقط
 لا شعوره على البشعة ، ويمكّلها عبء الدونية في وجهيه الجسماني والاجتماعي .
 تقول متنهدة : « ما أقلّ حظي بين الرياحين » وما أوضع مقامي بين الأحرار !
 فقد ابتدحتني الطبيعة صغيرة ، حقيرة ، أعيش ملنصقة بأديم الأرض ، ولا
 أستطيع أن أرفع قامتي نحو ازرقاق السماء أو أحرك وجهي نحو الشمس مثلاً
 تفعل الورود » . أفلا يكون عجزها عن تحويل وجهها نحو الشمس رمزاً لعجزه
 عن إثبات ذاته بوجه والده . فالشمس ، هنا ، حسب التحليل النفسي رموز

(١) B. YOUNG, This man from Lebanon, ٥4.

لأن جبران كان يستميل تأكيد ذاته ، ولم يظفره الزمن ، نفسه يقول في ذكرى ميلاده الخامسة
 والعشرين : « أنظر إلى كل ناحية فلا أرى ثنائي سيأتي أثراً استطع أن أومي . إنه أمام وجه
 الشمس قائلاً : « هنا لي » . (عن مقال : يوم مولدي » في مجلة « الجلسات » - م . ك . ج . ٢ ،
 ص ١٩٦) .

(٢) المراسم ، م . ك . ج . ٥ ، ص ١١ .

(٣) المصغر السابق ، ص ١٥٨ - ١٦٢ .

السلطة الأبوية خاصة وكل سلطة عامة^(١) . لكن الطاقة المكبوتة سرعان ما تتحول إلى قوة ذاتية تطالب بالتعويض تأكيداً للنفس . ولا تنفع مواضع الحكمة والفضيلة من أصبحوا مستبدين للتوابع اللاواعية ، بل ما أمر مواضع السوء في قلوب الناس ، وما أفسى القوى إذا وقف خطياً بين الضعفاء . ولذا فالطبيعة لا يسعها إلا أن تستجيب لنداء البغضة الملحاح ، فتحتلها إلى ورودة مدينة القامة . ولئن كان في إثبات الذات محاولة لإعادة الاتزان إلى النفس ، فيه مضارة خطيرة محفوفة بالمصائب والمصائب . لكن جبران بفضل ذلك على العيش المتنوع في واقعه الأصلي ، ولذا فهو ينطق بالبغضة المستحيلة ورودة بما يبرز تصرفها^(٢) . وفي المواكب ، حيث يشرع المد الروحاني يتصاعد ، يحمل جبران في مزاولته الفن وتوجهه إلى النبوة ، متفكراً لإثبات ذاته . فإذا كان ضمير الحال فهو غي الروح ، وإن كان واهن المكانة الاجتماعية فهو رفيع الميزة الفنية ، وإن كان ضئيل الجسد فهو عظيم الأحلام ، وإن احترق قومه وسخروا به ، فله من سمو شخصه الخالم بالنبوة ما يجعله يتفوق عليهم جميعاً متخطياً دنياهم ، سابقاً عصرهم^(٣) .

(١) انظر P. DADO, Les Triomphes de la psychanalyse, p. 303-309.

(٢) تقول البغضة لرفيقاتها القديسات وهي تنحصر : « ألا نأسفن أيتها الجماعات القاتلات ، الخائفات من العواصف والأممير ، لقد كنت بالأس مثلكن ... سكتة بما نعلم لي ، ولقد كان الاكتفاء حاجزاً متيناً يفصلني عن ذوايغ الحياة وألمومها ... ولكني أصليت في سكون الليل ، فسمعت العالم الأمل يقول لهذا العالم : « إنما القصد من الوجود الطلوع إلى ما وراء الوجود » . فبردت نفسي على نفسي وحلم وجداني بمقام يملو من وجداني ... » .

لقد وهب جبران ، ببراعة ، حركة تأكيد الشخصية فيه بفكرة فلسفية وجهة تجعل الحياة من الوجود تعبيراً للذات في تخط دائم . ولقد علو هذه الفكرة إذ لال على لسان البغضة : « أموت وأنا حاملة بما وراء المصير المخطو الذي ولدني ، وهذا هو القصد من الحياة » .

(٣) يقول جبران في الملوأكب : م . ك . ج . ٢٠١ ص ٢٠١ :

« وأفضل العلم حلم إن ظهرت يسه
ورث ما بين أجناس الكسرى سطرورا
فان رأيت أما الإسلام منفسداً
عن قومه وهو مبرود وهنصر
فهو الذي ورد الله يحبه
عن لغة يردد الأس تأتزو
وهو الغريب من الدنيا وساكنها
وهو المبلبل لام الناس لم يظورا
وهو القديس وإن أبهى ملائكة
وهو الجدي» لغاني الناس أم هجرورا »

أما على عهد فرسم فعلية التصويص التي دفنته ، مدّ كان طالباً في معهد الحكمة ، إلى صرف قسط وافر من جهده إلى رسم الأعظم . فكانت ما أراد أن يُعاشهم في أعلامه الفنية ، بعد أن عجز عن معاشهم في واقعه . فإذا خياله يُبدع طائفة كبيرة من رسوم الأعلام في الفكر والأدب العربيين ، أمثال أبي نواس (٧٦٢ - ٨١٣) وديك الجنّ الحمصي (٧٧٨ - ٨٤٩) وأبي الطيّب المتنبي (٩١٥ - ٩٦٥) وأبي العلاء المرّي (٩٧٩ - ١٠٥٨) والمعتمد بن عباد (١٠٦٨ - ١٠٩١) وابن سينا (٩٨٠ - ١٠٣٧) والغزالي (١٠٥٩ - ١١١١) وابن الفارض (١١٨٠ - ١٢٣٤) وابن خلدون (١٣٣٢ - ١٤٠٦) وفرنسيس مراكش الحلبي (١٨٢٦ - ١٨٧٣)^(١) . كذلك دفنته رغبته في الشهرة والتسامي إلى رسم عدد كبير من المشاهير العالميين سواء نيفوا في الفكر والأدب أم في ميادين أخرى ، أمثال سقراط (٤٧٠ - ٣٩٩ ق . م .) ونيتشه (١٨٤٤ - ١٩٠٠) ووليم بطليريس (١٨٦٥ - ١٩٣٩) وجان درك (١٤١٢ - ١٤٣١) ونابوليون (١٧٦٩ - ١٨٢١) والملكة فكتوريا (١٨١٩ - ١٩٠١)^(٢) ، بل إن دافع إثبات القات المحموم جلّه يجد سعيّاً وراء كبار المعاصرين الأحياء حتى يحظى بلقائهم ومجالستهم بغية تصويرهم ، فمثل ذلك في باريس وبوسطن ونيويورك ، فقابل رودان (١٨٤٠ - ١٩١٧) وبرغسون (١٨٥٩ - ١٩٤١) وكارل يونغ (١٨٧٥ - ١٩٦١) ورسومهم . اسمه يخاطب صديقه أمين

(١) ترى رسومهم جميعاً ، بالمشاهدة فرنسيس مراكش الحلبي ، في كتابه « البدايات والفراشات » .
(٢) من الذين رسمهم أيضاً جون ميسليك شاعر البلاط الإنكليزي ، وجورج وليام راسل ، ولورانس هاريسون ، وجوهلا بوجير ، وألدين ماركهام صيد الشجر الأمريكي ، وهورل هارنيت ، وبيرو ماسكي ، وروينر بيتر ، والموسيقار فيبرسي ، والمثلة الشهيرة سارو برنار ، وفراصة الكهنة دوت سانت غفيس . انظر :

B. YOUNG, This man from Lebanon, pp. 66-69; 186-187; A.S. OTTO, The Problem of K. Gibran, p. 20, 22.

جسبل جبر : جبران ، ص ٢٤ : توفيق صايغ : أنوار جديدة على جبران ، ص ١٦٩ و ١٧١ و ١٧٩ و ١٩٨ و ٢٠٠ و ٢٠٧ و ٢١١ و ٢١٣ . كذلك نجد في متحف جبران في بيري عدداً كبيراً من رسوم الأعلام .

الريحاني (١٨٧٦ - ١٩٤٠) - وقد رسمه أيضاً - في رسالة يرفق لاربعها إلى ه نيسان ١٩١١ ، فتترك شديد اهتمامه برسم عظماء عصره ، يقول : ه هل تذكر أيتها الأخ بأنني أخبرتك عن مجموع رسوم لعظماء الرجال في هذا العصر ؟ أنا الآن مهم بتصوير كبار الأميركيين للغة نفسها ، فمثل مدّة صوّرت ألبوت رئيس مدرسة هارفرد السابق والاساذ ه ديلي ه وغيرهما ، والآن أنا أريد أن أصيب صورة فرنك ساتيرن صديقك القديم في كونكرد ماس . فهل تريد أن تبعث إليّ رسالة إليه وتعرفني به وتوصيه بي^(١) ؟ وتقدمني له ؟ أنا لا أطلب من المستر ساتيرن سوى نصف ساعة من وقته ، وفي أثناء النصف ساعة أستطيع تسليط بالأخبار الشرقية التي تلتد الشيوخ العاجزين ، . (انظر صورة الرسالة في المستد رقم ١) . وبين مجموعه الفنية بمثل عدد غير قليل من الرسوم التي تحكل شخصه ، فكانت حركة إثبات الذات كانت تدخسه إلى رسم الأعظم لستوي هو غير رسومه بينهم ، وهكذا يتم التكامل النفسي من خلال الفن (رسم رقم ١٠ و ١١) . ونظرة إلى الرسوم التي كان يزين بها عترة قبل وفاته (صورة رقم ١٢) ترىنا كثرة رؤوس الأعلام التي كان يحرص على أن تبقى ماثلة أمام عينه .

ب - إثبات الذات في معاداة السلطة عبر إنتاج جيران وسيلة عامة لإثبات ذاته بطله الشهرة والنفوق ه فإن تأكيد شخصيته وجدد فيه أيضاً مثلاً تعريضاً نفسياً باتضاعه على كل سلطة . فالمدالية الباطنية التي كانت تنشط في عقله الباطن ضد والده ، وتمنحه رقابة وجهه الخلقية الاجتماعية من إعلانها صراحة ، كان لا بد من أن تجد لها مساوئ تعريضية وطرقاً رمزية تصرف شحناتها المضخوة منها . ويحسن أن نتبع في الكشف عن توجهاتها الرمزية وفي تأويلها المنهج نفسه الذي اتبناه في إبراز مظاهر عدائيته الصريحة نحو السلطة .

(١) المبراة خط جيران لها في الرسالة الأصلية . انظر صورة المخطوطة .

ای که این ایست صبره و است
 میبخت "قیم" بی کرمه مال
 ترند آن قبضه ای و سحره آن
 و تفسیر بی ! و تفسیر له
 ای که این ایست صبره و است
 میبخت "قیم" بی کرمه مال
 ترند آن قبضه ای و سحره آن
 و تفسیر بی ! و تفسیر له
 ای که این ایست صبره و است
 میبخت "قیم" بی کرمه مال
 ترند آن قبضه ای و سحره آن
 و تفسیر بی ! و تفسیر له

(مستند رقم ۱)

ای که این ایست صبره و است
 میبخت "قیم" بی کرمه مال
 ترند آن قبضه ای و سحره آن
 و تفسیر بی ! و تفسیر له
 ای که این ایست صبره و است
 میبخت "قیم" بی کرمه مال
 ترند آن قبضه ای و سحره آن
 و تفسیر بی ! و تفسیر له
 ای که این ایست صبره و است
 میبخت "قیم" بی کرمه مال
 ترند آن قبضه ای و سحره آن
 و تفسیر بی ! و تفسیر له

و رسالة جیوان الی امین الرضائی لی • نیرسان ۱۹۱۱
 و رسالة جیوان الی امین الرضائی لی • نیرسان ۱۹۱۱

رأس جبران
(رسم رقم ١٠)



رأس جبران في وضع آخر
(رسم رقم ١١)



كان جبران ما يزال في الخامسة والعشرين من عمره ، عندما أعلن أن أدباء سوريا ومصر على حق إذ يتخذونه لثالين : « هذا علو الشرائع القوية والروابط المائكة والتقاليد القديمة » . فذاك لأنه ، بعد استناره نفسه ، وجدها « تكره الشرائع التي سنّها البشر للبشر ، وتُبْخِضُ التقاليد التي تركها (الأجداد) للأحفاد » ^(١) . ولم يميز جبران بين شريعة وانسرى وتقليد وآخر ، فتورته استهدلتها جميعاً : إنها السلطة الاجتماعية العامة التي ترفض « وردة الهاني » أن تترك أمام صنمها الرهيب الذي نصبته الأجيال المظلمة لأنه يصرع حواطف القلب البشري ^(٢) ، والتي تكف من قسها جلاداً للمساكين الذين يجلسهم مجرمين لأنهم ضغاء ، وأمواتاً لأنهم قويّة ^(٣) ، والتي يهرب من بطشها الكلب المزبل الجريح لينجي إلى رماد أكثر نومة من قلب الإنسان ^(٤) ، والتي حبال صفها يهتف القلب البشري ، وفيه جرح عميق يترّف : « أنا القلب البشري قد حُيِّبْتُ في ظلمة سُنَنِ الجائمة فضطتْ ، وقُيِّدْتُ بسلاسل الأوهام فاحضرتْ ، وأهملتْ في زوايا غيِّ اللئينة قضيّتي ، ولسان الانسانية متعقد وعيوبها ناشفة وهي تبتسم » ^(٥) ، والتي « تكره الأفراد على اتباع مشارب محيطهم والظنون بألوانه والارتقاء بأزيائه فيصبحون من الأصوات كرجح الصدى ومن الأجسام كالتحاليات » ^(٦) . فالمرأة المستعبدة أو المظلومة ، والضعيف المتكسّص القدر ، والفقير المُزْدَرى ، والجندى المروّس ، والشاعر

(١) رسالته إلى نخله جبران في ١٥ آذار ١٩٠٨ (رسائل جبران ، ص ١٨ ، ١٩) . ويبدو أن كلمة (الأجداد) قد سقطت في النسخة ، ولم يتبق لها الناصب ، فزعمنا بين قوسين .

(٢) الأرواح المتسرعة - م . ك . ج ١ ، ص ١١٦ و ١٢١ .

(٣) المصفر السابق : ص ١٢١ .

(٤) مدّة وابصاة ، م . ك . ج ٢ ، ص ١٨٧ - ١٨٨ . ويبدو بالآثر أن جبران يرى في الكلب الضعيف الطريقة على جنسي يستلهم وهو شاب نشيط ، ويبنو وهو شيخ ضعيف ، أو مثل امرأة تحبب لحمام الرجل وهي صبية أو زوجة قوية ، وتصبح لهما متناً عندما تميز وتلتف .

(٥) المصفر السابق ، ص ١١٥ .

(٦) الموصوف - م . ك . ج ٣ ، ص ١٨٠ - ١٨١ .

فهو يحرص ، في « يوحنا المجنون » ، على مقارنة بحوثة الفنى في ممتلكات دير مار أنبشع المنتصب كبرج هائل بين الخضاب^(١) ، بفقر الرعاة والمزارعين الضعفاء القيمين في تلك المنطقة ، وهم امتدادة النفسى . ويتنم ، لهذه المقابلة ، مناسبة قديم أحد الأساقفة لتكريس كنيسة جديدة . وبينما يُجري الأسقف بعض الطقوس الاحتفالية ، يملأه الحيرة الموشاة بالذهب وتواجه المصنع بالجواهر ، يكون يوحنا « وانفأ بين الرعاة والمزارعين على رواق مرتفع يتأمل بعينه الحزبتين هذا المشهد ، ويتنهّد بمرارة ويتأوه بفصّات موحشة ، إذ يرى من الجهة الواحدة ملابس حريوية مطرزة ، وأواني ذهبية مرصعة ، ومباخر ومشاغل فضية ثمينة ، ومن جهة أخرى جماعة من الفقراء والمساكين الذين أتوا من القرى والمزارع الصغيرة ... من الجهة الواحدة عظمة ترتدي القطيفة والأطالس ، ومن الأخرى جماعة تلتف بالأطمار البالية . وهنا فئة قوية غنية ... وهناك شعب ضعيف محضر ... هنا الاستبداد القاسي وهناك الخضوع الأعشى » .^(٢) وفي « خليل الكافر »^(٣) ، يوجب منطق إثبات الذات أن تُصيب الحملة للكهنة أكثر مما تُصيب غيره ، لأنه كان الذي حابه القرويون - وجيران أهلهم - أكثر مما حايوا غيره . فينيري جبران يصوّره ، بلسان خليل - وهو امتدادة النفسى - صورا في غاية الشناعة والحفارة : انه عاتن ، مراد ، عتال ، ظالم ، « يناديكم بقوله لكم : يا أولادي ويا أبنائي ، وهو لا يشعر بالعاقبة الأبوية ، ولا يتسم شفاهه لرضيع ، ولا يحمل طفلا على منكبيه . فالحضوع الأعشى الواجب على جبران الطفل للأب القاسي ، هو نفسه واجب على خليل للأب الرئيس القاسي . فالمرء لا يصبر راهبا في عرف رئيسه إلا إذا كان مثل آلة عمياء خرساء فاقدة الحس والقوة » . ولذلك فضليل عليه أن يطيع رئيسه طاعة عمياء ، وعلى الرئيس الأب والرهبان الآباء أن يأمرؤا . وله

(١) كمبر معروف في ناحية بشري ، وهو يشتم في شتمه راد ملائق قبله ، وفرد تلكات فاسدة .

(٢) حرائر المروج - ج ١ ، ص ٨٩ - ١٠٤ ، وخاصة ص ٩٨ - ٩٩ .

(٣) الأرواح المنردة - ج ١ ، ص ١٠٢ - ٢٠٩ .

الحرمان وشطط العيش والتخشف، ولهم التمتع بأطياب المأكول والعمور وقاصم الأسرة^(١). فحيلة جبران العنيفة على الكهنة إنما تعبر، في بعض جوانبها، عن تصريف شحنات مكبوتة أو مضغوطة في ذاته ضدّهم، انطلاقاً من موقفه العدائيّ للاشموريّ من والده. فالقنّ، هنا، يؤدي وظيفة التنقية للانفعالات النفسية^(٢).

والصنيع الفنيّ المتحمي لهذا النمط يقوم بمهمة إنقاذ وتمحصين خلقي^(٣)، فقد يتولد من ألم يسمى الفنان، دونما دراية « إلى التخلّص منه، إذ يلوذ بالبراع أو الرتبة لينجو ممّا يؤذيه، شأن عضوٍ معاني يطرد جسماً دغيباً مُضِيراً^(٤) ». وعلى حدّ تعبير شارل بودوان: « الصنيع الفنيّ، لدى المُبدع كما هو لدى المتأمل، يُمثّل تصريفاً للشحنات الوجدانية التي يكون قد تلقاها احتشادُها على بعض التّرات من جرّاء كتبها، ومن جرّاء استعانة تصريفها في الرّوض الذي كانت فيه. ومن هنا ندرك إلى أيّ حدّ يمكن أن يكون الفنّ مُطفئاً^(٥) ».

وظيفة الفنّ هذه كملاّج نفسيّ، سببُ الكثير من خصائصها في انقراض جبران على ساطة الأغنياء. فالخلم بالمسال كان يراود مخيلة الفنّي الفقير منذ الحداثة. يقول لصديقه يوسف الخويّك، في باريس: « أذكرُ أنّي عندما

(١) حيلة جبران على رجال الدين ترى « أيها »، إنما بصورة ألفت، في غمام قصة « مصلح القروس » (الأرواح المتمرّدة - م. ك. ج. ١، ص ١٥١) « في تصاميم الأجنحة المتكسرة ».

(٢) وظيفة « نقية الأرواح » في الفن اكتشفها أرسطو، وأثار إليها عبارة Katharsis. انظر أيضاً والمأخوذ من كلمة « كترسيس »، في كتاب « الأسس النفسية للإبداع الفني » لمطلي سويك، ص ٣٤ - ٣٥.

(٣) انظر CH. LAJO, Notions d'Esthétique, p. 31.

(٤) J. BERTHELEMY, Traité d'Esthétique, p. 81.

(٥) CH. BAUDOUIN, Psychanalyse de l'Art, p. 204.

بدأت^١ . «رطش» كما فضل الأولاد - حتى في ذلك العهد المبكر - كنت أسلم في أن أبيع رسومي وأبيع منها . وكذلك عندما كنت أطلع لصفة طريفة يحفزني دافع قوي لكتابة القصص . وأنا اليوم أؤمن بأن كتاباتي «مطل» على يوما^٢ . وقبيل سفره الى العاصمة الفرنسية ، يعلن أن عودته من عاصمة الفنون الى أميركا متجمل « الأغنياء الصياد » يتهافون على شراء رسومي . وإنما هؤلاء جميع الأغنياء ، برأيه ، ومنهم أثرياء أميركا الذين قال عنهم أنهم يملكون « الدولار القوي الذي علمني الأيام أن أعظمه ، وأعتبره كأعظم واسطة بين الانسان وأمانته »^٣ . إنه الصويض النفسي يدفع الفقير الضعيف ليستمد من الأحلام سلاحاً يشهره بوجه مجتمع يقيم اعتبره على التيسر المادية ، ثم يحمله يسمى سمياً واتصفاً لحيازة السلاح نفسه الذي جعل الأغنياء أقوىاء ، كيما يثبت ذاته بوجههم .

ومن الوسائل التي تلجأ إليها ، تنقية لافعالاته وأهوائه ، أنه جعل أبطال حكاياته فقراء مظلومين ، لكن روحانيين ؛ في حين أنه جعل الأغنياء مادييين أفساد النفس . ويمكن لمجاز هذه العملية السيكولوجية بالمعادلة التالية :

(الفنى + المادية) أعظم من (الفقر + المادية) : الشعور بالدونية
(الفنى + المادية) أدنى من (الفقر + الروحانية) : إثبات القنات
ولا يستحي جبران عن هذه القاعدة غشياً واحداً ، ذلك بأن عقله الباطن لا يعرف الاستثناء .

وتنشط حركة إثبات القنات في « غليل الكافر » نشاطاً عظيماً ، متطلقة

(١) يوسف الخويلك : ذكراتي مع جبران ، ص ١٢ .

(٢) رسالته إلى أمين القريب في ١٢ شباط ١٩٠٨ (رسائل جبران ، ص ١٢ و ١٣) .

وفي معرض حديث جبران مع الخويلك عن الأيركيين وعزبه على عز أصابعه ، قال : « بلاهم خصبة ، والتمولارات بحر ، رغم أن أغنيائهم ، ككل الأغنياء ، صياد أنانيون » (يوسف الخويلك : ذكراتي مع جبران ، ص ٢٤) .

من الشعور بالضعف لإزاء القوة، وبالعبودية تجاه السيادة، وبالحرمان حيال
 الشيع ، وبالفقر حذاء الغنى . فتمزَل الشيخ عباس متصب بين أكوخ القرويين
 الحفيرة انتصاب « الجِيار الواقف بين الأقرام » . وشخصه امتداد لبرجه ،
 وأشخاصهم امتدادات لأكوخهم : بؤساء ضحفاء يطعمونه ويهابونه ويستجلبون
 رضاه ، و « إنْ صفع خدَّ رجل منهم ، ظلَّ ذلك الرجل جامداً صامتاً كأنَّ
 الضربة قد أتت من السماء . فمن الكفر أن يتجاسر ويرفع عينه ليرى من أنزلها .
 إنَّه موقف الابن تجاه الوالد القاسي ، يحرم التقليد الاجتماعي المريق عليه ،
 أي على عقله الواعي ، أن يرفع عينه إلى أبيه بنظرة احتجاج أو تحدُّ . لكنَّ
 الانفعالات النفسية العنيفة المكيوتة في العقل الباطن تتحين فرصة الحلم الفني
 لتُفْرَج عنها عبر التمجّجات الرمزية . فسرعان ما سيمتدُّ موقف خليل الراض
 إلى الفلاحين والخدم جميعاً - إخوته في الدونية - فاذا الشيخ عباس ، ذلك
 الغضب الساقط من السماء ، يُصبّه جيران بعلّة حقيرة « شبيهة بالجنون » فكان
 يسير ذهاباً وإياباً في رواق منزله كالنمر المسجون ، وينادي خدامه بأعلى
 صوته فلا يجيبه غير الجدران ، ويصرخ مستنجداً برجاله فلا يأتي لمعونه غير
 زوجته المسكينّة التي عانت من خشونة طباعه ما قاساه الفلاحون من مظالمه
 واستبداده . وبعد أن كان ذلك المستلط مالكا الأرض والفلاحين معاً ،
 « أصبح كلُّ فلاح في تلك القرية يستلُّ بالفرح الحقل الذي زرعه بالأعقاب...
 فصارت الأرض ملكاً لمن يفلحها ، والكروم نصيباً لمن يتعبها ويحرثها »^(١) .
 ويتجلّى ، أيضاً ، فعلُ حركة إثبات الذات في وجه الأغنياء ، حينما يجعل
 جيران سلمى تخاطبه قائلةً : « سوف تفكر بحرية وبحريّة تتكلم وتفعل . سوف
 نكتب اسمك على وجه الحياة لأنك رجل سوف تعيش سيداً ، لأن فاقسة
 والدك لا تملك عبداً ، وأمواله لا تنزل بك إلى سوق النخاسين حيث تُباع
 البناات وتُشرى »^(٢) . ولدى تشييع جنازة الغنيّ ، يجعل جيران جمعاً غفيراً

(١) الأرواح المشردة - م . ك . ج ١ ، ص ١٥٢ - ٢٠٩ .

(٢) الأجنحة الملتصقة - م . ك . ج ٢ ، ص ٤٧ .

يعني وراءه ، تقدّمه الموسيقى ، وتجلّله الفخامة ، ويواكبه الكهنة ، ثم يوضّح في جدّثٍ رخاميّ تنافّس الفنانون في صنعه . بينما تُشيع جنازة الفقير ، فيمضي وراءه زوجة تفرّج دموع الأسى وطفل يبكي لبكاء أمّه وكتب أمين يسير وفي سيره حزنٌ وكآبة ؛ ثم يودّع حفرةً في زاوية نائية . لكنّ جيران إذا أعطى الأغنياء الأهلّاء « مدينة الأحياء » و « مدينة الأموات » كليهما ، فانه جعل النساء موطناً خاصّاً بالأمساء الضعفاء ^(١) . فالحياة إن كانت قد قضت على الفقير بالشقاء الماديّ ، فقد عوّضته معرفة العدل ، وإدراك كنه الحياة ، وإثارة القلب ، وإعلاء النفس ، وتلطيف العواطف ، والمعادة الروحية . أمّا الفنيّ فإن كانت الحياة قد منحتة المال فقد شغلته خزانته عن اكتناء العدل والحياة ، وأظهرت لؤم نفسه وأنايتها ، وأبعدته عن الألوهية ، وجعلت حياته « دنيةً تحاكي حياة اللود في القبور » ^(٢) . وبما أنّ المال سلاح القويّ ضدّ الضعيف ، فالمتعلّق النفسي الجبرانيّ يوجب أن يرتدّ أذاه على صاحبه . وأشدُّ أضراره أن يشقى الفنيّ بحبه ، إذ إنّ هذا المخرج النفسيّ لا بدّ منه لجيران (ابن الراعي الفقير) الذي تحيّب حبه لحلا الضاهر (ابنة الأغنياء) ، لأنّ ذويها كانوا يطعمون بمصاهرة واحد من أهل الجاه والثروة . انه علاج نفسيّ لجبران بلطف اتصالاته المكبوتة وينقي أهواءه المخطوطة .

وفي الآداب المالية أمثلة شهيرة على العلاج النفسيّ بواسطة الفنّ ، منها مثل غوته ^(٣) . فبعد أن هام الشاعر الألمانيّ بشارلوت بوف خطيبة كِسْتِر :

(١) دمنة وإحصاءة - م . ك . ج ٢ ، في مدينة الأموات ، ص ١٠٣ - ١٠٤ .

(٢) المصدر السابق ، « خليل » ، ص ١٨٣ - ١٨٤ .

في « المواصف » فلاحظ تمجيد الفقير وتحقير الفنيّ في « الصليان » (م . ك . ج ٣ ، ص ١٢٩ - ١٤٢) حيث يخرج الفنيّ الفنان من منزل الباشا ، يجفأ على الأغنياء والوجهاء ، لأنه لم يجد فيهم إلا طرشاً وحباً ، مما أسكته عن اللناء . لكنه ، رغبة في كدهم ، يتابع غناه حتى الصباح ، لدى صديقه الفقير وفي بيته الخفير المجاور لقصر الباشا .

(٣) WOLFGANG GOETHE (1749-1832) .

تسلط عليه وسواس الانتحار ليتخلص من هذا الحب الذي لا جدوى منه .
 وإذا الحياة تلعب لعبتها ، فيُرسل كِثير اليه كتاباً يحدّثه فيه عن انتحار
 شابٍ يأساً من حبه . فيُحدّث الكتاب في نفس غوته أثرًا بالغاً ، فتتبلور
 ذكرياته الشخصية ، مجتمعة حول تلك المغامرة الفاجعة ، وتتمخض بمولود
 جديد هو « فيرنر » ^(١) . بعد إنجاز القصة أحسّ غوته « كأنه خارج مسن
 اعتراف عام ، فَرِحاً وحرّاً ، له الحقّ في أن يحيا حياةً جديدة » ^(٢) . ومثُلُ
 غوته له ما يمثله في ثلاث من «ليالي» موسه ^(٣) . كذلك ألف بيار لوتي
 « صياد إسلاندا » ^(٤) بُغيةً إيجاد متصرف لحبه الخائب . ولكن بينما وجدّ
 غوته عزاءه بأن مسات في شخص فيرنر الذي ناب منابه . لتطف لوتي
 آلامه بإماتة خصمه . فقد عشق فتاة بريتونية فضلت عليه إسلاندياً . فمظم
 حزنه وامتدّ أوعاماً . وفي القصة يتزوَّج البحار الفتاة ، لكنه بعد ثمانية أيام
 من قرانه ، يعاود مغامرات الصيد ولا يرجع منها . فالفتاة التي غناها لوتي
 وسما بها الى عالم المثالية في قصّته ، كلّفه فشله في تزوّجها سنين طوالاً
 مُترعّات بالعداب . فلذا يتعذّر الظنّ أنّ الشاعر كان يغذي ، في لا
 شعوره ، حبّاً لخصمه . فمصير الصياد الفاجع هو عملية تطهير أدبيّ لرغبات
 لوتي الانتقامية ، لأنّ من تزوّج المرأة التي أحبّ كان واجباً أن يلقى حتفه ^(٥)

أمّا جبران فأرجع الظنّ أنّ فشله في حبه حلاّ الصاهر وخوفه من أن
 تقرن بأحد الأثرياء دفعاه ، لا شعورياً ، الى نسج عدّة أقاصيص كانت أشبه
 بعلاج نفسيّ لأمواله للكبوتة . ففي « رماد الأجيال والنار الخالدة » ، يتممّص

(١) Werther (1774).

(٢) J. BERTHELEMY, *Traité d'Esthétique*, p. 81.

نقلا عن : Poésie et Vérité Je partie, livre XIII, in ANGELLOZ, Goethe, p. 69.

(٣) ALFRED DE MUSSET (1810-1857). CH. LALO, *Notions d'Esthétique*, p. 31.

(٤) PIERRE LOTI (1850-1923), *Pêcheur d'Islande*.

(٥) R. DALBIEZ, *La Méthode psychanalytique et la doctrine freudienne*,
 t. II, p. 340-341.

جبران ، لا شعورياً ، «ثالثاً» ابن الكاهن الريّ ، ليحظى بحبّ الحناء الغنية . وعلة ذلك أن المدعوّ الى تزوّج حلا الضاهر كان عليه أن يتألّف بركة الكاهن وعطفه ، أي أن يصبح «ابن» الروحيّ . وإذا كان ثالثاً هو صورة جبران نفسه موسومةً بتأكيد الذات ، فوضعه الاجتماعيّ الفقير مناقض لوضع ثالث الغنيّ . ولذا فالوضع الاجتماعيّ هو الذي يجب أن يموت ، فالعقل الباطن لا يسمح لثالثان وحييته أن يسعدا وهما غنيّان . لكنّ إيمان جبران بالتقمّص أسفه ، هنا ، فاذا به ، يضحيّ بالفتاة ، مؤقتاً ، للقضاء على الوضع الاجتماعيّ الغنيّ ، ثم يبعثها وثالثان قرويةً وراعياً . وهكذا يمنحهما الوضع الجليل حتىّ التمتع بالحبّ المنيّ^(١) . ويجعل جبران «وردة الهاني» امتداداً نفسياً لحلا الضاهر ، ويجعل رشيد بك نعمان امتداداً للموسر المدعوّ الى زواجهما . أمّا هو فيتمّص «فني يسير وحده على سبيل الحياة ، ويعيش منفرداً بين أوراقه وكتبه» في منزل حقير . ويلعب العقل الباطن لعبته فاذا وردة تهجر الرجل الذي جعلها «رفيقة مضجعه بحكم العادات والتقاليد» ، قبل أن تصيرها «السماء قرينة له بشريعة الروح والعواطف» لتلتحق بذلك الفنيّ الروحيّ الميول . انه تحوّل نفسيّ لحرمان جبران ، وإشقاء لخصمه الغنيّ^(٢) . ويروي في «حكاية» حكاية حاله مع حلا الضاهر عبر عملية أخرى من عمليات عقله الباطن : فني فقير ابن فلاح أحبّ إحدى الصبايا ، ثم علم أنها ابنة الأمير . فحزنت نفسه ، وبكى لوحده واقفاده ، ولأم قلبه لأنه قاده الى حيث الحبّ يستهزئ به ، و«حيث الآمال تُعدّ عيوباً والأمانى ملّة» . انه شعور جبران بالذوقية حيال التي أحبّ ، إزاء غناها ومكانتها الاجتماعية . لكنّ لا وجه يرفض الواقع الدليل ، مطالباً بإثبات ذاته الكبير .

(١) هرائس المروج - م. ك. ج. ١ ، ص ٦١ - ٧٤ .

(٢) الارواح المشرقة - م. ك. ج. ١ ، ص ١٠٧ - ١٢٦ .

يرفض جبران في «غيبات الصغور» (دسة واجتلة - م. ك. ج. ٢ ، ص ١٧٤ - ١٧٧) موضوعاً مشابهاً «لوردة الهاني» . لكنه يدلّ أن يحمل المرأة تاجر زوجها لتلتحق بالشاب الذي تحب ، يحسها تصرف قلبها عن زوجها لتعيش حبيبها في حلم دائم .

وسرعان ما تلبّيه حركة التصوف النفسي : اذا كانت الضاليد والشرائع أقوى من أن يحطمها ، فلنسمع الحبيبة ، إذا ، صوت الفتى العاشق . ولما كان عقله الباطن يحرم على الثنية أن تستمتع بجبها في دنيا المظالم ، فما عليها إلا أن تموت لتلقيه في « الأبدية حيث المساواة » . ويتحرر جبران بدوره ، عبر بطل الحكاية ، على طريقة فيرير ، ليجتمع بمن أحب في الوطن الذي لا يشعر فيه بالدونية ^(١) . أما في « الأجنحة المتكسرة » ، فالصراع بين جبران وخصمه انحلّ في إشقائه الخصب الغني ، وإماته الحبيبة ، ليسهل لقاءها في الأبدية ، ما دام لقاءها في الدنيا تمذّر ^(٢) .

أما رسوم جبران فلا تلاحظ فيها عدائيته للسلطة سافرة بوجه صريح جليّ ، وقد يردّ ذلك الى نشاط العقل الباطن في فته أكثر مما في أذه ، ضمن هذا المجال . فاذا التزعة المدوانية تسكّ سبيل الإسقاط الرمزي تفرجاً عنها ، حاصرة هدفها في صورة الوالد ، ذلك بأنّه ، على الصعيد اللاشعوري ، محرّك العدائية الأولى والرمز الذي يستقطب السلطات على مختلف أشكالها . وقد أعان على حصر العدائية بالوالد في فنّ جبران أسلوبه التجريديّ ، إذ إنك لا ترى فيه حاكاً أو إقطاعياً أو رجلاً دينيّاً ، إنّما هي أرواح بشكل

(١) دمة وابتناسة - م . ك . ج ٢ ، ص ٩٩ - ١٠٢ .

(٢) خطأ ما يظنه بعضهم من أن « الأجنحة المتكسرة » صورة واقعية لحياة جبران الماطية وحياة جلا القاهر . فهي ككلّ حكاياته القرائية الأخرى تموجات رمزية لحياته النفسية ، ذات وظائف سيكولوجية مختلفة ، غالباً ما يلج فيها التصوف النفسي القبة الأولى . ووعي جبران أن كتابه ليس سيرة حياته الواقعية وعدم إدراكه دوره اللاشعوري جعله يصرح لماي حاسك في أواسط ١٩١١ : « ليس في الكتاب أي اعتبار واسط كان اعتيادي أنا . وليس فيه شخصية واحدة درستها بناء على نموذج ، ولا حادثة واحدة انطأها من الحياة الواقعية ... إن الشخصيات والحوادث هي خلقي أنا ... ولكن مع أي عرفت بالطبع علاقات غرامية وتيقظت على الحياة - فليس في هذا الكتاب أي شيء شخصي متعلق بي ، ولم أعرف أية شخصية من شخصياته » . ويطلع سنة ١٩١٢ إلى أن سلس كرامه « نصفها ياتريس ونصفها فرلنشكا » (توفيق صايغ : أضواء جديدة على جبران ، ص ٢٢١ - ٢٢٢) .

أجسام ، ولولا بعض القرآن ، من مثل اجتماع الأب والابن أو الأب والأم والولد لتعدت معرفة هوية الوالد . ولكنك قد تقع على ما يشذ عن هذه القاعدة . ففي الرسم (رقم ١٣) ، وسط إطار تشبه القسوة الطبيعية به - من سماء متجهمة وأرض صلبة قاحلة - يمثلُ شبه رجلٍ قد من صخر واندمج به ، عيناه وكنبان أسودان يحيطان بالقضاء ، ورأسه منعطف مع الجذع الى الوراء ، وركبته مثنيتان الى الامام كأنه يهيم بالركوع . ومع أن البأس والقدرة بارزان فيه فانك تشعر ، إذآءه ، أن قوة قاهرة خفية مسخته وحجرتة ! وأغلب الظن أنه رمز السلطة عامة والسلطة الأبوية خاصة ، وقد أسقط جبران عليها عدائته اللاشعورية فجعلها فريسة قسوتها الحجرية ! أما الرسم (رقم ١٤) فيه رجلٌ يقتعد ما يشبه الختم ، ممسكاً بيسراه جسم طفل ، ومُحيطاً برجليه يميناه ، ولاوياً رأسه نحوه ؛ وكأن الطفل يلوذ به . لكن في طمس وجه الرجل سرّاً عجباً ! ترى ، أليكون تملش جبران الى عطف الأبوة أسقطه على الولد ، جاعلاً والده يحنو عليه ، لكن لا وحيه المشحون بالعدائية المكبوتة ضد أبيه رفضاً إلا أن يطمس وجهه ، مبرزاً ، هكذا ، التناقض الوجداني الجبراني ! وفي الرسم (رقم ١٥) إلحاح على الفكرة نفسها مع تبديل لطيف في الجلسة والإطار الطبيعي . وفي الرسم (رقم ١٦) يمثلُ ثلاثي : رجلٌ جسمٌ يدين تتكوى على حضنه امرأة نحيلة يبدو أنها زوجته ، وهي تُدير ظهرها له مخفية وجهها بيدها ، وهو يعطف رأسه عليها سلاماً يميناه أعلى ظهرها ، وبين رجليه طفلٌ جاثٍ يستطلع وجه أمه ، في حين أن وجه الأب مطموس ! وراجع الأمر أن قسوة خليل جبران على ابنه وامراته أحدثت في لاوعي الفنان رجماً مُثَلَّت الأهداف : إلزام أبيه بالعطف على أمه ، وطمس وجهه رفضاً لأبوتة - إذ لم تكن مثالية يطمئن الى الاقتناء بها - والاتجاه العاطفي نحو الوالدة . وفي الرسم (رقم ١٧) يمثلُ الثلاثي نفسه ، لكن في وضع آخر : الوالد ، في خلفية الصورة ، يحاول قبيل حق امراته بثنيها الى الوراء ، والطفل يسلك جسداً أمه كأنه ينزع

أباه امتلاكها . غير أن في الصورة تفصيلاً يسرع النظر ، فالوالد بذلك أن يطمس وجهه أزيل جسمه . إنها طريقة أخرى لتفريغ عن العدائية اللاشعورية المكبوتة . وفي الرسم (رقم ١٨) تكرر المواجهة الثلاثية ، لكنها تتسم ، هذه المرة ، بصيغة مأساوية : الأب ميت مطموس الوجه منطرح على الثرى ، في خلفية الصورة ، وأمامه الأُم وطفلها يتماطقان ويتشاغلان عن الواقع الفاجع ، كأن لا صلة تربطهما بالصرع . إن العقل الباطن تتساوى فيه العدائية وقتل الخصم ^(١) . والرسم (رقم ١٩) يمثل غير تمثيل نفسي جبران بنشاطها الواعي واللاواعي ، فيه يبدو شاباً جاثياً بين أبيه وأمه ، وجهه يعضه الألم ، ويداه مبسوطتان كأنه مصلوبٌ عليهما . غير أنه يعطف رأسه إلى صدر والدته ، في حين أن والده بعيدٌ قليلاً عنه مطموس الوجه . وكأن جبران يتوق إلى تحطّي صراعه النفسي - القائم على نبذ اللاواعي لأيه وتعلقه العاطفي بأمه وهما أمران لا تُقرهما ذاته الاجتماعية - بإتحاده الماهي يسوع المصلوب ، وهو ما سيسفر عنه التحقيق في سياق الدراسة ^(٢) .

ذاك كان محور معاداة السلطة . دليلنا إليه تمثّل في إنتاجه بمظاهر نزع عدائية صريحة استهدفت السلطة كيفما تبدّت « بدءاً بصورتها الاجتماعية المعنوية العامة ، وانحداراً إلى وجوه خاصة تجسّدت في الآباء ورجال الدين والأغنياء حكّاماً كانوا أم عاديّين .

وبالرفق إلى طفولة جبران أمكن تطليلها بنش جنودها ، فإذا هي ضاربة في بؤرة انفعالية وجدانية فكرية تكوّنت في طفولته الأولى واغتست ، فيما

(١) P. DACO, Triomphe de la Psychanalyse, p. 287-290.

(٢) يجب النظر بين الفة والحذر إلى رسوم جبران التي يمثل الآباء فيها . فليس لمحتواً أن يكون وجود الوالد دائماً ذريعة لتفنية الأهواء غده ، فأحياناً يتوحّد جبران وصورة الأب ، أو يتجلّو في عدائته له إذا كان الرسم من صنائع مرحلة الاتزان التي امتصت اللعبة فيها أحقادهم وهين التناصري على نشاطه النفسي .



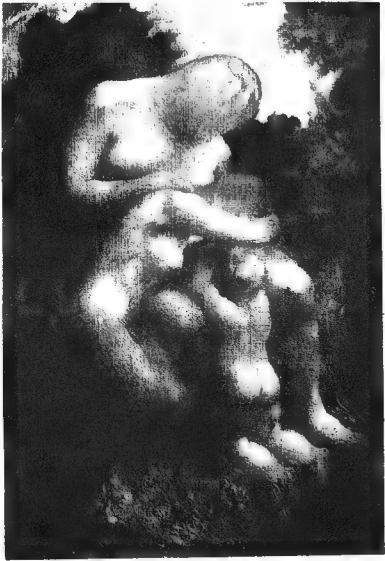
(رسم رقم ١٣)

السلطة المتحجرة

الولد والاب المظموس الوجه
(رسم رقم ١٤)



والد مظموس الوجه وابنه
(رسم رقم ١٥)



(رسم رقم ١٦)

الاب المغموس الوجه والام وطفلها





أم وطفلها حيان متعاطفان ، واب ميت مطموس الوجه (رسم رقم ١٨)



الفتى المصلوب
بين امه وابيه المطموس الوجه
(رسم رقم ١٩)

بعد ، بروافد طارئة ، وقد تولد منها أصل محوري دينامي قوامه الشعور بالدونية . ولدى استعراض سيرته اتضح أن لهذا الشعور الذي تغلب عليه صفة « المصايبة » أعراضاً نفسية ، منها ما هو مباشر كالخجل وخوف الإقدام على الأمور الجلتى ، ومنها ارتدادى يستهدف إثبات الذات بعملية تعويض نفسى متشعبة السبل شملت أدبه ورسمه مثلما شملت حياته . ولم تكن المظاهر الصريحة لمعاداة السلطة في إنتاجه التي انطلقنا منها كدليل للطريق إلا جزءاً من نزعة عدوانية فيه كادت تكون عامة ، ووجهاً واحداً من وجوه عملية التعويض النفسى المتفرعة المسارب ، والتي إن تمثلت في سلوكه بتزعة استقلالية ، وطلب محموم للتفوق ، وعمل مجهود متواصل ، ومبالغات وادعاءات ، وتأكيد رجولته تجاه المرأة ، فإنها وجدت تعريجاً لها في إسقاطات رمزية كثيرة عبر إنتاجه .

ولا شك في أن نبد جبران اللاواعي لوالده - الناتج عن عوامل جمّة منها تسلطه المُرهِق عليه - كان حافزاً باطنياً له ليتقمص تقمصاً نفسياً صورة رمزية للأب المثالي لم يستطع أن يحققها في أي وجه واقعي ، فهبّاه ذلك للسعي إلى توحده الماهي يسوع الناصري ، بعد اعتناقه إياه مثلاً أعلى له . وهذا ما سنفصله في القسم الثاني من الدراسة .

بقي أن يسأل : أيمكن اعتبار محور معاداة السلطة مستقلاً ، أو فرعاً نما من أصل نفسى أكثر عراقة وشمولية ؟ إن أدلر يجعل الشعور بالدونية شعوراً طبيعياً عاماً قائماً في كل طفل ، لكنه قد يتسم بصفة انحرافية شاذة إذا ما أحاطته وداخلته ظروف وعوامل خاصة ، الأمر الذي يبتاه مفصلاً ، وأن نعلينا مظاهر العدائية في إنتاج جبران . لكن فرويد يعتبر أن « معقد النقص » يتج عن أصل نفسى دينامي أعم وأقدم هو « معقد أوديب » الذي يرد دائماً بده تكونه إلى الطفولة الأولى . لكن ، أنتطبق أعراض إثبات الذات عند جبران ، وأهمها عدائته للسلطة وتحقيرها على صفات من يعانى « معقد الأم » والفرويدى ؟ بعض المحللين التفسيرين ينفي ذلك ، إذ يجعل « عقدة الخصاص » التي من مظاهرها

عجالة الكبار والرؤساء وذوي السلطة وتجنّب الاصطدام بهم من ثمار
الأوديبية^(١) وهذا ما نرى تقيضه عند جبران .

في أيّ حال ، ليس من وظائف هذا البحث — وهو دراسة أدبية أصلاً —
أن يُعنى بنشأ أمورٍ على المحلّين النفسيّين أن ينبشوها في حياتهم إذا استطاعوا ،
ولاسيّما أن غاية هذا الفصل ، وهي تقديم تعليل وتأويل نفسيّين كافيين لمعاداة
السلطة في إنتاج جبران ، يُخال إلينا أننا أوفيناها حقّها . غير أنّ الشعور
بالدونية إذا لم يكن فاجماً مباشرة عن التعلّق بالوالدة ، عند جبران ، فإننا
سنراه متشابكاً في بعض مظاهره بالأصل النفسي لمحوّر الأمّ حسبما سنبيّن في
الفصل التالي .

(١) P. DICO, Les triomphes de la psychanalyse, p. 416.

الفصل الثاني

محور الأمم

قلبُ الحاذية الآخر الذي دار في فلكه الكثيرُ من وجنات جبران وخواطره وأخيلته كان الأمومة . وحبُّ الأم غريزة في الكائن البشري ، لا جدالَ فيها ، لكنه اتخذ عند جبران مكانةً بارزةً واتسم بصفةٍ مُميّزة جعلته يتغلغل في إنتاجه مباشرة أو مُداورة ، ويهيمن على سلوكه هيمنةً متواصلة لا يسوغ معها تغافل الأمر واعتباره حَدَثًا عاديًا طبيعيًا . وإذا تعدّر على غير المُلمّ بالأبحاث النفسية ونتائجها استجلاء إسقاطات الأمومة الرمزية ، فإنّ مظاهرها الصريحة في أدبه ورسمه سهلةُ المنال ؛ ولذا جعلناها دليلَ الطريق إلى محور الأم كشأننا في درسا المنهجي لمعاداة السلطة .

١ - مظاهر المحور الصريحة في إنتاجه :

الأمومة الصريحة نعني بها الأمومة البشرية الواضحة الدلالة ، وقد ظهرت آثارها ، شتاتاً ، عبر مراحل أدبه جميعها . ففي « دعة وإبسام » لوحنة أدبية لأرملة فقيرة جالسة تستدفئ من البرد القارس ، وهي تنسجُ الصوفَ رداء لابنها ، « وبقرها وحيداً ينظرُ نارةً إلى أشعة النار وطوراً إلى وجه أمّه

المهادىء .^(١) أتكونُ الأمُّ امتداداً نفسياً لكاملة رحمه^(٢) ، فيها حنانها وتقواها وروحانياتها وصبرها وحكمتها ؟ ويكون الصبيُّ امتداداً لجبران الطفل ، يُدعّر من قسوة الريح و غضب العناصر - التي حلتْ حلولاً رمزيّاً مكان والده ، وبالتالي مكان كلِّ سلطةٍ عانية - فيلوذ بصدر أمّه محتجباً بمنجوها ؟

وفي « خليل الكافر » تهتمُّ راحيل بخليل اهتمام أمِّ بولدها ، فتسكب « الرافعةُ » الوديدة من عينها ، وتجلس بجانبه « تُطعمه بيدها لُقماً صغيرة مثلما تفعل الأمُّ وطفلها » . ويستسلم خليل لحنانها ، مع أنّه في طور الشباب لا في الطفولة ، فلا تمضي دقائق حتى يُغمض أعضانه وينام « كالطفل المستأن على ذراعي أمّه »^(٣) . أيكون خليل إسقاطاً نفسياً لشخص جبران وقد سمى نفسه في أمريكا (خيلاً) ؟

وفي « الأجنحة المتكسّرة » يستوقفنا مشهد الوالد المتنازع يتشَل من بين المساند صورة أمِّ سلمى الميتة ليُربّيها ابنته ، فتكبُّ عليها تقيلاً صارخةً : « يا أمّاه ، يا أمّاه ، يا أمّاه ! » وكأنّها تتحدّ أمِّ سلمى بأمّة الميتة ، ويتحدّ هو بسلمى ، فتندفق نفسه نشيداً لأمّه ولا أرق : « إنّ أعذب ما تحدّثه الشفاه البشرية هو لفظة « الأمّ » ، وأجمل مناداة هي يا أمّي . كلمة صغيرة كبيرة مملوكة بالأمل والحبِّ والاعتطاف وكلِّ ما في القلب البشري من الرقة والحلاوة والعلوبة . الأمّ هي كلُّ شيء في هذه الحياة ، هي التمزّية في الحزن ، والرجاء

(١) « الأرملة وابنها » : م . ك . ج ٢ ، ص ١٣٠ - ١٣٢ .

(٢) قد يكون الفنّ لعب ، هنا ، لعبة تنقية الأهواء - أو التفرّج - فإذا عقل جبران الباطن ، وقد احتشدت فيه انفعالات المدالية ضد أبيه ، ومنته رقابة العقل الرومي من إظهارها ، يربح أسلحه الممتعة من بعض الضغط بأمانة والده رمزياً ، عبر والد الطفل في الحكاية ؛ ذلك بأن قطع « دمة » وابنته « كتبت كلها بين ١٩٠٤ و ١٩٠٨ ، إلا اثنتين منها غالب الظنّ انهما « يوم مولدي » و « وصوت القاهر » (رسائل جبران ص ٤٣) . في حين أن موت والده يرفده نفاً في صيف ١٩٠٩ ، ويبلغه ماري هاسكل ، في ٢٣ تموز من السنة نفسها ، بكتاب أرسله إليها من باريس

(The Letters of K. Gibran and M. Haskell, p. 28.)

(٣) الأرواح المتسرّدة - م . ك . ج ١ ، ص ١٥٩ و ١٦٠ و ١٧٢ .

في اليأس ، والقوة في الضعف ، هي ينبوع الحنو والرأفة والشفقة والغفران ، فالذي يفقد أمه يفقد صدرأ يستد إليه رأسه ويدأ تباركه وعيناً تحرسه (١) .

وفي « المجنون » (٢) يتنفض الطفل ذو الأيام الثلاثة ، محتججاً لأمه على مرضه التي صورتها سميلاً : « أمه ، ليس ذلك صحيحاً . ففراشي خشن ، والحليب الذي رضعته مر في فمي ، ورائحة الثدي كريهة في أنفي ، فما أنسني ! » أليكون التشبث اللواحي بشدي الأم وقلق الانفصال عنها يرهقان جبران ويشعرانه بالشقاء ؟ ذلك بأنه امتداد نفسي لما ، وهناء من هنا ، و « الأنشودة الكامنة ، صامته ، في قلب الأم ، ترتم على شفتي طفلها » (٣) .

حتى « المصطفى » كان يشعر بقلق الانفصال عن أمه ، فأول ما يلجئه في جزيرة مولده التي طالما حن إليها هو حديقة أمه (٤) التي هي تمثيل رمزي لاشعوري لحسن الوالدة .

وفي « التائه » يلمن الشاعر الشاب للأميرة العجوز أنه يحبها ، فتظهر أنها أيضاً تبادل له حب الأم لابنها ، لكنه يصّر على أنه يحبها كرجل . وتحضرها ساعة الوفاة ، فتنازع ، وهي تنازع : « يا حبيبي ! يا ولدي الوحيد ، يا شاعري الشاب ، قد يكون لنا أن نلتقي ثانية ، وحيث لا أكون في السبعين (٥) . » أليكون وراء ذلك رغبة لاواعية في أن يحل جبران محل والده ؟ ! في أن يكون الطفل والرجل معاً ؟ !

(١) الاجنحة المتكسرة - م . ك . ج ٢ ، ص ٦٤ .

The Madman, p. 33. (٢)

Sand and Foam, p. 19. (٣)

The Garden of the Prophet, p. 4 & 8. (٤)

إذ كنا ننظر بجزر إلى « حديقة النبي » كوثيقة مأسوة ، وجداً تأكيداً لما ذهبن إليه ، من حنين المصطفى إلى حسن أمه ، في إعلان جبران لماري هاسكل سنة ١٩٢٣ ، وهو يصد تصيم حديقة النبي : « وهناك في (جزيرة مولده) يتوجه إلى بيت أمه - ويصرف جزءاً كبيراً من الوقت في حديقة أمه » (توفيق صايغ - أسوار حديقة حل جبران ، ص ٢٢٨ - ٢٢٩) .

The Wanderer, p. 87. (٥)

وإذا كان أدبُ جبران ينطق بالأمومة البشرية الصريحة ، فهو موهبة أكثر احتضالاً بها ، إذ إنها جليلة فيها صلوحة ، وقد يردُّ ذلك إلى أن الرسم يسدُّ الحاجات النفسية أكثر من الكلام ، لأنه يُفرِّغ الفكر والوجدان في أشكال تتجسّد مرئيةً للعين ، وفي هذا إشباع أقوى للحسِّ والنفس . وحسب المستطلع أن يسرَّح الطرف في رسوم جبران حتى يجتذب انتباهه عشرات اللوحات المثلثة الأمومة البشرية تمثيلاً صريحاً . وبما أن استعراضها جميعاً متعذّر ، وتعدُّها لا يزيد معاني جديدة على دور الأم ، لكن يؤكد خطورتها في نفس جبران ، فقد قسمناها خمسة أنماط واكتفينا بنماذج منها للدلالة .

النمط الأول يمثل الأم وطفلها منفردين أو مع الأسرة في غياب الأب ، وقد اخترنا منه خمسة نماذج : ففي الرسم (رقم ٢٠) وجه أم تحاله ينظر إلى النيب ، وكأنها جردت من جسمانيته فندا ظلاً من ظلال الروح ، وقد التصق به فم طفل مطمئن لم يبد منه إلا الرأس أيضاً . وفي الرسم (رقم ٢١) تبدو الأم جليلة الجسم ، لكنها مطبقة العينين ، مكتسبة ثوب قائم ، مغطاة الرأس ، وجهها هادئ أمين يشف عن حكمة ، وبين يديها ، من غير احتضان أو غمر ، طفل يبرز جسمه عارياً معافى ، ويدها تكادان تعانقها ارتياحاً . وفي الرسم (رقم ٢٢) إطار طبيعي تهيمن عليه أشباه صخور وأشجار متشابكة داكنة ، لكنك ترى في أعلاه اقتراباً ينفذ للنور منه فينجلي تحت انعكاسه جسم أم ممثله عارٍ واضح القسمات ، غير أنها راكعة كثية تستند إلى الصخور ، وتحفي رأسها القائم الوجه على طفلها الواقف الحزين كأنما تعزّيه ، وقد استر وجه الطفل بيديه الممتدتين نحوها . وفي الرسم (رقم ٢٣) إطار طبيعي أيضاً يبرز وسطه ، على صخرة منفردة ، أم وطفل عاريا الجسمين ، ممتثلان ، المرأة جالسة على الصخرة بارتياح ، ووجهها لا يشف عن حزن ، بينما يقف الطفل وكأنه يجتلب عطف والدته فتحذب عليه مناعية . أمّا الرسم (رقم ٢٤) فيمثل أمًا تحضن طفلها المطمئن بين ذراعيها ، وقد اتكأ على كل من منكبيها فتاة ، إحداها مطبقة العينين ، والأخرى مفتوحة الناظرين ، لكنهم جميعاً

في انسجام ومكون غريبيين ، وفي حين أن الصبيتين وأمهاتهما مكسيتان بالثياب ، فإن الطفل وحده عار . وأرجح الظن أن الرسم يمثل جيران الطفل وأمه وشقيقتيه ، لا سيما أن ملامح الوالدة هي ملامح كاملة رحمة نفسها حسبما تظهر في صورة لاحقة (رسم رقم ٤٠) .

أما التمثيل الثاني فيمثل الرضاع ، وقد استوقفنا منه ثلاثة نماذج : ففي الرسم (رقم ٢٥) يبدو طفلٌ متشبثٌ بئدي أمه ، وكلاهما جسدان عاريان خاليان من أية كثافة . وفي الرسم (رقم ٢٦) تظهر والدة ميتة ، منطرح جسمها العاري الهامد على الأرض ، وطفلها يتشبثٌ بئديها يرضعه ؛ بينما تهبط عليها من عل ثلاثة أرواح كأنما تعزم قفلها إلى الأبدية . وفي الرسم (رقم ٢٧) يمثلُ ضمن إطار طبيعي ضيق شابٍ عاري الجسم ، مكتنز اللحم ، يرضع ئدي امرأة ! ترى أ تكون أمه ؟ ! أ لعله حين الرجولة الضاري للعودة إلى ئدي الأم ، بعد أن أضناها قلق الانفصال ؟ أ هو توق الرجولة المرهقة بالقرب واليباس في عالم البالغين للعودة إلى ينبوع الحنان الدافق الأول ؟

أما التمثيل الثالث فيمثل الاندماج بالأم ، وقد استرعاونا منه ثلاثة نماذج : ففي الرسم (رقم ٢٨) يبدو طفلان بالغان متعاققان - قد يرمزان إلى جيران وأخته - وكلاهما مندعجان بحسد الأم التي لا يبدو منها إلا رأسها الحاني العطوف ، وبداها المحيطتان طفلها برفق . وفي الرسم (رقم ٢٩) يبرز طفلان بالغان أيضاً كأنهما ضمن شبكة الرحم وقد اتسعت واستدارت حتى حجبت معظم جسد الأم التي تراها تنظر إلى ثمري أحشائها بعطف كبير . وفي الرسم (رقم ٣٠) تمثلُ أمٌ عظيمة الحجم ، تندمجُ بحسدها أمٌ صغرى تضمُ في أحشائها ولديها : ففى وفساء يذكرناك ه بالطفلين البالغين ه في الرسمين السابقين . ولعل في هذا الاندماج الأمومي المضاعف حيناً إلى التلبس بالوالدة مقروفاً برغبة في التماسي للاتحاد بالروح الأم حسبما سنوضح في سياق هذا الفصل .

أما النمط الرابع فيمثل الطفل والستور ، وهو فرس أسطورية ينتهي عتقها بصدر امرأة ويدبها ووجهها . ووفق رأي كارل يونغ ترمز الفرس إلى نموذج بدائي رئيس للأم في اللاوعي الجمعي^(١) . وقد اخترنا من هذا النمط ثلاثة نماذج : ففي الرسم (رقم ٣١) تبدوا فرس الأسطورية - لنقل الفرس الانسانية - جائعة ، حانية على طفل يحاول الوصول إلى ثديها . وفي الرسم (رقم ٣٢) تظهر الستور الأم متشبثة يداها الأنثويتان بالطفل تشبثاً قوياً . وفي الرسم (رقم ٣٣) تمثل الفرس الأم وقد حنت رأسها الأنثوي معاققة شاباً منطرحاً أرضاً مسلماً لعطفها .

ويتمثل النمط الأخير في الرسم (رقم ٣٤) للذي يبدو فيه جبران وأمه إلى جنبه من وراء ، وعينا جبران كأنما تنتظران في مرآة عاكسة ، وبدل أن يرى وجهه يرى وجه أمه . فكأنما هي لصيقة بشخصه تحت عطفه الواعي واللاوعي .

تُرى أيكون تعلقه النفسي بها وراء هذه المظاهر الصريحة الصارخة للأمومة في أدبه ولا سيما في فته ؟ الجواب عن ذلك يقتضي العودة إلى طفولته لنشأ جلور الملة فيها .

٢ - محاولة تحليل المحور نفسياً :

لا بد من أن يكون لمظاهر الأمومة الصريحة المُدَاخِلَة أدب جبران شتاتاً والمخالفة بها رسومه من سبب نفسي دينامي بعيد يرقى إلى طفولته وبه يُفسَّر ويُعلَّل محور الأم ، كما فُسِّر وعُلِّل محور معاداة السلطة بالشعور بالدونية وأعراضه الارتدادية . ولقد كان جبران واعياً تأثير عامل الأمومة الخلطير في نفسه ، ودوره الجليل في تحريك إنتاجه وتوجيه إبداعه . ففي كتاب أرسله من باريس إلى ماري هاسكل في ١٩ كانون الأول ١٩٠٩ ، يقول في معرض حديثه

(١) انظر C.G. JUNG, L'homme à la découverte de son âme, p. 269.

الأمومة - القداسة
(رسم رقم ٢٠)



الأمومة - الحكمة
(رسم رقم ٢١)



(رسم رقم ٢٢)

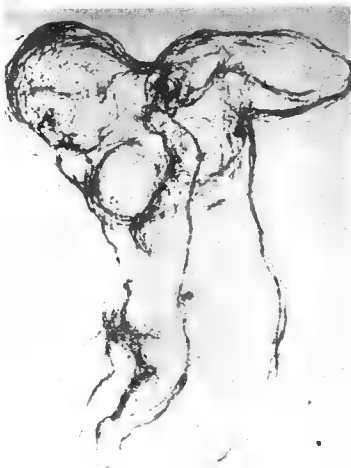
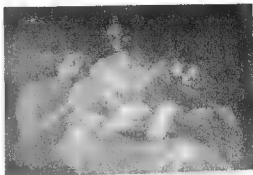
الامومة - التمزية



(رسم رقم ٢٣)

الامومة - الماطفة

الأمومة - العناية
(رسم رقم ٢٤)



متشبهت بشي أمه
(رقم ٢٥)

الطفل يرضع
 ثدي أمه الميتة
 (رسم رقم ٢٦)



(رسم رقم ٢٧)

الشاب الرضيع



(رسم رقم ۲۸)

الاندماج بالام



(رسم رقم ٢٩)

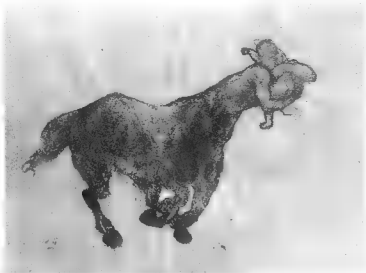
العودة الى رحم الام



(رسم رقم ٣٠)

الاندماج الامومي المضاعف

السنثور - الام
حانية على الطفل
(رسم رقم ٣١)



(رسم رقم ٣٢)

السنثور - الام متشبثة بالطفل

السنود - الام حانية على الشاب

(رسم رقم ٧٣)





(رسم رقم ۳۴)

جبران و امه

عن في الثاني فكان اسمه ومظهر : « إنه لا يعرف أمه . يا لولد المسكين ! إنه لا يعرف ما حب الأمومة ! ليصير المرء فتناً ، أيتها الحبيبة ماري ، ليرى أرواح البشر بعين ثالثة ، ليكون مفتوناً بجمال الطبيعة ، عليه أن يعرف أمه . وأن يعرفها جيداً . قد يُصبح ومظهر فتناً عظيماً ، ربما يقوم بعمل كبير يتَّهَبُ البشرية لرحاً حقاً ، لكنه سيعود إلى الأبدية بقلب جائع ونفس عطشى لأنه لم يعرف أمه » (١) .

أ - الأصل المحوري : راجع الأمر أن المنصر الأساسي البعيد الذي يُحرك محور الأم ، لدى جبران ، هو حب استلطائي (٢) لأسسه حاجة قصوى إلى الحنان والعطف والرعاية منبثة عن الحاجة القطرية إلى الألفة التي هي السيل الوحيد لحفظ النفس (٣) . هذه الحاجة الطبيعية ، تُلقى بصورتها العادية

The Letters of K. Gibran and M. Haskel, p. 35-36. (١)

(٢) يوجب فرويد ، في صفة التركيز الشبني ، انصراف الولد ، في طفولته ، إلى اهتمامات جنسية ، وهو أمر لم يتم دليل عليه في مقولة جبران . فبعد عن أن تكلم النفس والطبيب الإنكليزي إيمان سوني يرى أن حب الطفل لأمه - التي هو العلاقة العاطفية الأولى بينها - يعني أكثر من مجسوع حاجات عضوية أو صفات حسية . علاقة الحب تلك - في رأيه - لها صفة الحنان منذ البداية ، فهي ليست رغبة شادية جردت من طابعها الجنسي ، بكونها ، كما يريد فرويد ، غالب الطغولي استلطائي أكثر مما هو صفات جنسية . وقد يشهد الحنان الطغولي - على بعض صعوبة - ضمن حدود صغيرة حسب التقلبات - بالجنس نفسه ، لكنه لا يتوله من الجنس بدملية جبر النفس . انظر I. SUTTIE, The origin of Love and Hate, pp. 44-45 .

(٣) يرى سوني أن الميل الاجتماعي في الإنسان يبدو كاستمرار متطور لحاجة الولد إلى إعالة أمه له . وأسس هذا الميل تظهر حتى في الحيوان الاجتماعي ، نفسه . وهكذا يولد الإنسان ، وأساسه مصدر وسد تشايت وحاشيته هو أمه ، فتمثل بها ، ويميل هذا الطفل كل فرينة حفظ النفس عند الحيوان التي عليه أن يدافع عن نفسه وسلامته ويؤمن حياته . ومن رأي سوني أن عقل الطفل تسوده ، منذ البداية ، حاجة الاحتفاظ بالأم ، التي تراه له ، بالدرجة الأولى ، كعاجة إلى الألفة وانزعاج من الوحدة . انظر :

IAN SUTTIE, The Origin of Love and Hate, p. 23, 30, 31, 33.

لدى كبره^(١) ، لكنها اتخذت عند جيران غالباً شاذاً : فمن ناحية ، ضخمها تكوينه النفسي بما فيه من بالغ حساسية ، ومن ناحية أخرى ، وهذا هو الأهم ، منحها الظروف كياناً ممتازاً في ذاته ظل "موصول البقاء طول حياته ، بحيث استقطب لا شعورياً ، تسمياً جليلاً من نشاطه الإنساني الفسي . ومن هذه الظروف أن "كاملة رحمة كانت موفورة الذكاء ، راجعة العقل ، حبيدة الللال ، تتحلّى بالصبر واليقوى ، وتطف على أولادها ، وتحرص على بناء مستقبل حسن لهم ، متفانية في خدمتهم ورعايتهم^(٢) . ويبدو أن قوة شخصيتها قد تركت في تربية أولادها وتوجيههم ، ولا سيما جيران ، تأثيراً بالغاً تنبّه له بعض الباحثين ، فقال غزاد افرام البستاني ، قتيلاً عن بربره ياتغ ، إن "كاملة رحمة كانت من أولئك البنائيات ذوات الشخصية القوية اللواتي يؤثرن في أولادهن أثراً عميقاً يجاوز أثر الآباء ، ويرافق الأبناء في جميع مظاهر حياتهم^(٣) .

على أن جميع تلك المزايا ، إن ساعدت على تعلق جيران بأمة ، فهي لم تكن العلة الرئيسة لتعلقه بها ، فورا موقفه عدة عوامل أساسية متضافرة . فالدراسات النفسية التي أجراها تشافغ بينت أن اتجاه الولد العاطفي نحو أمه ، في الحالات العادية ، أشد منه نحو أبيه ، سواء كان الولد صبياً أم بنتاً^(٤) . فضلاً عن أن نتائج أبحاث كراوت وستاغز أظهرت أن الأولاد - من الجنسين - المتميزين بحساسية قوية ، يبدون أكثر ممّا يبدى ذوو الحساسية

(١) مقابلة مع السيدة شمس طوق ، صيف ١٩٦٥ . انظر أيضاً : ميخائيل نسيه - جيران خليل جيران ، ص ٢٥ و ٢٦ و ٢٣ . ومن مظاهر اهتمامها برعاية أسرنا ما نقلته إليها السيدة شمس جارتها في بوسطن ، من أنها كانت ، لبعض وقت ، بعد حلولها في تلك المدينة الأميركية ، تحمل "الكشة" ، أحياناً تحت الأطار والفلوج ، ليح أدوات زينة وأجهزة تسوية ، مساعداً منها في إعادة أسرتها .

(٢) الشرق ، مجلد ٣٧ ، ص ٢٦١ .

(٣) B.T. CHANG, The Ethical Sentiment in Children, Educ. Rev. (Chicago) 27 (no. 3) 63-68, 1937.

R. CATTELL, La Personnalité, t. II, p. 508.

ذكر المرجع الألف :

العادية ، تعلقاً بالأمّ يفوق تعلقهم بالأب^(١) . فإذا نظرنا الى جبران الصبي المتوقد الحساسية ، على هذا الضوء ، لوجدناه مزوداً بقابلية كافية لأن تستد نشاطه العاطفي الى والده وتركزه عليها اذا ما ساندته الظروف . وإسعاد الظروف كان والماً . فقد مُنيت أمّه بحياة مريرة في حياتها الزوجية ، فهي لم توافس الراحة والأمان قرب خليل جبران . كانت عصية المزاج ، شديدة الانفعال ، وكان قائد الصبر ، وكتاب النضب ، جراح النقد . احتفظا في الأساليب التربوية ، وتباينا في نوعية الملامح والمذات ، وتناحرا في الطباع والإستعدادات . وعلاوة على ذلك ، هنزل دعتل الرجل وسمن إضافله ، فتكد ذلك التناقض زواجاً قاتلاً^(٢) .

لذا هذا الإخفاق كان بديهاً أن نجد الأمّ مصرفاً لحبها في الثمرة البكر لاقتراها بالرجل الذي لم يُسعدنا ، فإذا هي تلتقي على جبران عطفاً يميز عن العطف المألوف بنوعيته^(٣) . ولما كان الطفل التابه الحساس بحاجة ماسة الى الألفة ولا سيما الحنان والعطف والمدل في المعاملة ، وكان والده يمثل ، في عينه ، القسوة والتسلط والجفاء ، مال بكلية الى أمّه ، وبادها الحب حتى العبادة^(٤) . وهكذا استأثرت كاملة رحمة بدّ حاجة جبران الأسامية الى الحنان ، وإشباع حاجاته النفسية الأخرى : فقد وجد فيها نزعاً أحلامه

(١) R. STAGNER, The Role of Parents in the Development of Emotional Instability, Amer. J. Orthopsychiat., 8, 122-129, 1938.

R. STAGNER and M. H. KROUT, The Study of Personality Development and Structure, J. abnorm. soc. psychol., 33, 340, 395, 1940.

ذكر المرجعين الألفين كاتل في الموضوع المشار اليه سابقاً .

(٢) انظر ، حرك أسباب فشل الزواج المتطرفة على واقع خليل جبران وامرأته :

R. CATTELL, La Personnalité, t. II, p. 474-483.

(٣) 1944, p. 497.

(٤) مقابلة مع السيدة لوس طوك وآخرين من نقاشي بشري ، صيف ١٩٦٨ . انظر أيضاً : نعيمة - جبران خليل جبران ، ص ٢٢ . كذلك :

R. CATTELL, La Personnalité, t. II, p. 307.

وَمُنْتَحَبَ نَجْبَلَاتِهِ حِرَ حِكَايَاتِ كَانَتْ قَصَصَهَا طَبِ وَأَخَانِ تُنْشِئَهَا لَهُ ،
وَالْهَيْئَاتِ تَشَارِكُهُ أُنْزَاعَهَا ^(١) ، وَرَأَى فِيهَا مَشْجَعًا لَاسْتَعْدَادِهِ الْفَنِّي الَّذِي
كَانَ وَاللَّهُ يَصْدُقُ بِجِرَاهُ ، وَمَلَانًا فِيهِ غَضَبَاتِ أَبِيهِ وَمِلًّا وَحِدَةً ، وَمَعْلِيًّا
لَا تَطْلُقُهُ الرُّوحَانِيَّةُ بِمَا تَقْصُ لَهُ مِنْ حِكَايَاتِ الْقَاصِرِيِّ ، وَأَسِيرًا ، أَسَى فِيهَا
الْإِنْسَانُ الْوَحِيدَ الَّذِي كَانَ فِيهِمْ ، وَيَقْدِرُ شَعُورَهُ ، وَيَحْسُ لِقَلْبِهِ وَغُرْبَتِهِ ،
وَيَحْسُمُ اضْطِرَابَهُ وَاللَّهُ ، وَيَبْتَثُ الْأَمَانَ وَالثِقَةَ فِي نَفْسِهِ . قَالَ عَنْهَا فِي كَهْوَلَتِهِ :
« أَسَى وَحْدَهَا مِنْ بَيْنِ جَمِيعِ النَّاسِ اسْتَطَاعَتْ أَنْ تَفْهَمَ ذَلِكَ الْوَلَدَ الْغَرِيبَ » ^(٢) .
فَلَا عَجَبَ ، وَتِلْكَ حَالُهُ ، أَنْ يَتَلَقَّى بِهَا وَيَتَمَرَّكُ وَجْهَهَا فِي خِيَالِهِ مُحْتَلاً
فَسَحَةً رَحِيَةً مِنْ ذِكْرِيَّاتِهِ ، وَلَا سِيَّامَا فِي أَوَّلِ حَيَاتِهِ « فَيُكْثِرُ الْكَلَامَ عَلَيْهَا ،
وَيُفِيضُ فِي ذِكْرِ أَحْدَاثِ طِفْلِيَّةٍ صَغِيرَةٍ مَفْسُومَةٍ حَتَانًا وَعَفْوِيَّةٍ ، إِلَى حَدِّ أَنْ
كَانَ يَبْكِي لَذِكْرِهَا ، وَيُبْكِي سَامِعَهُ مَعَهُ ، ثُمَّ يَضْحَكُ الْإِثْنَانُ لِأَمْرٍ بَكِيَا » ^(٣) .

إِنْ تَلَقَّى جَبْرَانُ بِأُمِّهِ كَانَ يُمْكِنُ أَلَّا يَحْدِثَ لَوْ رَعَتْهُ وَالِدَتُهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ
تَحْضُرَهُ ، وَحِمْتُهُ مِنْ دُونِ أَنْ تَتَلَقَّى بِهِ ، وَلَوْ أَنَّهَا سَاعَدَتْهُ عَلَى الْإِتِّصَالِ عَنْهَا
ذَهَبًا فِي الظَّرْفِ الْمُنَاسِبِ ^(٤) . هَذَا الْوَاجِبُ الَّذِي حَالَتْ لظُرُوفُ دُونِ تَنْفِيذِهِ مِنْ
قِبَلِ أُمِّهِ ، يُوَازِيهِ وَاجِبٌ آخَرُ كَانَ يَنْبَغِي أَنْ يَنْفُذَ ، مِنْ قِبَلِهِ ، وَهُوَ أَنْ
يَتَخَلَّصَ مِنْ تَلْقَئِهِ بِأُمِّهِ وَجَبَّهَ الْمَطْلُوقَ لَهَا بِالتَّجَرُّدِ مِنْ فِرْعَتِهِ الْمَدُونِيَّةِ الْإِلَاسْمُورِيَّةِ
نَحْوِ أَبِيهِ ، وَالْإِتِّهَاءِ بِضَمَّتْ شَخْصِيَّتِهِ وَاتَّخَذَهُ مِثَالَهُ الْحَيِّ الْأَعْلَى لِلرَّجُولَةِ
وَالصَّرْفِ . لَكِنْ وَاللَّهُ لَمْ يَكُنِ التَّسْوِجُ النَّاجِجَ الَّذِي تَحْتَمِسُ لَهُ عَوَاطِفُ
صَبِيٍّ مُشْتَغِلِ الْحَاسِيَّةِ ، وَقَدَّادِ الْإِكْكَاهِ ، يَلْزُقُ الْمَوَاقِبَ . إِنْ تَحْقِيقُ التَّوَازُنَ
السُّوِّيَّ يَفْتَضِي مِنَ الْبَطْلِ أَنْ يَصْدُرَ حَبَّةُ لَوْلَاهُ تَلْفَافًا ، دُونَهَا مَفَاضِلَةٌ بَيْنَهُمَا ،

(١) انظر B. YOUNG, This man from Lebanon, p. 21 144, 145.

144, p. 7, 145. (٢)

144, p. 8, 145. (٣)

(٤) انظر P. DACO, Les prodigieuses victoires de la psychologie moderne, p. 487 à 298.

وإن اختلف جه لآيه عن جه لآمه كنيهاً ، فيجب ألا يمس الاختلاف مقدار الحب نفسه ^(١) ، وذلك كان محالاً بالنسبة لجبران .

وهكذا كونت العوامل النفسية المختلفة بؤرة انفعالية وجدانية دينامية تولد منها أصل محور الأم ، فأصبحت كاملة رحمة ملجأ طيباً لاشعورياً يمد جبران بالتعويض النفسي عما فقد في محور اللونية من عطف وعزاء وحرية نمو ، وبعبارة أخرى غدت المدرك النفسي الآخر الذي به يتكافأ الجذب والدفع في لاوعي الطفل ، فخلق بها تعلقاً وجدانياً ذهنياً لمن يستطيع التغلب عليه مدى حياته . لكن هذا التعلق نجمت عنه ظاهرتان نفسيتان خطيرتان : أولاهما التثبث بشدي الأم الذي أسقطه عقله الباطن بصورة مخلفة في آثاره الأدبية ولاسيما الفنية ، ذلك « بأن العلاقة النفسية الأقوى نقاداً وديمومة بين شخص وآخر - عل ما يقول بعض علماء النفس - تصدر ، وفق تجارب التحليل النفسي ، عن أقدم الاحساسات بالثقة ، وتلك الاحساسات ترقى الى عهد الرضاع ؛ وقوة هذه العلاقة بالأم المرضع تلبو من خلال صور كثيرة في حياتنا النفسية » ^(٢) . أما الظاهرة الثانية فهي الحنين الى الاندماج بالأم الذي ظهر صريحاً في رسومه ، وسيكسب أبعاداً عظيمة في إنتاجه الابداعي لدى اتحاد صورة والدته بالنماذج البدائية الرئيسة للكونية للأشياء ، حسبما سنوضح في تأويل إنتاجه ، عما قريب .

ب - الأم القسوة : لقد حملت أم جبران جميع الصفات التي تتيح تحقيق ذات ابنها . وما حاجة الصغير الكبرى في هذه السن الباكورة ؟ - أليس أن يعيش في طمأنينة ؟ وأمه كانت ملاذه . - وأن يشعر بالحنان والعزاء يضرانه ؟ وأمه كانت له فيض عزاء وحنان ساحة تشد القسوة عليه . - وأن يثبت ذاته ويحقق مواهبه ، عبر فنه ، بل قل انطلاقات غياله وأحلامه ؟ وأمه كانت له خير مظهرهم ومشجع .

(١) انظر الدكتور يوسف مراد - بيان، علم النفس العام ، ص ٢٧١ - ٢٧٢ .

(٢) Dr. KARL ABRAHAM, Œuvres complètes, t. I, p. 265.

هكذا اتخذ جبران العقل أمته لادونه ، وبدأ يسقط عليها ، مع الأيام ، صورة الأم المثالية . فكان يحاول التخلق بأخلاقها ، وتبني أفكارها ، والافتداء بمسلكها ، والانصياع لتعاليمها ، والاستهداء بكلماتها . كانت معلمته الأولى ، ومُرشدته ، ومعلمته ، وصديقتها ، ومربية حاجاته النفسية الحميمية ، سحابة الطفولة والمراعاة .

وئن كان لا وحي جبران مأهولاً بوجه أمته ، فإن وحيه أيضاً كاد يمتلئ بحضورها الدائم . فقد استحوذت على إعجابها واحترامها واهتمامها . أمّا إعجابها بشخصها فقد بلغ حدّاً جعله يقول : « إنها عاشت فصائد لا تُعدّ مع أنها لم تحطُ بقصيدة واحدة » ^(١) ، فكأنها كانت نيسخ الحياة في شعره . وأمّا احترامها لرأيها فقد جعله يعرض عليها بواكير آثاره الشعرية ، ومنها أولى محاولاته في كتابه « النبي » قبل تضيغ فكرته ، فكان يقيّد بأحكامها وإرشاداتها ، ويراهم أنها تدرك ، على قناعتها البسيطة ، أكثر مما كان يدرك هو في شخص شبابه ^(٢) .

ولم يكن اهتمامه بها أدنى من إعجابها واحترامها ، إذ شغفته ألفواها ونصائحها باستمرار ، ولا سيما في الأسابيع الأخيرة من حياته ^(٣) ، حتى استطاعت بربارده يافع ، على حدّ زعمها ، أن تجمع منها كتيباً ، أعلنت بعد موته ، أنها عازمة على نشره ^(٤) .

وبعد أن ماتت كاملة رحمة شعر ابنها الله هو الذي مات : « لقد كُفِّتْ حياتي ، لا لأنها كانت أمّي ، بل لأنها كانت صديقتي » ^(٥) . فجبران لم

B. YOUNG, *This man from Lebanon*, p. 9 & 54. (١)

Ibid., p. 56. (٢)

Ibid., p. 103. (٣)

(٤) انظر كلام ابراهيم البستاني ، المشرق ، مجلد ٢٧ (١٩٢٩) ، ص ٢٦١ - ٢٦٢ . لكن الكتاب لم يرد في قائمة المطبوعات .

B. YOUNG, *This man from Lebanon*, p. 11 (٥)

يفضل من والدته ذهنيته طول صبره . ولئن احتجبت عنه بحضورها الجسدي الحي ، بعد وفاتها ، فقد تصفّى شخصها في دمه وانحلّ في أخلاقه وميوله حتى كاد يضمّنها ^(١) . وقد وحى هذه الحقيقة فقال : « أمّا أنا فقد ورثتُ من أمّي تسعين بالمئة من أخلاقي وميولي ، ولا أعني بذلك أنني أشابها بالحلاوة والوداعة وكبر القلب » ^(٢) . وظلّت ذكراها مقدّسة في نفسه ، يحرص على احترام آكارها والاحتفاظ بأمتعتها ، على فخاعتها ^(٣) .

لكنّ حركة إلثام النبتة ضلّاً ارتدادياً من الأصل المحوري الثبوتي هي التي أضفت جبران من أن يتحد اتحاداً ماحياً نهائياً بصورة أمّه ، ويفقد ، بالتالي ، رجولته . فبدل انتهاجه طريق السلبية ، اندفع في سبيل الإيجابية الموكّنة لشخصيّة بحث الله توجّه ، لا شعورياً ، ليحلّ محلّ أبيه إزاءها . ولعلّ هذا الدافع اللاواعي هو الذي حمله على اتخاذ اسم أبيه بدل اسمه في كتاباته الانكليزية ^(٤) . وقد تكون معلّته الأميركية اقترحت عليه اتخاذ اسم والده اختصاراً ^(٥) ، لكنّ القنّى المنيد المستقلّ المثبّت برأيه ما كان ليجارها لو لم يصادف اقتراحها هوى عميقاً في نفسه .

ج - مقلّده بقلته ومصير الحب في حياته : تُرى ، كيف واجه جبران المرأة ؟ وما كان مصير الحب وطبيعته بينهما ؟ وما سرّ تناقض الأحكام تُفكّظ

(١) انظر : B. CATTELL, *Le Personnalité*, t. II, p. 309 . كذلك جيلفورد : ميادين علم

النفوس ، ج ١ ، ص ١٢٥ .

(٢) ورد قوله في جرابه على الكتاب الأول الذي أرسله إليه مي زياده (جميل جبر : مي وجبران ، ص ٢٦) .

(٣) انظر رسالة جبران إلى مقلده جبران في ٧ أيار ١٩١٠ (حبيب سبيح : جبران حياً وبعثاً ، ص ٥٠٢) .

(٤) فعل جبران ذلك لا شعورياً ، لكنه ، تجاه النفس ، أمضى تبريرات يبلّغها للجمع . فقال في إحدى رسائله إلى مقلده جبران ، وهي غير مطروحة وصحيفة بين أوردته في نفسه : « لم يكن اسم خليل جبران ، بلطافاً » . فمن المستحتمات عند الأوروبيين صوماً والإنكايز والإماركان خصوصاً أن يحدّف الكاتب اسمه الخاص ويهني اسم أبيه وكنيته تكريماً لأبيه واحتراماً لكتيبته » .

(٥) هذا الرأى أبداه غيراته في *The Profession*, p. 12 & 13 ونهيه في « جبران » ، ص ٣٧ .

على الرجل خزيه غموضاً وتقيداً ؟ الحقيقة أن كثيرين من الباحثين حاولوا
فرض "مفلكات" عالم المرأة الجبراني ، لكنهم لم يفلحوا في تقديم الحجة القنصل
لأنهم لم يقنعوا من نتائج الأبحاث النفسية في دراسة تناول إنتاج جبران
وحياته متكاملين وتقبض على كليته ، إنما لفظوا آرائهم في تصرفاته حيال
المرأة ، محتملين مواقف جزئية من سيرته ، يتعدّر فهمها ، أصلاً ، إلا على
ضوء الكل ، أو متأثرين بأنزجهم وطباعهم الخاصة ، جاعلين من ذواتهم
موشوراً تمر من خلاله كل رؤية خارجية ، وهذا ما تأباه الأبحاث النفسية
الصحيحة .

في رسالة يوجهها جبران الى مي زيادة يقول : « أنا مدبون بكل ما هو
« أنا الى المرأة » منذ كنت طفلاً حتى الساعة . والمرأة تنزع التواضع في بصري
والأبواب في روحي . ولولا المرأة الأم ، والمرأة الشقيقة ، والمرأة الصديقة
لبقيت حاجباً مع هؤلاء الثمانين الذين يتشكون سكية العالم بخطيئتهم » (١) . في
هذه الرسالة ياح جبران بنصف الحقيقة ، لكنه نطق بنصفها الآخر في رسالة
تالية (٢) وجهها الى مي زيادة ، أيضاً ، يقول فيها عن أمه : « لقد كانت ولم
تترك ، وهي في الأبدية ، أمّي بالروح . وإني أشعر اليوم بوجودها
ومساعدتها وتأثيرها عليّ أكثر مما كنت أشعر قبل أن تنجب . ولكن هذا
الشعور لا يعني ولا يضمف وجود الروابط الأخرى الكائنة بين أمهاتي وأخواني
وأخواني بالروح ... وليس هناك بالحقيقة من فرق بين أمي وأمهاتي وأخواني
سوى الفرق الموجود بين التذكار القوي القريب والتذكار الضعيف البعيد
(انظر مستند رقم ٢) .

إن "حرف تعلقه بالأم" جعل تأثيره يتخطى جدار حقله الباطن فيخط
وعيه ويترادى على سطحه بصورة فريدة . فالمرأة لم تكن هي المحرك الخطير

(١) رسائل جبران ، ص ٩٩ .

(٢) عثرت على هذه سندات هذه الرسالة بين مخطوطات جبران المعروفة في مخطوطته بشاري .

ليقطة جبران العاطفية ، بل كانت الأم . ولم يكن لجبران شقيقة وصديقة وحيية ، بل كانت له أمهات تتحد وجوههن جميعاً بوجه أمه ، ويقف منهن طراً موقف الولد من والده ^(١) . وعلى حد قول كارل ابراهام : إن بعض الحالات النفسية في سن التفتيح تستل من حيث الشكل والمضمون ونفاً لأحداث ترمي الى عهد الطفولة ، أخف الى ذلك نزعة اضطرابية الى تكرار التجارب الأولى ^(٢) .

وقد ألمنا ، في الفصل السابق ، الى أن موجه جبران الأصلي نحو النساء كان حركة إلهت اللات ، إذ إنه رأى فيهن وسيلة من وسائل تأكيد شخصيته . لكنه ما أن كان يكشف في المرأة وجهاً شريفاً ، نبياً ، حتى يسقط عليها وجه أمه ، فيصبح ، أكثر ، هياباً ، عن انحام هيكلها الجسدي ، ليحياها في خياله وفي فنه ، معايشة المتخيل ليهكل المقدسات . ولعلّ للرسم (رقم ٣٥) الذي يمثل وجه أمه المادى المطبق العينين والى جانبيها ، الوراء ، وجه امرأة أخرى — قد تكون برباره يافع ^(٣) — يرمز الى هذا الإسقاط ، فالأم والمرأة الشريفة — حسبما يفهمها — متلازمان في عقله الباطن .

هذا الوضع النفسي الشاذ الناجم عن الصلح بالأم ظهرت أعراضه في اعتراضاته وتصرفاته لزاء النساء . سنة ١٩٠٩ يُقر بأنه يتوهم من كل ما يلقى الرجال والنساء فيه متعة جنسية ، بل إن ما يدعو الناس لذات جنسية إنما هو أكاذيب باهرة تُرهقه . سنة ١٩١١ يعلن اعتزاله الامتناع عن أبنة علاقة جنسية في المستقبل ، معترفاً بأن فكرة استقالة الشيوخ من الجنس لروقه ،

(١) انظر F. L. LUCAS, *Literature and Psychology*, p. 49. عليه تحليل نفسي شملت ،

بطل فكبير ، وبيان لروحه أنه في كل امرأة .

(٢) KARL ABRAHAM, *Oeuvres complètes*, t. I, p. 264.

(٣) فرس اهداء جبران إليها حسبما يوضح من الشهادة الإنكليزية التي عطاها في ذلك : « إله برباره من تحليل » .



وجه امه ملازم وجه المرآه

(رسم رقم ٣٥)

وستهويه جداً . وابتداء من عام ١٩١٢ تتابع تأكيده أنه يعيش حياة رهبنة فعلية ، دونما وصال جنسي . كذلك يصرح ، عام ١٩١٥ ، أنه يتمتع حتى من الصرع الجنسي في أحاديثه وقرائمه ، بل انه يبرح ، سنة ١٩١٧ ، بأنه لم يتمتع بقرامة أي كساب جنسي ، ولم يتمكن من إنعام قرامة أي كتاب من هذا النوع . حتى اذا ما بلغ سنة ١٩٢١ يؤكد أن الخصر الجنسي - في نطاقه الأرحب - هو البلوة التي تنمو منها الحضارة ، وأن عليه أن يقاتل النساء ، لأنه لا يريد نساء في حياته ^(١) . وهذا التقيص من الاعترافات الممتدة على ثلاث عشرة سنة إنما يضي مزيداً من التأكيد على التعلق بالأم المخبي . ورامه ^(٢) .

وأغلب الظن أن جبران أنشأ علاقات جسدية مع عدد من النساء لا

(١) انظر توفيق صايغ : أضواء جديدة على جبران ، ص ١٨ - ٢٢ .

(٢) كان جبران ، أحياناً ، يبرح امتناعه عن العلاقات الجنسية بما يصرف عنه السائلين المتطفلين ، من غير أن يكون التعبير السبب الحقيقي : كأن يجتج بأن شفه المتواصل وعمله الضخم يحولان دون ذلك ؛ أو بأن النساء اللواتي يستهوينه جسدياً نادرات جداً (١٩١٢) ؛ أو بأن تقاليده الاجتماعية وانحصاره من أسلاف محافظين تمنعه من ذلك ؛ أو بعدم قدرته على أن ينجيا حياة الرذيلة (١٩١٥) ؛ أو بأن العمل الجنسي يفقده جزءاً من حريته (١٩٢٢) . وجميعها تبريرات إلهامية (انظر صايغ : أضواء جديدة على جبران ، ص ١٨ و ١٩ و ٩٢) .

وجدير بالذكر أن التعلق بالأم لم يدخل على موقف جبران من الرجل أي انحراف وذلك بفعل اثراته بحركة إثبات الذات ، فهو يهذي نفوساً شديداً واشتزازاً قوياً من الشؤون الجنسية ولا سيما الجنسية المثلية . يقول ، سنة ١٩١٦ ، معلقاً على كتاب « حياة أوسكار وايلد » وأثراته : « المؤلف الانكليزي فرائك هاريس : « لم أكن أعلم قط أن مثل صمام الأفكار هذا موجود لم أكن أصوره وجوده - لم أكن أعرف أن وايلد يمثل هذا الاصطلاح . ان هاريس وسع - وسع من أوله إلى آخره . » . لكن موقف جبران من الانحراف الجنسي تطور ، مع الزمن ، من التطور والاشتزاز المتفخمين إلى الاستغراب . ثم الفضول لمعرفة أسباب هذا الشذو . لكن الاشتزاز سرعان ما كان يعود إلى الظهور ، فلا يبدأ قراءة الكتب التي تعالج هذا الموضوع حتى يجرها . (انظر توفيق صايغ : أضواء جديدة على جبران ، ص ٢٢) .

نعرف هويتهم^(١) ، لكننا ندرك ، بفضل اعترافه ، أنه عدد قليل^(٢) .
ويقضي المنطق السيكولوجي بأن يعتبر جبران هؤلاء النسوة غير شريقات حتى
لا يصدّه عنهنّ أيّ جدار نفسي . أمّا الأخريات ، وهنّ الأكثرية ، فقد
كانت حاجة جبران فيهنّ إلى العطف والحنان والمزاء والعناية ، أي إلى ما كانت
تحمّله به والدته أكثر جدّاً ممّا إلى الجنس . ولذا برز تأثير هؤلاء « الأمّهات »
في حياته ، وساعدنّ في حسّن ما عاينه من « قلق الانفصال » عن أمّه ، إذ
حلّكنّ في عقله الباطن ، وأحياناً في عقله الواحي ، مكانها . فكان لا بدّ ،
والحالة هذه ، من تكوّن حرّم لا شعوري يصدّه عن اقتحام أجسادهنّ لأنّها
امتداد لجسد أمّه . فمن هنّ أولئك « الأمّهات » ؟ وكيف كان نشاط محور
الأمّ في موقفه منهنّ ؟

أولى « أمّهات » جبران كانت حلا الضاهر^(٣) . وقد وجد القبي المراهق
في حنانها ولطفها وعطفها معاني الأمومة ، فأحلّها عقله الباطن محلّ والدته يوم
فصلته عنها أرضُ القربة . لزم وجهها خياله ، بعد وجه أمّه ، فرسمها

(١) إذا صح ما زعمه نفسه عن مناصرة جبران الصاطفية الأولى ، تكون المرأة الأميركية الثلاثينية هي
إسدهام . (انظر نيمه : جبران خليل جبران ، ص ٤٦ و ٥١) .

(٢) يصارح جبران ماري هاسكل ، سنة ١٩١٢ ، أن كثيرين من أسلافه ، حتى الأقربين اليه
كالرهباني والسيدة ماري شوروي وشارلوت يعتقدون أن بينه وبين بعض النسوة صلات جنسية .
لكنّ ، في الواقع ، لم يتم مثل تلك الصلات ، في سنه الماضية ، إلا مع قلة ضئيلة جداً سن
النساء . وقد عرض على هاسكل أن يجبرها كم مرة حدثت تلك العلاقات ، لكنها رفضت .
(انظر توفيق صايغ : أضواء جديدة على جبران ، ص ١٨) .

(٣) كانت تكبره بعميق . راجع ما كتبناه بشأنها في محور معاداة السلطة . يذهب بعضهم إلى أن جبران
لم يحب قط حلا الضاهر ، لأنه لو كان يحبها حقاً لبادعها رسائل الغرام ، ولكان تزوجها إذ
إنها بقيت عازبة طول حياتها . وهذا الزعم ينقضه أمران : أولهما أن آل الضاهر ، حسبما
صرحت لي السيدة أمسي حنا الضاهر ، كانوا شديدَي الرقابة على بناتهم ، وينظرون من حل
إلى كل خاطب لمن وهذا من أسباب بقاء معظم فتيات عائلات . والأمر الثاني هو أن المنطق
النفسى يوجب ألا يتزوج جبران أية امرأة كان يسقط عليها وجه أمّه ، فوقفه من حلا الضاهر
شبه بموقفه من سائر « الأمّهات » حسبما سنبيّن في سياق هذا الفصل .

(رسم رقم ٣٦) ، وعاشها في أحلامه ، وانصهرت ملامحها في المصهر
الأمومي ، مكوّنة الأساس اللاواعي الذي بُنيت عليه شخصيته و سلمى
كرامه و شخصيات الكير من بطلات حكاياته ^(١) . ماتت عائناً ، وما كان
لجبران أن يتزوجها ، حتى بعد أن تأتت له الشهرة المريضة ، لأنّ تطلقه بأمه
المتسامية كان يحول دون ذلك . فحصر حظه منها في أحلام الفنّ تجسدها
الكلمة الجماعية والريشة اللاهفة .

أمّا الثانية فكانت سلطنة ثابت التي باح بسرّها لماري هاسكل في ٤ أيار
١٩٠٨ . تعرّف إليها في بيروت ، عهد دراسته في مدرسة الحكمة ، إذ رافقت
مرّة . ابنة نسيبة له كانت تمدّه بالفاكهة . كان جبران ، على حدّ تعبيره ،
فتىً جذاباً شاعريّاً في السابعة عشرة من عمره ، وكانت هي أرملة في الثانية
والعشرين . وسرعان ما أعجبه ، فأخذ يطيل التفكير فيها . وبعد علاقة امتدت
أربعة أشهر — تبادلًا خلالها الكتب والتعليقات التي كانت تبدو له موجزة باردة
من جانبها — توفيت سلطنة . فأرسل أحد معارفها إليه — بناء على وصيتها كما
يظهر — رزمة مغلقة فيها وشاح حريري وبعض الجواهر وزمة من سبع عشرة
رسالة مغلقة مُرسلة إليه من قبلها . لقد كانت رسائل حبّ تضمّ العطف وبعض
الحلاوة . فتأكد لجبران أنّها كانت تحبه مثلما أحبّها ، لكنّها لم تجرؤ على
مصارحته بهواها . يقول لها سكل : « لا يمكنك أن تصوّري أيّ ألم سبّب ذلك لي !
أيّ أسف ! لماذا لم تُرسلها من قبل ؟ ! » ويعترف بأنّ زماً طويلاً مضى
وذكرها تملأ نفسه ^(٢) . وفي اليوم التالي — أي ٥ أيار ١٩٠٨ — ، تطلب منه
ميثلين ، وقد عرفت سرّه . أن يرسم صورة لسلطنة كذكرى لها . فتناول
ورقة ورسمها ذات عينيّ نجلاوين قاتلتين : « كانت عيناها أكثر العيون التي

(١) هذا لا يمنع أن يكون ومي جبران قد أضاف إلى الأساس الأمومي اللاعنودي الذي بنيت عليه
شخصيات بطالاته ، هتمة نفسية مينة ، كأن يعتبر سلمى كرامه ، مثلاً ، نصفها يهاتريس
ونصفها غرائسكا ، وقد ألمنا إلى هذا سابقاً .

The Letters of K. Gibran and M. Haskell, 7-8. (٢)

حلا الضاهر
(رسم رقم ٣٦)



هيشميه
(رسم رقم ٣٧)

رأيتها في حياتي بجملاً" ، فصلت ميشلين حل ذلك بأنها عرفت الآن ، سبب جملة العيون بجملاً في رسومه . فأكد لها جمالها وحلاوة قسما وجوها ، وعدم نسيانه ملامحها ولا سيما الحنأة عتقها الطويل وجانب وجهها ... فقالت له ميشلين : " إنك تعلم بها ، أليس كذلك ؟ فأجابها : " لا . إنها تأتيني أوان النهار في أية لحظة ، وليس كالأخرين . إن أفكاري هي التي تقودني إلى الآخرين ، لكنها هي تأتيني من غير أن يقودني فكري إليها . إنها تحضر فجأة" (١) . ثرى ، ألم يوفق موت أمه في نفسه ذكرى سلطنة الأرملة الحلوة ، بحيث توحد الوجهان في واحد ، فأصبح العنق الأملح والعينان المطبقتان النجلوان من قسما الوجه المتسامية التي يرسمها ؟

وأما الثالثة لإميل ميشيل المعروفة بميشلين شابة فرنسية كانت معلمة في مدرسة ماري هاسكل في بوسطن . ومن الراجح أنها تعرقت إلى جبران في أثناء إقامة معرض لرسومه في المدرسة سنة ١٩٠٤ ، وقد دام عدة أسابيع كان جبران خلالها يحضر إلى المعهد ، بعد ظهر كل يوم تقريباً ، ليوضح مغلقات فنه الفرائين (٢) . وأغلب الظن أن صداقته لميشلين لم تتوطد إلا بعد أن رسمها للمرة الأولى في ٦ شباط ١٩٠٨ (٣) . وقد عاود رسمها بعد ذلك التاريخ مراراً (رسم رقم ٣٧) . وخلافاً لما زعم ميخائيل نعيمة وآخرون ، فإن موقف جبران النفسي من ميشلين لم يختلف عن موقفه من حلا الصاهر وسائر النساء " الأمهات " في حياته . فقد كانت له ، بعيد وفاة أمه ، العلاج العاطفي الأول الذي أحاده إلى الحزن الأمومي ، بعد انفصاله عنه انفصلاً واقعياً . فهو يعترف ، عام ١٩١٤ ، أن موقفه منها في الأروام القاتنة التي شهدت ذروة الصداقة بينهما ، كان موقفاً صبيانياً (٤) . قال ذلك لأن وعيه تكلم ، ولو

(١) Ibid., p. 10-11.

(٢) The Letters of K. Gibran and M. Haskell, p. 1.

(٣) Ibid., p. 2.

(٤) مذكرات ماري هاسكل ١٩١٤ . انظر توفيق صايغ : أسرار جديدة على جبران ، ص ٢٧ .

نفق عقله الباطن لكان قال : موقف صبي تجاه أمه . غير أن هذه الحقيقة النفسية باحت بها أولى رسائله إلى ماري هاسكل من باريس ، في ١٣ تموز ١٩٠٨ ، يوم وصوله ، وفيها يقول : « وهنا أيضاً ميشلين ، ميشلين اللطيفة التي هي أم صغيرة وطفلة صغيرة . إنها حقاً عون كبير لي »^(١) . إنها امتداد لوالده ، ولذا يستحيل أن يقتحم جسدها المحصن بالأمومة ، على الأنثى الحارة التي تحببه والكهربائية التي فيه^(٢) ، وعلى حبه الشديد إياها ، بسل سراه يصلي لها ، في ١٩ كانون الأول ١٩٠٩ ، لتحظى بالسلام والطمأنينة في ظل رجل شريف طيب^(٣) . وستزوج ميشلين^(٤) وتزوّج أطفالاً ، ومع ذلك تبقى على صلة طيبة بجيران ، حتى تقضي نحبها ، سنة ١٩٣١ ، بعد موت الشاعر بيضحة أشهر^(٥) . لقد كانت إحدى « أمهات » جيران اللواتي نالتن ، باطلاً ، كما نالت ، ألسنة التجني .

أما المرأة التي برزت خصائص الأم في موقف جيران منها بروزاً شديداً فكانت ماري هاسكل ، رئيسة معهد للإناث في بوسطن (رسم رقم ٣٨) . كانت تكبره بمشقة أعوام^(٦) . وقد تمرقت إليه في ١٠ أيار ، سنة ١٩٠٤ ، بمناسبة زيارتها أول معرض أقيم لرسمه في محترف مصور أميركي مرموق هو

(١) The Letters of K. Gibran and M. Haskell, p. 13.

كانت ميشلين قد سبقت جيران إلى باريس ، وقطعت في منزل ليس بعيداً عن مسكنه ، مسج رفيقة لها اسمها الآنسة جيله . Gilles . وقد طلب جيران من هاسكل أن ترسله حل عنوانها .

(٢) مذكرات هاسكل ١٩١٢ . انظر توفيق صايغ : أسوء جديدة على جيران ، ص ٢٨ .

(٣) The Letters of K. Gibran and M. Haskell, p. 36.

(٤) تزوجت المحامي الأميركي لامار حاردي في ١٤ تشرين الأول ١٩١٤ .

(٥) انظر في المرجع الآت ذكر رسائل جيران ذات التواريخ التالية : ١٩ آذار ١٩١٠ - ٢١ حزيران ١٩١٠ - ٢٦ أيلول ١٩١٠ - ١٢ تشرين الأول ١٩١٠ - ٥ أيار ١٩١١ - ٩ تشرين الأول ١٩١٢ - ٢٧ أيار ١٩١٢ - ١٦ نيسان ١٩١٤ - ٢٨ كانون الثاني ١٩١٧ . وفي بعضها يتحدث جيران عن لقاءاتها وزياراتها له وتناولها الطعام معاً .

(٦) ولدت في ١١ كانون الأول ١٨٧٣. The Letters of K. Gibran and M. Haskell, Preface.

فرد هولند داي . وإذ رافقتها الرسوم سألته أن يعرضها في مدرستها . ثم أخذت علاقة الصداقة تتوطد تدريجياً بينهما حتى أعطت بواكير ثمارها على يدها ، فأرسلته ، على نفقتها ، إلى باريس ليتابع دراسة الفن فيها . ومع أن رسالته إليها تنابت من بوسطن ثم من العاصمة الفرنسية ، فأننا لا نلاحظ أنه يُتر لها في قلبه مترلة خاصة فريدة ، قبل رسالته إليها في ٢٣ حزيران ١٩٠٩^(١) . والسبب أن هذا التاريخ كان من التواريخ الحاسمة في حياته . ففيه يُخبرها بموت والده ، مستعيداً بحسرة وألم بالعين ، ذكرى وفاة أمه وأخيه وأخته . لقد شعر بالوحدة المُنمِضة وبحاجة ملحاح إلى قلب عطوف مُعزٍّ ، فإذا هو قلبها . يقول لها : « وأنتِ ، أيتها التميزية اللطيفة العزيزة ، أنتِ الآن في هوايبي ... ومع ذلك فلأنك قريبة جداً إليّ . تراقبيني في مسيرتي إذ أكون وحدي ، ونجاسيني على المائدة في المساء ، وتحادثيني حينما أعمل . أحياناً أشعر كأنك لست في الأرض . فأنك تبدين مختلفة تماماً عن جميع النساء والرجال » . ويحتم رسالته قائلاً : « أقبّل يدك ، يا عزيزتي ماري . أظن عيني ، الآن ، وأراك ، يا صديقتي الحبيبة » . إنه محور الأمّ ينشط في نفسه بعد أن أثارته ذكرى فجيعته بأمته « وقد أبغضها ، عنيفة ، موت والده . أمه التي يظاله تأثيرها ، وهي في الأبدية ، تمتد ظلال وجهها على صديقتة العطوف ماري ، فيقول لها ، وقد اتحدت ملامحها بملامح أمه في عقله الباطن : « أحياناً أشعر كأنك لست في الأرض » ! وكما كان موت أبيه عاملاً حاسماً في تأكيد موقفه النبوي منها ، فإن وفاة والدته كانت عاملاً حاسماً في توحيدها توحيداً ماهياً بأمته . في ٥ حزيران ١٩١٠ ، يقول لها : « أمس ، أعدت قراءة تلك الرسالة اللطيفة التي كتبتها لي بعيداً احتراق رسومي . أتذكرين ؟ في تلك

(١) The Letters of K. Gibran and M. Haskell, p. 28-29.

وقد طعنا له في مجوعة رسالته الانكليزية ، قبل التاريخ المذكور ، عشر رسائل لها من بوسطن ، وواحدة من روتردام (وهو ما يزال في عرض البحر قبل بلوغه فرنسا) ، والتي عشر من باريس .

السنة نفسها قدمت أمي. وفي تلك السنة حينها دخلت حياتي ، (١) . إن أمه ماتت قبل نحو سنة من تمرّقه إلى هاسكل ، ومن احتراق رسومه (٢) ، لكنّ العقل الباطن لا يعرف المسافات الزمنية ، فإذا قلبه المحتاج إلى العطف والعزاء ، إلى الأمومة ، يلدّ ، في الزمن نفسه الذي انفصلت عنه أمه ، أمّاً جديدة تحملُ محلّها .

ويعود جبران إلى بوسطن في تشرين الأول ١٩١٠ ، بعد ستين وأربعة أشهر من الغياب . وسرعان ما تتوالى لقاءات ماري له ، مرتين أو ثلاثاً في الأسبوع (٣) . وفي ١٠ كانون الأول من هذه السنة تبدأ حكاية حبّ تتنازع فيها الرغبة الواحية والموانع اللاواعية في نفس جبران ، فيبوح لها بعاطفته وبزمه على تزوجها إن استطاع . وتوافق ماري بعد تردد بسيط (٤) . إن جبران المتوقّد عاطفةً وحساسيةً شاء أن يُقدّم على تلك الخطوة عرفاناً منه بمحبّلتها . ولكن هل العقل الباطن يلبي نداء الإرادة ؟ أول اعتراض لطيف مُداوّر فضّله لاوعيّه كان في ٢٨ كانون الثاني سنة ١٩١١ . قال لها : « إن تقولي لي : أعزّد ، يا غليل (جبران) أن ليس من الحكمة أن نتزوّد ، فسأقبلُ قولك واعتقادك بلا قيد أو شرط » (٥) . وما أن تُعلن له ، في ١٥ نيسان من السنة نفسها - وذلك بعد تردد وتبصّر مديدين - أنّها كفّت عن التفكير في أن تصبح زوجته - لئلاّ تحول دون تفتح آماله وتحقّق سعادته - حتّى يتبنّى رأيا ،

(١) *ibid.*, p. 45-46.

(٢) توفيت أمه في ٢٨ حزيران ١٩٠٣ ، بينما تعرف إلى ماري هاسكل في ١٠ أيار سنة ١٩٠٤ ، وبعد ذلك ببضعة أشهر اختارت رسومه في حفرة فرد هولته داي ، إثر شوب هريق فيه . (انظر نسبه : جبران خليل جبران ، ص ٦٤ ؛ وليليا أبي ماضي : مجلة السير ، المجلد ٢ ، العدد ٢ (١ أيار ١٩٣١) ، ص ٥٣ ؛ كذلك :

B. YOUNG, *This man from Lebanon*, p. 185.

The Letters of K. Gibran and M. Haskell, p. 52-53. (٣)

ibid., p. 53-54. (٤)

ibid., p. 58. (٥)

صامتاً ، لأنّ أعماقه المعتمدة اللاواعية كانت تصدّه عن الزواج بها .^(١) هل يعني ذلك أنّ قصة الحبّ بينهما بلغت خاتمته ؟ - لا ، بل بدأت الحكبة فيها تتعمّد ، والصراع يحنّد ويتأزّم . وكأبنة قصة حبّ ، حطّت بالبوح والنجوى ، والتمتاع والشكوى ، والإقدام والإحجام ، والشهوة والمرارة ... لكنّ مجرى المواقف والأحاسيس ، مهما كان صاعياً هادراً ، كان دوماً ينتهي مصحوداً عند جدار . وكان الصراع المرير يزيد جبران إبلاماً واضطراباً ، فيتوسل إليها أن تُعينه في حسم غناؤه وقلقه ، لأنّ تلك التجارب الشهوانية المكبوحه جعلته يشعر أنه أصبح فارغاً من النفع ومن الطمأنينة^(٢) . أليكون الشعور بالإثم يجلبه من جراء عبثه ببيكلر كان عليه أن يُلَازِمَ تقديسه لأنّه امتداد لهيكل أمّه ؟ كانت ماري في نزاع بين توثب شهوتها وتقهر جبران ، وكان هو في صراع بين رغبته الجنسية المتوقدة وبين امتناعه النفسي اللاشعوري . كانت تُعرّضه على الجماع ، مُشجّعة إياه « مزيّنة له الطريق ، فيتمنّع ويغوّقها من عواقب الحمل ، مُشدّداً على فظائمه ، مادحاً لها تصعيد الحبّ ، فتُلعّ عليه ، مطمئنة إياه باهندائها إلى موانع الحمل ، فبرّد بأنها غير أكيدة وغير أمينة ؛ وإذ تُصرّ بتصلّب وينغصب . ويستمرّ المدّ والجزر بينهما بضع سنوات حتى تتنازل ماري ، أخيراً ، سنة ١٩١٤ ، عن رغبته في الوصال الجنسي ، بعد أن يتأكّد لها أنّ جبران لن يطلوعها ، على جميع الإثارات التي تستخدمها^(٣) .

وراء تمنّع جبران كان تملكه بألمه المتسامية . فماري كانت علاجاً لعلّاً

(١) Ibid., p. 82-84

يتضح من المرجع الألف الذكر أنّ ماري كانت تدرك ، بنبلتها ، رغبته الصيفة في عدم الزواج .

(٢) انظر توفيق صايغ : أسوء جديدة على جبران ، ص ٨٢ - ٨٤ .

(٣) انظر المصدر السابق ، ص ٧٩ - ٨٩ .

لقلق انفصاله عن والدته ، وأتقوى بحسب رمزي لها في حياته . فمكث تعرفتُ
إليه رحمةً بمنابها وعطفها رعاية الأم وليدها ، فكانت له خير معون معنوي
وأدبي وعادي . فتحت أمامه طريق المستقبل مشعماً ^(١) ، ووجدت فيها راحة
نفسه وحرارة ومشجماً على العمل الأفضل ^(٢) ، بل رأى فيها وهو المستقل
الرأي - وقد بلغ الإحدى والأربعين - « ناصحة الوحيدة » ^(٣) . فقامت
استشاراته لها طول حياته ، وشملت شتى الأمور ، مراوحةً بين القضايا
المالية الكبرى والشؤون المادية البسيطة ^(٤) . وقد اقترن دعمها المالي الضخم
له ، مدة أعوام ، ولا سيما في أثناء إقامته في باريس ^(٥) بعونها الأدبي : فمن
مطالعتنا الرسائل المتبادلة بينهما نستنتج أنه كان لا ينشر كتاباً أو مقالاً باللغة
الانكليزية ، بدءاً « بالجنون » حتى « التائه » قبل أن يخضعه لنظرها ، فتُلقق
وتُصحح ما أمكن وتملي موافقتها ^(٦) . تلك المساعدة الدائمة التي كانت
تُقدّمها له جعلته يشعر أنه عاجز عن إنجاز أي عمل نافع بمزول عن مساعدتها

(١) انظر رسالة جبران إلى أمين النريب في ١٢ شباط ١٩٠٨ (رسائل جبران ، ص ١٢) .

(٢) انظر توفيق صايغ : أضواء جديدة على جبران ، ص ٦٣ و ٦٤ ؛ كذلك :

G. KHEIRALLAH, *The Procession*, p. 18, 19.

(٣) يكتب إليها في ٢٨ آب ١٩٢٤ : « لدي أشياء كثيرة أقولها لك وأسئلك جنة أطرحها عليك .
فأنت الوحيدة في العالم التي تستطيع أن تنصني حول نفسي » .

The Letters of K. Gibran and M. Haskell, p. 652.

(٤) استشاراته هذه مبثوثة في الكثير من رسائله . انظر على سبيل المثال ، في المصدر الآتف الذكر :
ص ٦٥٢ و ٦٥٤ .

(٥) *Ibid.*, p. 16, 22, 29, 42.

(٦) انظر أيضاً : G. KHAIRALLAH, *The Procession*, p. 19.

(٧) آخر رسالة من ماري اليه في موضوع التتقيق بكتاباتاته كانت حول « التائه » في ٦ نيسان ١٩٣١ :
أي قبل موته بأربعة أيام فقط .

The Letters of K. Gibran and M. Haskell, p. 675.

وبركتها ^(١) . موقف جبران الرجل منها كان موقف جبران العقل من كلمة رحمه : يرى فيها وجه أمّة القدوة وينبوع الحياة والبركة . حرّفاً اسمها (M.H.) ينشئها على بعض رسومه « رمز الخير الحقّ والحُب الحقّ والإيمان الحقّ » ، ويدأها « ملتان بنور الله » ، وتضحياتها « هي الحبّ كما الله ذاته يريد أن يكون » ^(٢) . وبعد ذلك ، فلا عجب إذا وحدها بالحياة وساوى بينهما في العطاء ^(٣) . ولعلّ أول ذكر صريح لموقفه البنويّ منها ورد في كتابه إليها من بوسطن في ٣٠ نيسان ١٩٠٨ . يتّهم رسالته قائلاً : « أقبل بك بأجفاني ، يا أمّ قلبي العزيزة » ^(٤) . وإذا عاملته ماري ببعض قسوة ، اعصره الألم لأنّ الأذى أتاه من اليد التي كان يقبلها ويتبرّك منها . يد أمّه ، فيعاتبها مراراً ، وتنتظر إليه ، إلى أن يكتب إليها في ٢ آب ١٩١٥ ، صافحاً عن أذى الأسس ، وقد اختلط معناه بها : « أي قادر ... ان أنظر إلى الأسس كما يجب أن ينظر امرؤ إلى وجه أمّه الحزين ، أمّه التي حملته بالأوجاع ، وبالألام ولدته » ^(٥) .

وتزداد تصرّجاته البنويّة ، مع السنين ، قوةً وجلالاً . يقول لها في ٢٠ أيلول ١٩٢٠ : « نعم ، يا ماري ، إنك أمّ ، أمّ حبيبة جدّك » ^(٦) . ويصارعها في العام التالي ، بأنها « الوحيدة في العالم التي يشعر معها أنه طفل ، انه ابن مع

(١) يصرّح ، سنة ١٩١١ : « لا أبداً صلاحاً بمرثك » ، سنة ١٩١٤ : « أنا أؤمن بك بعد الذي أؤمن به بنفسي ، ولا أريد أن أصل شيئاً لرحمتي » ، سنة ١٩١٥ : « يستحيل تماماً أن أصل شيئاً بمرثك » ، وفي السنة نفسها يؤكّد : « بدون بركتك لن أتمكن من متابعة فتاحي » (انظر توفيق صايغ : أضواء جديدة على جبران ، ص ٣٣ و ٩٦) .

(٢) انظر المصدر السابق ، ص ٣١ و ٦٤ و ٣٥ .

(٣) يقول لها ، سنة ١٩١٣ : « لقد أعطيتني الحياة بمنى حرق » (المصدر السابق ، ص ٣٣) ، سنة ١٩١٤ : « انت واحدة حياة » ، سنة ١٩٢٣ : « دائماً أسألك الكثير ، وكالحياة نفسها دائماً نطلب الكثير » .

The Letters of K. Gibran and M. Hankali, p. 348, 646 .

(٤) Ibid., p. 7 . ويكرر العبارة نفسها في رسالته الأولى لها من بلويز : Ibid., p. 13 .

(٥) Ibid., p. 433 .

(٦) Ibid., p. 622 .

أمته (١). وفي ١٧ كانون الأول ، ١٩٢٢ ، يكتب إليها : « لا أشعر ، بعد الآن ، بأيّ ضيقٍ محبوب ، بل بالأحرى بأيّ طفلٍ في بيت أمي » (٢). وفي ٧ تشرين الثاني ١٩٢٨ يعلن لها : « نعم ، إنني أحتاج إلى الدفء ، في هذا الشتاء وليس سوى قلب أم يمكن أن يقدمه لي . ولديّ هذا القلب . فليبارك إلها قلبي (يقصد ماري) الأمومي » (٣). وكوالدة رؤوم قابلت ماري موقف جبران البنيويّ منها ، فكانت ، بحنان ورقة بالغين ، تعامل « طفلها » وتخطبه وتناجيه وتناغيه (٤).

صادق جبران ، هذا حكايا الضاهر وسلطانته ثابت وإيملي ميشيل وماري هاسكل « عدة نساء ، أبرزهنّ ماري خوري وميّ زياده وبرباره يانغ . وقد وجه محور الأمّ موقفه منهنّ جميعاً ، حسبما يقضي المنطق النفسي .

(١) انظر توفيق صايغ : أضواء جديدة على جبران ، ص ١٠٠ .

(٢) The Letters of K. Gibran and M. Haskell, p. 642.

(٣) Ibid., p. 669.

(٤) من مناجياتها له : « آمين لو أستطيع ذات عشية أن أضعك في الفراش لنتام » (توفيق صايغ : أضواء جديدة على جبران ، ص ٦٤ ؛ انظر أيضاً ص ٦٥) ؛ « لو في ٩ تشرين الثاني ١٩١٤ : « طابت ليلتك ، يا خليل (جبران) ، طابت ليلة الطفل التي نيك »

(The Letters of K. Gibran and M. Haskell, p. 377.)

لو في ١٦ شباط ١٩١٢ : « إن حاتين اليدين الخاوتين المزيّلتين تودان ، يا حبل ، أن تسفّيك الخليب ، وإن تفسلا حوافرك ، وأن تطفئا شريطاً أزرق نضراً حول عنقك ! ... وليني أستطيع أن أسمي اليك كما كنت أسمى لك في الأعراس الكثيرة التي اننايتني ... وكما كانت أمك تسمى اليك » (Ibid., p. 144). وتتمتع الأم بالحبية في أسر جارات تلقاها جبران من ماري هاسكل ، في ٦ نيسان ١٩٣١ ، أرملة أيام قبل وفاته ، وعسة أموم بعد زواجها : « حبي - حبي - بركي » (Ibid., p. 144).

بعد أن پشت ماري من إسكان زواج جبران بها ، لم على الأكل من القامة وصال جنسي معها ، أخذت تفكر في الزواج بأحد سكان ولاية جورجيا ، وقد شارفت على الخمسين . وتنتشر جبران مراراً حول حزمها ، فيدي حوافشته ، إنما يسألها إن كانت تزور ، بعد قرأتها ، أن يبدأ رسائله لها بمباركة عزيزتي ماري « بدلاً من « حبيبتي ماري ». ويتم زواجها في ٧ أيار ١٩٢٦ ، وتلتقي جبران للمرة الأخيرة في ١٣ مه (انظر : توفيق صايغ : أضواء جديدة على جبران ، ص ٨٨ - ٨٩) .

لهادي محوري كانت متروجة ، وأغلب الظن أنه وقع في حبها ، في السنوات الأولى من إقامته في نيويورك ^(١) . ولعله كان يقصدها في إقامته في لاهي هاسكل ، سنة ١٩١٤ ، عن امرأة « أغوته » وأحبته حباً شديداً ، وكانت ذات شخصية مغناطيسية ، وفيها شيء الكثير مما في الأم ^(٢) .

ومضى زياده (١٨٨٦ - ١٩٤١) اجتذبه فيها - عن بعد ودونما لقاء - نفساً مشابهة لنفسه ، بل قلّ لنفس أمه ، بفرقتها الروحية وميلها إلى الوحدة ، وحنانها ولطفها وكآبتها ^(٣) ، وجدّتها إليه حاجتها المذحجة إلى شقيق لروحها تبقى مكتوناتها ولواصيحها ، وحاجتها إلى دفن عاطفتها الأمومية على طفل رآته فيه . وقد بدأت مميّ الحلقة الأولى من سلسلة الرسائل بينهما ، في ١٢ أيار ١٩١٢ ^(٤) ، واستمرت علاقتهما الأدبية العاطفية حتى أواخر حياته ^(٥) . لكنّ الغموض اكتنف موقفها منه حتى ١٥ كانون الثاني ١٩٢٤ إذْ باحت له بجمها مزوجاً بمطابقة الأم نحو وحيدها وقلقها عليه واهتمامها بحركاته وتصرفاته ونصائحها له ^(٦) . لكنّ جبران كان قد خطا الخطوة الأولى التي أوصلته إلى

(١) انظر K. HAWI, K. Gibran, p. 103 كذلك :

The Letters of K. Gibran and M. Haskel, p. 115.

(٢) توفيق صايغ : أضواء جديدة على جبران ، ص ١٠٠ .

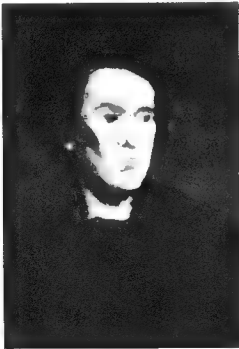
(٣) انظر جميل جبر : مي وجبران ، ص ١٢ ، ١٤ ، ١٦ ، ١٨ ، ورسائل مي ، ص ٣ و ٥ . يذهب بعضهم كمدب المسيح حداد (المصبة الاندلسية ، ١٩٤٨ ، م ١٩ ، جد ٥) أن جبران لم يكن أية عاطفة حب لمي زياده ، لكنه كان يحبها كأديبة فقط . غير أن هذا الزعم يدحضه اهتمام جبران الكبير بالمراد بتوجيهه إليها عدداً وافراً من الرسائل التي ينضمها فيها بأمر لم يوح بها لمرأها . أما موقفه منها فكان موقف الابن من أمه ، وعلى هذا الضوء ينبغي أن نفهم عاطفته الحبية نحوها . (انظر رسمها بريشته (رقم ٢٩) والسنته (رقم ٣) وهو رسالة منه إليها بتاريخ ٣٠ أيار ١٩٢١ ، ولا يمكن إلا استشفاف حبه لها من خلال سطورها) .

(٤) رسائل مي ، ص ١٧ .

(٥) رسائله الاخيرتان إليها إحداهما مؤرخة سنة ١٩٣٠ ، والأخرى غفل من التاريخ (انظر رسائل جبران ، ص ٩٥ و ٩٩) .

(٦) ما نقلوه في هذه الرسالة : « لقد كنت يوم ٦ يناير (ذكرى ميلاده) بطوله مودع تفكيري . وكنت مثلاً أمامي بصورة طفل ، فوفو فوفو ، تتحرك يدها الصغيرتان في الهواء ... وتسر

ماري هاسكل
(رسم رقم ٣٨)



مي زيادة
(رسم رقم ٣٩)



هيكل الحب حينما أنقل إليها ، قبل بضع سنوات ، كتاباً اعتبرته « نسياناً خائياً » ، ثم أتبعه بكتاب آخر في مطلع تشرين الثاني ١٩٢٠ . ولم نعد على أثر « النشيد الخائى » ، ولكننا نستشف من رسالة جبران اللاحقة وجواب مي أنه ضمنته عاطفة حبه في دياحة شعرية رمزية . ويعلن جبران على تسميتها رسالته التي حتمها نفسه « بنشيد خائى » ، بقوله : « لو قبل لوالدة تحمل طفلها على منكبيها ، هذا تمثال من الخشب وأنت تحملينه بياقة ، فيماذا نُجيب تلك الوالدة بماذا نتمتع ؟ » ^(١) . إن جبران حمل كتابه نفسه وشحنه بحرارة حبه ، حب طفل لأم ينظر أن تنمعه بسطقها وحنانها . لكن تلك « الأم » أسامت انهم ، ضايتها بالأم ، مذكراً إياها بأسلوب ملادور ، هو من فيض عقله الباطن ، أنها له بمرتلة الوالدة وهو لها بمرتلة الابن . وكنا قد ذكرنا ، سابقاً مقطعين من رسالتين وجهتهما جبران إلى مي زيادة ، يتجلى فيهما تأثير محور الأم في موقفه من صديقته خاصة ، ومن النساء عامة ، فحبنا الإلماح إليهما .

أما برناردو باتاغ ، رفيقة جبران في السنوات السبع الأخيرة من حياته ،

- لي أن أتفرغ للتفكير والتأمل في المولود النور ... لا تعرض نفسك للبرد واتق كل ما يؤذيكَ . مفهوم ؟ ... وسواء أكنت غطاة أم غير غطاة ، فإن قلبي يسير إليك ، وخبر ما في يظلي جانماً حولك يحرصك ويحترقك . غابت الشمس وراء الأفق ، ومن خلال السحب السحبية الأشكال والألوان حصصت نجمة لاسعة ، نجمة واحدة هي الزهرة ، إلهة الحب . أنرى يسكنها كأرضنا بشر يحبون ويشوقون ؟ ربما وجد فيها من مي مثل ، لها واحد جبران ، حلو بهد بهد ، هو القريب القريب . تكتب إليه الآن والشفق يملأ الفضاء . وتعلم أن الظلام يتلفظ الشفق ، وأن النور يتبع الظلام ، وأن الليل سيخلف النهار ، والنهار سيتبع الليل مرات كثيرة ، قبل أن ترى الذي تحبه . فتسرب إليها كل وحشة الشفق وكل وحشة الليل ، فتلفي بالقلم جانباً لتحتفي من الوحشة في اسم واحد : جبران (انظر الرسالة كاملة في كتاب مارون صود : جدد وقضاء ، ص ١٥٣ - ١٥٨) . انظر كذلك جليل جبر : مي وجبران ، ص ٥٠ و ٥٨ حيث يعلق الكاتب على حكايات مي لجبران بقوله : « لا تختلف عن حكايات أم تمثال بها ولدها المريض » . انظر أيضاً : رسائل مي ، ص ٧١ - ٧٢ .

(١) رسائل جبران ، ص ٩٩ .

فلم يختلف تصرفها نحوه عن تصرف « الأمهات » السابقات من عناية واهتمام وعطف^(١) ، كما لم يختلف موقفه منها عن موقفه من جميع اللواتي وحدتهن المحبة والرفقة والتضحية بأتمه .

ذلك كان الأبرز من آثار محور الأم في حياة جبران العاطفية . تعلق بوالدته في طفولته ، ثم تسامت في نفسه فاتخذها قدوة ، فسكنت وعيته مثلما احتلت لاوعيته ، فكان يسقط وجهها الأُمومي المتسامي على كل امرأة يصادفها ويبادلها المودة مع الاحترام ، حتى يسوغ القول : لم يكن له حبيبات بالمعنى الواقعي ، ولكن أمهات صديقات كان وعيه ولاوعيه في نزاع تجاههن ، نزاع بين تلبية شهوة حبة كانت تصرخ له في جسد الانثى وإحجام لا شعوري عن انتهاك المبكل الأُمومي المتعالي المشتمل فيها . وبذلك يكون قد تم تحليل محور الأم في حياته ، فلنحاول تقديم تأويل نفسي لمتوجاته الرمزية عبر أدبه ورسمه .

٣ - مُحَاوَلَة تَأْوِيلَ الْمَحْوَرِ نَفْسِيًّا فِي إِنتَاجِهِ :

لا شك في أن قسماً وافراً من الطاقة الحبوبة التي كان يمكن أن يستهلكها جبران في علاقاته بالنساء ، ادّخرها ليصرفها في أدبه ورسمه . ويبدو أنه تبنّى لهذا الإعلاء^(٢) . فالعَلى إليه في قوله : « لأنني أعتقد أن جزءاً كبيراً من قوتي الجنسية يتحوّل وينصب في نتاجي »^(٣) . فكثيرة هي الإسقاطات

(١) قال عنها نواز افرايم البستاني: «إنها أصبحت من أغلى أصدقائه جبران وأصدق معارفه مدة سبع سنوات متوالية ، يلقي إليها بكل ما يتألق قلبه ، ويطلعها على شغافها حياته الكريمة ولا سيما في أسرها ، فحنو عليه حتى الأم الطوف ... » (المشرق : مجلد ٣٧ ، سنة ١٩٣٩ ، ص ٢٤٢) .

(٢) لا تصل كلمة « إعلاء » المعنى الفرويدي المصري ، لكن معنى تصريف الطاقة الجنسية ، في موضوعات الحب وما إليه . عبر الأدب والفن ، بدل تصريفها في واقع الشهوة الجنسية الحية .

(٣) يفتضح من خلال الرسائل المتبادلة بين جبران وحاسك أنه كان يطلع بعض المؤلفات السيكولوجية وخاصة لفرويد ويونغ . ولكنه كان يمتنع التحليل النفسي الفرويدي ، ويأخذ عليه مبالته

التي كانت تلور دورانا لا شعورياً في تلك محور الأم ، ومثلما تفلطت في حياة جبران ، فأملت عليه كيفية علاقاته بالمرأة ، فقد قلّدت ، أيضاً ، في أدبه ورسمه فوسّمت عاريات لوحاته ووجوه بطلات حكاياته ، وأثرت في مواقفهم " كما أثرت في موقفه منهم " ، وانداخت في مقالاته وتأمّلاته حاملة ملامح الوجه الأمومي المزعّي وتبرأت الصوت اللانيء المنون . وسبق أن رأينا بعض تلك الإسقاطات في مظاهرها الصريحة ، فلنباشرها الآن في تموجاتها الرمزية .

وقد ارتأينا أن نتبع المنهج الآتي : أولاً ، الأم المتسامية ، ثانياً ، الحبيبة الأم ، ثالثاً ، الأبدية الأم ، رابعاً ، الطبيعة الأم ، خامساً ، الوطن الأم . ومبرورنا في ترتيب هذه المراحل المنطق السيكولوجي ، إذ إن الأم المتسامية هي المنطلق ، والحبيبة الأم هي الوجه الشخصي المباشر لإسقاطها النفسي ، أما المراحل الثلاث الأخرى فهي إسقاطات واسعة الأبعاد منطلقتها اللاهوتي الجمعي .

أ- الأم المتسامية : كان طبيعياً ، وقد اتخذ جبران والدته قدوة ، متسامية في نفسه ، أن يجعلها بثوب الطهارة فتصبح له أمّاً روحية . ولما كانت أمّ يسوع رمز القداسة الأكتوية بالنسبة إليه كان لا بدّ من توحيد ملامحها وصفاتها بلامح والدته وصفاتها . لكنّ السيئة مريم تفرّدت عن النساء ببيكارتها ، وحملت يسوع من غير أن يمسيها بشر ، إذن فالمعضلة يتيسر حلها

في تنظيم الجنس ، كما يرفض التحليل النفسي الخاص الشر . وقد تكون ماري هي التي مرّفت إلى علم النفس . (انظر توفيل صليح - أسواء جديدة على جبران ، ص ٢١ و ١٢٢) . كذلك

The Letters of K. Gibran and M. Haskell, p. 493-494, 498

وقد انتهت ماري ، في يومياتها لسنة ١٩١٢ ، لأملاك طاقته الجنسية بقولها : « انه أجول فيما يتعلق بالأمور الجنسية . وكل من يمرّ به وحده ... يستطيع أن يرى أن خليل (أي جبران) لا يوجه اهتمامه نحو الجنس ، لكنه يفتله بالأمور أعظم ... وكما يقول هو ، إنه يقرب طاقته الجنسية إلى نتائج في . إن ما يبتغيه « مفيداً » ليس « اللهيبة » وإنما هو « المزاج » (صليح - أسواء جديدة على جبران ، ص ١١١) .

باعتباره « كل حبل أعجوبة » ^(١) ويحمل مريم المجدلية - المرأة التي أحاطتها
 حالة من القسوة بعد أن لاقتها الألسن - تقول مخاطبة الجاحدين يسوع :
 « أنتم تفضونه لأن بعضهم قال إن عطراء ولدته ولم يولد من زرع رجل .
 ولكنكم لا تعرفون الأمهات اللواتي يذهبن إلى القبر وهن عطاري » ^(٢) .
 أمهات عطاري ! مثلن كاملة رحمة . وهكذا يسقط وجهها الروحي حل
 بطلات حكاياته المثاليات .

« فالحكمة » - قل أمه الروحية الحكيمة - تزوره في سكون الليل ،
 وتقف قرب مضجعه ، وتنظر إليه نظرة الأم الحنون ، وتمسح دموعه
 قائلة : « سمعتُ صراخ قلبك فأتيت لأعزيها . أبسط قلبك أمامي فأملأه
 نوراً . سلكني فأريتك سبيل الحق » ^(٣) .

وحبيته بناجيها وقد اتحدت بأمه المتسامية : « أين أنت الآن يا جميلتي ؟
 أفي تلك الجنة الصغيرة تسقين الأزهار التي تحبك محبة الأطفال لئدي أمها ،
 أم في خدرك حيث أقميت للظهر مذبحاً وقفت عليه روحي وحشاشتي ؟ ..
 أنت في كل مكان ، لأنك من روح الله ، وفي كل زمان ، لأنك أقوى
 من الدهر ... هل تذكرين ساعة جئتُك مودعاً فعاقتني ثم قبلتني قبله
 مريمية ، علمتُ منها بأن الشفاء إذا انضمت جاءت بأسرار علوية لا يعرفها
 اللسان ، قبله كانت توطئة لثنيهة مزدوجة حاكّت نفساً نفضته الله في الطين
 فصار إنساناً » ^(٤) .

ونعجبُ للبراعة اللاشعورية التي وحدت الأم المتسامية المتسرلة بالطهارة ،
 بالحيية - الأم التي تنفضه « قبله مريمية » ثمربها مولود لكن من روح الله !

(١) B. YOUNG, This man from Lebanon, p. 95.

(٢) K. GIBRAN, Jesus the Son of Man, p. 178.

(٣) دمة وابسامة - م . ك . ج ٢ ، ص ١٢٧ .

(٤) المصدر السابق - ص ١٦٢ - ١٦٣ .

وفي « إرم ذات العماد » « نرى آمنة الطويلة تتحد بالأمّ المثالية لتضمر
لنجيب رحمة المقاصد الروحانية ، ثم « تنظر إليه نظرة طويلة مفعمة بشعاع
الأمومة » ، ويقف هو حياها موقف « طفل يلغ متلعثماً بما يريد بيانه » ويسأها
عقلها بجنوح ^(١).

وعلى لسان « رجل من لبنان » ، يخاطب جبران السيد المسيح قائلاً :
« وأمك معنا ، فقد أبصرتُ نألقَ حياها في سماء جميع الأمهات » ^(٢) .
لقد اتحد وجه الطراء - الأمّ الروحية - بوجه والدته ، كما اندجبت ملامح
والدته بوجوه جميع « أمهاته » .

ولدى المقارنة بين وجه أمّه (رسم رقم ٣٤ ورسم رقم ٤٠) ووجوه
نساء أحاطهنّ التاريخ بهالة من القداسة أمثال مريم الطراء (رسم رقم ٤١)
ومريم المجدلية (رسم رقم ٤٢) وجان دارك (رسم ٤٣) ، نرى السمات
الرئيسة لوجه أمّه - المتمثلة في العينين النجلاوين المطبعتين برفق لإطاقة تكاد لا
تكون تامة ، والوجه الطيف المستطيل ، والعنق المديد المنحني قليلا إلى الأمام «
فضلاً عن كيفية ضمّ الشفتين - يسقطها جبران على الوجوه السامية الروحانية
التي يرسمها . ولدى تأمل الوجه (رسم رقم ٤٤) الذي لاحظنا أنّ له أنماطاً
تكرّر في رسومه ، على اختلاف قليل ، نرى الملامح نفسها . وكأنّ في تيّسك
العينين ، وذلك العنق المشرّب إلى الأمام تطلّعاً روحانياً إلى اللانهاية ، إلى
الأبدية ، حسبما نقول أنّي أوتو في تعليقها على هذا الرسم ^(٣) . ولعلّ ملامح
سلطانة ثابت التي تعلق بها جبران في مراهقته - وقد ألحنا إليها سابقاً - اتحدت
بقسمات أمّه ، فالع في رسمه النساء المتساميات على إبراز تجلّ العين وتكع
العنق المنحني .

(١) البدايع والخراف - م . ك . ج ٣ ، ص ٢٨٨ و ٢٧٧ .

(٢) K. GIBRAN, Jesus the Son of Man, p. 180.

(٣) A. S. OTTO, The Parables of K. Gibran, p. 104.



(رسم رقم ٤٠)

كاملة رحمة



(رسم رقم ٤١)

مریم ام یسوع



(رسم رقم ٤٢)

مريم المجدلية



(رسم رقم ۴۳)

جان دارك



الام المتطلعة الى الانهاية

(رسم رقم ٤٤)

وإن كان للأُمّ المتسامية تأثير في طفلها ، لخصوصها جزء من ذلك التأثير ، لا سيما إذا كان فذاً كصوت كاملة رحمه . فقد اشتهر بملوبته وحلاوته مما جعله أحد الدوافع لاقتزان خليل جبران بها ^(١) . وكثيراً ما كان الشاعر يُحدث برباره يانغ عن ذلك الصوت الحلو العجيب يُنصت لنبراته الساحرة تشحنها والدته أغاني جبلية نائرة أو ناعمة ، أو يستلم للدفء والحنان فيه حتى يراود النعاسُ أجفانه ^(٢) .

ويبدو أن صوت كاملة رحمة قد ترسّخ في وعي ابنها وفي لاوعيه ، حتى إذا شبَّ الولد ، وغيّبت الأبدية أمه ، أصبح صوتها جزءاً جوهرياً منها وبديلاً سامياً رمزياً عنها .

ولعلّ تأليفه باكورته « الموسيقى » إنما مبعثه صوت أمه . فهو يسمعه في تنهيدات الحبيبة - الأمّ التي ترتعش لها نفسه . وفي الموسيقى كلّها التي كانت لها صدى القبلية الأولى التي وضعها آدم على شفتي حواء ^(٣) .

وتستحضر طفولة جبران ، وتنبعث فيها الأمّ تهدهد طفلها القلبي ، تنأغبه . فيلوذ بصدرها . ثم يستأنس مستلماً لحنوها : لدى تلاوتنا هذا المقطع : « وإذا ما بكى الرضيع اقربت منه والدته وغنت بصوتها الموسيقي المملوء رقةً وحنناً . فيكفّ عن البكاء ويرتاح لألحان أمه المنجّمة من الشفقة وينام . وفي ألحان الوالدة ونغمتها قوة توغز إلى الكرى ليُخفض أجفان طفلها . وتشارت تلك الألحان السكونية بهوئها فتزيدها حلاوةً ونمحو رهبتها وتملأها سحراً من أنفاس الأمّ الحنون حتى يتغلب الرضيع على الأرق وينام وتطير نفسه إلى عالم الأرواح » ^(٤) .

(١) مقابلة مع السيدة أسى الصامر ، صيف ١٩٦٨ . انظر أيضاً جميل جبر : جبران ، ص ١٥ .

(٢) انظر B. YOUNG, This man from Lebanon, p. 9 & 144-145.

(٣) الموسيقى - م . ك . ج ١ ، ص ٥٧ .

(٤) المصدر السابق ، ص ٥٢ .

أو يُستعاد حين جبران ، وهو في لبنان ، إلى أمّه الثالثة في الغربة ،
إذ تقرأ : « التهاوند صلاة والدّة نأى ابنها إلى أرض بعيدة ، فبات بعده تغالب
النوى فيها جمها بحوامل اليأس وتصدّه بفواحل الصبر والأمل » (١) .

ولعلّ صوت أمّه هو الذي سمعه في أصوات بطلاته و الأمّهات :
فصوت وودّه « يحاكي نفمة الناي وقة » (٢) ، وصوت واحيل - إذ تخاطب
خيلاً امتدادّه النفسي - « تترج بمقاطعه عاطفة الأمومة بعلوية الطمأنينة » (٣) ،
وصوت سلمى كرامه كان « منخفضاً حلواً تقطعه التهنّيدات ، فينسكب من
بين شفتيها القرمزيّتين مطما تتساقط قطرات الندى من تيجان الزهور بمرور
تموجات الهواء » (٤) ، وصوت آمنة الطويلة عذب كأنه آتٍ « من قلب
القضاء » (٥)

ولا يسعنا إلا أن نسمع صوت كاملة رحمة وغناهها وراء نفمة الناي في
« المواكب » ولإلحاح جبران على النناء . وكما كان يحد في صوت أمّه تمزيّة
وصلاة وقة وتثجيماً ولطفاً وبهجة وحباً صحيحاً ، هكذا « فالفنا يحو
الحنن ، وهو « خير الصلاة ... وعدل القلوب ... وعزم النفوس ... ولطف
الوديع ... وظرف الظريف ... وحبّ صحيح » ، وكما أن صوتها بديل
رمزي سام عنها ، وهي ملازمة نفسه ، خالدة خلود الأبدية ، « فالفنا سرّ
الخلود » (٦) .

(١) المصدر السابق ، ص ٥٤ .

(٢) الأرواح المصدرة - م . ك . ج ١ ، ص ١١٢ .

(٣) المصدر السابق ، ص ١٦٠ .

(٤) الأجنحة المتكسرة - م . ك . ج ٢ ، ص ٢٦ .

(٥) البدائع والطرائف - م . ك . ج ٢ ، ص ٢٧٤ و ٢٧٧ .

(٦) الفنر المواكب - م . ك . ج ٢ ، ص ٢٤٠ ، ٢٤٤ ، ٢٤٧ ، ٢٤٨ ، ٢٥٥ ، ٢٥٦ ،

٢٥٩ ، ٢٧١ . ويحذر بالذكر أن في معنى « الناي » و « النناء » رجباً روحياً ، أيهاً ،
نورسها فيها يحد .

ب - الجليية - الأم : مع أن جبران سما بأمته ، وأحاطها بهالة من القداسة ، فإن نزاعه اللاواعي بين أن يكون قريبها أو النصف الآخر المتسم لها وأن يرضى بينوته برز في أدبه ورسمه ، وسعالج ذلك في قسمين :

الثمررة المهرمة : إن التعلق بالأم الذي نحى جبران ، في واقعه الحقي ، عن أية صلة جنسية نهائية مع المراهة - الأم ، سيحول ، أيضاً ، في إنتاجه ، دون تنفيذ أي وصال جسدي مع كل بطلة يخلع عليها مسحة من المثالية والروحانية بحيث تصبح في مجال امتدادات أمه . تلك قاعدة عامة يسوغ أن نسميها : الثمررة المهرمة . لكن ، كما أمكن آدم وحواء أن يمضيا الأمر الإلهي ، ويستحق العقاب ، هكذا أمكن أبطال جبران أن يأكلوا الثمررة المهرمة ، في حالات شاذة ، ويستحقوا العقاب الواجب ، أيضاً .

فسلمى كرامه كانت رمزاً أدبياً حياً شحج بحرارة الأمومة ، واحتللت فيه انفعالات جبران البنيوة اللاشعورية المتجهة نحو حلا الضاهر وربما نحو سلطانة ثابت ، إذ قد يكون الوجهان اتحدا في واحد . وكثيرة هي المواقف المفصحة عن ذلك في القصة : يقول جبران إن لفظة يا « ولدي » التي وجهها والد سلمى إليه وإلى ابنته « أيقظت في داخلها شعوراً جديداً عذباً يكتنف محبتها لي مثلاً تحتضن الأم طفلها » (١) . وتستبين في تصرفه حيالها ، على كونها حبيته ، ملامح من سلوكه مع أمه الموسوم بالاحترام والتكريم والتقديس : « فأخذت تلك اليد (يدها) براحتي نظير معتبد يتبرك بلحم المذبح ، ووضعها على شفتي الملتهمتين ، وقبعتها قبلة طويلة عميقة خرساء تنبئ بحرارته كل ما في القلب البشري من الإحساس ، وتنبه بعذوبتها كل ما في النفس الإلهية من الطهر » (٢) .

وتبلغ انفعالاته البنيوة ذروتها حينما ترتج أعمقه اللاشعورية ، مطلقة

(١) الأجنحة المتكسرة - م . ك . ج ٢ ، ص ٢٩ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٣٦ .

على سطح وجهه وجه أمه الميتة وقد اندجبت قسائمه بقسمات سلمى : « وذهب الريح ، وتلاه الصيف ، وجاء الخريف ، وعجتي سلمى تتدرج من شفق نوى في صباح العمر بامرأة حسنة إلى نوع من تلك العبادة الخرساء التي يشعر بها الصبي اليتم نحو روح أمه الساكنة في الأبدية » (١) .

بل إن التعلق بالأم المتسامية ينقله بما يجعل الزواج بينهما أمراً منكراً مستحيلاً لأنه انتهاك للمحرمات ، وعلى الحبيبة - الأم أن تحمي الابن - الحبيب وتحمي نفسها منه . تقول له : « أنت تعلم بأنني أحبك بحبة الأم وحيدتها وهي المحبة التي علمتني أن أحملك حتى ومن نفسي » (٢) .

تلك هي الثمرة المحرمة ، حُظِرَ عليه الاقتراب منها ، وعجز التفكير فيها أكبه شعوراً بالذنب ، وسلطَ عليه ، من ذاته اللاواعية ، وسواساً كاوياً أقصاه عن جنّة الحب ولما يلقى نمارها . يقول مُلُعماً إلى آدم : « السيف الناري الذي طرده من الفردوس هو كالسيف الذي أخافني بلمعان حدّه وأبغضني كُرمًا عن جنّة المحبة قبل أن أتخالف وصية وقيل أن أدخو طعم نمار الخير والشر » (٣) .

هذا الدخ لثمة ولا ارتكاب المعصية ينسلط على عقله الباطن حتى يضطر إلى تكراره في سياق القصة : « لم تخالف وصية ولم نلق نمرًا فكيف نخرج من هذه الجنة ؟ لم نتأمر ولم نتمرّد ، فلماذا نهبط إلى الجحيم ! » (٤) . ولأن سلمى أقدمت على الزواج ، وإن يكن بغيره ، أوجبَ منطق النفساني أن تُعاقب . وتكفل لآو عبه بإماتة طفلها (الثمرة المحرمة) (٥) .

(١) المصدر السابق ، ص ٥٧ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٨١ .

(٣) المصدر السابق ، ص ١٠ .

(٤) المصدر السابق ، ص ٤٧ .

(٥) أما حوت سلمى نفسها فلا يدخل ضمن صيانة النصاب ، بل يدخل في مجال تموجات المصلوب ، حسبما ستبين في الفصل الأخير من هذه الدراسة .

وفي « بنات البحر » ، يتدخل الموت ليفصل بين قتي وحييته لتلا يجمعهما الزواج . مخاطب الفتاة حبيبها في رسالة حُثِر عليها بعد موته : « لما وحدّ الحبّ قلبينا وصرنا فوقّح ضمّ جسمين تجول فيهما روح واحدة ، نادتك الحرب »^(١) . ومهمّ جدّاً أن نذكر أن القتي أبعدته الحرب عن حبيبته ليردّه الموت إلى البحر ، أي إلى أمّه ، فالبحر من أغنى رموز الأمومة ، حسبما سنوضح صمّا قريب .

وفي « الجنينة الساحرة »^(٢) التي قد تكون رمزاً لما ري غوري^(٣) ، يشعر جبران بأنّ علاقته بها ، لأنّ استلامه للشهوة أخذ يهدّه بالوصال ، فترتد روحه منه ، ولذا يسألها أن تكفّ عن متابعة السير في طريق الحبّ ، لأنّه بلغ « ملتقى السبل حيث يعانق الموت الحياة » . ملتقى السبل (الوصال) نافذة لا شعورية على الأبدية تطلّ منها أمّه الميتة المتوحدة بالحبيبة – الأمّ التي يشتهيها ، فينسب في نفسه الصراع بين رغبة الحبّ الدافضة وورعة النفس المانعة . يستجلى ذلك في قوله : « قد تمسكتُ بأذيالك وسرتُ وراءك كطفلٍ يلاحق أمّه ... مجنوباً بالقوّة الخفية الكامنة في جسدك » .

وفي « حفار القبور » يعمل محور الأمّ تدعمه حركة إثبات الذات عملاً حاسماً . فإذا الزواج بما فيه من التزام وتقييد للحرية ، ومن وصال وتوالد ، يزرع الخوف ورعدة الذنب في لاوعيه ، فيرفضه رفضاً قاطعاً : « إنّما الزواج عبودية الانسان لقوّة الاستمرار . فان شئت أن تتحرّر طلق امرأتك وعش خالياً ... ما حياة المرء بين زوجته وأولاده سوى شقاء أسود مستر وراء طلاء أبيض »^(٤) . يتأكّد موقفه هذا أيضاً ، في « الجنينة الساحرة » حيث يقول : « قد استرددتُ حريتي » فهل ترضين بي رفيقاً حراً ... لقد فتحتُ جناحيّ

(١) دمة وابصاة - م . ك . ج ٢ ، ص ١٠٨ .

(٢) المواقف - م . ك . ج ٢ ، ص ٣٧ .

(٣) E. HAWI, E. Olibran, p. 108 .

(٤) المواقف - م . ك . ج ٢ ، ص ١١ و ١٢ .

ثانية ، فهل نصحين في صرف الأيام متقللاً كالنسر بين الجبال ، ويقضي اليالي رابضاً كالأسد في الصحراء ؟ هل تكفين بحب رجل يتخذ الحب نديماً . وبأباه سيّداً ؟ ^(١) . خوفاً من عاقبة الزواج يسقطه على الناس جميعاً ، لكن الحرمان يُلجّجه إلى خياله وأحلامه يستفيض بها عن الواقع : « ولكن إن كان لا بدّ من الزواج فاقترن بصيكة من بنات الجن » ^(٢) .

وفي « جسد ونفس » ^(٣) ، يترك الرجل المرأة التي جالسها ، لأنّها تطالبه بأن يشتريها زوجةً وأماً ، وهو يُصرّ على حبّها أغنيةً في حلمه .

أما شريعة الزواج ، إذا كان لا بدّ منه ، فيرسمها في « النبي » : « فها محاً ، لكن لا تلاصقاً : فأعمدة المبد على انفصال تقوم » ^(٤) .

تلك هي القاعدة : ألا يُتّحَم هيكل المرأة الشريفة لأنّها امتداد لأمّ . أمّا إذا خولفت وصيّة الطفل الباطن ، فكل المخالفين أن يمانوا العقوبة . فلما أن يُحكّم عليهم بأن يكونوا عواقر ، أو بأن يعيشوا هم وأولادهم في شقاء . هكذا قُضي على الروجة الروحانية الميول بأن « تلوّب كالشمع بحرارة عواطفها المقيّدة ، وتضمحلّ على مهل كالرائحة الزكية أمام الماصفة ، وتنفى حباً بشيء جميل تشعر به ولا تراه ، وتصبو حينئذ إلى محاكاة الموت » ... ^(٥) . قُطِف الثمرة المحرمة يُهبط النفس إلى « الجحيم » ، إلى الصراع المضي بين ميول النفس اللبينة ، بين ذات الإنسان وذاته ، أو يُهبط « أرواح الأطفال من القضاة المتّسع إلى منازل الشقاء ... » ^(٦) .

(١) المصدر السابق ، ص ٣٦ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٢ .

(٣) The Wanderer, p. 21.

(٤) The Prophet, p. 13. وإذا يضطر جبران إلى الكلام على الأبناء كوضوح أساسي في « النبي »

يحد خطه الباطن منفذاً في فكرة فلسفية تجعل منهم أولاد الحياة لا أولاد الآباء والأمهات .

(Ibid., p. 14).

(٥) الأرواح المشرقة - م . ك . ج ١ ، ص ١٢٠ .

(٦) المواصف - م . ك . ج ٢ ، ص ١٨ .

يد الام الفاصلة
(رسم رقم ٤٥)



يد الام الفاصلة
(رسم رقم ٤٦)

ولئن أعرض جبران عن واقع المرأة ، واقع اللحم والدم المحاط برهبة الحرم ، فإنه عسّر رسومته بخيالات الأجساد العارية وقد صعد فيها الجمال حتى مرتبة القداسة . فالميكال الأنثوي الذي أحجم عن اقتحامه في واقعه ، تسلطن في خياله ، فكان في الرموز التصويرية تعويضاً عن الحرمان ، وفي الفن أماناً يقيه الروادع . ونتيجة لذلك احتشد في اللحم من رسومه الألم المُرهِق والصراع المرير الناجمان عن التشوق إلى الوصال والصدود عنه . هذا التوتر النفسي لاحظته ماري هاسكل فقالت : « ظهر لي من رسومه... أنه كان يفكر في الأمر ويمجد حللاً له عن طريقها »^(١) . وسبق أن عرضنا ، في المظاهر الصريحة للأثومة ، عدة رسوم يتجلى فيها تشبُّه جبران بشدي أمه ، وحينئذ الرجولة العنيف إلى حَسَم قلبي الانفصال بالعودة إلى الثدي عبر الفن .

لكنَّ العقل الباطن إذا سمح له بتمثيل هَجَس الرضاع ، فإنه أصرَّ على رفضه القاطع لتمثيل الوصال الجسدي ؛ وذلك يبدو في يد الأم الفاصلة التي تتكرَّر لها عدة أخطأ في رسومه اكتفينا منها بـاثنتين (رسم رقم ٤٥ ورقم ٤٦) . ففي الأوَّل الذي قرنه جبران بفصل الزواج في كتاب « النبي »^(٢) ، تراءى امرأة مُمدَّدة في أحشاء الأرض عارية تمدُّ ذراعها فتفد إلى السطح لتحول بين رجل وامرأة متشابكَي الأيدي . وفي الثاني يتكرَّر المشهد نفسه مع فارق أن جسد المرأة أعمق في باطن الأرض ، وأنها تحاول النهوض بجهد وعصبية كيما تفد يدها إلى السطح فتحول بين المتحابين الاثنين وهما أشبه براكمين تتلامس أيديهما . تُرى ، ألا نغفل المرأة القابعة في أحشاء الأرض - الأم^(٣) والدته القابعة في حمة عقله الباطن تشهر ذراعها الروحية كأنها « السيف التاريخي » ليحول دون قطف الثمرة المحرمة ، دون الوصال الجسدي مع الحبيبة - الأم ، فتتماس الأيدي ، ويتباعد الجسدان وفق ما يعلم المصطفى ؟ !

(١) توفيق صايغ : أسرار جديدة على جبران ، ص ٨٢ .

(٢) انظر E. Gibran, The Prophet, p. 12.

(٣) سنوضح موضوع الأرض - الأم صا قريب .

الاتحاد الجسدي الرهيب
ولمار الشقاء.
(رسم رقم ٤٧)



الرجل - المرأة
في صراع مؤلم
(رسم رقم ٤٨)

وفي الرسم (رقم ٤٧) تراءى ، بصورة رهيبة ، عاقبة الزواج ، أي اتحاد الرجل والمرأة في جسم واحد . فابلسد الحي يبدو أقرب إلى هياكل الموتى ، والألم الضاري يمسّ وجه الرجل المهيمن من فوق ، مثلما يهرق وجه المرأة المهددة ، من تحت ، وهي مرعوبة ، إلى جثث عارية هامة مطروحة في المراء كأنما هي أطفالها التي قلقت بها أحشاؤها خارجاً ! ترى ، أليست توضيحاً رمزياً تُحيطه الرهبة لفكرة أن الزواج عبودية تتحلل بالنفس إلى « الجحيم » وتَهبط « بأرواح الأطفال إلى منازل الشقاء » ؟ ! وإذا أُنعمنا النظر في اليدين لرأيناها تنتهيان بمخالب معقوفة هي أشبه بمخالب الجوارح التي تحط على الجيف . ترى أنتكون رمزاً للشرّ الفتاك ؟

النصف الآخر : اتخذ محور الأمّ وجهةً أخرى في ما سمّاه كارل يونغ « الألبا » ^(١) ، أي العنصر الأثري اللاواعي في نفس الرجل ^(٢) . وتكون الأمّ بالنسبة لطفلها ، حسب رأيه ، أول تجسيد لهذا العنصر ؛ فإذا ظلّ لا شعورياً ناشطاً في نفس الفتى ، أسقطه ، في مجرى عمره ، على فضاء كثيرات ، سواء في واقع الحياة أو أحلام الفنّ ^(٣) .

وقد ظهر هذا العنصر الأثري في عاطفية جبران الشديدة التي تجلّت في كتاباته العربية الأولى ، قبل أن تبلغ حركة إثبات الذات ذروتها في نفسه ، ولازمه طول حياته ، على تفاوت في الضعف والقوّة . وهو الذي أمالنا إلى الظن أنه لم يجب حباً واحداً حقيقياً أبداً من صديقاته ، إنما كان يُسقط عليهنّ جميعاً صفات أمّه التي كوّنت في خياله النموذج الأثري الأمثل .

anima (١)

C. G. JUNG, L'homme et ses symboles, p. 31. (٢)

: راجع أبداً : C. G. JUNG, Métamorphoses de l'âme et ses symboles, p. 546. (٣)

C. G. JUNG, L'homme et ses symboles (M-L. VON FRANZ), p. 177 - 188.

كذلك : P. DACO, Les Triomphes de la psychanalyse, p. 294 - 303.

ولعلّ هذه الحقيقة أنطقه بأنّ "كلّ رجل يحبّ امرأتين : واحدة هي غليظة خياله ، وأخرى لم تولد بعد" ^(١) ، ولعلّ الحقيقة نفسها جعلت يوح لاري هاسكل ، سنة ١٩٢٣ ، بأنه لم يكتب في حياته رسالة حبّ واحدة ^(٢) ، على كثرة رسائل الحبّ المتبادلة بينه وبين صديقته .

وقد تنبّهت هاسكل لهرز النصر الأثوري فيه ، فكتبت إليه في مطلع آذار ١٩١٢ : "كأنّي شعرتُ بوجود امرأة فيك حينما رأيتك" المرة الأخيرة ، فيجيبها في الثالث من الشهر نفسه جواباً يتمّ عن الحقيقة اللاواعية الكامنة في نفسه : "قبل نحو أربع سنوات ، قلت - إنك شعرتُ بوجود امرأة فيّ . ولم أفهم ما عنيّتِ آنثُ . ولا أفهم الآن ما تقصدين إلّا نصف فهم ... وأمل أن تكون المرأة التي فيّ أمّاً صغيرة" ^(٣) .

جدّ جبران ، طول حياته ، في البحث عن نصفه الآخر ، خارجه ، لكنه لم يتبدّ إليه ، لأنّه كان داخله ، كان النصر الأثوري فيه . رسمتْ أمّه ملامحه في نفسه ، مدّ "كان طفلاً" ، فشبّ وبقيتْ عيناه عالقتين بوجهها . وعقله الباطن يسقط ملامحها ومزاياها على كلّ من يحضن المودة والاحترام في بنات حواء ، بل على كلّ من يبدعون خياله بالقلم أو الريشة . فكان انجذابه إليها انجذاب جزء إلى آخر يتضمّنه ، انجذاب طاقة روحية إلى طاقة أخرى سامية هي مصدرها . ولذا فهو حين أسقط وضعه اللاشعوري على خلائق خياله ، جعل كلّ حبيبين جرّمين من شعلة واحدة مقدّسة وُجدتْ منذ البدّء ، ولا تكمل سعادة الواحد إلّا ببقاء الآخر ، بحيث أصبح النصف الآخر ، و "الشعلة الواحدة" لازمتين تتكرران في أدبه .

فنانان يحسّ " بوحدة جارحة وبعاد مُتّكفٍ فاصل بين روحه وروح

(١) Sand and Foam, p. 21.

(٢) توفيق صايغ : أسواق جديدة على جبران ، ص ٦٢ .

(٣) The Letters of K. Gibran and M. Heckel, p. 148, 149.

جميلة كانت قبره قبل حبه إلى هذه الحياة ^(١) . ووردة الهاني تملن أنها سيدة لابناتها مع الرجل الذي تحبه ، شعلة واحدة من يد الله قبيل ابتداء الدهور ^(٢) . وخليل المكافر يشعر بشموجات روح مريم حول روحه ، مدركاً « أن الشعلة المقدسة التي أحاطت بقلبه قد لامست قلبها ، فيفرح لأول وهلة فرح طفل ضائع وجد أمه » ، ومنذ تلك اللحظة تتمازج عواطفهما وتصبّر نفسهما شعلة واحدة متقدة ينبعث منها النور ويتصوّع حولها البخور ^(٣) . وتحاطب ابنة الأمير حبيبها الفقير قائلة : « أنت رفیق نفسي الذي فقدته ونصفي الجميل الذي انفصلت عنه عندما حكم عليّ بالمجيء إلى هذا العالم ^(٤) . وتسال سلس حبيبها : « أما جمعت روحينا قبضة الله قبل أن تصيرنا أسيري الأبتام واليالي » ^(٥) .

وستين « المنصر الأثوي » اللاواعي على جلالة الأروع في أقصوصة « سفينة في ضباب » ^(٦) ، حيث يتقمص جبران رجلاً بشرائياً - لا يسميه - ويسرسل في إغاضة عواطفه تجاه أمه بطريقة رمزية . وتظهر صورة « المنصر الأثوي » في رؤيا الشاب ، عبر أحلام يقظته وأحلام نومه ، طيف امرأة كانت تحف ، في الليالي ، قرب مضجعه ، فيشعر بلامس أصابعها على جبهته ، امرأة وسيمة الوجه ، عذبة الصوت ، كانت « قرينة » خيالية له ، فلا يستطيع صباحاً ، إلا يراها مكتبة على مساند سريره وهي تنظر إليه « بعينين يملأهما طهر الطفولة وعطف الأمومة » ، ولا يحاول عملاً إلا تُعينه على إنجازها ، ولا يجلس إلى مائدة إلا تُجالسه فتحاته وتبادل الآراء .

-
- (١) مراسل المروج . م . ك . ج . ١١ ص ٦٨ .
(٢) الأرواح المنردة . م . ك . ج . ١ ص ١١٦ .
(٣) المصدر السابق ، ص ١٧٤ و ١٧٧ .
(٤) دمة وإبسانة . م . ك . ج . ٢ ص ١٠٢ .
(٥) الاجنحة المتكسرة - م . ك . ج . ٢ ص ٣٦ .
(٦) البدائع والطرالف - م . ك . ج . ٣ ص ١٨٣ - ١٩٤ .

تُرى ، ألا يكون ذلك الطيف الأثوي طيف أمّة التسامي المُصقّى في
 خياله ، وهو صورة « المنصر الأثوي » في قلبه الباطن . أراد جبران أن
 يتجسّد واقعاً من لحم ودم ، فلم يسمح لوعبه إلا بتجسّده لثقة مينة ، يراها
 بعد رحلة طويلة ، وسط نضج نيره كوكبتان من الشموع وتحيط به الأزهار .
 مينة ؟ ! لأنها آخر صورة لأمّة في ذاكرته ، ولكي يستحيل الوصال بينه وبينها
 إلا في الأبدية ، حيث يعود النصفان للاندماج في وحدة الشعلة الروحية
 المقدسة .

أمّا في رسومهِ ، فانه يُسقط « المنصر الأثوي » على كثرة من الأجساد
 النسائية التي تتردّد فيها الصفات والملامح ، كأنّما هي امتساخٌ مُكرّر لنموذج
 في قلبه الباطن . وإنْ عثرت على رسم يمثل رجلاً ، فغالباً ما يظالمك فيه
 وجه امرأة وشعرها وأحياناً صدرها ، بحيث يزدوج الجنس فيه ، فكان
 جبران يريد استخراج « المنصر الأثوي » من داخله وتجسيده ، خارجه ، في
 كائن يجمع فيه الرجل والمرأة معاً وقد يكون في توفقه إلى هذه الوحدة حين
 التخطيط والتكامل والتحرر . تسأله ماري هاسكل ، سنة ١٩١٢ ، إذا كان
 يجب أن يكون امرأة ؟ فيجيبها : « ولماذا ليس امرأة ورجلاً معاً ، إذا كان
 بمقدوري أن أفكر وأحس وأحيي » (١) .

وإذا نظرت إلى الرسم (رقم ٤٨) لرأيت امرأةً إنّما تحمل صفة المذكورة
 الجنسية ، وهي في وضع مُخرج اليم : رجلاًها التفت عليها أفقياً ، وتكاثرت
 حولها الأطفال ، بينما تمسكت بنصفها الأعلى أجساداً أنثوية أخرى أشبه
 بأرواح في الفضاء ، كأنّما تسترّها من جاذبية الأرض . تُرى ، أهو وجه من
 وجوه الصراع النفسي الذي يعانيه جبران : إمّا اتّحادٌ ذكر بأنّي اتّحاداً
 جسدياً جنسياً تقيده أفق الشهوة وتكون ثماره أطفالاً هابطة إلى منازل
 الشقاء ، وإمّا اتّحادهما اتّحاداً روحياً يُبعدهما عن أرض الطلاب
 والأفاني ؟

(١) توفيق صايغ : أسرار جبهة علي جبران ، ص ١٠١ .

ولعلّ الرسم (رقم ٤٩) يوضّح أنّ العنصر الانثوي اذا صعدَ تصعيداً روحياً يولد الطمانينة والسعادة . فهذا الفنّ الجبراني الملامح الانثوي المبكّل والرقّة ، ساعةً سما به جناحا الروحانية الملاكيات هجّع بأمانٍ غريب في سرير من الأزهار كأنه رمز الجنة !

ج - الأبدية الأم : لئنْ مانت كاملة رحمة الأم المتسامية ، فقد أكسبتها وفاتها وجهاً آخر . إذْ دمّجتها في لاوعي ابنها بالأبدية ، فاستفاقت في خباب العقل الباطن الجسمي متعلّدة بنموذج بدائي رئيس للأموعة الروحية الكونية ^(١) .

« أكثر الأديان يتكلّم عن الله بصيغة المذكر . وعندي أنّ الله أمٌ مثلما هو أب . بل هو أبٌ وأمٌ معاً . والمرأة في نظري هي مثال الله الأم . قد يدرك الله الأب بالعقل أو بالخيال ، أمّا السبيل إلى الله الأم فهو الحب » ^(٢) . هذا القول ينسبه ميخائيل نعيمة إلى جبران في حديثه مع ماري هاسكل ، في المرحلة الأولى من تعارفهما . وسواء صَحَّ بحرفيته أم لم يصحَّ ، فهو يعبر عن واقع نفسي نرى مظاهره في إنتاج جبران ، ولا سيما في المرحلة الأخيرة منه . ففي « الأجنحة المتكسرة » يقول : « أمٌ كلّ شيء في الكيان هي الروح الكلية الأزلية الأبدية المملوءة بالجمال والمحبة » ^(٣) . وفي ٢٩ نيسان ١٩٢٣ ، يكتب إلى ماري هاسكل : « إنّ حياتنا الواعية ليست سوى صدقة لحياة أرحب وأعمق تكون فيها أقرب إلى الروح - الأم » وبالتالي بعضنا إلى بعض ، بما لا يُحدّد ^(٤) .

(١) انظر C. G. JUNG, *Métamorphoses de l'âme et ses symboles*, p. 394 : كذلك :

E. NEUMANN, *Art and the creative unconscious* (L. Da Vinci and the Mother Archetype), p. 3-80.

(٢) ميخائيل نعيمة - جبران ، ص ٧٢ - ٧٣ .

(٣) الأجنحة المتكسرة - م . ك . ج ٢ ، ص ٦٤ .

(٤) *The Letters of K. Gibran and M. Haskell*, p. 643.

الملك الانثوي عاجع بطماينة في سرير الازهار

(رسم رقم ٤٩)



فالروح الأمّ المتحدة بالأبدية تنبثق منها الكائنات واليها تعود وبها تتدمج ، مثلما يصدر المواليد عن الأمّ ثمّ يحتنون للمودة اليها والاندماج بها في توفهم اللاواعي ، بحيث يتحد البشر أنفسهم بالحياة ، ويصّبحون ، بنسائهم ، الأبدية نفسها . يخاطب المصطفى أهل أورفليس قائلاً : « إنّ الجمال هو الحياة وقد سكّرت الحجاب عن وجهها القدسيّ ، ولكن أنتم الحياة وأنتم الحجاب . والجمال هو الأبدية تحدّق إلى ذاتها في مرآة ، ولكن أنتم الأبدية وأنتم المرآة » .^(١)

والله إذا تراءى في كلّ ما هو جمال وغضب وحبّ في الطبيعة^(٢) ، فهو ذات الطبيعة المجنّحة . فالجمال والغابات تصلّي صامئة هكذا : « إلّها ، يا من هو ذاتنا المجنّحة . إنّ مشيتك التي فينا هي التي تريد ... أنت حاجتنا ، وإذا ما زدتنا من ذاتك فقد أعطيتنا كلّ شيء » .^(٣) لكنّ هذه الذات هي البشر أيضاً في نسائهم ، لأنّها شيء طليق . إنّها لروح يحيط بالأرض ويتحرك في الأثير^(٤) .

ويجعل جبران ملك جبّيل - ولعله أحد امتداداته النفسية - يهندي الى ذاته العظمى ، أي الى الروح -الأمّ ، بواسطة مرآة الحقيقة المجرّدة التي أهدتها اليه والدته^(٥) . كذلك يشدّ حنين الشاعر في « المحتضر والعقاب »^(٦) للاندماج

(١) K. GIBRAN, The Prophet, p. 73.

(٢) يقول المصطفى : « إذا شئتم أن تعرفوا الله ، فلا تشغلوا أنفسكم بكلّ الأحاسيس . لكن انظروا بالأحرى ، فيما حولكم ، فتروه بلاعب أطفالكم » وانظروا في الفضاء تبسّروه بسير في الفناء بأساطير ذراعيه في البرق ، ومنتزلاً في المطر ، وتروه مبتسماً في الأزهار ، ثمّ مصبداً بلوح يهيه في الأشجار » . Ibid., p. 73-76 . ومعالجة الأطفال ، والغضب ، والأزهار والأشجار مظاهر ورسوم للألوهة حبها سنين صا قليل .

(٣) Ibid., p. 65 - 66.

(٤) Ibid., p. 80.

(٥) K. GIBRAN, The Forerunner, p. 58.

(٦) Ibid., p. 33 - 34.

بأتم وقد تساوت في عقله الباطن ، بالطائر الأتوي ^(١) الذي كان رمز الأمومة المقدس عند قدماء المصريين ^(٢) ، فيلتبس من العقاب - الأم المنحطرة من القضاء اللاهائي أن تستخرج قلبه ، الطائر الأصفر ، وتحمله معها الى الأعالى .

ويزداد معنى الأمومة الروحية جلاءً في الرسم الذي أبدعه جبران لتبيين ما حيزت الكلمة عنه . فإذا الروح - الأم " تطل " عليه من عل ، من الأبدية الضبابية ، متحدة بها ، مَجَلَّةٌ بعظمته وقداستها ، وكأنما من صدرها تنطلق العقاب إليه ، رسالة الأمومة ، وعن جسده الأرضي تسليخ ذاته

(١) من حسن الاتفاق القوي أن لفظة " عقاب " مؤنثة ، وتطلق على الذكر والأنثى ساً .

(٢) قد يكون هذا الرمز الميثولوجي لازم خيال جبران الذي كان شديد الولع بالأساطير الميثولوجية ، منذ عهد الباكر . (انظر : انطون كرم - محاضرات في جبران خليل جبران ، ص ٢٧ و ٢٨) وقد بين فرويد القسم الأكبر من دراسته التحليلية النفسية لشخصية ليوناردو دافنشي على ذكرى حاجس يرتقي إلى مقولة الفنان . يقول ليوناردو ، على حد تعبير فرويد : " يبدو انني كنت سداً دائماً لأنني بالعقاب نهاية خاصة ، ذلك بأنني أذكر ، كاحدى ذكريات طفولتي الأولى ، أنني إذ كنت في المهد ، أنثني عقاب وفجعت نفسي بفنيها ، وغرقتني عدة مرات بهذا القاب بين شفتي " (S. FREUD, Leonardo, p. 117) . والعقاب ، في نظر فرويد ، يجب أن تكون رمز الأم ، يؤكد هذا في رأيه ، الكتابة الميريوغرافية المصرية حيث رمز إلى الأم بصورة عقاب ، وكذلك الميثولوجيا المصرية القديمة وفيها إلهة أم تمثل برأس عقاب ، اسمها " موت " MUT ، وهي لفظة شبيهة جداً بكلمة "موت" MUTTER الألمانية التي تعني الأم . ولما كان راجعاً ، عنه ، أن دافنشي قد اطلع على هذه الأعيان - بفضل حبه التقصي وسفرته الواسعة ، خصوصاً ان الكنيسة كانت تستعين بالأسطورة المصرية لإثبات قدرة السيدة مريم في حملها باليد المسيح ، إذ كان يعتقد أن لا وجود إلا للإناث من العقاب ، فلا حاجة لها لتفقيح الذكور - فقد ارتلى أن صورة " العقاب - الأم " لازمت هيئة الفنان فوجد فيها ما يصور تصويراً ومزجاً لا شعورياً رغبته الشبهي في أمه (انظر Ibid., p. 117-130) . هذا التأويل انطلق فرويد من تفسير حياة الفنان وبمثل نشاطه وإنتاجه . لكن بعض المحاسنين أعز على فرويد ببناء الفحاسة على منطلق وعي إذ انه اعتمد ترجمة ألمانية خاطئة للأصل الإيطالي حيث ترد كلمة Nibbio وتعني " حدة " مترجمة إلى لفظة Oer الألمانية وتعني " عقاباً " ، ويختلف المدلول الرمزي اعتلافاً كبيراً بين الطائرين . (راجع Ibid., p. 8-9; 16-18 وكذلك : IRMA RICHTER, Selections from the Notebooks of Leonardo da Vinci, London, 1932, p. 286) .

الروحية يجذبها الحنين لمعاقبة أمه - الروح (صورة رقم ٥٠) . وبين رسوم جبران ليست نادرة تلك التي تمثل الروح الأم أو الأبدية راقلة بالمحبة والقداسة ، ومن أبرزها « الأم السماوية » ^(١) التي تبدو سيدة مُتَجَنِّدة تُحيط بهما الأرواح في حركة دائرية كأنهما لتتحد بها ، وهي تطلّ من عليائها ناظرة نظرة عطف الى طفل يمدّ يده اليها بحنين ، فتبادله بالمثل وكأنها تجذبه جذباً رقيقاً ، في حين أن الطفل ملتصق بشابٍ جاثٍ ومنحن انحناه خشوع أو هجوع تحجب وجهه (رسم رقم ٥١) . نرى ، ألا تكون اسقاطاً رمزياً لحنين جبران للاندماج بأمه الممتدة ، لكن عبر لا وهي الرجولة ؟

وفي الرسم (رقم ٥٢) تطلّ الروح - الأم من غيب الأبدية ، يكتنفها ضباب الجلال والقداسة ، لتضمّ ضمة الشوق فيّ يَصْعَدُ اليها باسط اليدين ، يدفعه حنينٌ حادٌ لمعاقبها ، في حين أن دونهما في آخر - قد يكون صورة الأول - ينيب في بحر من السُدُم . ولعلّ في ذلك تمثيلاً لتوق جبران الى القبورية في مجهول الموت ليُطلّ على حياة أسمى وأبقى يتحدّ فيها بذاته العظمى ، بوالدته المُتَجَنِّدة ، بالروح - الأم .

وفي الرسم (رقم ٥٣) يمثل الحياة الأزلية الأبدية المبدعة برجل جبار كأنها هو صورة رمزية للأب الالهي (الأب - الأم) يعني البشر ، رجالاً ونساء ، على شكل قوس ليلد بواسطتهم الأولاد . لكن الأولاد ، كما يقول المصطفى :

« ليسوا أولادكم ،

إنما هم أبناء الحياة وبناتها في حنينها الى ذاتها ،

بكم أنوا لكن ليس منكم ،

وإن كانوا معكم فهم لا يخصونكم » ^(٢) .

(١) من جبران هذه الوثيقة لم نتمكن من العثور على نسخة . The Letters of K. Gibran and M. Rishell, p. 823.

(٢) K. GIBRAN, The Prophet, p. 16.



(رسم رقم ٥٠)

المقاب وحنين العودة الى الروح - الام



(رسم رقم ٥١)

الأم السماوية



(رسم رقم ٥٢)

الروح - الام تطل من غيب الابدية لتعانق ابنها



الحياة المبدعة الأزلية التي تشد أعضائها

(رسم رقم ٥٣)



(د . . . رقم ٥٤)

يد القدرة الإلهية وعن العناية الإلهية

وإذا تأملتَ الرسم لرأيتَ القوسَ المحيَّ يُحيطُ به الضباب ، ذلك بأنَّ
الحياة وكلَّ ما يحيا قد حُيِّلَ به في الضباب لا في صفاء البلور^(١) .

وإذا كان الرسم السابق يمثل الولادة من القدرة المبدعة الأزلية التي هي
أبٌ وأمٌ ، فالرسم (رقم ٥٤) يمثل العودة للانتماج بالأبدية الأم المتجلية
ببد القدرة المبسوطة وعين الناية الأمومية الساحرة ، تتحرك الأرواح ، مسن
بعد ، حولها ، حركة دائرية ، وتُحيطُ بها الأجئحة لإحاطة مباشرة . إنَّ
الانتماج بالقدرة المبدعة ، بالأبدية الوالدة لا يمكن أن يتمَّ إلا بالتسامي الروحي .
وهنا تصبح الحياة والموتُ واحداً مثلما أن النهر والبحر واحد^(٢) .

د - الطبيعة - الأم : إنَّ الطبيعة بكلِّ مشاهدتها ، أرضاً وماءً وفضاءً ،
تشكِّلُ في لاوعي الإنسان امتداداً مضخماً لا نهائياً لأمته . ولعلَّ مردَّ الأمر
إلى أنَّ مشاهدتها أولُ ما تَمَلَّقُ به عين الطفل بعد ولادته ، وفيها يكشف
تجاذب اللطف والرذع ، والعلوية والعقوبة^(٣) .

ولما كان جيران متعلقاً بأمته ، طفلاً ، كان لا بدَّ من أن يندو متعلقاً
بالطبيعة - الأم ، بالفاء . وبذلك اكتسبت الطبيعة ، في حسِّ اللاشعوري ،
معنىً قسباً خاصاً لا نفاذ في المعنى الشائع الذي يستلهمه الرومنسيون ، وإن
استماله أسلوبهم وأطرهم العامة . ففي موقفهم منها ضربٌ من المشاركة
الوجدانية التي تُفهم على ضوء المنحى الاستبطاني ، وفي موقفه منها علاجٌ
نفسي شخصي لصابه ، ووجودٌ تمويضي ذو مدلول روحي ذاتي عميق يحاول
أن يحسم به قلق الانفصال عن أمته .

في إحدى رسائله يقول : « الطبيعة أمنا ، ونحن جميعاً نحاول أن نتلمس من

(١) Ibid., p. 88.

(٢) Ibid., p. 77.

(٣) انظر M. BONAPARTE, Edgar Poe, p. 332 - 333.

أمتنا لعلنا نستطيع الاقتراب من آيتنا ^(١) . فكأنه يتممّص أمّه ، عبر الطبيعة ، يحاول ، لا شعورياً ، تحطم التسلط القاصِل بينه وبين والده ، ليُصبح قادراً على موازاته ، على الاقتراب من عليائه أكثر .

وطبيعي أن تكون بشرتي : مسقط رأسه ، وأوّل انبساط أرضي أمام ناظريه ، حمية الصلة بطفولته ، فيتشوّق إليها « تشوّق الرضيع إلى ذراعي أمّه » ^(٢) ؛ لكن بدل أن تبث ذكرائها المرأة في فسه ، نراها تبث الكتابة ، وتعذب روحه « المسجونة في ظلمة الحداثة » ^(٣) ، وهو لا يفقه لعلته سبباً ! وضعه النفسي الشاذ تجاه أمّه يُسقطه عقله الباطن على الطبيعة - الأم .

وكما تبسط الأمومة على الفصول جميعاً في « أنشودة الزهرة » : « أنا ابنة العناصر التي حبل بها الشتاء وتمخض بها الربيع وربّاهما الصيف ونوّمها الخريف » ^(٤) ؛ فهي تتداح في مظاهر الطبيعة كلّها مرثيتها وغير مرثيتها : « كلّ شيء في الطبيعة يرمز ويتكلّم عن الأمومة ، فالشمس هي أم هذه الأرض تُرضعها حرارتها وتحتضنها بنورها ولا تغادرها عند المساء إلا بعد أن تنموها على نعمة أمواج البحر وترقيّة المصافير والسواقي ، وهذه الأرض هي أمّ للأشجار والأزهار تلدها وتُرضعها ثم تقطعها . والأشجار والأزهار تصير بدورها أمّهات حنونات للأثمار الشهية والبزور الحية » ^(٥) .

فالعطية تؤدّي لجبران عدّة مهمّات نفسية . إنها ، أولاً ، أمّ روحية : ملاذ حنان يهرع إليه ، عبر أبطاله ، كما كان يأوي إليه في طفولته وشبابه ، ليجني راحة لأعصابه ، وسلاماً لقلبه ، ليكون أدنى إلى نبع العطف والمحبة

(١) رسالة ١٧ نيسان ١٩٠٩ إلى ماري هاسكل :

The Letters of K. Gibran and M. Haskell, p. 25.

(٢) الأجنحة المتكسرة - م . ك . ج . ٢ ، ص ١٣ .

(٣) المصدر السابق نفسه .

(٤) دمة وابتناء - م . ك . ج . ٢ ، ص ٢٢٤ .

(٥) الأجنحة المتكسرة - م . ك . ج . ٢ ، ص ٦٤ .

والنقاء في أمته - الروح . فمرتا البانية كانت تحيا « الحياة الجميلة البسيطة المملوءة طهراً وقاوة ... متشبهة بأمنا الطبيعة في كل أدوارها » . لكنّها بعد أن كانت « ستأمن بين أشجار الأودية » تنصرف شبيبتنا هائنة^(١) ، بين أحضان الطبيعة ، « انحدرت مع جرف نهر المدينة القاسدة وصارت قريبة بين أطفال التماسه والشفاء^(٢) » . ذلك بأنّ الاقتراب من الطبيعة - الأمّ يعني الطمأنينة ، والابتعاد عنها يعني المقلق والتمس . ولأنّ ملاذه ذو صبغة روحية ، ففيه تكثّر الأشجار ، إذ إنّها بانتصابها وتصعيد ذات مدلول روحي ارتقائي^(٣) ، كما تتوافر الزهور والطيور ، إذ هي تحمل معاني الروحية والسمي نحو الكمال والسعادة^(٤) . فيوحنا المجنون ، يسوق إلى الحقل ثيرانه وعجوله ، كل صباح ، « مصنياً لتفايد الشحارير وحفيف أوراق الأغصان ، وعند الظهيرة كان يقترب من الساقية المتراكضة بين منخفضات تلك المروج الخضراء ، وبأكل زاده تاركاً على الأعشاب ما بقي من الخبز للمصافير » . وطالما رآته أمته منسلخاً « عن المدارك الحسية ... فاظراً إلى الأفق بعينين زجاجيتين جامدتين ، وسمعته متكلماً بشغف عن الأشجار والحداول والزهور والنجوم ، مثلاً تتكلم الأطفال عن صفات الأمور » . وهكذا يحمي أيام شبابه « بين الحقل المملوء بالمحاسن والمجائب وكتاب يسوع المضم بالنور والروح » . ذلك بأنّ الطبيعة - الأمّ الروحية هي ، في عقله الباطن ، عدل المسيح . فيوحنا كان « يتأمل تارةً بحمال الوادي وطوراً بسطور كتابه المتكلمة عن ملكوت السموات » ، أو بينما يكون مستغرقاً في تأملاته الإنجيلية ، نكون « المصافير ترفرف متناجية حوله ، وأسراب الحمام تتطاير مسرعة ، والزهور تتمايل مع التسم كأنها تتحمم بأشعة الشمس » . وكما تألمت أمه ، وقبلها المسيح ، هكذا على الطبيعة -

(١) حرائر المروج - م . ك . ج . ١ ص ٧٦ و ٧٩ و ٨١ .

(٢) انظر G. DURAND, Les structures anthropologiques de l'imaginaire, p. 369-370.

كذلك : G. BACHELARD, L'Air et les Songes, p. 231 - 255 (surtout 237, 250).

(٣) انظر : G. DURAND, Ibid., p. 133 - 135.

أيضاً : G. BACHELARD, Ibid., p. 82 - 85.

الأمّ الروحية أن تشارك الفقراء والمثّلين والمضطّهدين من إخوة يسوع ومختاريه . « فالأشجار العارية من الأوراق كأنها جماعة من الفقراء تُركوا خارجاً بين أظفار البرد القارس والرياح الشديدة » ، والعجول التي يحجزها رهبان دير أليشع يوثقونها بالحبال و « ينقرها أحد الرهبان وفي يده نبوت يجلدها به كيفما تحركت » ^(١) . إنها مأساة ابن البشر في فقره وآلامه ، يسط جبران ظلّها على الأشجار والحيوان ، على الطبيعة الأمّ الروحية الكونية .

هذه القوة الطبيعية الروحية الجبّارة التي هي امتداد مُكثّف لروح سلام النموذج البدائي الرئيس المتأصل في عقل الإنسان الباطن ، يتوسّل إليها جبران ، عبر « الانفجحة الطموح » ، لتحقيق رجاءه في جسم قلقه وإثبات ذاته : « أيتها الأمّ العظيمة بمجربوتها ، المائلة بمنائها ، أضرع اليك بكلّ ما في قلبي مسن التوسّل ، وما في روحي من الرجاء ، ان تجيبي طلبي وتجملي ودة ولو يوماً واحداً » ^(٢) .

ولعلّ الرسم (رقم ٥٥) يُبرز الطبيعة الأمّ بصورة رائعة . فوسط إطار طبيعي ، وأمام صخور شاهقة تتصب امرأة عملاقة ريانة الجسم ، دافقة الحياة ، نقيّة الصُرى ، تبط يديها ناظرة نظرة عطف إلى جمهور من الأحياء يلوذون بكنفها ، وكأنّما تحاول الركوع بينهم لاحتضانهم . إنها الطبيعة الأمّ في سموها الروحي وحنوها البالغ على أبنائها البشر .

لكنّ للطبيعة مهمةً نفسيةً أخرى هي مهمة الحية - الأمّ . فسيجد جبران فيها مسرحاً ممتازاً لبثّ حبه عبر الكثير من مفاتها وبدائعها « حيث ينكثم كلّ شيء عن الحب » ، حيث الأغصان تتعانق ، والأزهار تتمايل ، والطيور تتشبّب ، حيث الطبيعة بأسرها تركز بالروح ^(٣) . ففي الزهرة

(١) مراسل المروج - م . ك . ج ١ ص ٨٩ ، ٩٠ ، ٩١ ، ٩٢ ، ١٠٣ .

(٢) المراسف - م . ك . ج ٣ ص ١٥٩ .

(٣) دمة وابسة - م . ك . ج ٢ ص ٩٩ .

والشجرة تعبر حبة مثاليّ تجتمع فيه خصائص الذكر والأنثى ^(١) ، كما في المصافير حركة حبة إعلانية ^(٢) . غير أن الأم - الحبيبة يشتدّ بروزها في اتخاذ الطبيعة بديلاً عن سلمى كرامه التي ستهجره إلى رجل آخر : « عند الفجر سينتهي الحب من رقادي ويسير أمامي إلى البرية البعيدة . وعند الظهيرة سيقودني إلى ظلّ الأشجار فأربض مع المصافير المحتمة من حرارة الشمس ... وفي الليل سيعانقني فأنام حائلاً بالعوالم العلوية حيث تقطن أرواح العشاق والشعراء .. » ^(٣) . وترداد ملاحظتها وضوحاً في استعراضه حياة الحب منبسطة على فصول الطبيعة : « ها قد نشرّ فجر الربيع ثوباً طواه ليل الشتاء فاكنت به أشجار الخوخ والتفاح فظهرت كالمرائس في ليلة القدر . واستيقظت الكروم وتعانقت قضبانها كما شاق العشاق ... » ^(٤) .

موقف العشاق هذا يمدّه جبران على الشمس والطبيعة ، فإذا الأولى بمنزلة العاشق ، والثانية في دور العشيقة ، وإذا الحب المتبادل يعطي ثماراً : فالزرع تنضجه « حرارة حبة الشمس للطبيعة » ^(٥) ، و « أزهار الأودية ... أطفال يلدها انعطاف الشمس وشغف الطبيعة » ^(٦) . وقد يكون للطبيعة - الحبيبة حسّ المشاركة العاطفية مع الحبيبة - الأم : فما أن تُنمّ سلمى كرامه أيامها لتلدّ بكرها ، حتى تتعاطف الطبيعة معها ، فتأخذ بوضع « حمل أزهرها وتلفّ بأقمطة الحرارة أطفال الأعشاب والرياحين » ^(٧) .

(١) G. DURAND. Les structures anthropologiques de l'imaginaire, p. 368.

(٢) Ibid., p. 135

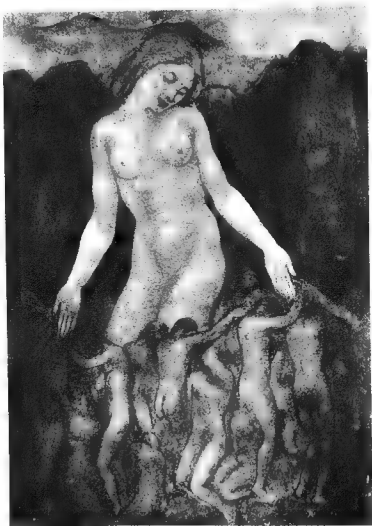
(٣) الأجنحة المتكسرة - م. ك. ج ٢ ، ص ٥٠ .

(٤) دمة والتمساة - م. ك. ج ٢ ، ص ٩٦ .

(٥) المصدر السابق نفسه .

(٦) الأجنحة المتكسرة - م. ك. ج ٢ ، ص ٨٦ .

(٧) المصدر السابق ، ص ٨٨ . وجدير بالذكر أن لاري جبران سح « بالأطفال » الطبيعة « العشيقة » ، لأن في حبها سموً وروحاً كما في ثمارها .



(رسم رقم ٥٥)

الطبيعة - الام

و... مظاهر الطبيعة تنفرد الأرض والبحر بمكانة نفسية كبرى وبقيمة
رمزية بالغة الدلالة على الأمومة ^(١).

للأرض هي الأم الخالقة التي لا غنى لأبنائها عنها ، وما عليهم ليعيشوا
سعداء ويزدادوا قرباً من الكمال إلا أن يقتدوا بها ويماروا روحها الطيبة .
فهي السخية المعطاء أمّ المحسنين ^(٢) ، وقلوة النشاط والإخلاص في العمل ^(٣) ،
والملاذ الأفضّل والسكن الأرحب الآمن ^(٤) ، تبهج بملامسة أقدام أبنائها
العارية ^(٥) ، وتقيم المحبة والعدل بينهم ، إذ إن روحها السبعة لا تستطيع
النوم على من الرياح حتى تكون قد رأت الأصفر والأضعف في أولادها قد
أشيعت حاجاته كالأكبر والأقوى ^(٦). ولذا فجيران يناجي أمه الكبرى ومعجدها :

« ما أكرمك أيتها الأرض وما أطول أناذك !

« ما أشدّ حنانك على أبنائك المتصرفين عن حقيقتهم الى أوهامهم » ^(٧).

لكن تعجبه أمه لا يخفي شعوره بالذنب نحوها :

« نحن نلذّب وأنت تكفّرين .

« نحن نجدّف وأنت تباركين .

« نحن نتجسّس وأنت تقدّسين » ^(٨).

أيكون إحساسه بالإثم ، يسقطه على الناس جميعاً ، مردّه الى شعوره

(١) M. BONAPARTE, Edgar Poe, p. 337.

The Prophet, p. 19.

Ibid., p. 22.

Ibid., p. 28.

Ibid., p. 33.

Ibid., p. 35.

(٧) البدايع والظرائف - م . ك . ج ٢ ، ص ٢١٦ .

(٨) المصدر السابق ، ص ٢١٦ و ٢١٩ .

بالعجز عن بلوغ مرتبة المثالية التي تجسدها أمه - الأرض ، أم الى رغبة
تمشُّش في عقله الباطن مستهدفة الاتحاد بأمه والتخلص من أبيه !؟ في المقالة
نفسها يقول : « أنت أنا أينها الأرض ! أنت بصري وبصيرتي . أنت عاقلتي
وخيالي وأحلامي ، أنت جوعي وعطشي . أنت ألي وسروري ، أنت غفلي
وانتباهي .

« أنت الجمال في حيني . والشوق في قلبي . والخلود في روحي .

« أنت أنا أينها الأرض . فلو لم أكن لما كنت » (١) .

لأنه يشعر بحاجة قصوى للارتفاع الى عظمة أمه الكبرى وبهائها وخلودها .
لتتمصصها والاندماج بها كما اندمجت بها أمه البشرية من قبل . لكن لأمه
العظيمة بعلاً عظيماً هو الشمس ! فكيف يتافسه !؟ إذن . فلنكن أمه -
الأرض بلا زوج ، بعلمها خطيئها فقط . ألم تكن هكذا العذراء حيل يوسف .
ثم ألم تتحد أمه بالعذراء في عقله الباطن ؟ تقول مريم المجدلية عن يسوع :
« أنتم لا تدركون أن الأرض قد زُقت الى الشمس ... وأنه (يسوع) قد وُلِدَ
من عذراء كما وُلِدنا نحن أيضاً من الأرض التي لا يعمل لها » (٢) .

وبين رسومه ثلاثة : أحدها (رقم ٥٦) تمثل فيه الأرض بامرأة
تتعالى أشبه بصنم إلهي معبود من التراب والحجارة ، وقد اتخذ وجهها ملامح
أمه ، ونهدل ثوبها فاندمج بفلذ من الرى . وشف عن جسمها العاري
فأبرز ثدييها . ثرى ألا تكون أمه المتسامية اتحدت في عقله اللاواعي الجصمي
بالأرض الأم ؟ والثاني (رقم ٥٧) تنهد الأرض فيه متمثلة امرأة ذات
وجه فيه من الكآبة والجلال والقداسة ومن قمات وجه كاملة رحمة نصيب
وافر ، وأمامها شاب عار ، لعلته إسقاط لشخص جبران - كأنما يحاول ضم
كنفها . والثالث (رقم ٥٨) ، وهو من أجمل رسومه ، يمثل أنثى ينمو جسدها

(١) المصدر السابق ، ص ٢٢٠ .

(٢) Jesus the Son of Man, p. 178 - 179.

من الطبقات الرابية ، متحداً بها ، وينامي وجهها ليتوسط غمامة شبه مستديرة . وحول المرأة أجساد عارية حية من النساء والرجال ، بعضهم يمدُّ الأثامل بلهفة جالعة الى ثديها الأيسر ، وبعضهم يستأمن في كنفها . إنها الأرض الأمّ يلتفت حول حضنتها أولادها البشر جلوداً تمتصّ الغذاء من ثديها المعطاء . وقد أوضح جبران ، في « آلهة الأرض » فكرته هذه بأداء شعري قائلًا :

« انظرا الرجل والمرأة ،

لهبّ الحبّ ، على القهَب

في نشوة نقيّة .

جلود ترضع ثدي الأرض الأرجوانية

وزهور متوهجة على صدر السماء .

ونحن الثدي الأرجواني

ونحن السماء الصابرة العانية » (١) .

تُرى ، ألا يكون تشبُّثُ جبران بثدي أمّه وحاجته الماسّة اللاواعية الى تحنّاتها يسقطهما على الأحياء ، بعد أن اتحدت الأرضُ بأمّه في عقله الجمعيّ اللاواعي ؟

أمّا البحر فهو أحد الرموز الكبرى التي تمثّل الأمّ . ولعلّ تجانس لفظيّتيّ (mère — mer) القرنيتين ليس من قبيل الصدفة (٢) . وما يجذبنا ، عادةً ، الى البحر ليست زرقته ولا رحابته ، كما قد يُظنّ ، إنّما نداء داخليّ مبهم يرقى

(١) K. GIBRAN, The Earth Gods, p. 31.

(٢) M. BONAPARTE, Edgar Poe, p. 357.

تُرى ، أيمكن تجانس لفظيّ « أم » و « يم » في العربية وإن يكن تجانساً ناقصاً ، ليس من قبيل الصدفة أيضاً ؟ هذا التشابح لفت نظرنا إليه الدكتور جبور عبد النور .



الارض - الام الهة معبودة

(رسم رقم ٥٦)



الأرض - الام وابنها في كنفها

(رسم رقم ٥٧)



(رسم رقم ٥٨)

الارض - الام والاحياء الجذور

الى بدامة الحياة عهد - كان البحر أم الحياة الأرضية كلها . وقد يبرز هذه الرابطة النفسية الدهرية اللاشعورية إمكان ارتباط الماء ارتباطاً لا واعياً بصورة الحليب الذي يرضعه الطفل من ثدي أمه ^(١) .

والبحر ، في عقل جبران الباطن ، امتداد مُصَحَّح لا نهائي لأمه ، حاله حال الأرض . وله عنده وجهان :

الأول وجه الروح - الأم المتحدة بالأيدية الجاذبة ابنها الى حناها الأول ، الى حضن السادة : يقول المصطفى : « لقد بلغ الجدول البحر ، ومرة أخرى تضم الأم العظيمة ابنها الى صدرها » ^(٢) ، او المائلة علة حياتنا ومصدر وجودنا : يقول كلاوديا البروني عن المسيح انه « خاطب البحر أمنا العظيمة التي ولدتنا » ^(٣) ، او التي هي معاد الكل ، وفيها يجتمع الكل وتمحي التناقض والتوازن القرديّة : يخاطب النهر الجدولين المختلفين : « هلمّا اليّ ، هلمّا اليّ ، فأنا واتما ستسى كل مجاريها حلماً نيلج قلب أمنا البحر » ^(٤) .

والثاني وجه الحمية - الأم . يخاطب جبران ماري هاسكل : « ليتني أستطيع أن أعطيك شيئاً لم آخذه منك بطريقة ما . انها حكاية النهر والمحيط » ^(٥) . وكما تفتي الأمواج - عواطف الأمومة - أغنية الحب بينها وبين الشاطئ : « أنا والشاطئ عاشقان يقربهما الهوى ويفصلهما الهواء ، أجيء من وراء الأفق الأزرق ، كيما أمزج فضة زبدتي بذهب رماله . وأبرد حرارة قلبه برضائي » ^(٦) .

(١) G. BACHELARD, L'Eau et les Rêves, p. 158.

ويعين مراجعة كامل الفصل : 180 - 155, p. ibid.

(٢) The Prophet, p. 91.

(٣) Jesus the Son of Man, p. 62.

(٤) The Wanderer, p. 88 - 89.

(٥) رسالة ٣ أيار ١٩٢٣ : The Letters of K. Gibran and M. Haskell, p. 647.

(٦) ما تروح به (عواطف البحر) أيضاً للشاطئ : « من الفجر أتوا شراع الفراء على سابع حبيبي ، فيضني إلى صدره . وفي المساء أنزمت بصلة الشوق فيقلبي ... يأتي المد فأعاقني حبيبي ، ويحبه الجزر فأترامى على أفهامه » (دمعة وابسة - م . ك . ج ٢ ، ص ٢٢٠) .

هكذا يتقمص جبران الشاطئ ليتاجي سلمى كرامه - البحر : « سوف أصفي
لأحاديث نفسك مثلاً نصفي الشواطئ لحكاية الأمواج... »^(١)

ولجبران عدة رسوم تمثل البحر فيها رمزاً للألوهة الكونية . ففي الرسم
رقم (٥٩) يبدو سمّ متموج ، تشكلت إحدى موجاته من أجساد بشرية ميتة
تخالها بعض زبده^(٢) ، بينما اعتلت أواذيه أجساد حية تماسكت أيديها
وتحرّكت أرجلها في رقص إيقاعي أمام خلفية ضبابية . إنها فكرة الموت
والولادة المستمرين يتحققان في الاندماج بالبحر ، الأمّ الكونية . ثم الانبعاث
منها ، بحركة مستديرة . وفي الرسم (رقم ٦٠) تبدو ثلاثة أجساد هابطة في
اتحاد متناغم فوق البحر ، وخلفها الغمام . كبيرها تحسبه أحد الآلهة ، يمدّ
بُسماء ملامساً صفحة البحر بسبّابه فيحدث فيها دائرة ذات اندياحات . ترى
أتكون رمز اجتماع الرجل بالمرأة على نطاق كوني ؟ لاسيّما أن البحسدين
الصغيرين الآخرين الماطنين في ظلّ البعل الإلهي يبدوان جسمي ذكّر وأنثى .
هذه الفكرة ليست غريبة عن خواطر جبران ، لأنّه مثلاً ، بأسلوب مختلف ،
في رسم آخر (رقم ٦١) ، حينما جعل ملاكاً ناريّ الجناحين يهبط برفق على
عروس ممدّدة فوق الموج . إنّه زفاف البحر الى الشمس ، هذا الزفاف
الملحمي الذي أنشده في « آفة الأرض »^(٣) حيث قال :

« حتى اذا بلغ الدهر الساج ظهيرته ، زففتا البحر عروساً الى الشمس .

« ومن مخدع الزواج ، من نشوة العرس ، أخرجتنا الانسان »^(٤) .

• - الوطن - الأم : ألمنا ، في كلامنا على الأصل المحوري الى أن حبة

(١) الأجنحة المتكسرة - م . ك . ج ٢ ، ص ٤٩ .

(٢) هذا الرسم جملة جبران في مقدمة كتابه « دمل وزبد » .

(٣) The Earth Gods, p. 15. انظر الرسم . ibid., p. 10.

(٤) كان جبران ، لدى عودته الى لبنان ، سنة ١٨٩٨ ، قد رسم على صفحات شئ من كتبه
« يوم بيوت و بچار و شطآن ... وهي جسيماً رموزاً للآلوهة . (انظر انطون كرم : محاضرات
في جبران خليل جبران ، ص ٢٧ و ٢٨) .



البحر - الام والموت والولادة

(رسم رقم ٥٩)



(رسم رقم ٦٠)

البحر - الام والبعث الالهى عابضا عليها



زفاف البحر الى الشمس

(رسم رقم ٦١)

جيران لأمه ، في راجع الظن ، كان حباً استلطافياً ضخّمه تكوينه النفسي وأفرغته الظروف في قالب شاذ ، لكن أساسه بقي حاجة ملحة إلى الحنان والعطف والرعاية منبثقة عن الحاجة الفطرية إلى الألفة سبيل الإنسان الوحيد لحفظ النفس .

وفي رأي أبان سوتي أن الطفل ، بعد أن يشب ، وتكون جميع المراتب الحسية المتعلقة بنسج الأم قد أدبّت إليه وأصبحت آثارها ضعيفة سطحية بفعل الزمن . تبقى في نفسه الحاجة الأساسية إلى الألفة وإلى التشجيع المعنوي والحماية والرعاية . لكن البالغ يكف . عادة . عن التوجه إلى أمه لإشباع هذه الحاجة . ويعهد إلى البيئة الاجتماعية في تنفيذ المهمة . وأنتد تنشأ بينه وبين محيطه أو وطنه علاقات ذهنية عاطفية ثقافية تصبح بديلاً للعلاقات الحسية من الملاحظات والمداعبات التي كانت بينه وبين أمه ^(١) . هذا الوضع النفسي كان لا بد من أن يقوم بين جيران ووطنه . بعد موت والدته . وكما كانت حاجته لأمه مضحمة . فقد كانت حاجته للوطن - الأم مضحمة أيضاً . ولذا فموقف جيران الطبيعي الأصيل من وطنه كان موقف الابن الخافي المتعلق بأمه . لكنه ابن يتطلب من وطنه ما كانت تعطيه إياه كاملة رحمة : العطف والحنان والرعاية والتشجيع الأدبي . فهل أشبع الوطن - الأم حاجته ؟ نظرة مجملية عاجل إلى موقف جيران تُرينا إياه موسوماً بالتناقض الوجداني : فمن جهة هو يُحب أمه بحبته لأمه ، ومن جهة أخرى يغضب عليها ويصد عنها لأنه لا يؤانس فيها وجه أمه المجيد المتسامي . هذا الموقف المزوج ولد صراعاً مأساوياً في نفسه ، فيما يلي بيانه :

١- أمّ الغصة وابن الغاصب : يبدو أن الوطن - الأم لم يفتح ذراعيه لاستقبال ولده ، يوم بدأ بمحضه عطائه ومحبته ، أدباً ورسماً ، ولا عطف عليه ، ولا رعاها ولا شجته ، ولا تقبل منه بدّة . فهو يبدي قلقه ، في

1. SUTTIE, The Origins of Love and Hate, p. 30 - 31. (١)

رسالته الى نخلة جبران (١٥ آذار ١٩٠٨) ، من أن تغلب بلاده ضده ،
 «لأنّ طلّاح العداوة قد ظهرت من وراء الشقوق» ، وأخذ الناس في وطنه يدعونه
 « كافرين »^(١) . وفي « أبتار من السنة نفسها ، يوح ليشلين وماري هاسكل
 بحزنه لأنّ « صديقه ومعلمه السابق في بيروت سمّاه « نبياً كذاباً »^(٢) . وفي
 « حزيران ١٩١٠ ، يُعلّم هاسكل بأنّ القنّاد في بلاده يكتبون عنه أشياء
 مُنكرة : فبعضهم يصرّح بأنّ نفسه « تسكن في ظلّ إله غريب ، وآخر
 يقول ... : لضع سنوات خلت ، كنّا نظنّ أنّ جبران شاعر مُبدع ، ولكنّا
 نعتقد الآن أنّه مهذّم للفضائل الانسانية »^(٣) . وسنة ١٩١٣ ، يكون نصيبه
 أيضاً من الشتم والحملات على إبداء « الشاعر » رأيه في موضوعات السياسة ،
 ولأنّه لا يريد أن يكون « جباناً وخالياً من الاخلاص » في معارضته آراء
 قومه^(٤) .

إزاء موقف الوطن -الأمّ- الراض عطاء ابنه له ، المُكر تضحيتة ومحبّته ،
 المعادي أفكاره ، المقاوم آراءه ، كان لا بدّ من أن يشهرّ جبران غضبه عليه .
 لكنّ هذا الغضب لا يستهدف إزاحة مباشرة للحرمان او بلوغاً فورياً للغاية ،
 او تهديماً للذات ، لكنّه نداء ملحاح واجتذاب شديد للأمّ لعلّها تُحقّق رغبات
 ابنها . وبدل أن يكون السخطُ الجهدُ الأكثر يأساً وخيبةً لمساعدة النفس ،
 يُصبح الطلبُ الأشدّ إلحاحاً لاستنصار الآخرين . إنه الاحتجاج الأقوى الذي
 يستحيل التغاضي عنه ، والجهد الأقصى المبذول لخدّث الانتباه . وبهذه الصفة
 يجب النظر اليه ، برأي سوتي ، كاحتجاج ضدّ السلوك الخالي من الحبّ

(١) رسائل جبران ، ص ١٨ . وفي ٢٨ آذار ١٩٠٨ ، يرسل كتاباً إلى أمين القريب يشير فيه إلى
 انتقاد المنفلوطي له في جريدة المّزبد (المصدر السابق ، ص ٢٤) .

(٢) The Letters of K. Gibren and M. Haskell, p. 8. لم يذكر اسم معلمه « في حديثه »
 ولله الخوري يوسف الحداد .

(٣) Ibid., p. 46.

(٤) مذكرات ماري هاسكل لسنة ١٩١٣ . انظر توفيق صايغ : أضواء جديدة على جبران ،
 ص ١١٩ - ١٢٠ .

والثلية ، لا كعلاء يستهدف إيادة الأمّ إيادةً تكون نتائجها وخيمة مشؤومة على الميّد نفسه ^(١) .

لقد صافي وطنه - الأمّ المودة ، فرفضت أمّه محبته وأقصت عنها واثمته بالقذارة ! فليحطّم ، إذا ، مقياسها التي بها نقيسه ، وليهدّم موازينها التي بها تزنّه : « هو متطرف بمبادئه حتى الجنون . هو خيالي يكتب ليُفسد أخلاق الناشئة ... هو فوضويّ كافر مُحاحد ... هذا بعض ما يقوله الناس عني وهم مصيبون ، فأنا متطرف حتى الجنون ، أميل الى الهدم مبلي الى البناء ، وفي قلبي كرهٌ لا يقدرسه الناس وحبٌ لا يأبونه » ولو كان بإمكانني استئصال عوائل البشر وعقائدهم وتقاليدهم لما ترددت دقيقة ^(٢) . ذلك مما قاله في « المخدّرات والمباح » ، وشعر أنّ فيه « الوقاحة الخشنة . ولكن أليست الوقاحة بخشونتها أفضل من الحيانة بنعومتها ؟ » ^(٣) إنّ وطنه - الأمّ خان وداده ، فاذا تمرد الابن على أمّه فلكي يُعيدّها الى جادة الحقّ ، وربط ما انقسم بين قلّين .

لكنّ الإصرار على الرفض قد يؤدي الى بغض الراض ، ولذا فجيران تحوّل من محبة وطنه الى بغضه ، لكنّ كرهه ليس شهوة تهديم لا غاية لها إلاّ ذاتها ، إنّما هو ملامة دائمة تستمدّ كل معناها من التماس الحبّ من المحبوب الراض ^(٤) . « لقد كنتُ أحبكم ، يا بنيّ أمّي ، وقد أضربني الحبّ ولم ينفعكم . واليوم صرتُ أكرهكم ، والكره سبيلٌ لا يحرف غير التفضيل الياسة ولا يهدم سوى المنازل المتداعية » ^(٥) . لقد اتخذ كرهه « لبنيّ أمّه » وسيلة لفضح مقايح قفوسهم وكشّف سبب رفضهم محبته : يريدكم عظماً ، وهم

1. SUTTIE, The Origins of Love and Hate, p. 37, 38. (١)

(٢) المواقف - م . ك . ج . ٣ ، ص ٥٨ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٥٩ .

1. SUTTIE, The Origins of Love and Hate, p. 37, 38. راجع (٤)

(٥) المواقف - م . ك . ج . ١١ ، يا بنيّ أمّي : ص ٤٢ .

يكرهون المجد والعظمة ، ويشألهم كراماً ، وهم يحترقون ذواتهم ، ويودّهم
أصدقاء الآفة ، وهم يعادونهم ^(١) . إن جبران رأى في وطنه امتداداً مضخماً
لأمنه ، فأخلص له الحب ، وأذاب قلبه ليُنشئ روحه المغلفة بالصدأ ، فرفضه
وطنه وأغواه الاستسلام لرقاد الأجيال ، فضج الابنُ وزأر حول أمه اللامبالية
لتستيق من نومها ، لكنّها تهادت في عنادها وغيبها ، فقمّ عليها ، وغالط
فقمته الكثرةُ بقدر ما زاد إعراضها عنه لتلهي بشهواتها والاندفاع في تيار
الحياة الذليلة الثافهة .

ورفضُ عطائه بعثَ الألمَ في نفسه ، فباح بسرّه لمي زيادة قائلاً : « لا ،
لستُ بحاجة الى الأطباء والأدوية ، ولستُ بحاجة الى الراحة والسكون . أنا
بحاجة موجعة الى من يأخذ مني ويخفف عني » ^(٢) . هذا الوضع النفسي المضني
انعكس في مقالته « بين ليل وصباح » ^(٣) ، وبلغ ذروته في « نفسي مثقلة
بأثامها » حيث حوّل كرهه عن وطنه ليُفرغه على نفسه ، بعد أن يش من
استرداد محبة الوطن — الأم وعطفه :

« قسني مثقلة بأثامها فهل في الأرض جاثع يجني ويأكل ويشبع ؟ ... »

(١) المصدر السابق ، ص ٤٤ .

(٢) رسائل جبران ، ص ٩١ .

(٣) الموصف - تم . ك . ج ٣ ، ص ٥٦ - ٥٧ :

وما يقوله فيها : « ثلاث سفينة فكرتي بنفالي الأرض وغرائبها ، وهدت إلى ميناء بلدي قائلاً :
سوف يجيئني قومي ولكن عن جفارة ، وسيدخلوني المدينة منتشين مزمرين ولكن عن
استحقاق .

ولكن لما بلغت الميناء لم يخرج أحد للاقائي ، ودخلت شوارع بلدي فلم يلتفت إلي أحد .
ووقفت في ساحتها ، ملنا الناس ما جلبت لهم من ثمار الأرض وطرائفها ، فكانوا ينظرون إلي
والفضحك ملأ أفواههم والسخرية على وجوههم ، ثم يتحولون عني .
فهدت إلى الميناء كتباً مسترباً ...

لقد جيمت طرائف الأرض وتلفاتها في تاهوت يومٍ على وجه المد ، وهدت إلى قومي
قيلوني لأن عيونهم لا ترى سوى المظاهر الخارجية » .

الأيثني كنتُ شجرة لا تزهّر ولا تثمر ، فألم الخصب أمر من ألم العقم ، وأوجاع ميسور لا يؤخذ منه أشدُّ هولاً من قنوط فقير لا يرزق .

ليثني كنتُ براً جافّة والناس ترمي بي الحجارة فذلك أهون من أن أكون ينبوع ماء حيّ والظامئون يحتاجونني ولا يستقون .

ليثني كنتُ قصبة مرضوضة تدوسها الأقدام فذاك خير من أن أكون قيثارة فضيّة الأوتار في منزل ربّه مبتور الأصابع وأهله طرشان !^(١)

اتسمت غضبة جبران وأمت أشدّ مرارة حتى شملت قسه ، لأنها لم تكن تستهدف القضاء على الوطن - الأم بل الاحتفاظ بمحبته وجذب انتباهه لشخصه كتجسّد لصوت الحق والحياة المذوي في ضميره ؛ فعجز عن تحقيق مراده . ولعلّ هذا السبب من عوامل تحوّلته إلى اللغة الانكليزية يخاطب بها عالماً جديداً . مثلما هو من عوامل انصرافه نهائياً عن العمل السياسي الوطني إلى بناء الإنسان في ذاته وفي كلّ إنسان^(٢) .

ب - أمّ عيلة وابن عطوف : لكنّ موقف جبران الاحتجاجي من وطنه عجز عن ملاشاة عطفته عليه أبام هدته المحن . فالابن البار لا يتقاعس عن نصرة أمه العيلة إذا قدر على تحملها ، مهما تكن مضجعة بحقه ، قاسية . وبلاذم الأم ، ولا سبها جبل لبنان ، كانت بأمس الحاجة إلى عنايته وحلبه ووأزرته ، أفيد عنها فريسة الشلل والعليل ؟ !

بين بواكير رسومه المنشورة في « البدائع والطرائف »^(٣) ، يتوقّفنا وجه امرأة - لعلها أمّ - إذ تشابه ملامحها ملامح كاملة رحمة من جهة ، وتذكّر

(١) المصدر السابق ، ص ١٧٩ .

(٢) سنوضح « النزعة الإنسانية » ، عنده ، في الفصل الأخير من القسم الثاني ، خط الثبات في المراحل الثلاث : اتحاد الممي يسوع الناصري .

(٣) م . ك . ج ٣ ، ص ٢٠٧ . يستحسن مقابلة هذا الرسم بآخر مشابه نظرياً « رسومه العشرين » .

وتجده في كتاب : A. S. OTTO, The Parables of K. Gibran, p. 105 .

بقسمات وجهه من جهة أخرى - أضافها تكاد تطبق ، وشفتاها تنفرجان قليلاً كأنما تُفصّحان من ألمٍ حادّ تغالبه . ونحت الرسم عبارة عميقة الدلالة : « وجه أمّي وجه أمّي » (رسم رقم ٦٢) . وفي « الأجنحة المتكسرة » - وهي ترمي في صياغتها الأولى إلى ما قبل ١٩٠٩ - تذكّره سلمى كرامه الحبيبة - الأم المنكودة الخالصة بأمتة الشقية المهدّبة : « أليست المرأة الضعيفة هي رمز الأمة المظلومة ؟ أليست المرأة المتوجّعة بين ميول نفسها وقبود جسدها هي كالآلة المصدّبة بين حكّامها وكهّانها ؟ » (١) .

لكنّ اهتمام جبران - الأين ببلاده - الأمّ سيتضاعف بين سنة ١٩١١ و ١٩١٩ ، أي عهد تشتدّ التكبّاتُ عليها فترقعها وَهناً وجوعاً وموتاً . وهو يؤكّد أنّه ما كان ليوجة إليها اهتماماً زائفاً لو لم تكن حزيلة مريضة (٢) . قمي ❧ تشرين الأول ١٩١٢ يتضرّع إلى الله : « كيما تتمكّن الأمّ سوريا من فتح عينها الحزيتين والضحيق ، ثانية ، إلى الشمس » (٣) . وسنة ١٩١٩ ، يقول : « لكنّ سوريا ضعيفة ، والأمّ عليلّة أمّ خاصة جداً ، فليس بوسع المرء أن يتركها لمجرّد أنّها عليلّة » (٤) .

وبين بداية المرحلة المشؤومة (١٩١١ - ١٩١٩) ونهايتها ينصرف جبران حقلاً وقلباً إلى موازنة بلاده عبر أدبه وفنّه . فيُبدع رسوماً كثيرة تمثل المحنة ، وتكون خرجاً مكلفاً لألامه ، من بينها عدد تظهر فيه بلاده بصورة أمّ مينة ، وعلى صدرها أو إلى جانبها طفلها ما يزال حيّاً ، كأنما يبحث عن الحياة في الجسم الموات ، أو يذخره فلير القناء فيتشبّث بالبلخّة يحاول نقش الحياة فيها (رسم رقم ٦٣ و ٦٤) . وبينها أيضاً رسم « الحمل المصلّي في قلبه » (٥) :

(١) م . ك . ج . ٢ ص ٥٩ .

(٢) انظر توفيق صايغ : أسود جديدة على جبران ، ص ١٠٩ - ١١١ .

(٣) The Letters of K. Gibran and M. Haskell, p. 211 .

(٤) توفيق صايغ : أسود جديدة على جبران ، ص ١١١ .

(٥) وردت نسيّة جبران لهذا الرسم في : The Letters of K. Gibran and M. Haskell, p. 623 .



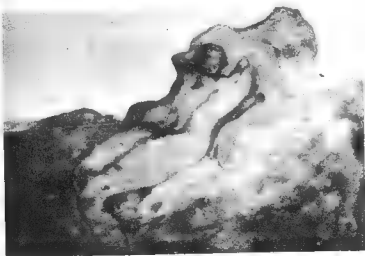
وجه امی وجه امی

(رسم رقم ۶۲)

(رسم رقم ٦٣)



الامة - الام المبرج وظاها الهي



الامة - الام جمدتها الموت وعلى صدرها طفلها الحي (رسم رقم ٦٤)



.. الحمل المصاب في قلبه ..
(رسم رقم ٦٥)

طفل راكم بجانب أمه الحزينة الجاثية، وعيناه عالقتان بالسماء (رسم رقم ٦٥). وقد وضع جبران الرسم الأخير بحكاية سماها «الحرب والأُمم الصغيرة»^(١)، وفيها يقتلُ «سُران» في الفضاء، فوق حمل ونعجة يرحبان، كيما يستأثر كلُّ منهما بالحمل الذي تدعوه أمه ليصلي من أجل أُنموته المجتَهِين المتقاتلين على الله يرسل سلامه إليهما.

وفي سائر أدبه، جسّد جبران حول المجاعة التي نكبتْ بلاده وهدّتْ أعصابه في مقالين: أحدهما «في ظلام الليل»^(٢) يصوّر فيها فجعة بني أمه «الرازيحين تحت كابوس الموت» والثانية «مات أهلي» يرسم فيها مأساة قسه لزاء مأساة أبناء قومه. فالقواصل رُفِعتْ بينه وبينهم، فباتوا يشكون وجه أمه المنكوبة. وإذا الصراع، هذه المرة، ليس بينه وبين بلاده — الأم — بل بينه وبين قسه المنجوعة، بين محو إثبات الذات ومحور الأم! أمه الجريح المنجوعة، بل أمه اللنيحة، كيف يُثبت لها أنه ابن بار، وقد جتّبهها بالتفريق والاحتقار؟!

«مات أحبائي وقد أصبحت حياتي بعدهم بعض مصابي بهم ...»

(١) The Fore-runner, p. 32.

(٢) المواقف - م. ك. ج ٣، ص ٧٣ - ٧٥. ما يقول فيها:

«في المزيغ الأول من الليل يتنادي الطفل أمه قائلا: يا أماء، أنا جائع. فخبية الأم قائلة: اصبر قليلاً يا ولداً».

«وفي المزيغ الثاني يتنادي الطفل أمه، ثانية، قائلا: يا أماء، أنا جائع فأحطني بغيراً فخبية: ليس لدي غير يا ولداً».

«وفي المزيغ الثالث يمر الموت بالأم وطفلها ويصفهما بجنانه فيردان حل جانب الطريق، أما الموت فيظل سائراً عمداً إلى الشفق البعيد».

« مات أهلي أذلّ مية ، وأنا ههنا أعيش في رغد وسلام ، وهذه هي
المأساة المستبّعة على مسرح نفسي .

« لو كنتُ جائعاً بين أهلي الجائعين مُضطهداً بين قومي المضطهدين ،
لكانت الأيام أخفّ وطأة على صدري ، والليالي أقلّ سواداً أمام عيني . لأنّ
من يشارك أهله بالأسى والشدة يشعر بتلك التعزية العلوية التي يولدها الاستشهاد ،
بل يفخر بنفسه لأنه يموت بريئاً مع الأبرياء .

« ولكنني لستُ مع قومي الجائعين . المضطهدين ، السائرين في موكب
الموت نحو مجد الاستشهاد . بل أنا ههنا وراء البحار السبعة أعيش في ظلّ
الطمأنينة وخمول السلامة . أنا ههنا بعيد عن النكبة والمنكوبين ولا أستطيع أن
أفخر بشيء حتى ولا بدموعي ... لو كنتُ سنبلةً من القمح نابتة في تربة
بلادي لكان الطفل الجائع يلتقطني ويُرِبل بحبّاتي يد الموت عن نفسه ...

« ولكن واحرق قلبه ، لستُ بسنبلة من القمح في سهول سوريا ، ولا بثمرّة
بانة في أودية لبنان ، وهذه هي نكبي . هذه نكبي الصامتة التي تجعلني حقيراً
أمام نفسي وأمام أشباح الليل »^(١) .

إنّ موقفه من وطنه - الأمّ يحمله يشعر بالذنب ، بالقلق المُرهق والتضايق ،
فيودّ لو يستطيع التمييز والتكفير . وكأنما يحسّ بأنّ صنيته الأدبيّ التي وحده
يُعتبر نوعاً من الاقتصاد في الجهد ، وفراراً من عالم الواقع إلى عالم الأحلام
والأخيلة ، فإذا هو يقرنه بتضحيات عملية وجهاد مادّي : فينظّم ، سنة
١٩١٦ ، بمعاونة بعض اللبنانيين والسوريين ، « لجنة إغاثة » ، انتخب أميناً
سرياً لها وبذلّ من أجلها الكثير من وقته وراحته^(٢) . كذلك يُكبّ ، في العام

(١) المصدر السابق ، ص ٨٨ - ٩١ .

(٢) رسالة ١١ حزيران ١٩١٦ ، p. 404 - 403. The Letters of K. Gibran and M. Haddad.

انظر كذلك رسالته في ١٤ حزيران و ٢٢ آب من السنة نفسها : Ibid. p. 406, 423.

التالي، بمساعدة بعض المهاجرين، على تنظيم «لجنة التطوع لسوريا وجبل لبنان»^(١). وقد أكتسب الابن المجاهد أعماله الإنقاذية من أجل بلاده - الأم - شعوراً بالرضى والراحة والتجرد^(٢)، بعد أن أمضى زمناً كان يتعذر فيه أن ينام أو يأكل أو يسريخ^(٣).

ذاك كان محور الأم. دليلنا إليه تمثل في إنتاجه بمظاهر صريحة للأومة البشرية تبدت آثارها في أدبه شتاتاً، وتجلت معالمها في رسومه عبر أنماط رئيسة خمسة تمثل الوالدة وطفلها منفردين أو الرضاع أو الاندماج بالأم أو الستور والطفل أو جيران والوالدة معاً. وإذا كان لا بد من علة نفسية دينامية بعيدة وراء هذه المظاهر الأومية الحلية، رقبنا إلى طفولة جبران، واكتشفنا فيها الأصل المحوري الذي تولد من تكوينه النفسي الطفولي ومن الظروف الخاصة التي أرفقته، بحيث كاد يكون محتوماً على الولد الحساس المعاني تسلط والده أن يتعلق بأم له «حضته» طويلاً، وغمرته بحنانها وعزائها وتشجيعها. ومع نموه كانت صورة الأم القدوة تنمو في نفسه. فما أن فارقتة بحسبها حتى كانت قد تسامت في عينيه بمخلّة عقله الواعي واللاواعي.

والأثر الأومي المتواصل في مختلف مراحل حياته وسَمَ موقفه من النساء جميعاً اللواتي تحضهنّ المحبة مع الاحترام، حتى يسوغ القول إن وجه أمه المتسامي أسقط ظلاله على وجوه حلا القاهر وسلطانة ثابت وإميل ميشيل وماري

(١) رسالة ٢٠ نيسان ١٩١٧: *ibid.*, p. 524. وقد فرحت ماري هاسكل بصله، وأنفذت إليه مبلغاً مالياً من مجهودها مساعدة اللجنة. ثم تابعت جمع التبرعات من تلميذاتها، وثابرت على إرسالها إليه، حتى نهاية الحرب. تشهد على ذلك الرسائل المتبادلة بينهما منذ ٢٢ نيسان ١٩١٧، انظر *ibid.*, p. 525.

(٢) رسالة ١١ حزيران ١٩١٦: *ibid.*, p. 484.

(٣) رسالة ٢٦ أيار ١٩١٦: *ibid.*, p. 479. انظر مستند رقم ٤.

هاشكل وماري خوري ومي زيادة وبرياره يانغ اللواتي عرفهن " كأمهات " أكثر مما عرفهن كحبيبات بالمعنى الواقعي ، الأمر الذي جعله في نزاعٍ نفسيّ تجاههن .

وإذ استفام لدينا واقع محور الأمّ في حياته ، انطلاقاً من مظاهره الصريحة في إنتاجه ، عمدنا إلى محاولة تأويل نفسيّ لثموجاته الرمزيّة في أدبه ورسمه ، فإذا هي تتمثّل في إسقاطات لصوّر الأمّ المتسامية المجلّلة بثوب النقاوة والقداسة ، ولالحبيبة الأمّ التي ولدت في عقله الباطن صراعاً بين أن يرضى بينوته وأن يكون القرن فتغويه الثمرة المحرّمة فيصدّ عنها يكويه الشعور بالذنب والندم ، أو يكون النصف المتضمّن لشطير آخر من شعلة روحية مقدّسة يطعن إلى فكرة الوحدة فيها . كذلك تمثّلت في إسقاطات أدبيّة وفنيّة للأُمومة مصدرها اللاوعي الجمعيّ . وتجلّت أهمّ امتداداتها النفسيّة في الأبدية أو الروح الأمّ ، وفي الطبيعة الأمّ ولا سيما بمظهرها الأرض والبحر . مثلما في الوطن الأمّ الذي وقف جبران منه موقف ابن غاضب من أمّ رافضة وموقف ابن عطوف من أمّ علية .

بذلك نكون قد أتممنا القسم الأوّل من البحث وهو « جبران في دراسة تحليليّة » . وأدركنا غايته وهي تقديم تحليل وتأويل نفسيّين أفتيين وعموديين لتجربته الأدبيّة الفنيّة المتمثّلة في عواريّ معاداة السلطة والتعلّق بالأمّ . على ضوء تأثيرات الطفولة . بقي أن نتناول جبران في « دراسة تركيبية » لتوضيح التطوّر المرحلي في إنتاجه على ضوء جهده الإراديّ ومثله الأعلى المعتقد والتأثيرات المختلفة الطارئة في أطوار عمره جميعاً .

Friday May 22, 1916

Beloved Mary. My people, the
people of Mount Lebanon, are passing
through a famine which has been
planned by the Turkish government.
80,000 already died. Thousands are
dying every day. The same thing
that happened in Armenia is
happening in Syria. Mt. Lebanon,
being a Christian country, is suffering
the most.

You can imagine, Mary, what
I am going through just now. I
can not sleep nor eat nor rest.
All the Syrians are being tortured
in the same way. We are trying to
do our best. We must save the
ones we still have. Oh, Mary, it
is too much to bear, too much.

Pray for us, beloved Mary; help
us with your thoughts.

Love from suffering Khalil

(مستند رقم ٤)

رسالة جبران الى ماري هاشم في ٢٦ ايار ١٩١٦

ترجمة المستند رقم ٤

الجمعة ٢٦ أيار ، ١٩١٦

أيتها الحبيبة ماري . إن قومي أهالي جبل لبنان ، يقنون في مجاعة وضعت خططتها الحكومة التركية . ٨٠,٠٠٠ قد ماتوا . وألوف يموتون كل يوم . إن ما حدث في أرمينيا يحدث نفسه اليوم في سوريا . وبما أن جبل لبنان منطقة مسيحية فهو يعاني أوفر نصيب من الآلام .

بوسعك أن تصوّري . يا ماري ، ما أكابده الآن . فاني لا أستطيع أن أنام ولأن أكل ولا أن أسريح . والسوريون جميعاً هنا يقاسون الألم بالطريقة نفسها . إننا نحاول بذل جهنم استطاعتنا . فعلينا أن نُنقذ من لا يزالون أحياء . آه ، يا ماري ، فلك أكثر مما يُطاق أكثر مما يُطاق . صلي من أجلنا . أيتها الحبيبة ماري ، أعينينا بأفكارك .

إليك حب خليل المتألم

القسم الثاني

جبران

في ورلاستهم تركيبية

إنَّ البُورَ والفكرية الوجدانية ليست التي ألمنا إليها في توطئة هذه الدراسة لم نعالج منها في القسم الأول إلا اثنتين هما معاداة السلطة والتعلق بالأم . ولم يكن بوسع التحليل المحوريّ المتخصّص جنود العلة في طفولة جبران أن يمدّنا بتعليل أو تأويل وافين البُور الأخرى التي استقطبت الحُلمَ من خواطر الشاعر وعواطفه وأخيلته ، ومنها التعلّق بالحُبِّ في مرحلة زمنية عقيبتها أخريان استغلَّ بكلِّ منها تباعاً تمجيد القوة ثم الكرازة بالمحبة الشاملة . فاقطابُ الجاذبية هذه لم تسلط فاعليّاتها ، في آن واحد ، على إنتاج جبران وحياته ، وإن امتدَّت ■ ظلالٌ خفيفة متشابكة الآثار في معظم مولداته الأدبية الفنية . وفي حين أن تعلق جبران بالأم كان موصول البقاء طول عمره ، وكذلك حركة إثبات الذات التي كانت عَرَضاً ارتدادياً للشعور باللونية ، نرى واقعه النفسيّ - المنطوي على مُجمل طاقاته الفكرية الوجدانية الموجهة موقفه من مختلف القضايا والقيم - يخضع للتغير المستمر بفعل عوامل داخلية وخارجية شتى . ولذا لم يبق نشاطه الذهني والسلوكي والإبداعي على الوتيرة الواحدة واللون الثابت . وليس من باحث في أدب جبران إلا تنبّه لفروق النظرة والاتجاه والأسلوب بين ما كتب جبران في « عرائس المروج » و « دمعسة

وابتسامه، وما حبر في المواقف، وما دبَّج في النبي. لكن هذا التفاوت لم يحلّل التحليل النفسي الراقي الذي يتناول الإبداع الفني في دراسة متكاملة واصلًا بينه وبين السلوك.

ولزاء هذا التطور المرحلي، نرى خطأ ثابتاً يتنظم أربع ظاهرات تمتد آثارها على إنتاجه كله: اولاً مواقف جبران والنبوة التي نشهداها في معظم مصنّفات ماثلة في الفكر والأسلوب. فقلّما نغتر على حكاية من حكاياته لا يقف فيها خطيباً يتكلّم كمن أعطي له سلطان من فوق، فيندّد ويُعزّي، ويُقرّع ويؤجّج، حتى تأملاته الشعرية لم تخل من ذلك. وهذا الموقف النبوي يتكتف متصاعداً حتى يبلغ أوجه في المرحلة الانكليزية من مؤلفاته؛ فكانت الشعاع الثابت اللون الموصول الديبومة في حزم من الأضواء المتتابعة المشددة ألوانها باستمرار. والظاهرة الثانية هي سيطرة التزعة الإصلاحية على كتاباته كلها، وإن يكن للإصلاح لديه معنى خاص قد لا يوافق عليه كثيرون؛ ولعل هذه التزعة فرع من الأولى، ذلك بأنّ المواقف النبوية تقرن دائماً بحركة إصلاحية. أمّا الثالثة فتمجيد الألم والموت تمجيداً لم نشهد له مثيلاً في الأدب العربي، حتى يسوع القول إنه جعل الألم طريقه الى التسامي، والموت حبيبه المفضل. أمّا الظاهرة الرابعة، وقد تردّ إليها الظاهرات الثلاث السابقة فهي هيئة وجه يسوع الناصري على قسم وافر من أدبه ورسمه بحيث يكوّن بؤرة فكرية وجدانية دينامية مستديمة الأثر في حياته وإنتاجه.

فما سير تطوره المرحلي من جهة، وثباته من جهة أخرى؟ وما معنى ذلك؟ لعل دراسة تركيبية نفسية - تأخذ بعين الاعتبار فعل الارادة الواعية الخلاقة وأثر الخلل الأعلى المعنوي، وتنظر الى النفس البشرية كوحدة ذات قيسم وقوى تراتبية تتأثر بالعوامل الباطنية كما تتأثر بالعوامل الخارجية الطارئة - كفيلة بأن تحلّل الجواب عن السؤال. فكارت هورفي لموضح أن حالة الانسان النفسية لا تُفسّر على ضوء أحداث الطفولة فحسب، بل على ضوء مشكلاته وأوضاعه

الراهنه أيضاً ^(١) . وكارل يونغ لم يكتفِ بطريقة التحليل النفسي ، بل قرنها بالنهج التركيبي الذي يجعل الكائنات والأحداث تُعبّر عن أحوال النفس وتحمل مدلولات رمزية عنها ^(٢) . وشتوكر يفسّر تقلّبات السلوك والإبداع الفني على ضوء تغيّرات التكوين النفسي في تراتب قيمه ^(٣) . وولفرد دايتم يشدّد على أهمية المثل الأعلى في إملاء نوع النظرة والاتجاه على الإنسان ^(٤) . وهادفيلد يُلحّ على خطورة دور الإرادة والمثل الأعلى في تحريك الشخصية وتوجيهها نحو تحقيق ذاتها ^(٥) . فما علينا ، في هذه الحال ، إلاّ الاستفادة من نتائج أبحاثهم ومن دراسات العلماء الآخرين ليتيسّر لنا كشف القناع عن الجوانب الآخر من اللغز الجبراني .

ولنا سنبجل هذا القسم في ثلاثة فصول ، نعالج في أوّلها تطوّر جبران المرحلي ، مستعرضين آثاره الأدبية الفكرية في تربيها التألفي الرمي ، وواقفين عند أبرز وجوه التطوّر فيها ؛ ونحاول في الثاني أن تقدّم تعليلاً وتأويلاً لهذا التحول بمختلف ملامحاته ، ونتناول في الثالث خطأ الثبات في إنتاجه متمثلاً بانحاده الماهي يسوع الناصري ، مبينين امتداداته النفسية وتوجّهاته الرمزية عبر سلوكه وأدبه وفنّه .

(١) انظر D. HUISMAN, *Encyclopédie de la Psychologie*, t I, p. III

(٢) انظر C. G. JUNG, *Psychologie de l'Inconscient*, p. 154, 159

(٣) انظر Dr. A. STOCKER, *De la Psychanalyse à la Psychosynthèse*, p. 75-122

(٤) انظر W. DAIM, *Transvaluation de la Psychanalyse*, p. 129-173

(٥) انظر ج . ١ ، هادفيلد - علم النفس والأخلاق ، ترجمة محمد عبد الحيد أبو المزم ، ص

١٠٤ - ١٣٠ .

الفصل الأول مراحل إنتاج الثلاث

إنّ الدراسة النقيّة التركيبية لا يتيسّر لها تناولُ التطوّر المرحليّ في الإنتاج الإبداعيّ وتبيين مظاهره وعيَلِهِ ، ما لم يهتدِ الباحثُ الى التساوق الزمنيّ لتوليد ذلك الإبداع . والتوليد « هنا ، لا صلة له بتوقيت نشر الأثر الفني الذي قد يتأخّر قليلاً او كثيراً عن زَمَنِ وضعه الفعليّ » ، إلاّ صِلَة السابق باللاحق . ولذا ، كان لا بدّ من محاولة تقصُّر "جاهد الظفر بالبنية" ، فاذا بعدة صحويات تعرّضنا : أولاً ، لم يذكر جبران تاريخ التأليف لأيّ إنتاج أدبيّ ، فكان دليلنا الى زَمَنِ وضعه التقريبيّ إمّا رسالة يُشار فيها اليه ، وإمّا صحيفة يُنشر فيها قبل إصداره في كتاب ، وإمّا إهداء في أحد المصادر تُساعد على كشف توقيته . ثانياً ، بعض مؤلفاته ، وعلى الأخصّ « دمعّة وابسامة » و « المواصف » و « المجنون » نُشرت مقالاتُ كلٍّ منها أو ألُفَتَتْ تبعاً ، صحابة عدّة سنوات ، وتشتّتت مواطنُ نشرها ، وضاعت معظم أصولها ، فكان متعذراً وضعُ جدول زمنيّ يحدّد تواريخ صدورها ، وبالأحرى تأليفها ، فآثَرْنَا ، والحال هذه ، تعيين عامّي البداية والنهاية للمصنّف وما خرج عنهما ألعتا اليه . ثالثاً ، كتاب « آفة الأرض » وُضِعَ في زمنين يفصلُ بينهما بونٌ شاسع ، فكان لا بدّ من مراعاة هذه المناحية في دراسة

التكوين النفسي المرحلي الجبراني والعوامل التي وراعه . رابعاً ، كثير من رسومه لم توضع عليها تواريخ ابتداعها ، فتوجب ، في هذه الحال ، أحد أمرين : إما إضفال الرسم المهمل للتاريخ ، خوف المجازفة باحلاله في غير زمنه ، وإما الاستدلال على تاريخه التقريبي بالعودة الى الأثر الأدبي المقترن به اذا كان ثمة من أثر ، او الى رسم آخر مؤرخ يكاد يتسم بالملامح نفسها . ولما كان عرض رسومه عرضاً زمنياً ، قبل البحث فيها ، لن بعدنا بجلوى ذات بال ، ولن يُخينا عن التكرار ، فقد اكتفينا باستعراض آثاره الأدبية الفكرية ، وأحفلنا رسومه التي اعتمدناها ، في مراحلها الزمنية المختصة .

وفيما يلي آثاره الكتابية مرتبة حسب تسلسلها الزمني التأليفي :

١ - دعة وابشامة - صدرت مجموعة في كتاب سنة ١٩١٤ . لكن قصائدها الثرية نُشرت تبعاً في جريدة « المهاجر » بين ١٩٠٤ و ١٩٠٨ ، إلا اثنتين منها يُلصق جبران ، في إحدى رسائله الى مي زيادة ، الى أنه كتبهما في باريس ، من غير أن يُسميهما ^(١) . وغالب الظن أنهما « يوم مولدي » و « صوت الشاعر » . ويحمل ميخائيل نعيمة تاريخ الأولى في ٦ كانون الأول سنة ١٩٠٨ ، أما الثانية فيردّها الى سنة ١٩١٤ ^(٢) . واذا كان علينا أن نأخذ برأي جبران ، ففي تعيين التاريخين خطأ ، ذلك بأن جبران يحمل ميلاده في ٦ كانون الثاني لا ٦ كانون الأول - وسبقت إشارتنا الى هذا الأمر - ثم لأنه يحدّد زمن كتابة القطعتين بالمدّة التي أمضاها في باريس ، أي بين صيف ١٩٠٨ و ١٩١٠ ^(٣) . ويؤكد جبران في رسالته نفسها الى مي زيادة أن مقالات

(١) انظر « رسائل جبران » ، ص ٤٣ .

(٢) انظر م . ك . ج ٢ - دعة وابشامة ، ص ١٩٣ ، ومقدمة المجموعة ، ص ١٢ .

(٣) يذكر أن جبران بلغ باريس في ١٣ تموز ١٩٠٨ وهو تاريخ أول كتاب أرسله منها الى ماري هاسكل (انظر ١٣ The Letters of M. Haskell and K. Gibran) . أما حروته منها فكانت في أواسط تشرين الأول سنة ١٩١٠ (انظر رسالته الأخيرة الى هاسكل من باريس المروحة في ١٣ تشرين الاول ١٩١٠ . Ibid, p. 51) .

« دعة وابسامة » هي أول شيء كتبه ، ولعلّه يريد القول إنّها أول إنتاج أدبي كتبه ونشره ، إذ إنه يزيد : « ولقد كتبت ونظمت قبل « دعة وابسامة » بين الطفولة والشباب ما يملأ المجلدات الضخمة ، ولكني لم أقترف جريمة نشرها ولم (ولن ؟) أفعل . وما نرجّحه أن تأليف بواكيرها لا يرقى إلى أبعد من سنة ١٩٠٣ ، أي بعد عودته من لبنان إلى بوسطن .

٢ - الموسيقى - نُشر سنة ١٩٠٥ ، لكنّ وضعه قد يعود إلى عام ١٩٠٣^(١) .

٣ - عرائس المروج - يُرجّح أنه نشر سنة ١٩٠٦^(٢) . لكنّ حكاياتها لا بدّ من أن تكون من بواكير تأليفه لخصائصها الأسلوبية والفكرية .

٤ - الأرواح المتسرّدة . صدر سنة ١٩٠٨ . ولا مرية في أنّه وُضع بعد « عرائس المروج » ، لبلوغ الفكر فيه أبداً أعمق ، واكتساب أسلوبه استقامة وبلاغة أقوى^(٣) .

٥ - فلسفة الدين والتدين - ما يزال مخطوطاً محفوظاً في متحفه ببشري . ويرقى مضمونه ومخطّطه العام إلى سنة ١٩٠٧ - ١٩٠٨^(٤) .

٦ - الأجنحة المتكسّرة - صدر سنة ١٩١٢ على الأرجح^(٥) . لكنّه وضع مخطّطه العام وصيغته الأولى سنة ١٩٠٨ ، في الأشهر القليلة التي سبقت

(١) انظر « أوراق لبنانية » ، السنة الرابعة ، العدد ١ كانون الثاني ١٩٥٨ .

(٢) راجع أنطون كرم - محاضرات في جبران ، ص ٨٨ - ٨٩ .

(٣) تزمع بريار ، يانغ (This man from Lebanon, p. 183) أن جبران ألف « الأرواح المتسرّدة » بين ١٩٠١ - ١٩٠٣ ، وأن الكتاب أحرق في بيروت فور نشره . وهذا غير ثابت .

(٤) انظر رسالة جبران إلى أمين القريب في ٢٨ آذار ١٩٠٨ (رسائل جبران ، ص ٢٦) . ويبدو أن جبران لم يسطّح مخطّطه هذه صيغة نهائية ، فبقيت ، في أسلوبها ، دون جميع مؤلفاته المنشورة . ولعلّه استغنى عنها ، فيما بعد ، حينما تضجّت فكرة « النبي » في ذهنه . أما موضوع المحلولة فتشير إليه في الفصل الثالث من هذا القسم .

(٥) راجع أنطون كرم - محاضرات في جبران خليل جبران ، ص ١٠٨ .

رحلته الى باريس ، ثم أعاد كتابته في فرنسا ، مُجرباً بعض التغيير في أسلوبه ، ومُضيفاً اليه فصلين كاملين ^(١) .

٧ - خطاب « الحلقات الذهبية » وهو مخطوط محفوظ في متحفه ، وقد وضَعه سنة ١٩١١ ، وبضَع مقالات ذات مرمى سياسي اجتماعي ، لعل أهمها « الى المسلمين من شاعر مسيحي » ^(٢) ، راجع الظن أنها لا تعدو المرحلة الممتدة بين ١٩١١ تاريخ بدء نشاطه السياسي و١٩١٤ تاريخ نشوب الحرب العالمية الأولى .

٨ - المواصل - صدر سنة ١٩٢٠ ^(٣) . لكن قطعهُ ينسب تأليفها بين سنة ١٩٠٨ التي يرمي اليها مقال « يا بني أمي » - وهو من أبكر مقالات الكتاب ، ويشهد على تاريخه منشور صحفي قديم في متحفه - وسنة ١٩١٨ ؛ ذلك بأنّ المصنّف كان جاهزاً للطبع في أوائل ١٩١٩ ، حسبما يبدو من مسودة رسالة الى مي زيادة بومى فيها اليه بقوله انه حيّك من « ضجيج التمرد والعصيان » . (انظر مستند رقم ٥) .

٩ - المجنون - صدر سنة ١٩١٨ . لكن ذكره ورد للمرة الأولى عام ١٩١٢ في حديث بين جبران وهاسكل ^(٤) ؛ ثم توالى الاشارات اليه في السنوات اللاحقة ، ومنها يستتبع أنّ مقالاته قد وُضِعت تباعاً منذ العام المذكور حتى الخامس من شباط ١٩١٨ ^(٥) .

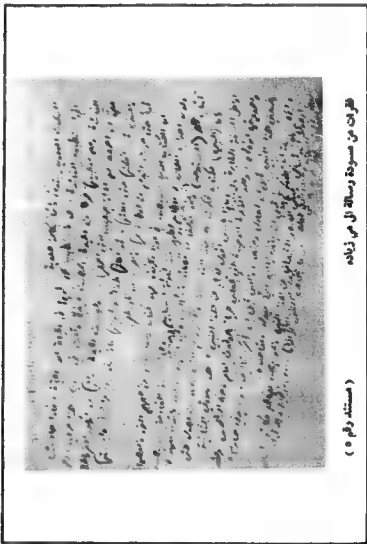
(١) راجع توفيق صايغ - أسنواء جديدة على جبران ، ص ٢٢١-٢٢٢ كذلك رسائل جبران ، ص ٢٦ .

(٢) راجعها في كتاب حبيب مسعود : جبران حياً وميتاً ، ص ٣٧-٣٨ .

(٣) نشرته ادارة « الهلال » في مصر (م . ك . المقدمة ، ص ٣٦-٣٧) .

(٤) انظر توفيق صايغ - أسنواء جديدة على جبران ، ص ٢٢٥ .

(٥) في التاريخ المذكور كتب مقالة « اللغة الأخرى » - ولعلها آخر قطع « المكنون » - وأرسلها الى ماري هاسكل لتنظر فيها ، حسب عادته في كتاباته الانكليزية جميعها . وفي الرسالة المقرونة بالمقالة يخبر ماري أنه يجب أن ينسج في النشور على ناشر الكتاب . وفي ٢٩ أيار يملأها أن كنويث على استعداد لطبع « المجنون » الذي بوشرت ، فضلاً عن طباعته في ٣٠ حزيران . راجع مراحل تأليف الكتاب في رسائله الى هاسكل ذات التاريخ التالية : ١٢ ايلول ١٩١٣ ؛ ١٤ آذار و « ايار ١٩١٥ ؛ ١٠ أيار و ٢ تشرين الأول ١٩١٦ ؛ ٣ و ١٢ كانون الثاني و ١٤ تشرين الأول ١٩١٧ . The Letters of K. Gibran and M. Haskell .



الفرق من مسودة رسالة الى مي زياده

(مستند رقم ٥)

وأعادت النظر في صياغة الأصل حتى التيسر الأصل بالدخيل ، فأصبح يتعدّر
اعتماده كمصدر ثقة في هذا البحث إلا حيث ثبتت صحة النسبة . وقد صدر
سنة ١٩٣٣ (١) .

٢٠ - موت النبي - وهو آخر ما فكّر جبران في كتابته ليُسمّ به ثلثيّة
« النبي » ، وكان يحترم أن يجعل مداره علاقة الانسان بالله . لكنه لم يكتب منه
إلا سطرًا واحدًا لخّص فيه نهاية المصطفى الفاجعة . وهوذا السطر : « وسيعود
المصطفى الى مدينة اورفليس ... فيرجمونه في ساحة المدينة حتى الموت ،
وسيدعو كلّ حجر يُقذف به باسم مبارك » (٢) .

تلك هي مؤكّدات جبران الأدبيّة الفكرية التي وصلنا . امتدّت مسن
١٩٠٣ سنة وفاة أمّه حتى ١٩٣١ سنة وفاته . ولدى التدقيق في الخطّ النفسي
الذي يتّظّمها يتّضح أنه تنوّعها ثلاث مراحل رئيسة متميّزة : المرحلة الأولى
تضمّ ما أنتجه حتى أواسط عام ١٩٠٨ ، مبتدئة ببواكير « دعة وابسامة »
ومتهية « بالأجنحة المتكسرة » ، والمرحلة الثانية تشمل ما أنشأه بعد قصته
ال عاطفية حتى أواسط ١٩١٨ ، مبتدئة ببواكير « العواصف » ومتهية « بالمواكب » ،
أمّا المرحلة الثالثة فتبدأ « بالسابق » وببواكير « النبي » لتُختم بموته متّحدًا « بموت
النبي » . ولحسن الاتفاق ، ترك جبران لنا معالم استدلال على هذه المراحل
الثلاث في بعض أقواله . فهو يصارح ماري هاسكل ، في أواسط ١٩١١ ، أي
قُبيل إصدار « الأجنحة المتكسرة » بأنّ هذا الكتاب يُمثّل ما كان يشعر به قبل
خمس سنين ولم يبق يشعر به آنئذ ، ويُضيف قائلاً : « لا أريد أن أكتب عن
الحب - فانا أميل الآن للصراع ولشحن الأشياء » (٣) . فعل التعديل الذي طرأ
على القصة في باريس ، بقي مضمونها الفكري الوجداني يمثّل حالة جبران
ال نفسية في مرحلته الانتاجيّة الأولى المتّصلة بالحب . علاوة على ذلك فهو يكتب

(١) راجع B. YOUNG, This man from Lebanon, p. 119-124

(٢) ibid., p. 119 راجع

(٣) راجع توفيق صايغ - أصول جديدة على جبران ، ص ٢٢١ - ٢٢٢ .

الى هاسكل في ٨ تشرين الأول ١٩١٣ بشأن تصحيح التجارب الطباعة واللمعة وابتناسمة الذي سيصدر خلال ١٩١٤: «أثمة أمر أدهى الى السأم من تخصص إنتاج ذات ميتة من ذوات الانسان؟ حسن أن يكون المرء حفار قبور جديدة ، لكن لا مفتش قبور قديمة»^(١) . إن جبران يشعر أن «ذاته» قد تبدلت ، بل إن «بعضه» مات ، وذلك يعني أن تكوينه النفسي الفكري الوجداني بعد «الأجنحة المتكسرة» وبالأحرى «دمعة وابتناسمة» وما بينهما قد تغير ، فحلت القوة فيه محل «الحبة» ، وأصبحت تحلي عليه مواقفه ونظراته الجديدة . وقد عاش زهاء عشر سنوات في ملكة القوة ، حتى كان نبشته - الذي مات مجنوناً - اتحد «بمجنونه» ، في عقله الباطن ، مثلما اتحد هو بشخص بطله الجبار الساخر ، فحدثت هاسكل عن هذا التوحد عام ١٩١٤ ، وعن إمكان جنونه عام ١٩١٥^(٢) . لكنه لم يكن يعلم ، آنئذ ، أن ذاتاً أخرى من «فواته» و«سُموت» لتحتل مكانها «ذات» جديدة ، فما أن يصدر «المجنون» ويدخل في عهد «السابق» حتى يعترف لمي زيادة بأن «المجنون» لا يمثل كلية حياته ، لكنه حلقة خشة من سلسلة عمره المختلفة المراحل^(٣) . وفي رسالة الى مي ترقى الى أواسط ١٩١٩ ، يقول جبران بصدد «السابق» : «في السنة القادمة سيصدر كتاب «المستوح» ، وربما دعوته باسم آخر ، وهو مؤلف مسن قصائد وأمثال ، وفيه أنهي من عهد وأبتدى بعهد آخر» . هذا العهد الجديد لا بد من أن يختلف نفسياً عن عهد القوة ، انه عهد «النبي» الذي أدخله الى ملكة المحبة الروحانية الشاملة والذي لم يكن «السابق» غير ظل من ظلاله سبق اكتماله فأخرجه في كتاب . استمعه يقول في الرسالة نفسها: «وماذا أقول لك عن هذا النبي؟ هو ولادتي الثانية ومعموديتي الأولى . وهو الفكرة الوحيدة التي تجعلني حرياً بالوقوف أمام وجه الشمس . ولقد وضعني هذا النبي قبل أن

(١) The Letters of K. Gibran and M. Haskell, p. 276

(٢) انظر توفيق صايغ - أضواء جديدة على جبران ، ص ٢٢٤ - ٢٢٦ .

(٣) رسائل جبران ، ص ٤٢ - ٤٣ ؛ وجيل جبر - مي وجبران ، ص ٢٨ .

أحاول وضعه ، وألغني قبل أن أفكر بتأليفه ، وسبّرني صامتاً وراءه سبعة آلاف فرسخ قبل أن يقف ليُسلّ عليّ مبوله ومقاصده . أرجوك أن تسألني رفيقي المنصر الشفاف عن هذا النبي وهو يقصّ عليك حكاياته ، ^(١) تُرى ، ما عساه يكون هذا المنصر الشفاف الذي كأنما كان داخله يسيرة لاواعياً ، حتى إذا ما حانت الساعة أبرز سلطانه في عقله الواعي ؟ أليكون سبّال الروحانية فيه ، وقد استيقظ بعد هجوع طويل في عقله الباطن ؟

أمّا «آلة الأرض» ، فيسمي «فسيّاً وتاريخيّاً» ، بثلاثيّة الأولين إلى المرحلة الثانية ، ويتسبب تلك الأخير إلى المرحلة الثالثة . وقد يردّ سبب بدء جبران كتابته وعدم إتمامه إلاّ بعد عشر سنوات ونيف - في حين أنه أنجز في المدة الفاصلة بين البداية والنهاية معظم كتبه الانكليزية - إلى أمرين : أولهما أن موضوع القصيدة الكونيّ واسلوبها الملحمي كانا يقتضيان تفضلاً من اللغة الانكليزية وسيطرة عليها أكثر مما تقتضيه أمثال «المجنون» وأقاصيصه . ولذا توجّب التمهّل في إنجازها ريثما يزداد تحكماً بأداة التعبير . وثانيهما أن محتواه ، حسبما سنبيّن ، صورة لواقع جبران النفسيّ في أوج المرحلة الثانية . فما أن يبلغ أواسط ١٩١٨ ، حتى يكون قد تهيّأ فيه انقلاب نفسيّ نذكر عوامله فيما بعد ، وشرع يبلج المرحلة الثالثة حيث يصير انسجامه مع المضمون النفسيّ «آلة الأرض» . فكان لا بدّ ، والحالة هذه ، من إهمال الكتاب حقبة طويلة ، حتى إذا ما كشف أمره لبربارة يافع وراحت تستثيره لاستكمالها ، انبرى يُنته تحت تأثير الدور الجديد .

ولا بدّ من أن يوضّح أن المراحل الثلاث التي تقلّبت فيها نفسيّة جبران واسعة إنتاجيّة ، وبالتالي سلوكه ، لا تعني انفصالاً حاسماً بين دور وآخر ، ذلك بأن الحياة النفسيّة متصلة للديمومة ، على تطوّراتها . ولعلّ برغسون يُلقني

(١) انظر مستد رقم ٥ .

بعض الضوء على هذه الحقيقة إذ يقول : « صحيح أن حياتنا السيكولوجية ملأى بما لا يتوقع . فألف حادث وحادث يبرز كل منها فجأة وكأنه يتصل عما سبقه ، ولا يتصل بما يليه . لكن هذه الحالات الطارئة يبدو تقطع ظهورها على قاع متصل ، عليه ترسم ، وله تدوين حتى الفواصل التي تفرقها : إنها نقرات الدف التي تسمع من حين إلى حين في السمفونية . وإنما يركز عليها انتباهنا لأنها تجتذبه أكثر من سواها ، غير أن كلاً منها تحمله الكتلة السبالة لحياتنا النفسية بأسرها . وكل منها ليس سوى أكثر النقاط إضاءة في منطقة متحركة تشمل مجمل ما نحس وتفكر فيه ونريده ، بل مجمل ما يتطوي عليه كياننا في لحظة معينة » (١) . وعلى هذا الضوء ينبغي أن يفهم أن حب المرأة هو اللون الأبرز الذي صبغ موقفه ونظرته في الدور الأول ، ومثله القوة في الدور الثاني ، والمحبة الروحية الشاملة في الدور الثالث . فهذه العناصر الثلاثة تلازمت في نفسه واستمرت وجودها ، لكن على تفاوت في الضعف والقوة حسب المراحل ؛ أضيف إلى ذلك أن هيمنة عنصر على آخر لا يعني موت هذا ، لكن تضال فعله وتقلص سلطانه . وبيان ذلك وتعليقه تتناولهما في الفصل اللاحق . فكيف تجلّت المظاهر المهيمنة على إنتاجه في كل من المراحل الثلاث ؟

أ - مرحلة الحب

نظرة إلى مؤلفات جبران بين ١٩٠٣ و ١٩٠٨ تُرينا أن الحب - ونعني به التجاذب العاطفي بين الرجل والمرأة - كان فيه عهدئذ السيد الأقوى الذي طبع بمخامته جل مواقفه ونظراته . فهو مدارُ الكثير من قِطع دمعته باسمه (٢) ،

(١) H. BERGSON, L'évolution créatrice, p. 42-43

(٢) راجع خاصة حياة الحب ، ، حكاية ، ، بنات البحر ، ، ابتسامة وسمعة ، ، الجمال ، ، بين الخرائب ، ، حكاية صديق ، ، ملكة الخيال ، ، مناجاة ، ، الرفيقة ، ، اللقاء ، ، مخبآت الصدور ، ، حديث الحب ، ، السلام ، ، الطفل يسر والحب الطفل ، ، مناجاة أرواح ، ، رجوع الحبيب ، ، أغاني .

وأفهامه عابقة في « ألحان الموسيقى » ، وهو يُعَلِّقُ في « عرائس المروج » بوجهيه الحزين والسميد عبر « رماد الأجيال والنار الخالدة » ، وبوجهه المُذَلَّ المستغفل عبر « مرثا البانية » . كذلك فالحبُّ يشكل الموضوع الرئيس « لوردة الهاني » و « مضجع العروس » من « الأرواح المتمردة » ، حتى « خليل الكافرة » بواكب الحبُّ في قصته التمرد على الشرائع . وهو يبلغ مداه الأرحب في « الأجنحة المتكسرة » .

زِدْ على ذلك أنك إذا رافقت جبران ، في حرب الحبِّ هذا ، لرأيت في جماعته تكاد تكون دائمة إلى القبلة والعناق ولذا آذات الحسَّ . فهي « ملكة الخيال » تفتح مسارح الأحلام أمامه ، فيرى جوقاً من العذارى القانتات العاريات يصحبه وهنَّ يرتعن ترانيم الحبِّ . وما أن يُقدِّمته إلى مليكتهنَّ حتى توعيه بأن « يبلغ الأفاقي أن جنتها لا يدخلها إلا » من كان على جبهته وسم الحبِّ . وتنتهي الملكة كلامها بأن تجذبه إليها بنظرة سحرية وتقبل شفيعه « المتهيبين » ، قائلةً له : « ومن لا يعترف الأيَّام على مسرح الأحلام كان عبد الأيَّام »^(١) . وفي « حياة الحبِّ » يخاطب جبران الحبيبة المجهولة ، في فصل الشتاء : « اقتربي ! اقتربي مني يا حبيبة نفسي ، فقد خمدت النار ... ضمتني فقد انطفأ السراج ... عاقبتني قبل أن يعاقبني الكرى ... قبليني فالثلج قد تظلب على كل شيء إلا قبلك »^(٢) . وفي « رماد الأجيال والنيران الخالدة » ما أن يتم التعارف الروحي الصامت بين الراعي - الذي قد يكون جبران تهمَّصه تهمَّصاً وجدانياً - والحساء التي أبدعها خياله حتى يمر الجدول مجلوباً بقوة خفية ، ويقرب من العصية ويمسحها ويقبل شفيعها ويقبل عناقها ، فلا تُبدي حراكاً بين ذراعيه « كأنَّ لذة العناق قد انتزعت منها ارادتها ، ورقة الملاسة قد أخذت منها قوامها » . وأسى حكايته بأن « تعانق الحبيبان وشرباً من خمرة القَبَل حتى سَكِرَا » وفام كل منهما ملتصقاً بذرعه الآخر

(١) م . ك . ج ٢ ، قصة ولادة ، ص ١٥٧ - ١٥٩ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٩٨ .

الى أن مال الظل وأيقظتهما حرارة الشمس ^(١) . أتكون وظيفة التعويض النفسي يؤديها الفن لجبران في هذه المرحلة ؟

ولئن يكن الحب ، في هذا الدور ، تشوب روحانيته شهوة الحس الملتطعة ، فالتضحيات التي يحاول الشاعر تنفيذها لا تسلم من اللطحات الخفيفة أيضاً . ففي « مضجع العروس » أراد جبران موقف بطله روحانياً سامياً منسجماً مع خط البطولة العام حسبما يتصوره : فهي ترفض الشرائع لتكريسها سلطة الحب وإنكارها سلطة الروح . لكن تصرف العروس « الروحي » هذا تشوُّبه الأناثية ونزعة خفية للإيذاء ، وهما تظهران في استمجالها الاقتران بكهل غني لا تحبه ، وعدم تحرُّجها من اعتزالها خيانه وسلب الجواهر والثغاس التي وهبها إياها ، لقرار مع حبيبها « حالماً تقاه ، ثم قتل الحبيب » العاصي لإرادتها ! وكأنما منطلق جبران النفسي ، لهذه المرحلة ، جعل سلباً يُقتل ، ثم يُبارك قاتله ، لشعوره بالذنب إذ لم يُلَبِّ نداء الحب . بل لبى نداء الشرف ، والحب « بترله الله على القلب » ، في حين أن الشرف « تسكبه تقاليد البشر في الدماغ » ! غير أن تلبية الحب ، هنا ، كانت مُسَخَّرَةً للآرب القوى الحسنة . وهل يسعنا إلا سماع صوت الحرفان الواقعي من خلال صوت الحب الفني حالماً نتأمل فينفس القبول بين الحبيين في لقاءهما حبيبن ومنازعين ومبتئين : تسأل العروس حبيبها فور لقائه : « لماذا لا تقبلني ؟ » . وبعد تظاهره بجفائه لها محاولاً إبعادها عنه ، تثور انفعالاتها وتصرخ : « من هي التي تتمتع بحبك بعددي وأي قلب يسكر بقبول شفتيك غير قلبي ؟ » وبينما يكون الدم يتزف من صدر سليم ، بعد أن تطلعه ، نسمعه يخاطبها : « قبلي شفتي . قبلي شفتي ... قبلي يا حبيبة نفسي قبل أن يرى الناس جثتي ... قبلي ، قبلي يا ليلي . » وبعد أن تظعن نفسها ويتزف دمه ، تُلقِي « شفتيها على شفتيه الباردتين » ، قائلة له فيما تقول : « ها شفتاي فاقتبل أنفاسي الأخيرة » ^(٢) .

(١) م . ك . ج ١ ، رسائل المروج ، ص ٧٢ و ٧٤ .

(٢) م . ك . ج ١ ، الأرواح المتردة ، ص ١٢٠ - ١٥١ .

و « المجاعة الروحية » التي تُشبعها الجسادية فلاحظها في الجسم من أدب هذه المرحلة ، فهو يحيط الحب بهالة قلبية سرعان ما تلاشيها المتعة الحسية : فهي « حكاية » يهتف جبران ، عبر بطله : « قد عانني الشوق ، أيها الحب ، بمجاعة روحية لن تزول بغير قبيل الحبيب » ، وإذا رأى ابنُ الرزّاع ابنة الأمير متصبّة حباله ، « جثا على ركبتيه مثلما فعل موسى عندما رأى العليقة مشتعلة أمامه » ، لكنّ النشوة المقدّسة ما لبثت أن زالت حالاً « عانفته الصبابة وقبّلت شفّتيه ، وقبّلت حنّيه ... »^(١). وفي قطعة « بين الخرائب » يهتف جبران سليمان الحكيم وحبيبه عيالين يتناحيان ، ويُبدي أنّ الأيام قصّت على جلال ملّ شيداته ، بما فيها هيكل أورشليم ، والأجيال استصغرت حكمته ، ولم يبقَ له سوى دقائق الحبّ التي ولّعا جمالُ محبوبته ونتائج الجمال الذي أحياه حينها^(٢) . فكانت حبّ المرأة معراج الروحانية ، به يصعد إلى الله ويبلغ الأبدية . لقد اكتسب ، عنده « صفة مقدّسة » ، وأصبح جزءاً من الحياة الروحية ، وعاملاً من عوامل يقظة الضمير وتيقّة النفس . يروي لنا « حكاية صديق » كان شهنشاهاً عدوانياً ظالماً أنانياً متكبراً ، فإذا به ، بعد أن استيقظ الحبّ في نفسه ، يتقلب رجلاً وديماً عطوفاً رقيقاً ، يخاطب جبران قائلاً : « إنّ الروح قد حلّت عليّ وقدّسني . الحبّ العظيم قد جعل قلبي مذبحاً طاهراً . هي المرأة يا خطيبي ... تلك التي أخرجت آدم من الجنة بقوة إرادتها وضعفه ، قد أعادتني إلى تلك الجنة بمنوّها وانقيادي »^(٣) . ولذلك أصبحت القبلة والعناق وكلّ متعة تمنحها المرأة منسجمة في رؤية نفسه ، طول هذه المرحلة ، مع الخطّ الروحيّ المنبثق من وضعه النفسي الخاص بهذا الدور . فالقبلة الأولى هي « الرشفة الأولى من كأس ملائمتها الآفة من كوثر الحبّ ... هي مطلع قصيدة الحياة الروحية »^(٤) . والشوق ، يؤلّف من نكتف اللذات سعادة لا يفوقها

(١) م . ج . ٢ ، ص ٩٩ - ١٠٢ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٢٠ - ١٢١ .

(٣) المصدر السابق ، ص ١٢٩ - ١٣١ .

(٤) المصدر السابق ، ص ١٦٦ .

غير سعادة النفس عندما تعانق ربّتها ^(١) . وه الخبز العلوي ، هو خبز عجنته الآلهة بملاوة القُبل ومرارة الدموع ^(٢) . فكان الفروق بين الحسني والروحي الحق امتحت في مفهومه للحب ونظرتة الى الأشياء والقيسم .

ولأن الحب يُشكل ، في هذا الطور ، اتجاه جبران الأقوى ، فانه صيغ مفاهيمه للنضاي والأشياء : فالموت ما أن يرى الجندي ، وعلى جبينه وسم الحب ، حتى ينصرف عنه متقهراً ^(٣) ، ومصر ولبنان يتحولان الى حورية وشاب وسم يتناجيان ويتعانقان ويشربان من كؤوس القبل رحيقاً عاطراً ^(٤) ، ومظاهر الطبيعة ، من موج وشاطئ ، وغيمة وحقل ، ومطر وروضة .. اكتسبت كلها معنى الحب والوصال . يغني الموج :

أنا والشاطئ عاشقان يقرّبهما الموى ويفصلهما الهواء . أجيء من وراء الشفق الأزرق كيما أمزج فضة زبدني بذهب رماله ، وأبرد حرارة قلبه برضائي .

عند الفجر أتلو شرع الفرام على مسامح حبيبي ، فيضمّني الى صدره . وفي المساء أترنم بصلاة الشوق ، فيقبلني .

أنا بلوج جزوع وحبيبي حليف صبر وأليف تجلّد .

يأتي المدّ فأعانق حبيبي ، ويعقبه الجزر فأترامى على أقدامه ...

في سكونة الليل عندما تُعانق المخلوقات طيف الكرى أسهر مترنماً تارة ، متنهّداً أخرى . وبمي ! لقد أظفني السهر ، ولكن أنا مُحبٌ وحقيقة الحب بقطرة ... ^(٥)

(١) المصدر السابق ، ص ١٦٧ .

(٢) ج . د . هـ . ج ٢ ، الأجنحة المتكسرة ، ص ٢٨ .

(٣) ج . د . م . ج ٢ ، دسة وابسلة ، ص ١٨٩ - ١٩٠ .

(٤) المصدر السابق ، ص ١٧١ - ١٧٢ .

(٥) المصدر السابق ، ص ٢٢٠ .

ويضئ المطر :

« ... النجمة والحقلُ عاشقان وأنا بينهما رسول مسعف ، أنهل فأبرد
خليل هذا وأشفي علة تلك ... »

أصمد من قلب البحيرة وأسير على أجنحة الأثير ، حتى اذا ما رأيتُ
روضة جميلة سقطتُ وقبكتُ نفور أزارها وعاققتُ أغصانها ...

أنا تنهدة البحر ، أنا دمة السماء ، أنا ابتسامة الحقل . كذا الحبّ -
تنهدة من بحر العواطف ودمة من سماء التفكير وابتسامة من حقل النفس^(١) .

أمّا رسوم جبران التي أمكنّا كشف تاريخها وردّها الى هذه المرحلة فهي
قليلة جدّاً ، لا سيّما أنّ ما يرقى الى ما قبل عام ١٩٠٥ من صناعته الفنية
التهمة الحريق الذي شبّ في محترف فرد هولند داي سنة ١٩٠٤ حيث كان
جبران يعرض رسومه^(٢) . وفي أيّ حال ثمة ثلاثة رسوم واضحة الدلالة على
هيمنة الحبّ العاطفي الحسيّ على هذا الدور : الأول (رقم ٦٦) يعود الى سنة
١٩٠٥ ، وهو يمثل الأرض بأنثى عارية ، ضخمة الجثة ، متهدّلة الثديين ،
ذات وجه صارم كتيب ، وفوقها يعبر سربّ من الحمام البيضاء ، لعلّها
ومتصّات الروحانية تُطلّ من مضامات تلك المرحلة ، من غير أن تبحث العزاء
في الوجه القاتم الحزين . والثاني رقم (٦٧) يرقى الى عام ١٩٠٦ ، وتمثّل
في خلفيته امرأة عظيمة البنية تراها جالسة في اتكاء واستراحة وراء بضع
أشجار ، حتى كأنّها اتحدت بالطبيعة نفسها ، وفي أمامية الرسم تبرز
أنثى تكشف الثوب عن جسدها العاري رافعة يديها في حركة راقصة ، بينما
يجلس على يمينها فتى ينفخ لها في الناي ، ولعله إله الحبّ ، ويظهر عن يسارها
ولدان يلعبان . ولا بأس من الإللاع ، هنا ، الى احتمال احتواء الرسمين إسقاطاً

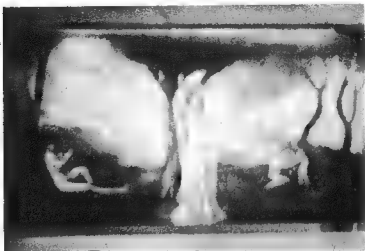
(١) المصدر السابق ، ص ٢٢١ .

(انظر : B. YOUNG, This man from Lebanon, p. 185 ؛ كذلك :

The Letters of K. Gibran and M. Haskell, p. 3.



الأرض أنثى حزينة - ١٩٠٥ - (رسم رقم ٦٦)



الحب في كنف الطبيعة - الأم - ١٩٠٦ - (رسم رقم ٦٧)



(رسم رقم ٦٨)

المغرا، الانوثة الصارخة - ١٩٠٨ -

ومزيًا من اللاوعي الجمعيّ لنموذج بدائيّ رئيس للأزمة الطليعية مصبوغة بلون الحبّ في هذا الدور . أمّا الثالث (رقم ٦٨) فيرقى الى عام ١٩٠٨ ، وهو يمثل حسنة ذات أنوثة صارخة وإغراء ساحر : فشرها تموج على ارتفاع قليل كأنّ الهواء يلاعبه ، وعريّ صدرها فتحجبت يديها ، وأطبقت جفنيها إطباقاً يشفّ عن متعة شهوانية أكثر ممّا عن حنان . ذلك على كون الحسنة تُذكرُ قسائنها بوجه أمّه . وتجلدُ الإشارة الى أنّ هذه النماذج لن نرى ملاحظتها تتكرّر في معظم الأجساد الأتوية التي سيرسمها جبران فيما بعد ، فظهر ضبابية شفافة كأنّها قد تخلّصت عن تراثيتها لتصبح رموزاً روحية .

تلك كانت التزعة المرحلية المهمة على الدور الإنتاجي الأول : حبّ المرأة ذو قاعدة حسية مكينة وطموح روحانيّ لم يستمّ تقامه . امتدّ نفوذُه على نحو ستّ سنوات ، واستقرّ في عرشه مليكاً مُطاعاً حتى أزاحه انقلابٌ قامت به « إرادة القوة » . لكنّ لا ينبغي عن بالتأني أنّ دور الحبّ هذا شهد أيضاً ومضات قوة تتناولها تليلاً وتأيلاً في ما يأتي من الدراسة .

ب - مرحلة القوة

إذ تستعرض المرحلة التأليفية الثانية البائدة في أواسط عام ١٩٠٨ والمتجهة في أواسط سنة ١٩١٨ ، تبدّى لكّ نزعة الى القوة مهيمنة عليها . وإنك لو اجدتها في تضاعيف كتابات جبران الفكرية السياسية ، مثلما في معظم قطع « العواصف » ، وبعض أمثال « المجنون » ، وموقف « الربّ الثاني » في « آفة الأرض » . ولا يبعد عن هذا الخطّ إلا « المواكب » حيث يبدأ يعلو صوتُ الروح مُهيئاً بجهرا الى هيئة نفسه للدخول مرحلة توازن المتناقضات واتزان الذات والدوران في فلك التاصريّ .

أمّا كتابات جبران السياسية فأبرزها « خطاب الحفلات الذهبية » الذي ألقاه في اجتماع تأسيسها سنة ١٩١١ ، فدعا مواطنيه الى عدم الانخضاع بنشر للتمتور العثماني لأنّ الأتراك ما زالوا يستهفون حكم العرب والتاطقين بالعربية

حكماً استبدادياً ، وحشهم على نيل عادات آبائهم في الوثوق بحماية الدول الأجنبية لهم أو في الائتكال على حكوماتهم المحلية ، لأنّ الدولة ليست سوى جيفة تنهت ، بل عليهم الاعتماد على أنفسهم فقط . ولذا كان لا بدّ من أن يُنشئ جبران لهم حزباً اجتماعياً ذا تنظيم سرّي يوحد بلادهم ويصلح نفوسهم بتحريرها من التقاليد والعبوديات ^(١) . ولكن يبدو أنّ حياة حزبه لم تُجاوز يوم تأسيسه ، وقد أُلغيت إلى الأمر سابقاً . ويصرّح جبران بكرهه وعداوته للدولة العثمانية في مقاله « إلى المسلمين من شاعر مسيحي » ^(٢) حيث يحرّضهم على الثورة بها ، خاتماً كلامه بقوله :

« خلّوها يا مسلمون ، كلمة من مسيحي أسكن يسوع » في شطر من حشاشته و « محمداً » في الشطر الآخر !

إن لم يتغلّب الاسلام على الدولة العثمانية ، فسوف تتغلّب أمم الإفرنج على الاسلام ...

إن لم يقم فيكم من ينصر الاسلام على عدوّه الداخلي فلا يتقضي هذا الجبل إلاّ والشرق في قبضة ذوي الوجوه البانحة والعيون الزرقاء ... »

ولا شكّ في أنّ انتفاضات القوّة الأعنف تشهدنا في كتاباته الأدبية ، ولا سيّما « المواقف » ، حيث يُسقط خياله الأدبي ذاته المستيقظة فيها القوّة عبر عدّة صور : فتمثّل ، أولاً ، « بشبح جبار مهيب » يبرز الجبروت في موقفه وصفاته المعنوية والجسميّة . فتأطّراه مشمعان كالسارج ، وصوته يضارع العاصفة ضجيجاً ، وعضلاته مبركوكة كجنود سديانة مشحونة حياة وعزماً ، يخطو فتميد الأرض تحت قدميه ، ويقف فتقف معه مواكب النجوم . إنه إله ! لكن الإله الحقّ من مزاياه المحبة والرحمة والمطاء السخي ، ولذا حشّم واقعه

(١) راجع الخطاب في المخطوط المحفوظ في نسخة . انظر كذلك :

K. HAWI, K. Gibran, p. 154-157

(٢) انظر حبيب سمود : جبران حياً وميتاً ، ص ٣٧ - ٣٨ .

النفسي، في هذه المرحلة، أن يلدّه « إلماً مجنوناً » خلواً من روح الرسوليّة ، همه كله ينحصر في « إرادة قوّة » تُبدع نفسه أفضل . ولذا فهو متمرد على كلّ سلطة بدءاً بالله والآنياء ؛ يهدف على الشمس - ربما لرمزها الى الله أو الوالد - ويسخر بالطبيعة ، وطالما التجأ اليها ملاذاً أومياً روحانياً ، في مرحلته الأولى ، ويبعد ذاته فقط . أمّا الحكمة ، وفيها المحبّة ، فيراها من صفات البشر الواهنين ؛ وأمّا الشعر ، ومداره الحبّ والمرأة والطبيعة ، في دوره السابق ، فيجلده مهنة عقيمة ؛ انه يريد منه أن يُشبع جوعه الى القوّة ، فيتمحور تحقيراً للضعفاء واستهزاء بالمساكين وحفر قبور لهم . ويستكمل لادعويّ جبران صورة القوّة برسم الإطار العجيب حول الشيخ الجبار المجنون . انه « وادي ظلّ الحياة المرصوف بالعظام والجماجم » : « هذه عقله الباطن ، مجال « ظله » المشحون بالكبت والضغط والحرمان ، المأهول « بمواكب الأرواح » الأُمّياح التي تُخرجها هذه المرحلة السوداء من « أوكارها » ، بعد أن كان لا يتمثّل الأرواح إلّا « هابطة » من ملاها الأعلى ! وهو « ضفاف نهر الدماء والدموع المناسب كالحبّة الرقطاء المترافض كأحلام المجرمين » ^(١) : « نهر آلامه النابعة من مأسه ومن شعوره باللونيّة الذي أخذ يتكاثف في بلاد المادّة والمال والقوّة ، حتى تمحوك الى نهر هادر في أعماقه المعتمة » صاحب بالشقاء والحاجة الفرائر والعنف !

واقف جبران النفسي ، في سيادة القوّة ، له صورتان أخريان : أولاهما يمثلها « بولس الصلبان » ^(٢) : فنّان مبدع متألق الاسم ، وعلى غربته واهتماماته الروحيّة وإثارة العطاء الفنّي المجاني ، تراه يزودي الأغنياء والوجهاء ، ويشرب المُسكر ، ويتزع الى الحبّ العاطفي ؛ وبين ملاحه سيماء القوّة : يخاطب مرافقه سليم معوّض بعد أن يتاوله العود : « هذه عصاك ،

(١) م . ك . ج ٣ - المراسف : « حفر القبور » ، ص ٩ - ١٥ .

(٢) المراسف - م . ك . ج ٣ ، ص ١٢٩ - ١٤٣ .

يا موسى ، فحولتها الى أفعى ، ومُرَّها أن تبتلع جميع أفاعي مصر ^(١) ، وإنما « أفاعي مصر » ، هنا ، الأثرياء والأعيان الذين لا يُبصر فيهم . حيسال الفن لغة الأرواح . سوى عيان وطرشان . وطلق بولس يُغثني ليكيدهم ، « ولم يسكت حتى وضع أعداءه تحت موطنه قديمه » ^(٢) . أليس ظلاماً من ظلال المسيح وقد سُخِّرَتْ فيه الطاقة الروحية للمَّارِب الفرد . لتغذية إثبات الذات ، وإثبات نزعة القوة الجاثمة الجاثمة .

أمَّا الصورة الثانية فيمثلها « يوسف الفخري » ^(٣) : مترَهَد متوحَّد في صومعته . مرتجاء البعيد . أن تظهر على سطح الأرض بعد ألف ألف عام طائفة من البشر تحيا بالروح والحق ^(٤) . وهو إنما تنسك بعد أن أياسه تحصيل العزاء من الأناسي . لأنه وجد المدنية ، شجرة مسنة فاسدة قوية هائلة هروقتها في ظلمة الأرض . وأغصانها تتعالى الى ما وراء النجوم . أمَّا أزهارها فمطامع وشُرور وجرائم . وأمَّا أثمارها فويل وشقاء وهموم ^(٥) . ولأنَّ نفسه ستمت ذلك لبناء العظيم المائل المدعو حضارة . ذلك البناء الدقيق الصنع والمهندسة القائم فوق راية من الجماجم البشرية ^(٦) . وما يُحرِّك يوسف الفخري هو البقطة الروحية التي ، هي شعلة من شعلات ضمير الوجود تتأجج فجأة في داخل الروح فتُحرق ما يُجِيط بها من افئسهم وتُصعد سائبة مرفرفة في الفضاء الواسع ^(٧) . بيد أن قواه الروحية لا تستطيع أن تعمل حرّة صافية ، فالقوى الحسية

(١) المصدر السابق ، ص ١٣٦ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٣٧ . وقوله مقتبس من كلام داود النبي على المسيح : « قال الرب لسيدي اجلس عن يميني حتى أجعل أعدائك موطناً لقدميك » (المزمور ١٠٩ : ١) .

(٣) المصدر السابق : « المناصفة » ، ص ١٠٠ - ١١٤ .

(٤) المصدر السابق ، ص ١٠٩ .

(٥) المصدر السابق ، ص ١٠٩ .

(٦) المصدر السابق ، ص ١٠٧ .

(٧) المصدر السابق ، ص ١١١ .

وأغراضها ومنازعها تصبغها . فيوسف لم يتسكّ ليقرب أكثر الى الله ، أو
 لينمكّن من قهر شهواته الجسدية ونزواته الفريزية ، قهر الجسد رغائبه
 مسألة لا مكان لها في دينه ، حسبما يقول ^(١) ، ولذلك فالخمر والتبغ والقهوة
 الى جانب الطعام موفورة لديه ، ولا يستغرب تصرفه « في رأيه ، إلا » الذين
 يتوهمون أن البعد عن البشر يستوجب البعد عن الحياة وما في الحياة من
 الملذّات الطبيعية والمسرات البسيطة ^(٢) . فهو ، إذن ، لم يطلب
 « الوحدة للصلاة والتقصّف بل طلبها هارباً من الناس وشرائعهم وتعاليمهم
 وتقاليدهم وأفكارهم وضجّتهم وعويلهم » ^(٣) . إنها الوحدة المتمرّدة ، المزيج
 من الناصريّ ونيثشه . فيوسف النخري فيه الرأفة والحشوة معاً ، لكنّ جلّ
 موافقه وآرائه تهيمن القوّة عليها . إسمع بعض ما تقوله ذات جبران «النخريّة»
 النيثشويّة لذات جبران القديمة :

« - إنّ العاصفة لا تأكل اللحوم الحامضة ، فلم تخافها وتهرب منها ؟ » ^(٤)

« - لو مضغتك العاصفة لقمة لحصلت على شرف لا تستحقّه » ^(٥) .

« - حينئذ لو كسرت للعواصف أجنحة البشر وهشمت رؤوسهم .

ولكنّ الانسان مطبوع على الخوف والحباثة ، فهو لا يرى العاصفة مستيقظة
 حتى يخنيء في شقوق الأرض ومفاورها » ^(٦) .

« - أنا ذاهب لتجول في العاصفة ، وهي عادة آتت بلذتها في الخريف

(١) المصدر السابق ، ص ١٠٦ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٠٥ .

(٣) المصدر السابق ، ص ١٠٦ .

(٤) المصدر السابق ، ص ١٠٢ .

(٥) المصدر السابق نفسه .

(٦) المصدر السابق ، ص ١٠٣ .



(رسم رقم ٦٩)

السنتور المتجبر - ١٩١٦ -

السنثور
والاجساد المتهاوية
- ١٩١٦ -
(رسم رقم ٧٠)



القدم الساحقة
- ١٩١٢ -
(رسم رقم ٧١)



الاجساد النامية من القبضة الصخرية - ١٩١٦ - (رسم رقم ٧٢)



(رسم رقم ٧٣)

ارادة الصراع في الوجه المنام - ١٩٦٦ -



(رسم رقم ٧٤)

المفكر - ١٩٦٦ -

الراعي - المواكب -
(رسم رقم ٧٥)



القائد - ١٩١٨ -
(رسم رقم ٧٦)

وكانت القوة شمعت كطلود رَسَخ أصله في أرض الحسبة ، وشمخ رأسه في سماء روحانية شابتها المنازع المادية . وستبقى هذه الحال حتى يحل الدور الثالث .

جـ- مرحلة المحبة الروحانية وتوازن المتناقضات :

من يصرخ " كتابات جبران بدءاً من أواسط سنة ١٩١٨ التي شهدت ولادة بواكيره السابق ، و " النبي " لا يسعه إلا الاعتراف بأنه يلجُ إقليماً جديداً من أقاليم النفس الجبرانية ، إقليماً تيمن عليه شريعة المحبة من جهة ، وتوازن فيه المتناقضات من جهة أخرى . ولا ريب في أن لهذا التبدل عوامل حاسمة سببتها في الفصل اللاحق ، وحسبنا في هذا المقام أن نُبرز الميزتين الجديديتين اللتين تسميان تأليف الدور الثالث بما فيها القسم الأخير من " آفة الأرض " (١) .

أما المحبة فمن خصائصها ، في هذه المرحلة ، أنها قية وشاملة . فهي لا تنصرف تصرفاً ثورياً ، ولا تخرجها ردودٌ عكسية ، ولا تعرف عدواً (٢) ، لكنها تشمل الكل بصدورها ، وتمتص الأحقاد (٣) ، وتلتزم الحق (٤) ، حتى التضحية والفداء . يصلي جبران : " اجعلي يا الله فريسة الأسد قبل أن تجعل الأرنب فريسي " (٥) ، ويخاطب المحبة قائلاً : " أيتها المحبة ... لا تأذني للقوي المزوم في أن يأكل الخبز أو يشرب الخمر اللذين يستهويان ذاتي الضعيفة ، فريسي بالأحرى فأفضي جوعاً ، بل دمي قلبي يلهب عطشاً ، واطركني أموت وأفنى ، قبل أن أمدّ يدي لقدح ، لم تملأه أو كأس لم تباركها " (٦) . هذه

(١) سبقت الإشارة إلى أن فكرة الكتاب وصياغة نحو ثلثه تعودان إلى المرحلة الثانية .

(٢) النبي - م . ك . م . ص ٨٥ ؛ راجع كذلك Sand and Foam, p. 36

(٣) راجع The Wanderer, p. 28-29; 60-61

(٤) Sand and Foam, III 29

(٥) Ibid., p. 6

(٦) السابق - م . ك . م . : المحبة ، ص ٩١ .

شكراً^(١) . زدْ إلى ذلك أنَّ المحبة لا تقهر عملاً إلاَّ تجعله مُشعراً ، وتُزيل
التفوارق بين الميَّهن فلا تبقى ، إذ ذاك ، مهنة حقيرة ومهنة شريفة^(٢) .

و « الأنا » المضمورة بالمحبة الروحية لا تهمُّ بتمجيد نفسها ، لكن يبحث
العزاء في اليائسين ومنسحقى القلوب ومدَّ يد النصرة لهم ، لينخلّبوا على
أوضاعهم المنحرفة ، فالطبيب للمرضى لا للأصحاء^(٣) ، ولا تتعلق بالرغاية
لأنَّ الرغاية بتأنُّها حريري الملمس في حين أنَّ قلبها حديدي صلد^(٤) .
ولا يفتنُّها الجمال المادّي ، لكن الجمال الذي يرتفع بالقلب من مصنوعات
الحشب والحجارة إلى الجبل المقدّس^(٥) ، إذ الجمال لديها ليس حاجة غير
مقضية ، أو رغبة يتاق إلى إشباعها . إنّما هو الحياة في وجهها السافر النقي :
وهو النفس في اتزانها الحقيقي ، بل هو الأبدية تنظر إلى ذاتها في مرآة^(٦) .
كذلك فالحب يصفو معناه لديها :

- « فهو ليس سقطة من سقطات الجسد الشهوانية ،
- « ولا حطام رغبة يتساقط أو ان اصطراع الرغبة والذات ،
- « وليس أيضاً جسداً شاعراً سلاحه ضدَّ الروح ،
- « فالحب لا يتمرد^(٧) .

(١) البدائع والطرائف - م . ك . ج ٢ ، ص ٢٠١ .

(٢) النبي - م . ك . م . ص ٩٧ و ٩٨ ؛ راجع أيضاً :

A. STOCKER, De la Psychanalyse à la Psychosynthèse, p. 114

(٣) انظر The Forerunner, p. 27-28

(٤) النبي - م . ك . م . ص ١٠٢ .

(٥) المصدر السابق نفسه .

(٦) المصدر السابق ، ص ١٢٢ ؛ انظر أيضاً « البدائع والطرائف » - م . ك . ج ٣ : « وعظمتي

نفسى » ، ص ١٩٨ .

(٧) The Earth Gods, p. 37 . ولا يشوه مفهومه هذا الحب قوله في « جسمان القصيدة :

« لنظم الحب انساناً صمياً سيد اليوم الآتي » (ibid. p. 41) ، ذلك بأن الحب في هذه

المرحلة ، حل وحه البشري ، تلزمه سمة انسانية تمنع التسلط الجنسية المحدومة .

راجع أيضاً : « The Wanderer : « The Hermit and the Beasts », p. 16-17 ; « Body and Soul », p. 21.

أما الميزة الثانية لهذه المرحلة فهي أن تنازع القوة والحب كاتجاهين باطنيين رئيسين لاقي حلاً حاسماً في وحدة الذات ، ولكن بعد تصديدهما وتجريد الأول من تجبرها وعدائيتها والثاني من شهوته . توازن التقيضين هذا يتمثل في ست شخصيات أبدعها خيال جبران ، في هذا الدور ، ولعلها إسقاط رمزي تمثيلي لواقعه النفسي الجديد :

« فالسابق » يشمل الناس جميعاً بحبته ، على إبدائهم إيائه ، لكنهم يسخرون به مستنهلين انقياد قلبه ومستهزئين بوهن فطته وعثرين بحبه « لأن القوي لا يحب إلا الأقوياء » . فينتلح ، إذ ذاك ، بالقوة الروحية ويكويهم بنار محبة علمهم يخرجون من مصهرها أنقياء . إسمعه يخاطب أرواح النائمين المستيقظة :

« وبعد ذلك أقيتُ بدأً ثقيلة على رضوضكم وجراحكم ، وكما تحصفُ العاصفة في الليل رعدتُ في أذانكم .

« ومن على السطوح قد أذعتكمُ الملائم فرسيين مرانين خداعين ، وفقاعين أرض كاذبة فارغة ...

« كذا شهرتكم بشفتي ، ولكن قلبي ، والدعاء تترف منه ، كان يدعوكم بأرق الأسماء وأحلاها .

« أجل أيها الأصحاب والجيران ، فإن المحبة قد خاطبتكم مسوقة بسياط ذاتها .

« والكبرياء قد رفعت أمامكم متفجرة بفبار خبيثتها مذبوحة بالآلامها .

« وتمطشي لمحبتكم قد ثار ثائره على السطوح .

« ولكن محبي كانت تأسلكم صفحاً وهي راكبة صامتة » .^(١)

(١) السابق - م . ك . م : « البقرة الأخيرة » ، ص ٧٦ - ٧٧ .

لكن " السابق " ، بعد أن يُنهي كلامه ، يستر وجهه يديه ويلوف اللع ساغناً ملوفاً ، لأنه يدرك ، حيثئذ ، " أن " المحبة المحضرة في عريها لأعظم من المحبة التي تشد الظفر في تشترها وتكترها ، ، ويضجل ، آثذ ، من نفسه ، لأنه يشعر أن عجة أعظم من محبته ستُبث من رماده ^(١) . لقد كان السابق ، يشد الكمال الروحي في أرض لا يمكن أن تله .

و " المصطفى " - ولعل " السابق " بشر به وإن عايشه وساكنه في نفس جبران - تطوع المحبة في تمايله ووصاياه مقرونة إلى القوة الروحية في جراءة انتفاضه على المفاهيم القديمة والقيَم الاجتماعية والدينية التقليدية وبُعد مراميه . والمحبة التي يكرزُ بها ليست مائعة ، واهية ، مستلمة ، بل مُكثَنفة بالجبروت الروحي والزعمة المحيية والنار الصاهرة المتقية . إسمعه يقول :

- إذا أشارت المحبة اليكم فاتبوها ،
- وإن كانت مسالكها صعبة متحدرة .
- وإذا ضمتكم بمناحيها فأطيعوها ،
- وإن جرحكم السيف المستور بين ريشها .
- وإذا خاطبتكم المحبة فصدقوها ،
- وإن عطل صوتها أحلامكم ويدّها كما يجمل الريحُ الشماليّة البستان قاعاً صقّصاً .
- لأنه كما أن " المحبة تكللكم ، فهي أيضاً تعلبكم .
- وكما تعمل على تمزقكم ، هكذا تُقلّصكم وتناصلُ القاسد منكم ... ^(٢)
- يسوع ابن الانسان " تأتلف المحبة الثقية والقوة الروحية في شخصيته

(١) المصدر السابق ، ص ٧٨ .

(٢) النبي - م . ك . م . ص ٨٧ - ٨٨ . في الترجمة وتطويعكم بدل "تقلصكم" ولعله خطأ طباعي .

وأقواله اثلاثاً رائعاً ، بحيث يمكن اعتباره أفضل إسقاط رمزي لواقع جيران
النفس في المرحلة الثالثة ، وسنوضح ذلك في الفصل الأخير من هذه الدراسة .

و « الربّ الثاني » من « آلهة الأرض » ، على صلابته وافتتانه بالبأس
والمجد ، لأنّ الحب قلبه ، وأرقّ قساوته في نهاية مطاف التعالي ، فإذا القوة
فيه تترنم بأناشيد المحبة ، فيُخاطب « الربّ الأول » المتطلع إلى عالم آخر
أبسي ، قائلاً :

« ليس في الفضاء مركز

« إلا حيث تُزفُّ ذاتٌ إلى ذات ،

« ويكون الجمال هو الشاهد والكاهن » .^(١)

و « الثالثة » تكون المحبة الجانب الأول من شخصيته ، وقد أبرزها جيران
في فاتحة كتابه : انه رجل فقير يسمح وجهه ألم عميق ، وهو مُحِبٌ بشوش ،
أليف لطيف ، قريب من القلوب ، على العذابات التي كابدها في تسياره^(٢) .
بينما تُشكّل القوة الجانب الآخر : فهو « في خاتمة الكتاب » عملاق يسير بين
أقزام ، بل لا يسير مع الناس في الحقيقة ، لكن فوقهم ، وكلّ ما يوسمهم
أن يروه منه هو آثارُ قديمته في حقولهم القسيحة ؛ أمّا أفكاره فهي أسمى
من أفكارهم وأوفر تحرراً لأنّ هامة أعلى من هامهم سبعين ذراعاً .^(٣)

و « راهي الغم »^(٤) — الأمير المعتزل السياسة — يُحاوِر ملكَ البلاد الغاصب
الحكم حواراً يشتد فيه التجاذب والتنافر ويتفاقم التلاحق حتى يؤدي إلى مبارزة
بينهما يتغلّب فيها الراعي على الملك بتفوق عجيب . ولعلّ الأخير يمثل القوة

The Earth Gods, p. III (١)

The Wanderer, p. 3 (٢)

Ibid., p. 92 (٣)

(٤) راجع التعليق في « جيران خليل جبران » لميخائيل نعيمة ، ص ٢٦٩ - ٢٧٨ .

الحسية المستفحلة المختصة ، بينما يمثل الأول « انا » جبران المثالية في هذا الدور ، وسرُّ خوفه مرده إلى أنه أمير حقّ ، لا غاصب سلطة ، ولأنّه أمير حقّ - أي أمير على نفسه ، على أهوائه وميوله ومجمل ذاته - فإنّ بهارج المجتمع لم تفتته وترعّم الناس لم يفرّه ، فأثّر الاعتزال في الطبيعة يتعمّد قطعياً من التماج ، وعاش في طمأنينة وتواضع وحكمة وقفة بالنفس ، وهو إلى روحانيته في غاية المرأة والشجاعة والبأس ، يثور ناجحاً على أهل القوة والسلطة المزيّفين ، في حين أنّ الملك المتجبر تداخله سوراة الخوف لدى الامتحان والمخرج .

أمّا رسوم جبران التي يمكن ردّها إلى هذه المرحلة فلحسن الحظّ أنّها غير قليلة ، ذلك بأنّ عدداً كبيراً منها كانت تتمخضُ به عبقريته في أثناء وضعه النصوص الانكليزية ، فيجعل الريشة سنداً للقلم في تجسيد رؤاه والإفصاح عن دخائله ، ويكشف تاريخ التأليف نهدي إلى تاريخ الرسم التقريبي ، علماً بأنّ رسوم « آله الأرض » جميعها هي ، في أرجح الظنّ ، وليدة المرحلة الثالثة « لبلوغ الفنّ فيها سوية رفيعة وانسجامها مع خطه النفسي الأخير . وقد لرتأتينا أن نُشير إلى اثني عشر رسماً تتمثل فيها السماتُ النفسية الرئيسة الخاصة بهذا الدور ، ويحسن تقسيمها إلى أربع مجموعات :

المجموعة الأولى تُظهر سعي جبران الجادّ إلى تجاوز « أناه » المادية ، ولا سيما في جانبها الشهويّ التّسويّ بنية الانسجام والتناغم مع ذاته الروحية المثلى . فهي الرسم (رقم ٧٧) يبلو في شديد البأس مُسكّ بقوة ذراعيّ فتاة كأنّ المنحدر الشديد يجلب قتل جسمها المتمدّد ، بينما يشدّها هو مُصعّباً في جبل يكاد يبلغ ذُرَاه ، وقد انعكس النور على جسميهما في حين أنّ معظم الجبل حجبه الظلمة . أيكون رمز لارتفاعه الداخليّ الجاهد حتى مشارف الروح ؟ وفي الرسم (رقم ٧٨) ترى في أوجتّ يده وراه ظهره بوثاق من الاجساد الكثيرة الحية المراسّة بعضها إلى بعض ، فوقف وقفة الملتئب التحجّل أمام ذاته الروحية العظمى وقد تبدّت مشرفة عليه من علّ ،

وعلى وجهها سيماء الكتابة . تُرى أليكون تصميماً على اطراح الشهوة وراء ظهره وحلّ أغلالها باستلهاام الروح ونصرتها ؟ إن نجاح جبران في بلوغه التناغم التام مع ذاته الروحية بمثله في الرسم (رقم ٧٩) حيث يبدو شخصان كأنهما توأمان ، أحدهما يعتلي مرتفعاً صغيراً باسطاً اليدين حائتي الجذع ، والثاني يقف دونه لكن بمواجهته وموازاته باسطاً يديه وقريباً منه حتى يكاد يلتصق به . ولعل إبراز الشخصين متماثلين إلى حدٍّ يوهم أن الواحد ينظر إلى نفسه في المرآة يرمز إلى الارتفاع الجبراني الداخلي بحيث يكاد « الانا » المثالي فيه يتحد بالذات الروحية العلوية من غير أن يتم اندماج فعلي لاستحالة ذلك .

أمّا المجموعة الثانية فتعكس موقف جبران المتصافي من المرأة وقد أسقطه على المتحابين فجعلهما يقفان في نشوة روحية ، ذاهلين عن جسديهما . ففي الرسم (رقم ٨٠) يبدو فتى جالساً على صخرة كأنها تعكس لإرادته الصلبة ، ووراءه الغمام ، ودونه حسناء أدارت له ظهرها من غير صلود ، وأسندت رأسها إلى ركبته اليمنى ملازمةً بكفها ساعده الأيسر ، ومطابقةً ناظرها في نشوة واجدة ، بينما علقت عيناه هو في البعد ، وحطت يده عند أعلى صدرها على تمسٍ رفيع . وفي الرسم (رقم ٨١) وهو المقرون بفصل الحب في كتاب « النبي » ، يتشكّل وسط إطارٍ طبيعي رجلٌ وامرأةٌ في عناقٍ ولا عناقٍ ، فأيديهما حرةٌ غير متشابكة ، وليس بينهما من التماسٍ إلاّ ممسٌ لطيف من كفّ المرأة لصدر الرجل ولمس رفيع من ذراع الرجل لكفّ المرأة ، وكان أرجل الاثنين لا تستقرّ على الأرض إذ ترتفع أقدامهما قليلاً عن سطحها . أليكون في ذلك تمثيل للانجذاب الروحيّ به يقاومان جاذبية المادة ؟ وفي الرسم رقم (٨٢) يبدو متحابان وسط إطارٍ طبيعي فيه صلابة الصخر وحنان الماء ، وقد تباعد جسدهما فلم تتلامس إلاّ يداهما ، وتعاطفت فساهاما فانططف رأساهما الواحد نحو الآخر ، بينما حوّم فوقهما روح الحب متشكلاً في صورة حسناء متلفعة برداء مزخرف فضفاض ، وقد ألقت كتفها عليهما تباركهما .

ولعلّ في الرسمين أيضاً تمثيلاً لقول جبران في فصل « الزواج » من كتاب « النبي » :

- « ليكن في اتصالكم فرجة انفصال ،
- « وليكن هناك مجال لرياح السماء أن ترقص في ما بينكم ...
- « وقفوا معاً من غير أن يلتصق واحدكم بالآخر ،
- « فأعمدة الميكل تتساند ولا تتلاصق » (١) .

أما المجموعة الثالثة فتبرز روحانية « الأنا » الجبراني المثالي مُسقطة في مجالات أخرى . فالرسم (رقم ٨٣) يمثل العطاء الروحي السامي مُجسداً بجسم أنثوي يحتله الجمال النقي والبراءة الأولى : إنها الذات الواهبة نفسها بفرح ودونما خوف أو تردد ، مرفضة ، هكذا ، بالحب إلى أوج ثبله . والرسم (رقم ٨٤) جعله جبران أيضاً رالياً لمعنى الصلاة في قوله :

- « وما عسى الصلاة أن تكون إلاّ تعدّد ذواتكم في الأثير الحيّ ؟ ...
- « وحين تصلّون ترتضون لتلتقوا في القضاء أولئك الذين يصلّون في تلك الساعة والذين لا يمكنكم أن تفقوهم إلاّ في الصلاة .
- « ولذا ، لتكنّ زيارتكم للـميكـل غير المنظور مجرّدة عن كلّ غاية إلاّ النشوة الروحية وحلاوة الألفة » (٢) .

والرسم يمثل ثلاثة أجساد طرحي على الأرض في أوضاع مختلفة ، تعلوها ثلاثة أخرى أكثر إشراقاً وانسجماً ، ولعلّها الذوات الروحية انطلقت من أفضاسها المادية لتتلاقى في « الأثير الحيّ » . والرسم (رقم ٨٥) تطالع فيه الذات الروحية البالغة الشفافية والطفافة وقد طرحت عنها الأدران الرابية وحلقت ثوابكِبُ الغمام .

(١) النبي - ترجمة نعيم ، ص ٢٥ و ٢٦
(٢) The Prophet, p. 64

أما المجموعة الرابعة فتبرز توازن المتناقضات في هذه المرحلة . فالحب والقوة بعد أن كانا على انفصال وتنافر ، بصورة عامة ، في الدورين السابقين ، أصبحا متلازمين مؤتلفين عبر جوهرهما الروحي . فالفرس الاسطورية (الستور) رمز القوة الحسية والطاقة الغريزية ، بعد أن كانت تلوس أجساد الضحايا المتهاوية في الدور السابق ، تراها في الرسم (رقم ٨٦) وقد لطفت المحبة قسوتها وألانت الرحمة تجبرها ، فتحوّلت إلى أم رؤوم انتصرت فيها النزعة الانسانية الخبيرة على الأنانية البهيمة غانمطت على الضحايا تبيهم وتعاقهم . وفي الرسم (رقم ٨٧) يظهر المصهر الكوني المقدس يمين عليه أحد آلهة الأرض يحيط به الضباب ، ووسط الذهب - رمز الحب الكاوي - يرفع برفق رجلاً وامرأة حانياً عليهما . إنه ضمّ نفس إلى نفس في كتف الألوهة القادرة الحادية . وفي الرسم (رقم ٨٨) مشهد كوني يمثّل فيه ربّان من أرباب الأرض يُشرّقان من عليّتهما وفي نظراتهما استطلاع وعطف ولطف . وقد امتدت دونهما يدان إلهيتان جبّارتان فاحتوتا مجموعة من الأجساد البشرية الحية احتواءً رقيقاً وكأنما القصد وضعها إلى مجد الآفة .

تلك كانت النزعة المهمة على المرحلة الانتاجية الثالثة . امتدت من أواسط سنة ١٩١٨ حتى وفاته ، وامتازت بمحبة روحانية شاملة لم تعرف قيوداً ولا سدوداً ، ويتوازن بين المتناقضات تصاق في الحب وتجردت القوة من حسيتها وعدايتها فتلاقيا في تصعيدهما واتحدا في جوهرهما .

وبمراجعة سريعة شاملة لمظاهر الانتاج الجبراني الرئيسة ، أدباً ورسماً ، حسبما عرضناها في هذا الفصل ، يبين لك أن ثلاث مراحل مهمة قد توزعتها : مرحلة اولى تشمل نحو خمس سنوات بدءاً من عام ١٩٠٣ كان قطب الجلاذية فيها حب المرأة ، وهو حب عاطفي كثيراً ما كان في جوع إلى اللذات الحسية ولا سيما القبلية والعناق ، ولذا لم تسلم مواقف أبطاله التي شاءها سامية مثالية وسلمتاً تُبلّغه سماء الروحانية من بعض الشوائب ، بحيث إنّ الفرق بين العاطفي الحسي والروحي التي كاد يضيغ في مفهومه للحب . وقد

صبغت نزعته المهيمته هذه مفاهيمه للأشياء وعصوفاً صورة الطبيعة ، مثلما وسمت جُلَّ رسومه التي برزت فيها المرأة ، بصورة رمزية أو والحية ، على شيء من الشهوة والإغراء . ومرحلة ثانية تشمل نحو عشرة أعوام بدءاً من أواسط سنة ١٩٠٨ كانت نزعته القوة مهيمته عليها سواء في كتاباته السياسية أم الأدبية أم في رسومه . وقد أسقطت « أنه » المتجسرة بمخاضها الجديدة في عدة صور شديدة الإيماء وهي « الاله المجنون » و « بولس الصلبان » و « يوسف الصخري » وجميعهم من أبطال كتاب « العواصف » ، فضلاً عن شخص « الرب الثاني » عبر ثلثي مطافه في « آلهة الأرض » . ولئن كانت نزعته القوة في هذا الدور تحركها يقظة روحية ، فروحانياتها لم تكن صافية ، وهذا الواقع النفسي انعكس على مجمل مفاهيمه للقضايا والكائنات : فالاصلاح والرفق والتفوق ، سواء في الفرد أم المجموع ، أصبحت جميعها منوطة بالقوة ، حتى الأشياء ، كالليل ، والمعاني المجردة ، كالخبرة والموت ، اكتسبت مفاهيم جديدة تصبغها القوة . أما في رسومه فأبرز ما طلعت به هذه المرحلة صورة الستور المتجبر ، وإبراز القوة العضلية في الأجساد . ومرحلة ثالثة تشمل الثلاث عشرة سنة الأخيرة من عمره ، وقد اتسمت بميزتين رئيسيتين : المحبة الروحانية الشاملة وتوازن المتناقضات ، أما المحبة فقد صفت وعمت حتى استهدفت وحدة الأرض ، وافتقرت بالتضحية والعطاء الصحيح ، وشرقت كل عمل ، وعظفت على البؤساء ، وتترهت عن كل نعيم مادي أو جمال محسوس أو شهوة جسدية ، وأما توازن المتناقضات فخير ما مثله ست شخصيات أبدعها جبران فكانت صورة لواقعه النفسي في هذا الدور ، وهي « السابق » و « المصطفى » و « يسوع ابن الانسان » و « الرب الثاني » من « آلهة الأرض » في الثلث الأخير من مطافه ، و « راهي الغم » ، و « التائه » ، وقد جعلها جميعاً تحتوي القوة الروحية والمحبة النقية مؤلفتين في شيء كمال . ولم تكن رسوم هذه المرحلة علينا بشواهدا ، فاستطعنا التمثيل بأربع مجموعات تظهر سعي جبران إلى جذب « أنه » الدنيوية للاندماج بلباته الروحية ، واكتفاه من

المرأة بالنشوة اللاحيية ، مثلما تُبرز خصائص الذات الخيرة واتلاف المحبة والقوة فيها .

تلك كانت التزعات المهمة حل ثلاث مراحل متعاقبة في إنتاج جبران ، ولا ريب في أن وراءها عوامل معينة كانت تختلف باختلاف الأدوار فتأتي النتائج متباينة . ولكن سيطرة تلك التزعات لا تعني انقضاء أي مظهر آخر معاكس أو مغاير لها في الحقيقة نفسها . فالقوة كان لها همسات في المرحلة الأولى ، مثلما كان للحب طفرات في المرحلة الثانية ؛ كذلك قسمة طاقات نفسية مطلومة كان لا بد من أن تُسمع نداءها ، علماً بأن الأدوار الثلاثة انتظمها خطٌ روحاني موصول تمثل في الناصري وامتداداته ، وهو ما يُشكل موضوع الفصل الأخير من هذه الدراسة . وإنما يدل ذلك على تواصل مجرى النفس في ديناميّة يزداد بعض التزعات فيها سطوعاً حسب تطلب سيّلتها الحيوي . فما هي أسباب ذلك التحوّل وما تعليل تلك الظواهر المهمة وتأويلها ؟ وكيف أسمعت القوى المستضعفة أصواتها ؟ ذلك ما ستحاول استجلاءه في الفصل التالي .

(رسم رقم ٧٧)

الجهاد العظيم - ١٩١٩ -

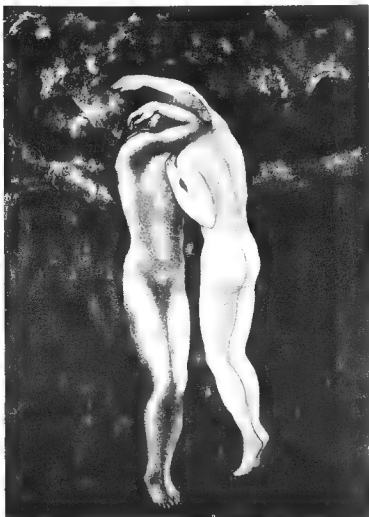




٧٨٠

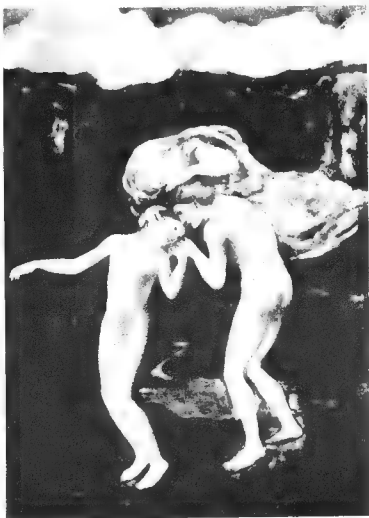
(رسم رقم ٧٨)

.. الانا .. المقيد امام الذات الروحية - ١٩٢٠ -



(رسم رقم ٨١)

الفتاق الروحي - النبي -

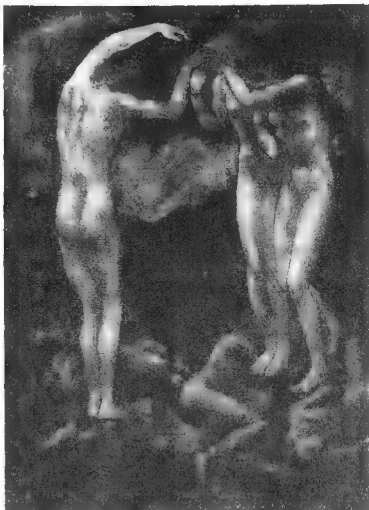


روح الحب يبارك الحبيبين - آلهة الأرض - (رسم رقم ٨٢)



هبة النفس - النبي -

(رسم رقم ٨٣)



الصلاة - النبي -

(رسم رقم ٨٤)



(رسم رقم ٨٥)

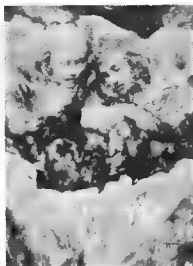
الذات الروحية - ١٩١٩ -



(رسم رقم ٨٦)

السناتور الثاني على الضحايا - ١٩١٩ -

مضهر الحب المقدس
- آلهة الأرض -
(رسم رقم ٨٧)



يبدأ الروح
ترفعان البشر
الى مجد الآلهة
- آلهة الأرض -
(رسم رقم ٨٨)

الفصل الثاني

محاولة تحليل وتأويل نفسيّتين للمرحوم الثلاث

لئن استطعنا أن نُقدِّم تعليلًا وتأويلًا نفسيّين للطاقة المحورية المتمثلة في « معاداة السلطة » وه التعلّق بالأم » باستنطاق طفولة جبران ونَبش ما تَكُونُ فيها من بُؤرٍ شعوريّة ولا شعوريّة، وكَشَفِ الروافد الطارئة التي غَدَتْها، فإنّه يُتاح لنا أن نحاول تقديم تعليل وتأويل لمرحلة الإنتاجيّة الثلاث بما هيمن عليها من نزعات متباينة أو تحلّلها من طفرات ، وذلك بالاستناد إلى واقع جبران النفسيّ الراهن في كلّ من الأدوار الثلاثة .

وواقع الانسان النفسيّ — المتكوّن من حالاته الباطنيّة وميوله وذكرياته ومن مجمل حياته النفسيّة باعتبار أنّها تُؤلّف وحدةً وتُتجلّى لذاتها كوحدة — درجّ العلماء على تسميته « بالشخصية » وهي تسمية سيكولوجيّة معادلة « للنفس » لدى الباحثين في الميتافيزيقا . ^(١) زِدْ إلى ذلك أنّ الانسان ، على كونه فاعلاً بالنسبة للمعرفة والأعمال التي يؤدّيها ، كائنٌ ذو وجودٍ لم يمنحه هو نفسه . فهو ، كالكائنات كافّة ، حائزٌ ، على حدّ تعبير شتوكر ، موضوعيّة باطنيّة تقابل موضوعيّة العالم الخارجيّ التي أعيدَ لمواجهةها .

BURLAUD, Psychologie, p. 437-438. (١)

وهذه الموضوعية الداخلية ، مع احتفاظها بوحدها في جوهرها ، تنطوي على نظام نفسي معين يحتمل ترتيباً قيمياً مدعواً إلى أن يتحقق بموجب مبدأ روحي وحلوي^(١) . وبيان ذلك أن الانسان يتدرج نموه الطبيعي ، زمنياً ، من مرحلة الحسية البيولوجية التي يشارك فيها الحيوان والنبات إلى مرحلة المعرفة الذهنية ، فالمرحلة المحبة والبذل والتضحية التي هي تاج الإنسانية فيه . فأوان يستيقظ الطور الأول في الانسان ، تسلط عليه غرائز الأخذ والتملك والأناية والغضب والافراس والعنوانية والشهوانية ، مما يلاحظ في أدوار الطفولة وربما المراهقة ، او في أوساط الشعوب البدائية . ثم يتنبه طور المعرفة ، فتزدحم الأسئلة في رأسه ويعظم حبه الاستطلاع ، فينتقل ، هكذا ، من عهد لم يكن يحترم فيه ذوات الآخرين وطباع الأشياء وماهيات القضايا ، إلى عهد يسوده احترام كل كيان خارج كيانه . أما الطور الثالث فيستغنى متى استتم تكامل الوجود الانساني غايته . فبرز حينئذ القيم الاجتماعية الخلقية والدينية مجسدة بأعمال العطاء ونكران الذات والمحبة الحق . تلك الأطوار الثلاثة تكون في النفس مراتب ثلاثاً . فبعياً لتطور النمو الانساني . وبصورة معاكسة لتدرجه الزمني ، يرى شتوكر أن الشخصية السليمة هي التي تعهد فيها السلطة الأولى إلى قوى الحب والعطاء الروحية . والثانية إلى قوى المعرفة الذهنية ، والثالثة إلى القوى البيولوجية الحسية . وكل اختلال في هذا الترتيب يعني اغتصاب قوة لمنصب ليس لها في أصالة الطبيعة الصحيحة . وهذا من شأنه أن يعكسك الوحدة النظامية الواجبة التحقق في الانسان . ويبعث القلق والأزمات في شخصيته ، ويولد الأمراض النفسية^(٢) . وطبعي أن تنعكس آثار الواقع النفسي صحيحاً كان أم شاذاً في الإنتاج الفني ، فيبدو ، عل الأقل في بعضه ، مرآة لما تكون عليه النفس من تراتب^(٣) .

(١) A STOCKER, De la Psychanalyse à la Psychoanalyse, p. 76-77.

(٢) Ibid., p. 77-83.

(٣) Ibid., p. 192-231.

وإيضاحاً للأمر ، يحسنُ أنْ نمثِّلَ الراتبَ القيميَّ بدوائر ثلاث متداخلة ، الكبرى تنطوي على الصغرى . وقد آثرنا التمثيل الدائري على التمثيل العمودي الذي اعتمدته شتوكر ، لأننا رأينا التمثيل الدائري ، بما يحوي من إيماء الحركة والاستمرار والتكامل ، أصبحَ رمزاً وأقوى دلالةً على حقيقة النفس الدينامية . كذلك فضلنا أنْ نستعيرَ من تسمية مرتبة « المحبة » ^(١) بتسمية « المرتبة الروحية » ، مستعملينها لا بمعناها الميتافيزيقي ، لكن الأدبي الخُلقي المتضمن فضائل المحبة والعطاء والتضحية وتكران الذات ، ذلك بأنْ التسمية الثانية أكثر استيعاباً لحقيقة المرتبة المعنية من الكلمة الأولى . وسبب هذا الراتب تفوقُ الأكثر على الأقل وإحاطتهُ به . وبما أنه يستحيل تحقيق المحبة دونما معرفة ، ولا بلوغ المعرفة دونما إحساس سابق « كان منطقياً ، في الراتب النفسي الصحيح ، أنْ تحتل المرتبة الروحية الدائرة المحيطة المساوية الأكثر ، والمحبة الدائرة الصغرى المساوية الأقل » ، وما بينهما جسر المعرفة .



الراتب النفسي الصحيح حسب شتوكر

(١) Ibid., 77-78

إزاء هذا التكوين النفسي المعافى الذي تتعايش فيه المراتب الثلاث في نظام يُقيم الاتزان في شخصية الإنسان ، ثمة عدة تكوينات نفسية شاذة . فإذا أشرنا إلى المرتبة الروحية ؛ «أ» وإلى المعرفة ؛ «ب» وإلى الحسية ؛ «ج» ، كان الترتيب النفسي الصحيح : أ . ب . ج . وإزاء خمسة احتمالات لتكوينات منحرفة هي : أ . ج . ب . - ب . أ . ج . - ب . ج . أ . - ج . أ . ب . - ج . ب . أ . ولكل منها أزماته الخاصة وانعكاساته العصائية في السلوك والإنتاج . ويحدث الانحراف وبالتالي الاضطراب النفسي لدى اغتصاب إحدى المراتب منصباً ليس لها ، أصلاً ، بعد استفحالها وتضخم الطاقة فيها . فلتر على ضوء ذلك ما كان واقع جبران النفسي في كلٍ من المراحل الثلاث المتعاقبة .

أ - عهد الاضطراب النفسي

مرحلة الحب : مُتعلّق هذه المرحلة عام ١٩٠٣ . وهذا التاريخ إن عني ، أدبياً ، باكورة إنتاجه المنشور . فانه يعني ، نفسياً ، أكثر من ذلك . ففي ٢٨ حزيران ١٩٠٣ ^(١) ماتت كاملة رحمة ، فكان لا بدّ من أن تُحدث الفجعة هزّةً انفعالية عنيفة في القهقري المتعلّق بأمّه ، وأمثال هذه الحزّات ، حسبما يرى يونغ ، قد تقلب موقفاً حياتياً في الإنسان وتبدّل نمط تفكيره ونظرته إلى الأشياء ^(٢) . وحرى بالبيان أنّ هذه الصدمة سبقتها اثنتان : وفاة أخته سلطنة في ٤ نيسان ١٩٠٢ ، وقد كان يحبّها بحبّة خاصة ، ووفاة أخيه بطرس في ١٢

(١) Ibid., p. 80 . ويجدر التنبيه إلى أن شتوكر يجعل الترتيب الصحيح قائماً في كل نفس ، أصلاً ، بالقوة ، أي في النظام الجوهرى الأصل للبيئة الإنسانية . لكن أوان يتحقق الوجود البشري ، ضلّياً ، إما أن يكون موافقاً للترتيب الجوهرى الأصل أو غير موافق ؛ علماً بأن كل فرد تختلف طاقاته النفسية (في الحسية والمعرفة والروحية) قوة وضعفاً عما للأخرين (Ibid., p. 77-80) .
(٢) أبو ماضي : « السمر » ، المجلد ٣ ، العدد ٢ (١ أيار ١٩٣١) ، ص ٥٣ . كذلك نعيمه : « جبران خليل جبران » ، ص ٦٤ .

C. G. JUNG, L'homme et ses symboles, p. 76. (٣)

آذار ١٩٠٣^(١). فكانت فجيعته بأمة ثالثة الأتافي والضربة القاصمة التي زلزلت واقعه النفسي بقصفها تجسداً حياً كان محوراً دينامياً يفتدي به ويمزيه ، وقلوة سانية يحتلها ، وسنداً يستعين به ، ومرشداً يستلهم نصائحه . وقد لطف موتها جسمانية محورها وأكسبه روحانية أفضى إذ وحدها بالأبدية ودعجها بالروح الأم ، فكان فعلها الدائم الخبير في شخصيته مفروناً بتأثير الناصري مثله الأهل كافياً لمدّ مرتبه الروحية بشحنات معززة مكنتها من ممارسة حقها الطبيعي واحتلال مركز الصدارة في واقعه النفسي . وذلك يعطل ابتعاده ، في أدبه ورسمه ، حتى في مرحلة سيطرة الحب عن معالجة الموضوعات الجنسية الإباحية ، ونبذه كل صلة بين رجل وامرأة لا يكون أساسها الحب الصادق ، ثم جعله النشوة الروحية والتسامي المذهفين للباشرين لكل تألّف عاطفي ، كما يعطل توجيهه محور « معاداة السلطة » - وإن أشجع حاجته النفسية الى إثبات الذات - توجيهاً يتيح انتصار قيم الحق والخير التي يمثلها الناصري حسبما سنبين في الفصل الأخير .

لكن يبدو أن حاجته النفسية الملحاح الى وجود أمة أوجبت أن يسد الفراغ المادي الذي خلّفته ببديل رمزي لها ، وكان السبيل الأقصر أن يتجه الى المرأة - الأم . ولكن هل استطاع أن يحقق الأمر عملياً ؟ إن إقرار جبران « سنة ١٩١٢ ، بعدم بلوغه طور الرجولة النفسية إلا قبل أربعة أعوام أو خمسة^(٢) يجعلنا نرجح أنه بقي « صبيّاً من الناحية الجسدية » طوال المرحلة الانتاجية الأولى ، وموقفه النفسي هذا هو الذي عزز اتجاه الحب في خياله وفكره وعاطفته ، عبر انتاجه ، كتعويض نفسي عن واقعه المحروم ، حتى أن حب المرأة يصبح في ما أبدعه بين سنة ١٩٠٣ و ١٩٠٨ السبيل المطاع الذي طبع بخاتمه

(١) نعيه: « جبران » ، ص ١٦ ، كذلك مقفلة خيرات الترجمة المراكب The Procession, p. 13, 16 . ويبدو أن سلطنة كانت تشبه جبران خلقاً وخلقاً أكثر من ريانا (انظر رسائل جبران ، ص ١٠) .

(٢) يوميات ماري هسكل لسنة ١٩١٢ . انظر توفيق صليح : أسفواه جديدة على جبران ، ص ١٩ .

موقفه ونظرتة الى الأشياء والكائنات والقضايا طرأ ، ومدّه بدقّ فتّي
 تعويضي من المنعّ الحسّية العاطفيّة التي تتوافر القَبْلُ فيها . وأغلبُ الظنّ أنّ
 نشاط الحبّ فيه ، طول هذه المرحلة ، كاد ينحصر بأحلامه الفنيّة التي جسّدها
 كتابةً ورسمًا ، وقلّما تعدّأها الى الواقع الحيّ ، إذ ليس بين مستنداتنا ما
 يؤكّد قيام أيّة صلة حبّ أو حتى صداقة حميمة بينه وبين أيّة امرأة ، صحابة
 الدور الأوّل ، قبل سنة ١٩٠٨^(١) . وقد اتّضح لنا ، في الفصل السابق ، أنّ
 حبّه في هذا الطور قد اصطبغ بصيغة حسّية واضحة ، وإن استهدف مقاصد
 روحية نبيلة ، حتّى أنّ الفرق بين الحبّ الروحيّ الصافي ، الحبّ العاطفيّ
 الحسّي قد امتحى في مقاييسه ، فاذا الأوّل ، وهو برأي شتوكر ثمرة المرتبة
 الروحية ودرجة تتخطى المعرفة الذهنية في سلّم التراتب النفسي ، يتلبس
 بالحبّ الشهوي الذي هو انفعالات وعواطف تشهرها المرتبة الحسّية^(٢) ،
 فتصبح الأثني ، هكذا ، الجسر الذي يصل الانسان بالله ، وتشوب التضحيات
 التي يريدها بطوليّة نبيلة لطخات من الأكانية والإيذاء . وهيمنة هذه التزعة
 الحيثيّة المشوبة بالحسّية والروحانيّة غير الصافية نجعلنا نميل الى الظنّ أنّ المرتبة
 الحسّية قد استنفدت طاقتها في هذا النور بحيث اغتصبت المترّة الثانية في
 سلّم التراتب النفسي ، مُمَهِّمَةً ، هكذا ، مرتبة المعرفة الى المترّة الثالثة ،
 وهذا ما يعلّل هزال مظاهر المعرفة لديه ، في هذه المرحلة ، حتّى كاد أثرها
 يخفى في أدبه لولا انضافات طفيفة ، ستأتي على ذكرها ، هي أشبه
 باحتجاجات المظلوم واستنثائاته . وبذلك يكون واقع جبران النفسي في الدور
 الأوّل ، على أرجح الظنّ ، وفق النظام التالي : أ . ج . ب .

(١) استعان لنا من مذكرات حاسكل أنّ صداقة جبران لما وليمبلين لم تنوطه قبل سنة ١٩٠٨ .

(٢) راجع : A. STOCKER, De la Psychanalyse à la Psychosynthèse, p. 210-211 .

كذلك : JOACHIM BODAMER, Sexualité, Amour et Nerveux, p. 24-47 .



واضح جبران النفسي المرتبة فيه العدد والذات

هذا الواقع النفسي ، على تقلد المرتبة الروحية فيه الزعامة ، يبقى واقعا منحرفا ، ذلك بأن الحقائق الروحية لا تراها القوى النفسية إلا من خلال موشور الحب . والطاقة الحيوية في الانسان ، حسب يونغ ، تتجه إما اتجاه حب أو اتجاه قوة . وهذا لا يعني أن الاتجاهين لا يتساكنا في النفس ، لكن حيث يهيمن الواحد يضعف الآخر ، ويتخلص للعيش في الظل ، فليس البغض ، سيكولوجيا ، نقيض الحب ، بل « إرادة القوة »^(١) . وفي هذه المرحلة كانت السيطرة للحب ، لكنه الحب الحسي العاطفي التابع من بيولوجية الانسان والمتلطف بروحانية غير نقية ، ذلك بأن الحب الروحي الصافي ، لينقل المحبة ، لم يكن قد حقق التلبة بعد ، في نفس جبران ، فحيث لا اتزان في النظام النفسي لا صفاء في الرؤية والفهم ولا صدق في العمل . فالقيم

(١) راجع : C. G. JUNG, Psychologie de l'Inconscient, p. 71, 92-93, 106.

جميعها يُصَيِّبُهَا ، إذ ذاك ، بعضُ الانحراف ، ورأسُ القِيمِ « المطلق » الذي هو ، حسباً أوضح ولنفرد دابنم ، ضرورة نفسية يستحيل أن يجسأ الانسانُ بلونها ، لأنه قطبُ البُهاذِيَةِ في كلِّ شخصِيَةِ ، ومركزُ الثلاثي والتمكاس لطاقتها النفسية ، فمن مفهومه تستمدُّ الموجودات والحالات والأحداث معانيها وقيَمَها ، والمثلُّ الأعلى يتحدُّ به أو يتخذُ صورةً من صُور وجهه . لكنَّ المطلق الذي يُقيمه الفرد لا يكون دائماً صحيحاً ، أي متديجاً بالكمال ، متحداً بالله ، بل قد يأتي ، أحياناً ، زائفاً ، منحرفاً ، نسبياً ، خاضعاً للتطور ، فيفقدُ ، هكذا ، معنى الإطلاق والدعمومة والثبات ، وحينئذٍ يُصَبِّبُ زَيْغُ الرُؤْيَةِ لا مدِّركات الانسان الباطنية فحسب ، لكنَّ مدِّركات الأشياء الخارجية أيضاً ^(١) . فلنْ يكن الواقعُ النفسي يؤثر في تعيين هويَةِ « المطلق » وخصائصه . فالمطلق المعتق يؤثر في مفاهيم صاحبه وقيمه وأحكامه . فما كان مفهوم « المطلق » لدى جبران في المرحلة الأولى ؟

« المطلق » ، لديه ، كان الله ، بلا ريب ، لكنَّ الله لم يكن في حِسِّه ووعيه روحاً معضاً هو الكمال المهيُّ بعينه ، بل كان « الحب » و « الجمال » كما يتراميان من خلال موشور تمرُّ الصورة فيه بطبقة روحية مترججة ثمَّ طبقة حِسِّية مادية مُكشَّفة ، إنه الحبُّ الذي يتفتح في سماء الروح ويُخَشِّطُ جفونَه في هيكل الجسد ^(٢) . مثلما هو الجمال موصولاً بين جسم الأُنثى والروح ، على الحائرين في سبيل الأديان أن يتخلَّوه ديناً ويتقَّوه ربّاً ^(٣) . والجمالُ للرفيم : « أنا الله أحبي وأميت » ^(٤) ، إنَّ لوحظَ في عين الطفل وفي مظاهر الطبيعة ،

(١) راجع: DAHM, Transvaluation de la Psychanalyse, L'Homme et l'Absolu, p. 128-129.

(٢) يخاطب الحبيب حبيبت : « كفكفي الجمع وتمزي لأننا تعالفتا على دين الحب ... إنَّ الحياة يا حبيبتي ، وهي الله ، تقبل منا هذه التهنيدات وهذه المبروك كبحرٍ عاطر » (ص ١٤٥ و١٤٦)

م . ك . ج . ١٢٠ ١١٢

(٣) المصدر السابق ، ص ١١٦ .

(٤) المصدر السابق ، ص ٢٢٢ .

فجسد المرأة هيكله وله يجب أن يكرّم ، مثلما القلب يُقدّر من الحب على حبها^(١) ، بل المرأة هي الغاية منه ، ما دامت التوبة إليه تستهدف قلوب القلوب من عرشها^(٢) . فدينه ، إذا ، « دين الحب » ، والله هو « بحر المحبة والجمال »^(٣) ، إليه تعود النفس بعد رحلتها لأنها « ابنة الحب والجمال »^(٤) ، ومن الحقيقة المروحة بين « تأثيرات الجمال وأحلام الحب ... تنبثق ألوهية الإنسان »^(٥) . لكن جبران الذي يرى « المستكفين أشقى الناس وأقربهم من المادة »^(٦) ، نجوع نفسه لحب وجمال متأصلين في المادة ، ومع ذلك لا يجد في الأمر مفارقة ، لأنه يبصر من خلال نظام قسري منحرف لا تستقيم فيه الرؤية الذهنية إذ يختلط فيها الروحي بالهسي : فرعشة الجمال المقرونة بالحب التي « كانت مهد نشيد سليمان وموعظة الجبل وثائية ابن القارص »^(٧) كانت أيضاً دليل الحب الذي تجلّى لآدم بحسب حواء فاستعبده ، وابتمس لهيالة فخرّب طروادة^(٨) . وقصارى القول إن المرتبة الروحية لم تستطع ، في هذا الدور ، أن تنعم بحريتها وسلطانها موفورتين ، لأن المرتبة الحسية المتضخمة كانت تُعكّر صفاءها وحكمها ، وتُحاول تسخيرها لخدمتها وتأمين مصلحتها ، وقد ساعدها على استغلالها تفهق مرتبة المعرفة وضحل ماها وغناها . فكيف كان واقع جبران النفسي في الدور الثاني ؟

(١) المصدر السابق ، ص ١١٧ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١١٦ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٩٥ و ١١٢ .

(٤) المصدر السابق ، ص ٩٥ و ٢٢٢ .

(٥) المصدر السابق ، ص ١٨٢ .

(٦) المصدر السابق ، ص ٩٥ .

(٧) المصدر السابق ، ص ١٨٢ .

(٨) المصدر السابق ، ص ٢٢٢ .

مرحلة القوة : يمكن اعتبار هذه المرحلة امتداداً للأولى من حيث نظام النفس الترابي ، إلا أن طاقة جبران الحيوية غيّرت اتجاهها العام من جراء ضغط عدة عوامل ، فاذا سلطان الحب يتقلص ليعيش في الظل ، مُخفياً الساحة لسلطان القوة . فجبران ألقى نفسه وحيداً بلا سند ، بعد موت أمه وأخيه بطرس ، ولعلّ الشعور بالذنب كان يراوده كلما هتّس في نفسه موت شقيقه وهو في حلة الجهاد المريب من أجل إحالة أسرته وتأمين مستقبله ، ولا بدّ من أن يكون الخجل المُضيق قد ساوره طويلاً إذ كان يرى شقيقته مريانا تدأب على العمل المضي بنية تحصيل لقمة العيش لكليهما ^(١) . فكان لا مناصر لفتى الحساس ، إن يشأ إزاحة الكابوس المزدوج عنه ، من الاضطلاع بتبعاته الاجتماعية . فاذا هو يُبادر الى مُصارعة الأحداث ، بُعيد موت والدته ، شاحداً لإرادته ، مُصمماً على كسب المال ، واصلاً نهاره ببليله في الرسم والكتابة ، حتى تستأ له إقامة معرض أولك لرسمه سنة ١٩٠٤ ، وأصدر ثلاثة كتب خلال أربع سنوات فضلاً عن عشرات القطع الأدبية التي نشرها في الصحف . ومع مرور الزمن نشطت حركة إثبات الذات في نفسه نشاطاً عظيماً ، وتبلور « اتجاه القوة » ، حتى اذا ما بلغ الفتى المجاهد أوائل ١٩٠٨ ، وفاتحتّه ماري هاسكل باعتزالها لرساله الى باريس ، أشرقت في كيانه رؤيا مستقبل زاهر مُعزّز عيّد ، فكانت كشمس تطلع على نائم فتستيق في أعماقه « إرادة قوة » صراخية عنيفة تستهدف تحقيق جلال الأعمال . فما اتقاه في « عهد الحب » ، أمسى حلمه الذمعي في « عهد القوة » . ولعلّ الإمامة الأولى الى نقطة المارد المائج في عتبات نفسه وردّت في رسالته الى أمين الغريب بتاريخ ١٢ شباط ١٩٠٨ ، فيها يقول : « لهذه السنة أهمية عظيمة بين مني حياتي لأنها ستكون ، إن شاء الله ، بدء فصل جديد من رواية عمري » ^(٢) . والمعنى

(١) The Procession : G. Khalilak, The life of G. K. Gibran, p. 16-17

(٢) رسائل جبران ، ص ١٢ .

نفسه يكرّره في كتاب لاحق إلى نخلة جبران^(١) . أمّا هويّة « الفصل الجديد » فيُفصّل عنها في رسالة ثانية إلى أمين الغريب ، يُطلن فيها : « كنتُ أرى الحياة من وراء دُمة وابسامة ، أمّا اليوم فصرتُ أراها من وراء أشعة ذهبيّة سحرية تبثّ القوّة في النفس والإقدام في القلب والحركة في الجسد »^(٢) .

« إرادة القوّة » هذه عزّزها عاملان : أوّلُهُما إعلان الدستور الضماني . فممناه لا بدّ من أن يُخلّخل في فكي التمرد والتحرّر زخماً جديداً ، ويضعف جرائه ، ويشجّد همته للنضال ، منبهاً إياه لقاعليّة وإرادة القوّة في الشعوب المحكومة ، وفناذ سلطان القدرة في الدول العظمى^(٣) ، وبين الفرد المُعاني تسلّط والده والشعب المقاسي تصفّ حاكمه صلة حميمة . وثانيهما ، وهو الأجلّ ، استفاقة الصلاق النيتشوي في ذاته ، بعد أن حدّثته عنه صديقه في باريس^(٤) ، فأكبّ يطالع تأليفه حتى غشي الحوريك على أفكاره منه^(٥) . ومنذئذ طفق نيّشه بجملّ في وعيه فسحةً تنداح يوماً إثر يوم ، حتى إذا بلغ عام ١٩١٢ ، أعلن أنّ اليوم الأعظم في عهده الجديد هو اليوم الذي وعى فيه نيّشه أعظم أبنائه القرن التاسع عشر^(٦) .

(١) رسالة ١٥ آذار ١٩٠٨ : يبدي فيها أن سفره إلى باريس سيكون « بدء حياة جديدة » (المصدر السابق ، ص ١٩) .

(٢) رسالة ٢٨ آذار ١٩٠٨ (المصدر السابق ، ص ٢٤ - ٢٥) .

(٣) راجع خطاب « المخلقات الذهبية » المخطوط والمحمّوظ في مخطّطه ، ومقالة « إلى المسلمين من شاعر صيحي » (حبيب سمّود : جبران حياً وميتاً ، ص ٣٧ - ٣٨) .

(٤) إنها أولها فتاة روسية تعرف إليها في العاصمة الفرنسية . (أنظر الحوريك : ذكرواني مع جبران ، ص ٦٩) .

(٥) المرجع السابق ، ص ١٣٧ .

(٦) انظر توفيق صايغ : أسواء جديدة على جبران ، ص ١٧٨ - ١٧٩ ، راجع أيضاً الرسائل ذات التواريخ التالية : ١ و ٦ و ١٠ أيار ١٩١١ و ٢ و ٢٦ حزيران ١٩١٢ في The Letters of K. Gibran and M. Huskell . وقد يكون تعرف مبدأ القوّة عند نيّشه بواسطة إحدى محاضراته في بوسطن ، إلا أنه في حدّ ذاته كان يتّوّل إليه أن فلسفة نيّشه فظيمة وعاطفة كلها (توفيق صايغ : أسواء جديدة على جبران ، ص ١٧٨) .

وإنه لهم إدراكنا أن تبار القوة لم تخلفه في نفس جبران مطالعته وهكذا تكلم زرادشت ، ، فيلسوف القوة كان يحيا ، هاجما ، في عقله الباطن ، منذ حدثته . فهو يصرح بأنه أحب نيتشه منذ عامه الحادي عشر او الثاني عشر^(١) . لقد كان الجبار الألماني « ظله » النفسي ، يلازمه طوال عهد الحب ، قبل أن يكتنه جوهر فكره ، حتى يمكننا - بالاستناد إلى تقرير كارل يونغ أن بولس لم يكن خارج شاول ، بل كان في داخله ، ثم استيقظ^(٢) - أن نقول : هكذا لم يكن نيتشه خارج جبران ، بل كان في أعماقه ، ثم استفاق .

وكان نيتشه « إرادة القوة » في نفس جبران نتائج سريعة : فقد تأكدت رجولته الجنسية في مطلع هذا العهد ، حسب اعترافه ، وأكب على العمل السياسي الاجتماعي ، فأنشأ « الحلقات الذهبية » ، عام ١٩١١ ، يعلم فيها الثقة بالنفس وبفعالية الطاقة الفردية ، وانتقل ، في العام عينه ، الى نيويورك ، معلنا إيمانه مدنية القوة والقدرة وصنيع الإرادة الخلق^(٣) .

ومثلما صُيغ مفهوم « المطلق » بالحب في المرحلة الأولى ، فقد صُيغ بالقوة في هذه المرحلة . فما أن تتلغ نيران الحرب العالمية الأولى حتى يشعر جبران بأنه جزء منها ، ويأنّ الله هو القوة نفسها والقدرة ذاتها ، بل « إنه الحرب مثلما هو الحروب جميعها »^(٤) . فنظام جبران النفسي ما يزال يقتضيه أن يشرك الله والانسان والطبيعة في جسد واحد ، ذلك بأن معرفته الذهنية لا تنضد الى القيم الروحية إلا عبر الكثافة الحسية . فالجسمانية ما برحت الزجاج الذي تتكسر من خلاله وتُخفّض نقاوة الرؤية . لكن الله - الحب والجمال - تحوّل ، بتأثير اتجاه الطاقة الحيوية الجديد ، إلى « الله - القوة » . وكما كان يرى جبران في جسد الأنثى هيكلًا هو يبدع المعراج الذي يبلغنا الله ، أخذ يرى :

(١) المصدر السابق نفسه .

(٢) انظر C. G. JUNG, *Psychologie de l'Inconscient*, p. III

(٣) رسالة ٢٧ نيسان ١٩١١ ، p. 65, *The Letters of K. Gibran and M. Harikol*

(٤) رسالة ١٤ تشرين الاول ١٩١٤ ، p. 373, *Ibid.*

في الحرب ، وفي كل مظهر قوة وصراع ، بداية المراقبة التي تصلنا بالموت .
فالحائق غدا ، ذلك الجبار الذي يُصارع من أجل ذات أقوى جبروتا وأقوى
صفاء ، ذات من الحياة العليا ^(١) . ولأن الطبيعة هي « جسد الله ، شكله » ^(٢) ،
فأفقه بات ينمو بنموها ، من خلال رغبته في أن يصير الإنسان والأرض إليه ^(٣) ،
إذ هو الرغبة العنيفة منحركة ^(٤) . فأفقه ، في نظره ، ليس كائناً كاملاً ، ذلك
بأنه يرى الكمال نقصاً ومحدودية ، مثله مثل المكان والزمان ^(٥) .

نُرى ، أهو ضربٌ من النظرات الحلولية ؟ .. قد يكون للتأثيرات الثقافية
الطارئة دور في نظريته هذه ، لكنّها ، أيضاً ، نظير أفكاره ومواقفه جميعاً ،
تخضع لتأثير واقعته النفسي الذاتي . فجيران المُعاني الشعور بالدونية حيال كل
سلطة ، كان يقاسي ألم الدونية ، في عقله الباطن ، إزاء الله ، أيضاً ، باعتباره
رأس كل سلطة . وإن في مقالة « الله » ^(٦) ما يضيء ذلك : فجيران يهرب
من كل ما لا يؤكد شخصيته حياله . فأفقه يصد عنه ، ما دام يخاطبه
خطاب عبد مسلم أو عابد مدين لسيد ، ذلك بأنه يحتاج الى الله
كمزاء في معضلاته النفسية ، وهذا لا يتمّ عنده ، إلاّ بآليات ذاته ، ولا يتحصّل
إثبات الذات إلاّ في جعله نفسه أمس الله ، وجعله الله غده ، فيصبح الباري ،
هكذا ، شريكه في مستواه ومصيره ، يتنازل عن السلطة ، ماضياً ، ليساويه في
دونيته ، كما يُمنّيه برضه الى سدة السيادة العليا المرتجاة في الغد . يخاطبه
قائلًا : « يا إلهي ، يا غايي وتكملي ، أنا أمسك وأنت غدي . أنا جدّوك
في الأرض ، وأنت زهرتي في السماء ، وكلانا ننمو معاً أمام وجه الشمس » .

Ibid. (١)

(٢) رسالة ٣١ تموز ١٩٠٩ . Ibid., p. 31.

(٣) رسالة ٣٠ كانون الثاني و ١٠ شباط ١٩١٦ . Ibid., p. 465, 467.

(٤) رسالة ١٠ تموز ١٩١٣ . Ibid., p. 270.

(٥) رسالة ٣ كانون الثاني ١٩١٧ . Ibid., p. 309 ؛ وها يبيّن نفسه من مافور والصورفون الذين
يروون الله كالا .

The Madman, p. 9-10. (٦)

أَتَكُونُ الشمس ، تُرى ، هنا ، وأمامها ينمو الانسان والله معاً ، غير رمسز لوالده التسلط المضيء المحرق في عتمة لا وعيه ! بهذا الخطاب وهذا الموقف فقط ، يشعر جبران أن الله عطف عليه وهمس في مسميه كلمات ملؤها الرقة والحلاوة . وكما أثير واقع جبران النفسي في مفهوم المطلق ، فلمطلق تأثيره في النظرة الى القيم والأشياء ، ورأسها مثل جبران الأعلى : الناصري^(١) .

نداء الطاقات النفسية المظلومة : إن اختلال الاتزان في شخصية جبران ، خلال الدورين الأولين ، كان لا يد من أن يحدث فيها نزاعاً على صعيدين : صعيد المرتبة الحسية العاصية المضطحة حيث يتجاذب الحب والقوة ، وصعيد مرتبة المعرفة الذنعية المهضومة حقوقها إذ يفرض المطلق النفسي أن تُسمع صوتها الاحتجاجي . فإرادة القوة وإرادة الحب ، بكل ما تحملان من أدنى وأعلى ، هما لنمو الانسان بمنزلة الطاقين للجل ، والحمية والسدى للتسيج . فالنفس ، برأي يونغ ، ليست من طاقة دون أخرى ، بل من كلتيهما متكوّنة ، وهي ما أنتجت وما ستنتج انطلاقاً منها^(٢) . ولذا فالاتزان يقتضي توافق التقيضين وتعايش الطرفين دونما توتر أو تضخم في القاعدة الحسية ، فيما الظروف العامة تحول دون ذلك ، فحيث يسود الحب تتقهقر القوة ، وحيث تهيمن القوة يتقلص الحب . غير أن الطاقة المحرومة لا تلزم الصمت ، بل تُعلي الصوت مطالبة بحقها ، من حين إلى آخر .

فالملاق التيشوي عاش في نفس جبران منذ صباه ، لكنه كان في الظل ، يحيا ، طوال المرحلة الانتاجية الاولى ، وإنك لتلمس وجوده في انتفاضات جبران الاصلاحية وتمردة عبر أبطال حكاياته ، على ما فيها من مبررة الحب . ولئن انتفض صوت القوة يهدد الانسان في مقالة « المجرم » ، مثمناً إيمانه بأنه « ينتدع ... من المسكين سفاحاً باستمساكه ، ومن ابن السلام قاتلاً »

(١) لهذا هذا التأثير في عرضنا مظاهر القوة المهيمنة في الفصل السابق ؛ أما يسوع الناصري فتفصيل الكلام عليه سيكون في الفصل الإلحق .

(٢) C. G. JUNG, Psychologie de l'Inconscient, p. 71, 92, 106

بساوته ^(١) ، فانه يجتده في « القوة العمياء » حيث « وجد بين ... التكتبات الخفية والرزايا المائلة ألوهية الانسان واقفة كالجبار تسخر بمقااة الأرض وغضب العناصر » ومثل عمود نور متصبية بين غرائب بابل ونيوى وتلمر وبماي وسان فرنيسكو ترتل أنشودة الخلود قائلة : لتأخذ الأرض ماها فلا نهاية لي ^(٢) . هذه الثبرات المائلة المشحونة حزماً وقوة ، على قدرتها ، تبرهن عن حرمان طاقة تحاول إثبات وجودها . ولن يطول الزمن حتى تثبت بانقلاب حُمل عنفاً بقدر ما حُمل ، من قبل ، ظلماً وإجحافاً .

ويتقهقر الحب ليعيش في « الظل » ، لكنه لن يستلم ، فسيبقى يصارع في الخفاء ، بل إن رفضه المزيعة والتقهقر سيُلبثه الى استخدام سلاح القوة لإثبات ذاته في معركة الحب الحسني ، فتتشط علاقات جبران بالنساء « في السنوات الأولى من الدور الثاني ، وتبرز وجوه ماري هاسكل وميشلين ومي زيادة وماري غوري ، حتى اذا ما تملككت « إرادة القوة » نفسه ، لم يبق لإرادة الحب إلا أن تُسمع صوتها عبر سبيل من الرسائل ، وقلة شاردة من المقالات . يقول في باريس ، والقوة تُجهده ، وينتبه تتقدم طلائعه في رأسه : « الحياة ، يا يوسف ، بحاجة الى التبرج والزينة والشعر والحب . ولولا ذلك لملتها الانسان وكرهها ، وأثر عليها الموت » ^(٣) . ثم يستغرب أن يقدم على نشر كتاب « الأجنحة المتكسرة » الذي باتت نظيرته للحياة فيه تُباين نظيرته الراحنة ، ولكن مع ذلك ، يحتذبه « ظله » الذي هجره ، ويضطره الى العمل في رواية « الحب » طوال صيف ١٩١١ ، فيعصدها « بالنار » ويصنع منها « شيئاً جديداً » ^(٤) .

(١) دسة وابصامة - م . ك . ج ٢ ، ص ١٦٤ - ١٦٥ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٧٨ - ١٧٩ .

(٣) يوسف الخويلك : ذكرى ياني مع جبران ، ص ٦٣ .

(٤) انظر توليق صانع : أسواء جديدة على جبران ، ص ٢٢٦ . أما « النار » فهي رمز الآلام المظيرة التي جعلها نصب الرواية . و « الشيء الجديد » لا يعني خروجاً عن منابع « الحب » ، لكن تمديداً في الصياغة ، لستانخ « القوة » لم يترك أثره في الكتاب إلا بنسبة ما خلل من موافق نموه .

ويروح نداء الحب يتصاعد في فصائده الثرية ، من حين الى آخر ، مطالباً بحقه المضموم ، فنسمعه في « رؤيا »^(١) ، وفي « باب الميكل » حيث يتحول استغاثةً وحينئذٍ حاداً وعجاجةً حقيقية : « لما جاء المساء وسكنت حركسة العابرين ، سمعتُ صوتاً آتياً من داخل الميكل يقول : « الحياة نصفان : نصف متجلد ونصف ملتهب . فالحب هو النصف الملتهب . فدخلتُ الميكل إذ ذاك وسجدتُ راکماً مصلياً هاتفاً : اجعلني يا ربّ طعاماً للهب – اجعلني أيتها الإله مأكلاً لئلا تترك المقدسة . آمين »^(٢). ونشهد الصراع بين القوة الحاكمة وانتفاضات الحب المهددة في « الليل والمجنون »^(٣) ، وفي صوت « الرب الثالث » من « آفة الأرض » ينادي ربّ القوة وربّ الوحدة والكتابة :

« أيها الحاكم الطامع في سيادة العالم العلوي والعالم السفلي ...

« انظرا رجلاً وامرأة ،

« لحيّ مع لبيب

« في نشوة الوجد ... »^(٤)

إنها محاولة جاهدة أخيرة للقضاء على توتر الحياة والوحدة والحزن ، للخروج من عالم العتمة والسأم الى عالم الأمل . وفيما يصرح جبران أنّ عهد الحب « قد مضى بين تشيب وشكوى ونواح » ، ويشيّه معلنًا أنّ سرور الحب وهم ، وجمال الحب ظلّ ، يتعالى نداء الحب ، فجأة ، وكأنما هو في ابتهاج :

« ليت شمري ! هل لئامر رجوع أو معاد لحيب وأليف ؟ »^(٥)

(١) الوصف - م . ك . ج . ١ ص ٧١ - ٧٢ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٢٧ - ٣٠ .

(٣) The Madman, p. 30-33

(٤) The Earth Gods, p. 30-31

(٥) البدائع والطرائف - م . ك . ج . ٢ : ١ ص ٣١٢ - ٣١٣ .



العارضة - ١٩١٤ -

(رسم رقم ٨٩)



خالعة الرداء.
- ١٩١٦ -
(رسم رقم ٩٠)

ووسط تناسق الرسوم التي تبرز فيها مظاهر القوة ، يفاجئنا ، في هذا الدور ، رسمان : الأول (رقم ٨٩) تواجهك فيه غانية عارية كأنها طفرة الشهوة المكبوتة في فن هذه المرحلة ، جلست على ما يشبه الرداء ، ورفعت يديها فوق رأسها تاركةً عينيها المحمقتين وشفهتيها المتفرجتين تعبر عن رغبة الحبيبة الموقدة . والثاني (رقم ٩٠) فيه صرخة الشهوة ، وكأنما هو انضاض طاعة الحب المظلومة تتجسد لوحةً فنية : امرأة كأنها في حركة راقصة إغرائية ، تُدبر ظهرها ، وتبسط يمانها عالياً ، وتعطف يسراها على شعرها ، تاركةً ثوبها يتهاوى عن جسدها كاشفاً عُرْي ظهرها وفخيلها وموحياً بهتاف الجسد .

أما مرتبة المعرفة فقد مُنبت بالظلم طوال المرحلتين الأوليين ، ولما كان لا بد من أن تُسمع صوتها الاحتجاجي من حين إلى آخر . وإنك لتعي أصداءه عبر نُتفٍ من مختلف كتاباته ، مثلاً قوله في « مرثا البانية » : « الشبية حلم جميل ... فهل يميء يوم يجمع فيه الحكماء بين أحلام الشبية ولذة المعرفة »^(١) ، أو وصفه نفسه في « الأجنحة المتكسرة » : « فني كثير الأحلام والمواجس لم يذق بعد خمر الحياة ولا خلها ، يحرك جناحيه ليطير سابحاً في فضاء المحبة والمعرفة ، ولكنه لا يستطيع النهوض لضغفه »^(٢) ، أو استداركُه في « العاصفة » ، محاولاً مقاومة زوبعة التمرد على الشرائع ، بنية اكتناه الأمور في حقائقها ، فيقول : « ولكنني لم أبلغ منازل الناس وأر حرركاتهم وأسمع أصواتهم حتى وقفتُ قاتلاً في سري : نعم ، إن البقطة الروحية هي أن خلق شيء بالإنسان ، بل هي الفرض من الوجود ، ولكن أليست المدنية بما فيها من التلبس والإشكال من دواعي البقطة الروحية ؟ وكيف يا ترى نستطيع إنكار أمر موجود ونفس وجوده دليل على إثبات صلاحته ؟ قد تكون المدنية الحاضرة حقاً زائلاً ، ولكن التاموس الأبدي جعل الأمراض

(١) مراسل الوردج - م . د . ج . ١ ص ٧٩ .

(٢) الأجنحة المتكسرة - م . د . ج . ٢ ص ٢٩ .

سَلْماً تنتهي درجاته بالجوهر المطلق ^(١) . كما تستبين هُزُوهُ في « فلسفة المنطق او معرفة الذات » ^(٢) بالمعرفة الذهنية السطحية المشوّهة المسخّرة لشتّى المآرب . ويبلغ نداء مرتبة العدالة والمعرفة المظلومة أوجه في « المجنون » حيث يعرض ، في الجهم من أمثاله ، مساهر الحقائق المزيفة ، معبراً بذلك تعبيراً عفويّاً لا واعياً عن توقه الحادّ الى كسب اتزان داخليّ تحتلّ فيه القوى النفسية مراتبها الصحيحة ، وتُستعاد الرؤية السليمة التي بدونها تتحوّل الروحانية حسيةً ممّوّهة ^(٣) ، والعدالة تصفّاً ^(٤) ، والأحكام حماقات ^(٥) ، وتقلب المقاييس فتصبح الحكمة جنوناً والجنون حكمة ، ويمحى التمييز بين الفضيلة والزبيلة ، ويبدو الجهل معرفة ^(٦) ، والثروة علماً ^(٧) ، والمساواة القسرية أُنُوءةً ، وجزئيّ المعرفة كُتلاً ^(٨) ؛ ويستحيل تمييز الخير من الشرّ ^(٩) ، وينراى الحقُّ ضلالاً والضلّالُ حقّاً ^(١٠) ، والإيمانُ كفرّاً والكفرُ إيماناً ^(١١) ! فالقيسم والأشياء لا تُدرَك إدراكاً سليماً إلاّ بمنظار معرفة عدلٍ ، وهذه لا تنهياً إلاّ في ذاتٍ منتظمة .

أعراض الاضطراب النفسي في حياته وإنتاجه : إن انحراف واقع جبران النفسيّ عن الترتاب الصحيح في المرحلتين الأوليّتين (١٩٠٣ - ١٩١٨) كان لا بدّ من أن يُولد أعراضاً اضطرابيّة بيّنة في شخصيته وإنتاجه . ففي

(١) المواصف - م - ك - ج - ٣ ص ١١٣ - ١١٤ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٩٦ - ٩٩ .

(٣) المجنون - المجموعة الكاملة المخرّبة ، ص ١٤ .

(٤) المصدر السابق ، ص ١٨ .

(٥) المصدر السابق ، ص ١٩ .

(٦) المصدر السابق ، ص ٢٢ .

(٧) المصدر السابق ، ص ٢٤ .

(٨) المصدر السابق ، ص ٢٥ .

(٩) المصدر السابق ، ص ٢٩ .

(١٠) المصدر السابق ، ص ٣٨ .

(١١) المصدر السابق ، ص ٣٩ .

الأوضاع النفسية غير المتزنة يُعزى الشخصية انشقاقاً داخلياً يجعلها في ازدواجية . فكأنما الشخص المتنازع يعيش نصفي وجود كل منهما منجذب إلى قلبه . «فالأنا» ، مثلُ الواقع النفسي الراهن ، بذعي تغيير النظام المتطوية عليه الطبيعة الانسانية في تراتبها السليم ، في حين أن نداء الجوهر الروحي - المدعو «خلقياً» صوت الضمير - ما يزال يدوي في أعماق كيانا ، رافضاً الاعتراف بنظام جديد يبيث القوضى المُخلقة ، وداعياً الوجود النفسي المنحرف الى التزام الوضع الصحيح ^(١) . وبهذا التزيغ تتعكر الرؤية الصافية وتتكرر ، إذ يكون الانسان والعالم في علاقتهما قد حادا عن محوريهما . «فالله - المطلق» يشوه معناه وتُخفّض قيمته بنسبة ما تُعظم القيم المعارضة الأخرى . وبخروج الكل النفسي عن محوره يتج صراع مع الحقيقة الموضوعية هو في أصل القلق والأمراض النفسية ^(٢) . فإذا ما حتمت ظروف الحياة أن يعاني الانسان المنحرف أزمات نفسية منشأها في طفولته ، وغذاؤها من لا وعيه ، تضاعف القلق واشتد المصائب ، وتلك كانت حال جبران في عهد الاضطراب .

لمحور الدونية بعث فيه الخجل والخوف من الأشياء الكبيرة ، باكراً ، وقد ألما الى الأمر سابقاً ، كما نعى أعراض القلق في نفسه من شعور بالحيرة والضياع والألم ولجوء الى عزلة انهماجية فراروية . وقد اثبتت الدراسة العلمية أن من ينشأ في أسرة يُستخدم فيها نظام رادع مُلطّف يُبدي من السرور والاستئناس والاستلطاف والراحة في علاقاته الاجتماعية أكثر ممن ينشأ في أسرة يسودها نظام رادع قاسٍ ^(٣) . ولئن استطاع تأكيد الشخصية أن يحجب الشعور بالدونية ، فإنه لم يقوَ على اجتثاث علته المتأصلة في عقله الباطن . وقد ولدت هذه العلة فيه عدائية لا شعورية نحو أبيه ، تصاعد ،

(١) STOCKER, De la Psychanalyse à la Psychosynthèse, p. 81, 83

(٢) ibid., p. 207-231 ; W. DAIM, Transvaluation de la Psychanalyse, p. 134-152

(٣) B. S. BIRKES, A study of identical twins reared apart under different types of family relationships, in Mc Nemar — G. and M. A. Merrill, studies of Personality, Inc. Graw Hill Book Co. New York, 1942.

إزائها ، شعوره بالذنب كمدٌ خطير^(١) . وقد جعلته حركة إثبات الذات - التي يجب أن نميزها عن غريزة حب الظهور العادي الكائنة في كل إنسان - يعيش حياة متوترة في تواصلها ، مُجهد في أعمالها ، متطرفة في رغباتها ، مسوقة بحافز لا شعوري محموم ، لا رفق فيه ، يستهدف «قتل» داء الدونية بدء العمل ، وحجب الشعور بالنقص بالعدو المهووس وراء الشهرة والقوة والتفوق والحريّة . فاذا السعي الذي لا هوادة فيه الى تخطي المحيط والتخلص من كل قيد «يقتل» أعصابه ويُضي حياته . لقد طلب الراحة والطمأنينة بنشدان التحرر والقوة ، فاذا السعي الدائب وراءهما يمتص راحته وطمأنينته .

ثم إن محور الأمّ الذي كان من وظائفه الإسهام في إبعاده عن الانزالية ، طلع عليه بأسباب القلق شتى . فالحياة - الأمّ - التي كان عليها أن تحسم قلق انفصاله عن والدته ، بالحلول محلّها - كانت له فؤارة آلام ، لأنها حتمت الصراع في نفسه بين لاوعيه الذي يحظر عليه اقتحام جسد المرأة - الأمّ - بعد تسميها في نفسه ورغبته الحسية المتقلدة التي تدفعه الى إشباع شهواتها ، و الوطن - الأمّ - الذي كان عليه أن يملأ دور والدته فيشملة بالرعاية والعطف والتشجيع زجّ به في صراع مع ذاته : يقضب عليه ويشور ويحقد إذ يراه في موقف اللامبالي أو الراض الخاكد ، ويحنو عليه ويشفق إذ يحده عيلاً هزلاً بحاجة ماسة الى عونه . والشعور بأنّ عطايا جيتاً مرفوضة يبعث القلق والحيرة في الذات ، مثلما الشعور بأنّ عطايا الآخرين التي نطلبها ممنوعة عنا يسهم في توليد العدائية والنف فينا^(٢) .

و ضروري تمييز الألم والكآبة والانزالية كثرات للاضطراب النفسي والاضطراب الداخلي عن الألم والكآبة والوحدة كثرات للغربة الروحية

(١) الشعور بالذنب هو أحد التناجج البدائية الرئيسة ، ولكن قد يتراكم فوقه طبقات طارئة من

الشعور المرضي بالذنب ، وتلك كانت حالة جبران : راجع :

P. DACO , Les triomphes de la Psychanalyse, p. 287-290

I. SUTTIE, The Origins of Love and Hate, p. 63-64. (٢)

الرسولية . فالأمراض الأولى تحاول الذات التخلص منها باللجوء الى شتى الوسائل ، لأنها وليدة انحراف نفسي ومرض عصائي ؛ في حين أن الأخيرة يعتنقها وعي جبران ويرتضيها تنجاً لحياته ، لأنها نتيجة سعيه نحو التوحد الماهي بالناصري مثله الأعلى ، وهذا ما نُفَصِّلُ الكلام عليه في الفصل الأخير .

وتواجهنا أعراضُ الاضطراب النفسي ، في حياته ، قبل اواسط ١٩١٨ ، من اعترافات جمّة . فكثيراً ما كان جبران يردّد أمام بربرة يافع : « إنني ، في الواقع ، لم أكن صبيّاً طيباً ، لأنني كنتُ قلقاً ، أشعر بأني غريب وضائع ، ولا أستطيع أن أجد طريقي »^(١) . وعهد « الحكمة » يشهد رفيقه داود سعادة أنه « يجب الانفراد والعزلة »^(٢) ، ويؤكد معلمه الخوري حدّاد أنه كان « مُقسّلاً من الإخوان »^(٣) . وما أن تخفي المرحلة الانتاجية الاولى من عمره على هذا النمط القلق المُسَخَّر حتى يستبشر خيراً برحلته الى باريس ، فيكتب الى أمين الغريب في ٢٨ آذار ١٩٠٨ عنها : « ستكون مثل حلقة ذهبية تربط ماضي جبران المملوء بالكتابة بمستقبله المرفوع فوق أعمدة النجاح »^(٤) . لقد كان في ظنّ جبران أنّ النجاح الأدبي المعنوي ، وفيه تأكيد شخصيته ، سيقضي على قلقه وشغائه ، لكنّ طائرَ سهمه ، إذ العلةُ أعمق ، فأصلها في شلوك نظامه النفسي وعزّيق ذاته . وقد بدأ يشعر بنجبة أملة قُبَيْل عودته من فرنسا الى أميركا ، ففي رسالة الى نخلة جبران بتاريخ ٢٧ ايلول ١٩١٠ ، يشبه نفسه بشجرة مسحورة مقيّدة بالأغلال ، ويعترف أن الشمس يملأ أعماقه^(٥) . وبعد أن يحلّ ، ثانيةً ، في بوسطن ، يُفْضِي الى المويك ، في رسالة تاريخها ١٩ كانون الثاني ١٩١١ ، بقوله : « انا في هذه المدينة المملوءة بالأصدقاء

B. YOUNG, This man from Lebanon, p. 145 (١)

(٢) مجلة الحكمة ، السنة الثالثة ، العدد الأول ، ص ٢٨ .

(٣) مارون صوبد : جند وقماء ، ص ١٤٠ .

(٤) رسائل جبران ، ص ٢٢ .

(٥) المصدر السابق ، ص ٢٩ - ٣٠ .

والمعارف كنفني الى انصافي العالم حيث الحياة باردة كالثلج ولقائمة كالرماد وصامتة كأبي الهول . شقيقي يقري . والمحبون حولي في كل مكان ، والناس يأتون الى منزلي صباح مساء ، ولكنني غير مسرور من حياتي ، يا يوسف ... أشغالي سائرة نحو قمة الجبل ، وأفكاري هادئة ، وجسدي يشتمع بكل ما في الصحة من لذة الوجدان ... لكنني لست مغبوطاً يا يوسف ^(١) .

إن جميع الأسباب المادية والمعنوية والاجتماعية كانت منتهية ، آنذاك ، تُشبع الفرح والطمانينة في نفسه ، لكنه ، مع ذلك ، كان ينوء بالشقاء ، وهو يجهل الملة . أما الملة فتتمزقه النفسي الناتج عن عدم اتزان الشخص . لقد كانت نفسه تعيش ، طوال هذا العهد ، في الظل . المرتبة الروحية فيه تسبب به للعودة الى التراب الصحيح ، رجاء تملتي وجه الألوهة الحق ، والتمتع بالسلام والغبطة ، لكن المرتبة الحسية الطاغية كانت ما تزال تحجب نور الحق عن نفسه . وكأنما داخله شعورٌ مبهمة بوضعه الغريب ، فقال في رسالته حينها : نفسي جائعة ظامئة الى مأكّل ومشرب لا أدري أينهما ... النفس زهرة علوية لا تعيش في الظل ، أما الأشواك فتعيش في كل مكان ^(٢) .

وتتوالى اعتراضاته لما يري هاسكل ، بين ١٩١٢ - ١٩١٤ ، بالصراع الناشب في نفسه بين عقله وقلبه ، وبين ذاته وذاته ، وبتزعته الى الوحدة والتنسك ، هرباً من الناس وبنية إيجاد ذاته المضيئة ، حتى يعلن في ٢٠ أيلول ١٩١٤ : « في نفسي شيء يصارع ، وأفكاري شبيهة بمياه جارفة . لم يكن الأمر في مثل هذا الهول من قبل ^(٣) » .

ويحاول جبران الحرب من قلقه وشغاله ، لكنه لا يستطيع لأن سبيل النجاة

(١) يوسف الحويك : ذكرهائي مع جبران ، ص ٢١١ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٢١١ - ٢١٢ .

(٣) The Letters of K. Gibran and M. Hoskell, p. 382 ، راجع أيضاً ، في المصدر نفسه ،

رسائله إلى ملوي هاسكل في ٢٠ أيار ١٩١٢ و ١٦ آذار و ٨ تشرين الأول ١٩١٣ .

لن يبتدي اليه إلاّ باقلاّب قضيّ يؤدّي الى الاتزان الصحيح ، في المرحلة الثالثة . وتتضام فيه الحيرة حتى يبرح بألم منها ومعااته الطويلة إياها ، لصديقه مي زيادة ، قائلاً : « أستطيع كل شيء في الحياة إلاّ الحيرة ، فإذا جاءت القائلة وحل منكبيها غمر من الحيرة ، أغضت عيني وقلت في سرّي : هذا صليب آخر عليّ أن أحمله مع المثة صليب التي أحملها . وليست الحيرة بذاتها من الأمور المكروهة ، ولكنني قد رافقتها حتى ملقتها ، قد أكلتها خبزاً وشربتها ماء وتوسدتها فراشاً ولبستها ثوباً حتى صرتُ أنبرّم من لفظ اسمها وأهرب من ظلّ ظلّها » (١) (مستد رقم ٥) .

أمّا في أدبه فأعراض الاضطراب النفسي كانت في موكب صارخ صاحب طليعة الكتابة . ولئن غلظت الكتابة جذراً في غربة جبران الروحية الرسولية ، ومدّت أصلاً في تربة مآسيه ونكباته ، فأرومتها تنفذي من اضطرابه النفسي وتمزقه الداخلي . وهذا الوجه منها الذي تنقلب عليه العصائية في راجع الفن هو ما يعيننا هنا . فانك تكاد لا تلمح فرجة ابتسام ولا تسمع رنة ضحك في مقالاته وحكاياته طوال المرحلتين الأولى والثانية . حتى مواقف أبطاله جلّها كان مأساوياً . وإن طالعتك ، في أواخر هذه الحقبة ، أمثالُ «المجنون» بوجه عابثٍ ساخر ، فوراها التهكم يضحج الألم والمرارة .

هذه الحلقات الحزينة تواصل في أدبه ، متماصك بعضها ببعض ، منذ بواكيره . فلا تُطْلَ عليه ذكرى مولده السادسة والعشرين (٢) ، حتى تشرّب معها الكتابة ، وتنصب ، أمامه ، حياته السالفة كمرآة ضعيفة ينظر إليها فلا يرى سوى أوجه السنين الشاحبة كأوجه الأموات ، وملامح الآمال والأحلام

(١) من مسودة رسالة إلى مي زيادة محفوظة في متحفه . ولعلها تعود إلى أواسط ١٩١٩ . وواضح من تمايزه أنه يتكلم على حيرته في هذه المراسي ، لانه في أوائل هذه الحقبة أصبح يتجرّم من لفظ اسمها ويهرب من ظلّ ظلّها .

(٢) قصة وابصلة - م . ك . ج ٢ ، ص ١٩٢ - ١٩٨ .

والأماني المتجمدة كلامح الشيوخ . والحقيقة أنه لا يُبصر غير وجهه ، وفي وجهه لا يرى سوى الكآبة ، والكآبة خرساء ، ولذا هي أدهى . وإن تراءى له الأمل من وراء ضباب التهنيد والامسى ، فالغد يبين لناظره من وراء نقاب الماضي .

وما كان المحيط ينفع في إزاحة الحجب السوداء عن بصيرته . فلا المشاهد البهية ، ولا سكون البرية ، ولا الشفق المخضب بالأشعة الذهبية ، ولا تغاريد الشجاري بمجدية في هذا السبيل . فإن استنطقته عن سرّ كآبته المُفجعة أيتام حداثته ، أجابك : « لم تكن ناتجة عن حاجتي الى الملاهي لأنها كانت متوفرة لدي ، ولا عن افتقاري الى الرفاق لأنني كنت أجدهم أينما ذهبت » بل هي من أعراض علّة طبيعية في النفس كانت تحجب الي الوحدة والافتقار ، وتُثبت في روحي الميول الى الملاهي والألعاب ، وتخلع عن كفي أجنحة الصبا ، وتجعلني أمام الوجود كحوض مياه بين الجبال يعكس بدهوته المحزن رسوم الأشباح وألوان النجوم وخطوط الأغصان ولكنه لا يجد ممراً يسير فيه جدولاً مترنماً الى البحر ^(١) . فيتأكد لك ، آتئذ ، أن سرّ حزنه كامن في اضطرابه المحوري اللاشعوري ، وفي انحراف تراتبه النفسي الذي استفحلت فيه الطاقة الحسية ، وتضاءلت طاقة المعرفة الذهنية ، وعجزت المرتبة الروحية ، لزيغها ، عن أن تكون مصدر عزاء ، « والهي الحساس الذي يشعر كثيراً ويعرف قليلاً هو أتمس المخلوقات أمام وجه الشمس » ^(٢) .

ويُخيل اليه ، وهو على عتبة المرحلة الثانية ، أن سلطان القوة سيستلم له جيش الكآبة ، لكن أمنيته سرعان ما تخيب ، « فإرادة القوة جعلته يحاطب الليل مخاطبة الندّ للندّ » لكنه كالليل قوي ، وكالليل هادئ مضطرب ،

(١) الأجنحة المتكسرة - م . ك . ج ٢ ، ص ١٤ . راجع فصل « الكآبة الخرساء » كاملاً ، ص

١٢ - ١٥ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٢ .

متجمّد بظلام الحزن ، لا يأتي صباحه حتى ينتهي أجله ^(١) . أمّا الحياة فما أن تسفّر له عن وجهها الغاوي حتى تبتئث الألم والملل فيه ، لأنها امرأة عاهرة ولكنها جميلة ومن يترعرعها يكره جمالها ^(٢) . وإذا الكتابة الياسته المستسلمة تتحوّل الى كتابة متمردة ساخرة مفعمّة بالاضطراب .

وفوق هذا المدّ المائج من القلق ، تراءى له الحبّ ، في الدور الأوّل خشبة خلاص ، فتنّاه أغاني ولا أحل . فالنفس التي يعذبها الشقاء ... يعزّيها الحبّ الذي يحمل الألم لذّة والأحزان مسرة ^(٣) . فقد آتسّ في الحبّ ولادة جديدة تجعل النفس تشعر بوجودها ، فتجدّد حياتها ، وتبهر خلاياها ، فتتحوّل الظلمة ... شعاعاً ، والكتابة مرحاً ، والشقاء سعادة ^(٤) . لكنّ أليكون في الحبّ دواؤه وحسّم قلّقه ؟ اسمع ابتهاله الى نفسه فتترك شقاء هذا الانسان الحساس :

«رحماك يا نفس ! فقد حمّلتني من الحبّ ما لا أطيقه : أنتِ والحبّ قوة متحدة ، وأنا والمادة ضعف متفرّق ، وهل يطول عراك بين قسوي وضعيف ؟

«رحماك يا نفس ! فقد أريّني السعادة عن بعدٍ شاسع : أنتِ والسعادة على جبل عالٍ ، وأنا والشقاء في أعماق الوادي ، وهل يتمّ لقاء بين علوّ ووطوء ؟

«رحماك يا نفس ! فقد أبنت لي الجمال وأخفيتّه . أنتِ والجمال في النور ، وأنا والجهل في الظلمة ، وهل يمتزج النور بالظلمة ؟ ...» ^(٥) . إنها ازدواجيّة العيش : قُسمت الذات فيه وجودين متنازعين ، فتولّد عن الصراع اضطراب وشقاء ^(٦) .

(١) المرافف - م. ك. ج. ١١ ص ٢٢ - ٢٤ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٢٩ - ٤٠ .

(٣) دمة وابساسة - م. ك. ج. ٢ ص ١٠٨ .

(٤) المصدر السابق ، ص ١٩٩ - ٢٠٠ .

(٥) المصدر السابق ، ص ١٢٨ - ١٢٤ .

(٦) راجع STOCKER, De la Psychanalyse à la Psychogénésie, p. 81-83

وكما عجز الحبّ عن بثّ الطمأنينة في نفسه ، قصرت الشهرة والقوّة والمجد الدنيويّ ، لأنّها لم تستطع اجتثاث العلة من أعماقه . فالسهم الذي سدّده أخطأ مرماه ، وبقيت ذاته جامحة ، مستوحدة ، مستوحشة ، مضطربة ، تتوجّع ^(١) . وكانّ « الآله المجنون » لم يكن سوى « إرادة القوّة » فيه متوتّرة بعصاها ^(٢) .

بسمّ يلوذ بعد ذلك ؟ لم يبقّ له إلّا أن يواجه خبيثته ويستسلم لها . لقد كانت وراء وحدته وانفراده ، وعلة معرفته نفسه واحتقاره ذاته . كانت سيفه وترسه ، ومرهفّ النفس والقوّة والقسوة فيه ، ومثيرة الإقدام والشجاعة في نفسه . جعلته يضحك في العاصفة ، ويخفر القبور ويتصب صامداً أمام وجه الشمس ، صنعَتْ منه هولةً ترعب الناس ^(٣) . لكنّ الحية ليست دواء ، إنّها الحياة المتوتّرة تنهار ضيّقاً ، وتقلق الموصول يكثر عن أنيابه ، إنّها الجدار الذي يهكّ وجه المسافر عبر ذاته ، هذه الذنات التي بدل أن تهض قوّة ، موحدة ، متزّقة ، تتمزّق ميّزاً سيّماً : واحدة تُجدّد آلامه ، وأخرى تُواكب ملذّاته ، وثالثة تُثير فيه الحبّ الوجدانيّ ، ورابعة تبيح الحقد والبغض ، وخامسة تستوحّد حائلة هائمة منشوّقة الى المجهول ، وسادسة تعزل جاهدةً مسئلةً الجمال ، وسابعة بطالة . وكلّ ذاتٍ تبرّم بواقعها وتعاين منه المראה ، وتطمح الى تغييره ^(٤) .

نرى ، هل كان يشعر جبران أنّه مسؤول عن عدم تحقيقه للسلام النفسيّ في « مساء العيد » ، يترامى الناصريّ له ، وجبران لا يعرفه ، فيستغرب كلامه ، وغربته ورفض الناس لإيوائه ، ويدعوه الى مرافقته لمتزّله ، فيجيبه يسوع : « قد طرقتُ بابك ألف مرّة ولم يفتّح لي » ^(٥) . وإذ يدخل جبران والمدينة

(١) راجع البدائع والطرائف - م . ك . ج ٣ : « الوحشة والافراد » ، ص ٢٦١ - ٢٦٥ ، « الشهرة » ، ص ٣١١ .

(٢) انظر DACO, Les prodigieuses victoires de la psychologie moderne, p. 426, 427 .

The Madman : « Defect », p. 47-49 . (٣)

Ibid. : « The Seven Selves », p. 21-23 . (٤)

(٥) المواقف - م . ك . ج ٣ ، ص ٨٢ .

المباركة ^(١) تلك التي كان أهلها جميعاً يحبون وفق تعاليم الكتاب المقدس ، يرى كلٌ راشد فيها أعور أقطع ، فيتعجب عجباً عظيماً ، لكنه سرعان ما يكشف السبب : إنهم يطبقون وصية المسيح حال تشكيك العين والبصيرة ^(٢) . فيخادر جبران فوراً مدينة السلام المقدسة : معترفاً بأنه كان بالغاً رشده وقادراً على قراءة الكتاب ، وشاعراً بوطأة الذنب ودينونة الذات ^(٣) .

ولم تخلُ رسومته المستبسة الى عهد الاضطراب النفسي من أعراض القلق والصراع والضيق ، إذ إنَّ عددًا منها يمكن التامل أن يستشف من خلاله تؤثر النفسية الجبرانية . ففي الرسم (رقم ٩١) وجهٌ هولاء كأنما أريد به شيطاناً أو تنيناً ، نبت في رأسه قرنان أعفان ، واتخذ شكلَ صرّكب ، وإذا ما حدثت النظر اليه لرأيت أحشاءً منطوية على رجل سرعان ما يذكرك بقصة يوفان النبي . لكن هذا المسيح لا يُبنيك بأنه وجه الموت ، فالموت كان لجبران حبيباً حلواً ، فأرجع الظنَّ أنه تجسيد الضيق والاضطراب والضيق في بحر الحياة ، وشدَّ ما عانى جبران مرارتها قبل بلوغه عهد الانتران ، ولكنه في الآن نفسه ترقى الى الخلاص من « بطن الموت » في ولادة نفسية ثانية تأتي له بالفرج والطمانية . وفي الرسم (رقم ٩٢) يبدو رجلاً باسطاً اليدين ، منتشج العضل ، كأنه يقفز في الفراغ ، وقد ظهر الاضطراب على ملامح وجهه وقسمات جسمه . ترى أليس إسقاطاً لا واعياً لحبيته وتضعفه النفسي أيضاً ؟ وفي الرسم (رقم ٩٣) تبدو امرأةٌ مؤترة بأسمال ، وقد عري صدرها وبسطت يمتها مستطية ، وحتت رأسها خجلاً وحزناً ، ولعلها إسقاط ذاته المستوحدة المتوجعة التي أشار إليها في قوله : « رأيتك يا أنني جالساً على عرش من المجد وقد وقف حولك الناس مترنمين باسمك ، مرددين حسنااتك ،

(١) The Madonna : « The Blessed City » , p. 43-45

(٢) لعمري الآية : « فإن شككتك منك فاعلمها وألقها منك ، فإنه غيرك أن يرك أحد أعضائك ولا يلقى جسداً كله في جهنم . وإن شككتك منك فاعلمها وألقها منك ، فإنه غيرك أن يرك أحد أعضائك ولا يذهب جسداً كله إلى جهنم » (متى : ٢٩ - ٣٠) .

(٣) STOCKER, De la Psychanalyse à la Psychosynthèse, p. 114-122 راجع

يهدكين اليك كأنهم في حضرة نبي يرفع أرواحهم بهزم روحه ويطوف بها بين
 النجوم والكواكب ، وأنت تنظر إليهم وحل وجهك سماء الغبطة والقسوة
 والتقلب كأنك منهم بمقام الروح من الجسد . ولكنتي فطرتُ اليك ثانية
 فرأيتُ ذاتك المستوحدة واقفة الى جانب عرشك وهي تتوجع بفربتها وتفص
 بوحشتها . ثم رأيتها تمدُّ يدها الى كل ناحية كأنها تستعطف وتستعطي الأشباح
 غير المنظورة . ثم رأيتها تنظر من فوق رؤوس الناس الى مكان قصي ، الى مكان
 خالٍ من كل شيء سوى وحدتها وانفرادها ^(٩١) . وفي الرسم (رقم ٩٤)
 يفضح الستور خطايا نفسه ، فاذا بوجهه الممتلئ يشق عن تمرقه الداخلي ،
 وكان الانسان فيه يخي الخلاص من البهيمية فلا يستطيع . فالفرس الأسطورية
 تنصب بقوة على قائمتيها الخلفيتين ، بينما يتطلع الوجه الانساني فيها الى
 السماء ، وفي حركة اليدين وإطباقة العينين وانفراج الشفتين قليلاً شبه ابتهاج
 وآلام مُبِضَّة . وفي الرسم (رقم ٩٥) تطالعُ بحنة الشهوة الجنسية مُسقطة
 في صورة بدائية نموذجية : أنثى عارية مُقعبة ، يداها على الأرض كأنها
 تدب ، وسيما وجهها ترقى بها الى عهد البشرية الأول إذ كان الانسان والقرود
 يكادان لا يُفرقان ، أمامها مسخٌ نبت في رأسه قرنان صغيران وانتهت رجلاه
 بحافرين ، فاذا فيه من القرود شيء ومن صُور الشيطان المألوفة شيء آخر ،
 وهو كأنما يُداعبها وهي تبتسم له . ووراء المرأة مسخٌ آخر طريق الثرى تخاله
 في هجمة . تُرى ، أتكون رمزاً بدائياً لتجربة المرأة التي كان جيران يحاول
 التخلص منها في الدور الثاني ، فتأثبه ؟ ويسعى الى تخطيتها في فنه فتساوره
 في واقعه جاعلةً بعضه في زراعٍ مع بعضه ؟ وفي الرسم رقم (٩٦) يترامى
 لك وسط فضاء مظلم وفوق صخرة صغيرة تخالفا قائمة في الفراغ ، رجل
 وامرأة : هي تُحيط خصره بذراعيها كأنها تريد اجتذابه اليها أو منعه من
 السقوط الوشيك ، أم هو فيدها مرفوعتان وجسمه منعطف الى الورداء كأنه
 في لحظة الموتى الرابعة . وفي الرسم (رقم ٩٧) يتجسد الصراع النفسي في

(١) البدائع والطرائف - م . ذ . ج . : هـ : الوحدة والانفراد - ص ٢٦١ - ٢٦٢ .

أهرب رموزه : بنية عجيبة لرجل مكتر العَصَل ذي جذع واحد وأربع أرجل وست أيدي ورأس مُفَرَّد : رَجُلَان تَطَان الأرض ، وأخيراً ترتفعان عنها وكأنهما تُماركان الرجلين المتصبتين ، بينما تتنازع من الأيدي أربع ، وترتفع اثنتان : واحدة تلامس الوجه والأخرى تمتد إلى أهل في شبه توسل ، أما الوجه فيشف عن اضطراب شديد في تشنج عروق العنق واتجاهه نحو السماء ، وهو وضع شبيه بوضع الستور الآنف الذكر . ولعل هذا الرسم المعقد يمثل تنازع المراتب النفسية الثلاث في الشخصية الواحدة المضطربة : الطاقة الحسية المتضخمة المضطلة تمثل في معظم البنية وفي الرجلين المتصبتين واليدين الأماميتين ، وطاقة المعرفة في اليدين والرجلين المتقهقرة إلى الوراء ، والطاقة الروحية في الرأس المعنى واليدين العلويتين المبتهتين . وفي كتاب « المواكب » الذي يشكل جسراً بين عهد الاضطراب وعهد الاتزان يمثل رسماً قوياً للدلالة : ففي الرسم (رقم ٩٨) جبارٌ أثري يسط يديه وجناحيه القويين حاشداً عزمه ليصعد في الأعالي ، لكن القبود المكبلة رجليه - قيود الحسية - ما تزال تمنعه عن التحليق الحر والغلب على جاذبية الأرض المليئة بأفاعي الشهوات وتجسّدات الرغبات المتمثلة في أشكال أنثوية مختلفة تحيط به . وفي الرسم (رقم ٩٩) ثُلَاثيٌ يمثل فيه ملاك يرمز إلى الطاقة الروحية المتصدرة ، ووراءه أنثى على جسامتها ، تبدو ضبابية ، وقد ترمز إلى طاقة المعرفة بعد اشتدادها في أواخر الدور الثاني ، ودونها رجلٌ منطرح أرضاً ، وكأنه عبدٌ تلتف على ذراعه أفعى وتلوسه قدّمُ الملاك ، ولعله يرمز إلى الطاقة الحسية التي تحاول الذات الآخذة في الانتظام كسر شوكتها وإخضاعها ، بعد تمردها ، للقوى الروحية والذهنية .

تلك كانت شخصية جبران طوال المرحلتين الأوليتين : فريسة الاضطراب والقلق والشقاء ، تتجاذبها التناقض ، ويوجعها التمزق ، لكنها على اصطحاب الميول واصطراع التوازع ، كانت تسمع نداءً يتعالى من أحشائها بين الفينة والأخرى ، ليهيب بها إلى الاتزان ، وبهذا النداء علّق أسكلها الأخير .

هولة الضيق والضياع
- ١٩١٣ -
(رسم رقم ٩١)



القافز في الفراغ
- ١٩١٤ -
(رسم رقم ٩٢)

الذات الجائعة المستعطية
- البدائم والطرائف -
(رسم رقم ٩٣)



الستور المتالم
- ١٩١٦ -
(رسم رقم ٩٤)



(رسم رقم ٩٥)

تجربة المرأة - ١٩١١ -



الهوى - ١٩١٤ -
(رسم رقم ٩٦)



(رسم رقم ٩٧)

الصراع النفسي - ١٩٦٤ -



الذات الجبرانية
تحاول التخلص
من قيود الحسية
(رسم رقم ٩٨)



الذات الجبرانية
في ثالوث مراتبها
قبيل الاتزان
(رسم رقم ٩٩)

ب - عهد الأتزان النفسي

يُستخلص من أبحاث هادفيلد أن هدف الحياة كآلها ، ولذا كان الحافز إلى الاكتمال أقوى محرك في الكائن الحي . وإذا جاز ان نُسمي هذه المرتبة المنشودة ، بيولوجياً « صحة » ، وعقلياً « كلاً » ، ودينيّاً « قداسة » ، فيسوغ أن نسميها سيكولوجياً « تحقيق الذات » ، وتنفى هذه التسمية التعبير المتوافق المنسجم عن القوى الحيوية جميعها تعبيراً يتجه إلى غاية عليا مشتركة . ونعم ذلك لا يكون إلا في « الذات المتظمة » أي المتكاملة المتناسكة المتزنة التي تأتلف فيها المواقف والتوازع المتساغة جميعها متجهة نحو مثل أعلى صادق ^(١) .

وبما أن « تحقيق الذات يؤلّد الشعور المسمى « بالسعادة » - ولتقل « السلام النفسي » - فقد كان جبران طوال عهد الاضطراب يشعر بعدم الامتلاء والاكتفاء وبالشفاء . وهو ان جهل أسباب حلته ، تفصيلاً ، فقد أدرك ، باكراً ، أن « السعادة تبتدىء في قدس أقداس النفس ولا تأتي من الخارج » ^(٢) ، وليس في بيتها مال ولا قوة ولا سلطة ، لكن جمال ومحبة وحكمة ^(٣) . وبعد مضي ربع قرن على مولده ، يُقرُّ بأنه أحبُّ السعادة مثل البشر أجمعين ، وسمى في إثرها كما سموا ، لكنه لم يبتدئ إليها في سُبُلهم ، ولا لحق آثارها في قصورهم ومعاييدهم ، لأن « السعادة صبيّة تولد ونحيا في أحضان القلب ولن نحيا إليه من محيطه » ^(٤) . وإن لم يكنه جبران قوانين الاتزان النفسي ، فإنه فهم أن قوام السعادة في أن يحيا الإنسان وفق فاموس طبيعته كسا يحيا كل ما في الأرض ، وما صار البشر إلى الشقاء إلا لأنهم استبدلوا بالنظام الطبيعي

(١) راجع ج . ا . هادفيلد : علم النفس والاعطال ، ترجمة محمد جبه الحيد أبي الزم ، ص

٨٥ - ١٠٨ .

(٢) دمة وابنة - م . ك . ج . ٢ ، ص ١٦٩ .

(٣) المصدر السابق نفسه .

(٤) المصدر السابق ، ص ١٩٥ .

الصحيح شرائع عالمية زائفة^(١) . لكن " و السماء لا تريد أن يكون الإنسان
تصاً لأنها وضعت في أعماقه الميل إلى السعادة ، لأنه بسعادة الإنسان يتمجد
الله " (٢) .

ولذا ، على الاضطراب النفسي الذي عاناه جبران ، مدى المرحلتين
الأوليين ، كانت إرادة الحياة المبدعة المحافظة تُسمع صوتها في أعماقه ،
عاملةً ، في وجهه ولاوعبه ، على حلّ تناقضاته والانتصار على صغوباته
الداخلية ، وتوحيد ذاته الممزقة ، بنية تحقيق الاتزان . وكان الدور الأجلّ
في تحقيق ذلك يؤديه المثل الأعلى الذي اعتنقه ، أعني به يسوع الناصري .
فباستمرار كان يحاول توحيد طاقات جبران المشتتة وتنظيمها والميمنة عليها
وضبطها في جاذبيته . وبيان ذلك مُفصلاً أفردنا له الفصل اللاحق . فكان
لا بدّ للذات المتصدعة من أن تلتئم ، مع الزمن ، وتُحقّق وحدتها وفعاليتها
الأصلية ، لأنّ مثلكها الأعلى لم يكن زائفاً يُحركها ويؤهمها بأبلاغها السلام ،
بل كان صادقاً لأنه ظلّ من ظلال المطلق الصحيح : الله . فنداء الناصري
ساعد جبران على التطلع بالأمّ والسمي بالتخطي ، وبالتالي على توجيه قيمه
وأحكامه ونظراته توجيهاً أعادها إلى محوريته السليمة التي أتاحَتْ لها استلهاً
الكامل والاستفادة به ، بحيث تيسر على الذات ، بعد جهود مُضنية ، أن
تحيا وفق ناموس الطبيعة الانسانية ، فلا تُعاكسها ، ولا تستلّ عليها ، ولا
ترزع تحنها ، إنّما تحيا بها بمشيئة حرة واعتناق مختار^(٣) .

ونظرة نُلقيها على تطوّر الوضع النفسي « المحوري » تُرينا أنّ « محور
الأمّ » كان يتجرّد ، مع الزمن ، من حسيته وتقوى فيه الخاصة الروحية ،
فتتحول الأمّ ، بتساميها ، إلى « روح - أم » اندمجت بالأبدية واتسجم فعلها

(١) الأرواح المتسرّدة - م . ك . ج ١ ، ص ١٢٥ - ١٢٦ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٢٢ .

(٣) راجع A. STOCKER, De ■ Psychanalyse à ■ Psychoynthèse, p. 252-253

مع فعل «اصري» ، وهكذا أصبح « محور الأم » رافداً مُغذياً للمرتبة الروحية في جبران . أما « محور النونية » فقد كانت نشاطاته الارتدادية المتفكسة بالمباديَّة توائمتُها المحبَّةُ الناعمةُ المتساحمةُ ، من حين إلى آخر ، حتى انتهت بامتصاصها ، وتوجَّهت حركةُ إثبات الذات بكلينتها نحو التاصريِّ لمحاول التحققِّ الأسمى عبر سعي جبران إلى توحده الماهيِّ بمثله الأعلى .

وإذا ما وعينا أنَّ مرتبة المعرفة الذهنيَّة اشتدَّ نشاطها في أواخر الدور الثاني^(١) ، إزاء تضاؤلِّ قدرة الطاقة الحسيَّة ، أدركنا أنَّ واقع جبران النفسيَّ بات على شفا انقلاب حالِّ بروز قوى طارئة حاسمةٍ لديه . وسرعان ما تبيَّن هذا التركيز وارداً من جهاتٍ أربع :

أولاً ، سمعت صحةُ جبران تنمويحيّاً معجبة المرحلة الثانية ، وكاد المرض يلازمه^(٢) ، حتى يسوغ القول إنَّ اعتلاله المزمن أضعفَ فيه الرغبة الحسيَّة والقدرة الحسيَّة ، وشدَّدَ عزمه الروحية وأرهفَ حنينه إلى المطلق ، وأدناه إلى الكلبيات المجردة^(٣) .

ثانياً ، إنَّ تحوُّل جبران إلى الكتابة باللغة الانكليزية ما لبث أن اجتذب اهتمام الأوساط الصحافيَّة الأميركيَّة ، فطلعت الأندية تدعوه إلى قراءة بعض ما أبدع^(٤) ، حتى إنَّ شقيقة الرئيس روزفلت دعت إلى مشاركتها العشاء وتلاوة

(١) يتجل ذلك ، خاصة ، في « المجنون » وقد سبق إيضاحنا الأمر .

(٢) راجع رسالته إلى هامبكل في ٧ كانون الثاني ١٩١٤ .

The Letters of K. Gibran and M. Haskell, p. 297

(٣) سنة ١٩١٩ يكتب إلى أميل زيمان ، بصدِّ صحتِه : « بيد أنها لم تزل مثل قيثارة مقطوعة الأوتار... ليس هناك شيء أصعب من وجود روح ترقب ، في جسم لا يستطيع » (رسائل جبران ، ص ٢٧) . انظر أيضاً المصدر السابق ، ص ٩٩ .

(٤) كان جبران ، تارة ، يلقي المحاضرات الموجَّهة إليه ، وطوراً ، يتهرَّب منها لعدم تملكه اللغة الانكليزية التي كان ما يزال يفكر في العربية إذ يكتبها . راجع :

The Letters of K. Gibran and M. Haskell, p. 294, 295, 361, 362

شعره أمام حفل خاص^(١) . وأوضحنا ، سابقاً ، أن قلق جبران مردٌ بعض أسبابه إلى إغراض الناس عنه ، ورفضهم عطائه ، فكان متعلّشاً لأن يُحسَبَ ويُكترَمَ ويُعنى به . ولا شك في أن التعاطف الجليد بينه وبين الجمهور الأميركي كان عاملاً فعّالاً في استعجال ميلاد واقعه النفسي المتزن . وكانت نتبته لهذا الأمر ، فأفضى إلى هاسكل ، في ٥ شباط ١٩١٨ ، إثر الاحتفاء به في جمعية الشعر الأميركية ، بأن تلاوته قصائده أمام الناس تبعث فيه راحةً ومنتعة حقيقية ، ويردّ ذلك إلى « تغيّر الكائنات البشرية تغيّراً ملحوظاً في السنوات الثلاث الماضية إذ أصبحت جائعة للجمال والحق »^(٢) . والحقيقة أن شعوره الجليد كان ثمرة غائص نفسي جديد ، فتبدّل موقف الناس منه أسهم إلى حد بعيد في تبدّل موقفه منهم ، إذ ساعد المحبة في ذاته على الانتصار وشخصيته على الاتزان . يقول في رسالة لاحقة إلى هاسكل^(٣) ، بعد تكاثر الدعوات اليه وتعاظم الاهتمام بانجازه : « لا أعرف ... أين تقودني كل هذه الأشياء ، لكن لا ينبغي إلا أن أثق بالروح الأعظم الذي يجرسنا ويفقدنا نحو ذواتنا الفضلى » . فمن عوامل السلام النفسي لزاحة أسباب القلق والبغض يحصل صلات المرء الاجتماعية يسودها الهدوء والاتسجام بعد التوتر . فأن يكفّ النزاع الاجتماعي بين الإنسان وبينه يصبح في وسع علاقاته الشعورية أن تُحوّل القلق والبغض إلى حبٍّ وأمان^(٤) .

ثالثاً ، أحدثت الثورة الروسية تأثيراً عظيماً في نفسه ، فقد حَبَلَتْ إليه ولادة ذات جديدة في الإنسان ، حتى إنه يعلن في رسالة إلى ماري هاسكل

(١) رسالة ٢١ كانون الثاني ١٩١٨ . Ibid., p. 549.

(٢) رسالة ٥ شباط ١٩١٨ . Ibid., p. 556.

(٣) رسالة ١٨ آذار ١٩١٨ . Ibid., p. 563.

(٤) راجع I. SUTTIE, The Origin of Love and Hate, p. 53-55.

في ١٠ نيسان ١٩١٨ : « إن العالم اليوم يكتشف السماء من خلال المجهر »^(١) .
وكان لا بد من انكاس معنى التغيير والثورة على نفسه ، فتعباً لتبدل جلري
وولادة جديدة .

أما الحدث الحاسم فقد كان انتهاء الحرب العالمية الأولى . وحسبنا
الاستماع إلى ما ألقى به جبران ، في رسالته المتعاقبة ، إلى صديقه ماري ،
حتى ندرك أيّ فعل خطير كان لذلك الحدث الجلل في أصافه . لقد أجرى
فيه ، بلا ريب ، الانقلاب الضمني الذي سيؤد من فوضى الذات واضطرابها
الإنسان الخزن الجديد ، مثلما تولد من فوضى العالم القديم واضطرابه عالم
هادئ جديد . يقول في ١٨ تشرين الأول ١٩١٨ : « نعم ، إنها حقاً لأيام
وليال عجيبة . للمرة الأولى ، يبدو أن الإنسانية « تلاقى السيد في الحق » ،
وفجر اليوم الجديد انبثق حقاً »^(٢) . فكان جبران كان يعتقد أن نهاية الحرب
تعني بداية ملكوت المسيح في العالم ، والقيامة إلى الحياة في نفسه ، قبل
آية نفس أخرى . وفي ٧ تشرين الثاني ١٩١٨ يعلن : « من الضباب القائم وكبد
عالم جديد . إنه ليوم مقدس حقاً . بل لأقدس يوم منذ ميلاد يسوع ...
إن صوت الله في الريح »^(٣) . ثم يؤكد في السابع عشر من الشهر نفسه أن الله

The Letters of K. Gibran and M. Haskell, p. 564 (١)

ولم تكن ماري حاسكة أقل حساسة لتورة الروسية و « لنور العظيم » التي أحدثت في
العالم كله . يقول : « شمس أخرى أشرق - شمس بالقية ... والهيون كلها ترى بطريقة
عظيمة بعد طلوع الشمس » . انظر : Ibid, p. 520-521, 523, 552

(٢) Ibid, p. 583 ، والمبارة التي وضعها جبران بين مزدوجين مقبلة من كلام بولس
الرسول حيث يقول متحدثاً عن القيامة والأيام الأخيرة : « ثم نحن الأحياء الباقين نخطف
جميعاً معهم في السحب لتلاقي المسيح في الجو ، وهكذا نكون مع الرب دائماً » (١ كورنثوس
الاول ، الفصل الرابع : ١٦) . أما الحقنة فقد أعلنت في ١١ تشرين الثاني ١٩١٨ إلا أن
تأثير نهاية الحرب كانت قد أعلنت تظهر منذ صيف ١٩١٨ حينما بالثرت قوات المحور
انسحاباً تدريجياً من مختلف الميادين ، وهذا ما يفسر رسائل جبران الطفولية قبل تاريخ
الحدث .

The Letters of K. Gibran and M. Haskell, p. 585 (٣)

يقوم وراء ألف حجاب ، وإنّ العالم أسقط ، بانتهاء الحرب ، واحداً منها ، وأصبح أقرب إلى الله . فالتبدل حصل في كلّ شيء وفي كلّ إنسان ، ولا يسوغ القول إنّ فريقاً من البشر انتصر على فريق آخر ، بل إنّ انتصار الروح على ما هو أقلّ روحانية ، انتصار الأسمى في الإنسان على الأدنى فيه ^(١) .

نرى ، ألا يحمل تأكيد هذا صورة لما يحدث في نفسه : ولادة تراتب جديد تهيمن فيه القوى الروحية والذهنية على القوى الحسية في اتزان يتّبع انتصار الأسمى في الإنسان على الأدنى فيه ؟ إنّ الاضطراب حينما يستفحل لا بدّ له من أن يلد « مخلّصاً » ^(٢) . فما كانت ترجمته نفسه في « لكّة الأرض » تحقّق .

هكذا يشين واقع جيران النفس المتزّن ، بعد حدوث الانقلاب فيه ، وفق النظام الصحيح التالي : أ . ب . ج .



واقع جيران النفس المتزّن

(١) Ibid., p. 997

(٢) The Earth Gods, p. 24, 25 راجع

ملكوت السلام والائتزان النفسي : إن جبران كان واعياً بالتطور الحاصل في نفسه . فهو يعلن في « اليقظة الأخيرة » ^(١) تولي الليل بانصرام العهد السابق وانبثاق الصجر بولادة العهد الجديد . وما دام الليل قد أنهزم ، فابن الليل يجب أن يموت ليُبثَّ من رماده عبء أصفى وأبقى . وهو إذ يستعرض أمسه لا يتمالك من احتقار نفسه سبع مرّات ^(٢) . وبمرارة ييوح لرباره بأنغ أنه كان يهوذا ^(٣) ! غير أن يهوذا جبران ليس الخائن الملوّث الضمير ، كما يتصوره الناس ، بل مؤمن يسوع وتعاليمه ، لكنّه استهدف التوفيق بين الروحانية والرغبات الأرضية المشكّلة بمحبّة القوة والمجد الديويّين ، وهذا ما جعله رجل الآلام والمطامح الصغيرة الذي يصطاد نفسه إذا لم يجد غيرها صيداً ، ويشد ذاته العظمى لا بالترقي الروحي الحق بل بالانتحار ^(٤) . إن وضع يهوذا النفسي حسبما ينمّله جبران ينطبق على واقعه النفسي هو ، في عهد الاضطراب . فقد كان نظيره يتخذ يسوع مثله الأعلى ، لكنّ روحانيته لم تكن معافاة صافية ، فالطاقة الحسية المستفحلة كانت تعيش منها تعيش الطفيليات فتحرّمها غلامها وعافيتها . بيد أن جبران سيخلع يهوذا من نفسه بولادتها الجديدة . و « المدينة المباركة » التي كان غير حرّيّ باستيطانها في « المجنون » ، سيكتنّها في المرحلة الثالثة . هذه المدينة المقدّسة ليست سوى ذات جبران الجديدة يُحجّ إليها من داخل النفس لا من خارجها ^(٥) . سمّاها تسميات رمزيّة مختلفة ، غير أن مآلها إلى واحد : ملكوت السلام والائتزان النفسي .

وأول صورة واضحة المعالم لهذا الملكوت النفسي واجهنا بها رمز « الغلاب » في « المواكب » . يومها كان يُحيي جبران حنين عظيم لتحقيق ذاته وبلوغ

The Forerunner, p. 64 (١)

Sand and Foam, p. 8 (٢)

B. YOUNG, This man from Lebanon, p. 100 (٣)

(٤) راجع يسوع ابن الانسان - م . ك . م . ٢٢٠ - ٢٢٢ و ٢٥٦ .

Sand and Foam, p. 6 (٥)

الانتران ، ولكن نفسه لم تكن قد نهيأت بعد تماماً للتوحد « بالغاب » .
 « فالأرض المقدسة » كانت ما تزال « أرض الموعد » الذي يأمل تحقيقه .
 ويُسْتَبَدَّ أن يكون صحيحاً ما زعمه ميخائيل نعيمة من أن « في القصيدة تيارين
 » يمران في اتجاهين متعاكسين ، وليس من صلة بينهما إلا التي يقيمها
 خيال الشاعر في وجدان القارئ .^(١) ، فأرجع الظن أن الصوت الأول
 المستعرض واقع الاجتماع البشري الفاسد الشقي هو صوت الواقع النفسي
 الجبراني في أواخر المرحلة الثانية ، أما الصوت الثاني المستعرض ما في « الغاب »
 من قيم تمحي فيها التناقضات وتختفي المقاييس البشرية وتنهض الحياة إلى
 المطلق وتُسْتَجَلَى وحدة الوجود ، فإنما هو صوت مثلك الأعلى النابع من
 جماع نشاطه الإرادي والمهراق في لاوحيه الروحي الأسمى^(٢) المفتوح على الأبدية
 والله ، والذي أصبح لواقعه النفسي الراهن المحجبة المشددة والكمال المرغبي^(٣) .

(١) المبسوة الكاملة ، المقفلة ، ص ٣١ .

(٢) STOCKER, Etudes sur la psychologie de la personne (3e partie: y-a-t-il deux types de sorts d'inconscient ?); Traitement moral des nerfs (chap. : Les deux stades de l'inconscient); J. BERTHELEMY, Traité d'Esthétique, p. 91

فكلا الباشين ، من غير أن يهلا دور اللاشعور الفرويد في صلية توجيه نشاط الانساني ،
 يريان للإلهام الفني منبعاً رئيساً آخر في حجابات اللاشعور الروحي الأسمى .
 (٣) جبل « الغاب » رمزاً للحكوات الروحانية او الانتران النفسي مرده إلى عدة أديان : أولاً ، لأنها
 جزء بكر من الطبيعة لم تقسده يد الانسان ، والطبيعة البكر وجوان : وجه الأمومة (فهي من
 نماذجها البدائية الرئيسة) ووجه الروحانية ، فهي أم روحانية ، وجوانين الصفتين تشبع
 واقع جبران النفسي وحاجاته ، ثانياً ، لأن « الغاب » فرضت مداعامل جبران بكونها
 رمزاً نفسياً غنياً للقتل الباطن ، حيث تسمى سهادى الاجتماع البشري ومقاييسه وقيمه ؛
 لكن اللاشعور المنفي ، هنا ، ليس ذلك الممّ السفلي حيث الصراع قائم بين الذات والغرابت ،
 بل هو الروحي العلوي الذي مفتاح باب الكفن مثلاً بالذات والثناء ، ولذلك فالخلود من صفاته ،
 ذلك بأن الثاني يمثل الروح ، وأنه يمثل لتنها ، ولنة الأرواح بالغة بقاء الأرواح ، ثالثاً ،
 لأن رمز « الغاب » هزته مدلولات أخرى منها أنها كانت سرح أحلام جبران الطفولية
 البريئة ، وملاذ وسعته ، ومطلق نسلاته ونشاطه الفني ، ومنها أنه حرف فيها شبه الأول مع
 حلا الفساح ، فسوى في الغاب السيد والسمود والفني والفقير ، ولبست الحواجز وأزيلت
 انقلاص ليعتد قلبان ونفسان .

فليس بين الصوتين تناقض ، بل بينهما تواصل وتكامل يُلاحظان في عدة أناشيد من القصيدة . ففي حديثه عن الحياة وما فيها من هموم وأفراح يقول :

« فإن ترفعت حسن رغبة وعن كدٍ
جاورت ظلّ الذي حارت به الفكرة »^(١)

فيلتقي ، بذلك ، جوهر القناب حيث تزول التناقض وتسطع الحقيقة الإلهية . وفي كلامه على العلم يحلّ الحلم - حلم الفن - خير العلوم ، وأما الأحلام نبياً غريباً عن الدنيا ^(٢) ، وفي ذلك تواصل مع الفناء رمز الفن ومفتاح العالم النقي السعيد . وتُدوي أصداه المثل الأعلى في مفهومه للحب الحق ، إذ يحلّهُ منزّهاً عن الأغراض والشهوات الدنيوية التي فيها انتحاره :

« والحب إن قادت الأجسام موكبه
للى فراش من الأغراض يتحرّ ...

« والحب في الروح لا في الجسم نرفه
كالخمر قوحي لا لكثير ينصره »^(٣)

أفيمكن فصل هذا الصوت عن نداء القناب والماتف :

« إن حبّ الناس داءً بين لحم وعظام
« فإذا وليّ شباب ينحضي ذلك القام »^(٤)

وما أعلّنه الصوت الأول عن ضلال القائلين بثنائية النفس والجسد يؤكدُه ويوضحُه الصوت الثاني ^(٥) ، وقُل الشيء قسه عن وهم الموت وغلوط

(١) المواكب - م . ك . ج ٢ ، ص ٢٤٠ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٢٥١ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٢٥٩ و ٢٦٣ .

(٤) المصدر السابق ، ص ٢٥٩ ؛ انظر أيضاً صوت القناب ، ص ٢٦٠ و ٢٦٣ .

(٥) المصدر السابق ، ص ٢٦٧ .

الأثيري^(١) . فواقعُ جبران النفسي في أولئمر المرحلة الثانية اشتدَّ فيه أثرُ
الناصري إلى حدٍّ أنَّه أخذ يتغلغل في الجسم من مفاهيمه ، بحيث بات متحدِّراً ،
في مواطن كثيرة ، الفصل بين المثل الأعلى وللذات الجبرائية .

أمَّا الوضع البشري المردِّي في الفساد والشقاء فجبران يقف منه ، غير
للصوت الأول ، موقف المستعرض الراض ، لا المؤيد . لكنَّ رفضه لما
يبلغ فيه حدَّ التجسيد الحي الذي يوحد حياته ، والغاب ، ، فما تزال نفسه
تكافح ابتغاء لزالة الشوائب الأخيرة وفك القيود عنها لتستطيع التحليق صافيةً
حرَّة في جِواء الروح والاندماج بمثله الأعلى . ولعلَّ واقع هذا يجد غير تعبير
عنه في البيتين الآتيين :

« العيش في الغاب والأيام لو نُظِمَت
في قبضي لغدت في الغاب تنثرُ
« لكنَّ هو الدهرُ في نفسي له أربُّ
فكلما رمتُ غاباً قام يعتنرُ »^(٢) .

ولئن كان « النبي » قد وضعت صيغته النهائية في المرحلة الثالثة ، فإن
« مصطفىا » المتوحد جوهره بمثله الأعلى ، كان يلزم خيال جبران ويحتلَّ
ذهنه منذ الخامسة عشرة من عمره^(٣) ، مراققاً « راحله جميعاً ، ونامياً بنمو
الحكمة فيه ، حتى إذا ما نُبِّأت نفسه له عرشاً استراح فيها ملكاً . وفي
« المواكب » حيث تمثل « الغاب » « أورغليس » المصطفى القبطية ، بلغت
نفسية جبران ذروة جهدها لتتخلص من الاضطراب النفسي الزمن ، من
قيود الحسية وطاغوتها ، رجاء ولوج ملكوت السلام والائتزان الحق .

(١) المصدر السابق ، ص ٢٧١ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٢٧٥ ، وقد اجبر جبران كلمة « غاب » مفرداً ، في حين أنها جمع
« غابة » .

(٣) انظر 53، 55 ، B. YOUNG, This man from Lebanon ، « كلاك توفيق صانع : أسواء »

جديدة على جبران ، ص ٢٢٧ - ٢٢٨ .

ونشهد صيغة أخرى للكوت الأتزان النضي في « إرم ذات العماد »^(١) تلك التي جعلتها الأساطير مشيدة من الذهب والفضة والزمرد وكل حجر كريم ، وجعلها خيال جبران وحاجاته النفسية « مدينة الله » ، ضرباً من « أورشليم جديدة » ، ورمز « حالة روحية يبلغها أنبياء الله وأوليائه » . مدينة السلام الروحي هذه لم تُحجب عن الناس ، « ولكن الناس حجبوا نفوسهم عنها ، فمن يضل الوصول إليها فليشك دليله وحاديده بدلاً من مصاب الطريق وحراجتها » . أما الدليل والحادي فليسا سوى المتكامل الأهل الذي يحرك الإنسان ويدفعه ، مستطاباً نشاطه النضي . فان كان زائفاً ضلل صاحبه عن المحبة التي يريد بها مبعث سلام ومصدر أمان ، وإن كان صحيحاً فقد هداه سواء السبيل . ومتكامل جبران الأهل في « إرم ذات العماد » كان « آمنة العلوية » صورة جديدة للتأصري متحدة بالأمومة ، تكتنضها حالة من الروحية والأسرار فلا أحد يقوى على استبار أعماقها واستجلاء مكتوباتها ، في حين أنها أدركت الناس بغوص الناس ، إذ ترى ، بلحمة ، ما في ضمائرهم . « ولدت في صدر الله ... وكان ظهورها ... أشبه شيء بهبوط نيزك من الفضاء » . وهي كالأنبياء توحى الأرواح إليها ، وكالأنبياء اضطهدوا أئمة الدين وشيوخ العلم . زهدت بالدنيا وبالمال الذي حاول الرأالي إغرامها به لترك المدينة ، وانقطعت إلى التجسد ، منصرفة عن كل شيء سوى التمسق في الأسرار الربانية . اقتصرت وجهها معرفة الأجيال ، فباتت أقرب إلى المعبودات منها إلى العابدات ، فإذا ما قصدها المريدون وقفوا أمامها خاشعين جامدين كأنهم « بحضرة نبي من أنبياء الله » . وهي لم تبلغ مدينة السلام إلا بعد أن قطعت البادية الخالية وقاست ألم الجوع وحرقة العطش وكأبة الوحدة وهول الاقتراد .

ويبدو أن مراتب جبران النفسية المنتظمة تثلثت ، في هذه التثليثة ، برموز بشرية ، كل منها أعطى حقته فادى دوره ، في مركزه ، دونما اضطراب

(١) راجع البديع والطرائف - م . ك . ج ٢ ، ص ٢٦٦ - ٢٨٩ .

او تشويش . فالمرتبة الروحية تمتلكت في « زين العابدين » درويش عجمي صوفي جاب مشارق الأرض ومغاربها ، وظل غريباً في كل مكان . قصد آمنة العلوية ليستلهمها النور الإلهي ، لأنه لم يكن هو النور ، فهو يجا بنسور الشمس من بُعد ، لكنه لا يقوى على الحياة في الشمس . ومرتبة المعرفة الذهنية تمتلكت في « نجيب رحمه » ، واستقامت « هذه المرة » ، خصائصها من عدالة واحترام وإصابة حُكم ، ذلك بأنها باتت لا تنظر إلى الروحيات من خلال الحسيات ، كمهلها السابق ، بل تستوحىها من مصدرها مباشرة . ولأنها لُزمت حدّها ، وعرفت نفسها ، فما اغترت ولا ادعت ، غمرها نور الحقل الأهل الفاضل مباشرة من المطلق الصحيح ، فانصرفت تبحث عن الحقيقة بتجرد وتواضع وخشوع . يقول نجيب رحمه بعد أن تأتبه الهداية : « نعم ، وكُلتُ مسيحياً ، غير أنني أعلم أننا اذا جردنا الأديان مما تعلق بها من الزوائد المذهبية والاجتماعية وجدناها ديناً واحداً » . وإذا بنحاطب آمنة العلوية رمزَ الناصري ، يقول : « ما أنا يا سيدي سوى طفل يلثغ متلعثماً بما يريد بيانه ، فان سألتك عن أمر فيخشوع أسأل ، وإن استقصيت أمراً فإيمان وإخلاص » . وبعد أن يُقبَل يدها ، خاشعاً ، مُنكسر المامة يُعاهدُها قائلاً : « سأسير في نور المشعل الذي وضعه في يدي يا سيدي » . ومرتبة الحسبة تمتلكت في الناس الذين لا يرون إلا يعيونه ولا يسمعون إلا بأذانهم ، وهم غالبية البشر . يقول زين العابدين : « لقيتُ وحدثتُ ألفَ ألفٍ من الناس فلم أرَ سوى المكتفين بمحيطهم المستأنسين بإلثمهم ، المنصرفين عن العالم إلى القسحة الضيقة التي يرونها من العالم » . ولأنهم محمودون فهم مطبوعون « على حبّ المخلود من الحياة ، وشحّ البصر لا يرى غير ذراع من السبيل الذي تطلّاه قدماء ، وذراع من الحائط الذي يستند إليه ظهره » .

أمّا الصيغة الأخيرة للكروت الاتزان النفسي فهي « أوفليس » - مدينة السلام - تلك التي عاش فيها المصطفى وعلم ، وأعطى أبناءها من ذاته ، حقاً وبركة . والمصطفى هو مختارُ افصحيه ونبيه^(١) ، وهو الوسيط بين عالم الروح

(١) انبي - م . ك . م . ص ٨١ و ٨٦ .

وعالم البشر ^(١) ، شأن آمنة العلوية ، غير أن شخصيته ومبادئه أكثر تميزاً ووضوحاً . يقول المصطفى : « هل أنا قيثارة فلامسني يدُ القدير ، أم أنا زممار تضرعني أنفاسه ؟ ... » وإن كانت هذه هي الساعة التي يجدر بي أن أرفع مصباحي وأضيء إنياء حل منارتي ، فإنّ النور الذي يتصاعد منه ليس مني ، لأنني سأرفع مصباحي فارغاً مظلماً ، ولكنّ حارس الليل سيملاؤه زيتاً ، وسينيره أيضاً ^(٢) . (انظر رسم « النبي » كما تخيله جبران - رقم ١٠٠) .

ومع « النبي » بدأ جبران تأدية دوره الرسولي الحقّ الذي يمكن لإجماله باعتزاه أن يُخرج من الغرب الماديّ وروحانيّة دافقة كما أخرج المسيح الروحانيّة من المدينة الرومانيّة الماديّة ^(٣) . وفي سبيل ذلك لم يقتصر دوره على الكتابة النظرية ، بل كان يُجسّد عملياً ما يكتبه . وهذا ما أُلح إليه ، سنة ١٩٢٠ ، قائلا : « غير أنني سجتُ في « النبي » مثلاً مُعيّنة - وأرغب أن أعيش هذه المثّل . فما يهمّني ليس أن أكتبها : فمجرد كتابتها يبلّو لي أمراً كاذباً . إني لا أستطيع أن أتقبلها إلاّ عن طريق عيشي لها ^(٤) . وتجسده إنياءها كلّفه تضحيات جمة ^(٥) . يقول غزاد أفرام البستاني قتلّاً عن بربره ياتع : « كان له

(١) يقول بولس الرسول : « لأن الله واحد والوسيط بين الله والناس واحد وهو الانسان يسوع المسيح » (تيموثاوس ٢ : ٥) . وإنّ أحمد ، في وجدان جبران ، يسوع بالمصطفى وآمنة العلوية ، أصبح كل من هذين الأخيرين وسيطاً بين عالم الروح وعالم البشر .

(٢) النبي - م . ك . م . ص ٨٤ .

(٣) انظر حبيب محمود : جبران حياً وميتاً ، ص ٥٨٦ - ٥٨٧ . وفصول القول لأرنولد بنيت النبي أعلن أيضاً : « يكتبني الغرب فخرأ أن يذكر جبران خليل جبران بمؤلفاته الانكليزية أميركا الماديّة بالثروة ومزائير دلمود وتعاليم المسيح » . وكان جبران يدرك ، منه طلع حياته الأدبية ، أن عليه أن يحقّق دوراً رسولياً ، لكنّ رغبت لم يتجّ لها التحقق إلاّ في المرحلة الثالثة (انظر جان لوسيفر : النزعات الصوفية عند جبران خليل جبران ، ص ٣٠) .

(٤) توفيق صايغ : أضواء جديدة على جبران ، ص ٢٢٨ .

(٥) نورد ، حل سبيل المثال ، حادثة ذكرتها بربره ياتع . قالت : « لقد روى لي شيئاً من قصة تتعلق بعملية جارية كان قد سحّ نفسه أن يتورط فيها فأصبح مبلغ كبير من ماله مهدداً بالضياع . وكانت في العملية المذكورة امرأتان . فقال : « حل أن أخلصي هاتين المرأتين



(رسم رقم ١٠٠)

« النبي » - ١٩٢٠ -

لذلك خاصة في عمل الخير على شكل تخفيف مصاعب الحياة عن المتعبين ، تشهد بذلك أخته مريانا التي طالما كتبتها أن تُوزع الاحسان من قبلكه حصل فقراء اللبانيين في بوسطن ، كما كان يتولى الواجب نفسه بواسطة الراهبات في نيويورك . وتشهد بذلك وصيته ، وقد ترك فيها القسم الأكبر من منتجات كتبه في سبيل فقراء مسقط رأسه بشري^(١) .

— أو أن أصبر المال كله . وقد جعلني إيمان ، وحزرت كتاب « النبي » في وجهي قائلة : « أنت صاحب هذا الكتاب ... لماذا أنت حزين أن تفعل ؟ »
 « وسكت لحظة ثم جاد فأكلت متأكلا : هل أستطيع وأنا المؤمن بما كتبت أن أضع أمام قاص وأهم هاتين المرأتين ؟ هل أستطيع أن أحمل نسبة الشهادة فأنتشر لإمانتهما ؟ »
 « وكان في صوته وجهه الجواب على سؤاله : لا ، إنه ما كان يقدر أن يفعل ذلك . ولذا قلت له : « إنك لن تقدر أن تفعل ذلك وأنت من أنت ؟ »
 « فلما سمع ذلك جني صفا وجهه وقال : « كل أسعفاقي يقولون لي أن أسترده المال . ولكن لو قدر لي أن أسترده فلن أستطيع معتد أن أنتج كتاب « النبي » مرة ثانية . »
 « وكتب بعد ذلك بأمانة : هل تصالحة ورق : « دع النبي يحس برهائك بدمه المظنين يأخذ رداك فلعلم يحتاجه ثانية . أما أنت فليست بحاجة إليه . » (هذا الرجل من لبنان ، ص ٤٧) .
 (١) المشرق م ٢٧ (١٩٣٩) ، ص ٢٦٣ . أما وصية جبران فهي ما يأتي نصها : « تقلا عن « جبران حيا » و « بيتا » لحبيب مسعود ، ص ٥٣٠ : « عند وفاتي أريد أن تعطى أخي ماري خليل جبران القضاة في عدد ٧٦ شارع تيلر في بوسطن من ولاية ماسشوسيتس كل المال والأشياء التي تملكها السيد ادغر سبارب بالاحتفاظ بما لي .

وهناك أيضا ٤٠ « اربعم » حصة في شركة محترفات ٥١ « غربي الشارع المشرق مودعة في صندوق « ماسي للتأمين في مصرف شركة متحالفين ترست عدد ٣١ يونيون سكوير بنيويورك ، فهذه الخمص تعطى لكاف لأخي .

وهناك ثلاثة حل ما ذكر آنفا مقران للإهدامات في مصرف وست سايه التوفيري في عدد ٤٢٢ الأثير الساس بنيويورك وحيا في محترفي . فأريد أن تأخذ أخي هذا المال إلى بلدي بشري في الجمهورية اللبنانية وتنفقه في سبيل الخيرات .

أما ريع حقوق الطبع من كتبتي - تلك الحقوق التي حل ما أعلم يمكن تجهدها لمدة ثمانية وعشرين عاما بعد موتي يطلب من وراثتي فيعطى لبلدي بشري .

وكل ما يوجد في محترفي بعد موتي من صور وكتب وأشياء فنية وما شاكل يعطى لمسي ماري بشكل مايس القضاة اليوم في عدد ٢٩ « غربي شارع فاستون من مدينة سالامنا في ولاية جوردجيا . ولكني أريد أن ترسل مسز مايس كل هذه الأشياء أو تقسمها إلى بلدي بشري

وأن تكون رسالة جبران مرتبطة لا بنضجه الروحي واتزانة النفسي فقط ، بل بالخط الرسولي الذي أطلعت به بلاده أيضاً ، فأمر يسوع قبوله . وبهذا الصدد يقول جان لوسيفر : « جرت في وطنه مضامرة خطيرة أخرى لاكتشاف أعمدة العالم الروحي ، إذ لم يحفل أي بلد في العالم كما حفل وطنه برواد الفكر الديني أو الميتافيزيقي وبالأنبيا مؤسسي الأديان . فلقد كانت آسيا الوسطى موطناً لنفحات الروح . وإن كل اكتشاف جديد يحمل الدليل على شدة هذا النشاط في الفكر الصوفي ^(١) سواء كان ذلك نصوص رأس شمرا أو مخطوطات البحر الميت ... غير أنه مما لا شك فيه أن جبران قد ظهر فجأة كتجسيد جديد لروح القلق الميتافيزيقي وللعمل على كشف أسرار مصرنا . وهذه ميزة لشعوب أراضي سورية ولبنان المقدسة الغنية بمواجهها ^(٢) .

ميزة هذا العهد: يمكن إجمالها في خاصتين : وحدة الشخصية وسلامها ، واكتفاء المراتب النفسية الثلاث . فجبران يصور في « السري الجمع » وحشاً ذا رأس بشري وحوافر حديدية ، يأكل من الأرض ويشرب من البحر بلا انقطاع . ولعله رمز به إلى الطاقة الحسية المستغلة . وإذ يسأله جبران وقد تحركت فيه المعرفة : « ألم تبلغ كفافك بعد ؟ » يجيب : « نعم ، قد بلغت كفاي ، بل إنني ملئت الأكل والشرب ، ولكنني أخاف أن لا يبقى ، في الغد ، أرض أأكل منها وبحر أرثويته ^(٣) . وهذه المرتبة الوحشية التي تغاقم سلطانها عهد الاضطراب ، كان لا بد من أن تدعن ، أخيراً ، وتلزم حدها ، فلا

— إذا رأت ذلك مناسباً .

١ . غربي الشارع الماثر نيويورك في ١٢ آذار سنة ١٩٣٠

الشارع : لبنانك - ١٥٠ ويقر سايه درايف - نيويورك

غربي لورش - ٢٥ الأفتو الخامس - نيويورك

(١) ينبغي أن تفهم « الصوفية » ، هنا ، وفي سياق بحث لوسيفر بمعنى النزعة الروحية والميتافيزيقية ولا علاقة لها بما بالتصوف العربي .

(٢) النزعات الصوفية عند جبران خليل جبران ، ص ٢٥ - ٢٦ .

The Forerunner, p. 29

تستعمل ولا تتجبر ، ولا تطمع في اغتصاب حقوق غيرها ، وإلا هُددت
 « بلديها » تحريراً لذات من طغيانها ^(١) . وقد مثل جبران وضعها - المتطوي
 على حب السيطرة والشهوة والمجد والقوة الدنيوية - بملك على مدينة « عيشانا » ^(٢)
 وأوان « وليد للملك صبي » وريث ، وردته أنباء موت عبده الألد ، فتضاعف
 فرحه . لكنه إذ يستنطق نبي المدينة عن مصير ولده يخبره بأن « نفس عبده
 الميت تقمّصت جسد وحيد » . فيتنفّض الملك المستبد غضباً ويقطع رأس
 النبي بسيفه . غير أن حقيقة النبي الروحية لن تموت ، بينما يبقى وجود
 الحاكم الفاشم مهتداً بأن يقتله سليل صليبه . هذه الحقيقة عبّر عنها جبران ،
 في موضع آخر ، بقوله : « كلُّ تشنّين يلدُ جورجس يقتله » ^(٣) .

وبعد ضياع طويل وجهادٍ مرير انتهى جبران إلى ذاته المتظمة ، وقد رمزَ
 إليها « بملك ناسك » ^(٤) تخلّى عن أعياد مملكته ، ليعتزل في الغاب ، بعد أن
 اضطفت « قاعُ غروره » . وإذ يسأل « الملكُ الناسك » « جبران - المعرفة » :
 « ما عساك تبغي في هذه الغابة الزلاء ، يا صاح ؟ أجبتَ تشنّدُ ذاتاً ضائعة
 في الظلال الخضراء ؟ ... » يجيبه : « إنني ما تشنّدُ إلاك » .

وبوعى فريد يستجلي جبران في ذاته وكلّ ذات إنسانية طبقات ثلاثاً إنما
 هي معادلات المراتب النفسية : إلهية رفيعة وبشرية عادية ومسخة دنيسة .
 والذات الإلهية هي الغاية ، واليهما يجب أن تتجه الطاقات كلّها ^(٥) . وإنسا
 الصلاح هو وحدة الذات في مراتبها جميعاً ، ومن غير الوحدة لا تكون الذات

(١) Ibid., p. 55-56

(٢) Ibid., p. 41-43

(٣) Sand and Foam, p. 15

(٤) The Forerunner, p. 17-21

(٥) النبي - م . ك . م . ص ١٠٦ - ١٠٧ . هذه الطاقات الجبرانية الثلاث يمكن أن تقابل ،
 أيضاً ، الثلاث القبريدي : « الأنا الأمل » ، « و » « الأنا » ، « و » « الهو » أو النفس السفلى .
 لكن الذات الإلهية أو الروحية ، عند جبران ، أقرب إلى مفهوم « الذات » لدى يونغ منها
 إلى مفهوم « الأنا الأمل » لدى فرويد .

قادرة على العطاء الحقّ ، ومثلما أنّ العطاء حاجة طبيعية في المرتبة الروحية ، فالأخذ حاجة طبيعية أيضاً في المرتبة الحسية . « فالثمرة لا تستطيع أن تقول للجذر : « كُنْ مثلي فاضجاً ، جميلاً ، جواداً ، يبذل كل ما فيه لأجل غيره . لأنّ العطاء حاجة من حاجات الثمرة لا تعيش بدونها ، كما أنّ الأخذ حاجة من حاجات الجذر لا يحيا بغيرها » ^(١) . فالإنسان النفسي لا يعني قهر الطاقة الحسية ، بل العيش حياة شريفة متكامل فيها القوى ويلزم كل منها حدّه ^(٢) . « فلا صراع بين النفس والجسد إلا في أذهان الذين نفوسهم حاجة وأجسادهم فيها نفاذ عن التناغم » ^(٣) . ولا تكون الولادة الثانية إلا عندما يتراوج النفس والجسد حقاً ^(٤) .

إذ ذاك ، يتجلى السلام في النفس ، وإنّما السلام قوّة صامتة تثمرها الذات الموحدة ^(٥) . يقول المصطفى : « كثيراً ما تكون نفوسكم ميداناً تُسبّر فيه عقولكم ومدارككم حرباً عواناً على أهوائكم وشهواتكم . وإنّي أودّ أن أكون صانع سلام في نفوسكم ، فأحوك ما فيكم من تنافر وخصام الى وحدة وسلام . ولكن أنى يكون لي ذلك ، اذا لم تصيروا أنتم صانعي سلام لنفوسكم ومحبتين جميع عناصركم على السواء » ^(٦) . وهكذا تتحرر الذات بعملية داخلية تُحطّم فيها السلاسل التي قيّدت نفسها بها ، فالإنسان الذي يريد خلع طاغية عليه أن ينظر ، أولاً ، اذا كان عرش الظلم في أعماقه قد تهدّم . وليست حرية الذات محدّدة ، فهي تتسع وتتكامل بتكامل الارتقاء النفسي . ففي مجرى التقدم نحو الله ، كلّ حرية تصبح قيّداً لحرية أعظم ، وكل نور يُصبح ظلاً

(١) المصدر السابق ، ص ١٢٣ - ١٢٤ ؛ راجع كذلك :

STOCKER, De la Psychanalyse à la Psychosynthèse, p. 95-114

Sand and Foam, p. 31 (٢)

Ibid., p. 10 (٣)

Ibid., p. 4 (٤)

(٥) النبي - م. د. م. - ص ١٠١ .

(٦) المصدر السابق ، ص ١١٤ .

لنور أكبر^(١) . وليحافظ الإنسان على اتزانهِ يجب أن يكون الله حاجته الوحيدة ، لأنه ذاته المجتَمعة ، وهكذا لا يبقى الدين شيئاً خارجاً عن النفس ، بل يكون الحياة عينها حلاًّ وتأملاًّ ودعشة ، بحيث يستحيل فصل ساعات الحياة وتخصيص بعضها لله وبعضها للإنسان ، ما دام الجسد والنفس وحدة^(٢) .

أما الخاصّة الثّانية في الشخصية المتّزنة الآمنة فهي اكتفاء كلٍّ من مراتبها النفسيّة . فلا اكتفاء الروحيّ بصوّره جبران بطائر يخرج من أعماق قلبه ، ويصعد في الفضاء محطّاً ، متعاضداً ، حتى يندو كسحابة الربيع اتّساعاً ، فيملأ السماوات . إنّه ذاته الروحيّة التي تجاوزت المادّة فيه ، وحطمت قيود اللحم والدّم وما برحت فيه ، واليها نحن سائر قواه^(٣) .

وإذا لم تكن الطّاقة الروحيّة مشبعة ، فاتّزان الذات يختلّ ، وكلّ عمل يفقد صحته ، ولا يكون بالتالي حبّاً أو صداقة حقيقيّان ، إذ الحبّ عطاء دائم ، وأنّ يُعطى الإنسان يعني أن يملك شيئاً ، وأن يملك شيئاً يعني أنه ، نفسياً وعقليّاً ، قويّ قادر . وإذا لم يتّسم العطاء بالدعومة يكون غالباً ناعماً مسنّ الماطقة وقوّة اللحظة . فإذا كان الأب ، مثلاً ، مصاباً بمرض نفسيّ ، فانه سيبحث عمّا يملأ فراغه ويهدّئ عصابه ، وقد يتّجه الى ولده فيتملّك به لأنه يمثلّ له أمانه ويُشبع ضعفه ، فيظنّ الوالد ، أنّه ، في هذه الحالة ، يُعطي ، بينما هو ، في الواقع ، يأخذ^(٤) . وقد مثّل جبران هذه الحقيقة البكولوجية بقوله : « المحبة لا تُعطي إلاّ نفسها ، ولا تأخذ إلاّ من نفسها . المحبة لا تخلّك

(١) المصدر السابق ، ص ١١٢ - ١١٤ . انظر أيضاً حول الحرية الداخليّة : البدائع والطرائف - م . ك : « الاستقلال والحرية » ، ص ٢١٣ - ٢١٤ . كذلك :

The Forerunner : « The Lion's Daughter » , p. 22-25

(٢) المصدر السابق ، ص ١٣٢ - ١٣٤ . راجع ، أيضاً ، البدائع والطرائف - م . ك . ج ٣ : « إرم ذات العماد » ، ص ٢٧٨ - ٢٧٩ .

(٣) The Forerunner : « Out of my deeper Heart » , p. 39-40

(٤) P. DACO, Les prodigieuses victoires de la psychologie moderne, p. 14-16

شيئاً ، ولا تريد أن يملكها أحد ، لأنّ المحبة مكفية بالمحبة » (١) .

ولئن كان المرتبة الروحية الصادرة في الشخصية المتزنة ، فمرتبة المعرفة الذهنية ينبغي أن تحتل المركز الثاني ، وتحصل على اكتفائها ، وهذا ما نشهده في مؤلفات المرحلة الثالثة ابتداء من « السابق » . والمعرفة الصحيحة تعني العدالة والحكم الصائب التريه واحترام موضوعية القيم والأشخاص والأشياء .

ويشبه جبران الطائفتين الذهنية والروحية بحية وحسّون يرمزان الى العالم والشاعر » (٢) . فالحسّون يُقرّ للحية بحكمتها ومزاياها ، ومع ذلك يُلْزامه شعور الأسف على عجزها عن الطيران . والمعرفة اذا كانت في وضعها الصحيح تلافت الوقوع في الأخطاء والانزلاق في مزالات الضلال ، وإلا تشوّعت في رؤيتها القبيّسة وانقلبت المفاهيم والموازن (٣) .

فالمعرفة الصحيحة تقضي على الآباء بأن يُدرّكوا أنّ أولادهم ليسوا مُلكاً لهم . فبوسع الجيل الماضي محض الجيل الطالع محبة ، لكنه لا يستطيع أن يفرس فيه بذور أفكاره ، لأنّ الحياة الجديدة أفكاراً خاصة بها . وفي طاقة الآباء أن يصنعوا المساكن لأجساد أبنائهم ، لكنّ نفوس هؤلاء لا تقطن في مساكن أولئك ، لأنّ لها ماوى الفرد الذي يصجز الآباء عن زيارته حتى في أحلامهم (٤) . والمعرفة الصحيحة تُكلم المعلم ألا يأمر تلاميذه أن يلبجوا بيت حكمته ، لكنّ أن يقودهم الى عتبة أفكارهم وحكمتهم (٥) . أمّا الشرائع فلا تستقيم إلا اذا غسرتُها الروحانية بنورها ، لأنّ من يُولّدون الشمس ظهورهم لا يُبصرون سوى ظلالها

(١) النبي - م . ك . م . ص ٨٨ .

(٢) The Forerunner : « The Scholar and the Poet , p. 47-49

(٣) Ibid. : « God's Fool » , p. 9-14

(٤) راجع النبي - م . ك . م . : « الآباء » ، ص ٩١ ؛ كذلك :

The Wanderer : « The Madman » , p. 42-43

انظر ، أيضاً : A. STOCKER, De la Psychanalyse à la Psychosynthèse , p. 108-109

(٥) راجع النبي - م . ك . م . : « التعليم » ، ص ١١٨ .

مُعدَّة أمامهم ، وظلالهم تُصبح لهم شرائع مقدَّسة ^(١) . إنه النبيّ الأرضيّ المتّصلب يُشرِّع مُطلقاً إلهياً ثابتاً ، وذلك مصدر قلقٍ واضطراب .

وعهدٌ كانت مرتبة المعرفة مظلومة ، كان جيران يحسب الناس الذين : واحداً ضعيفاً يرقّ له أو يزديه ، وآخر قوياً يتبعه أو يتمرد عليه . أمّا بعد أن استعادت المعرفة منصبها وحقّها ، واستوى انتظامه النفسيّ بات يقول : « أمّا الآن فقد علمتُ أنّي كُؤُتُ فرداً ممّا كُؤُن البشرُ منه جماعة . فعناصري عناصرهم ، وطويّتي طويّتهم ، ومنازعي منازعهم ، ومحجّتي محجّتهم . فإنّ أذنبوا فأنا المُذنب ، وإن أحسنوا عملاً فأخسرتُ بعملهم ، وإن نهضوا نهضتُ وإيناهم ، وإن تقاعدوا تقاعدتُ معهم » ^(٢) . وذلك لأنّ من يقف في النور يترك « أن الرجل المتّصلب والرجل الساقط على الأرض هما بالحقيقة رجل واحد واقف في الشفق بين ليل ذاته المسموخة ونهار ذاته الإلهيّة » . فليس من إنسان إلّا يحمل نصيبه من بعة الذنب الذي يقرّفه سواء « لأن جذور الشجرة الشريّبة وجذور الشجرة الصالحة ، الثمرة وغير الثمرة ، كلّها متشبّكة معاً في قلب الأرض الصامت » ^(٣) .

واكتفاء المرتبة الحسّية لا يعني تحمّتها ، لكنّ رفع الحيف عنها ، وإلزامها حدّها ، فلا تُظلم ولا تُظلم . وطبيعيّ أن الطاقة الحسّية لن يمكنها استعادة عافيتها ، بعد تضخّمها المرضيّ ، زمناً مديداً ، إلّا بالتنازل عن مطامع وشهوات وافرة . ولذا كان عليها أن تتعلّم الائتلاف مع وحدة الذات . فالقوة لا تستقيم إلّا بتخصّيبها بروحانيّة المحبة والشفقة . هكذا يداخل « الستور » عطف ورقة ، ويدل أن تلوس حوافره أجساد الصّحايا يحنو عليها (راجع رسم رقم ٨٦) . ويرتدع الحبُّ عن نزواته الشقيّة ليُفتنّن

(١) المصدر السابق : « الشرائع » ، ص ١١١ .

(٢) البدائع والطرائف - م . ك . ج ٢ : « ومظني نفسي » ، ص ٢٠١ .

(٣) راجع النبي - م . ك . م : « الجرائم والمفويات » ، ص ١٠٨ - ١٠٩ .

بروحانية الفن والجمال^(١). بيد أن حق المرتبة الحسبة يبقى مصوناً، إنما من ضمن وحدة الذات. فاللذة زهرة الرغبات، لكنها ليست الثمرة، وجميل أن يترسم بها الإنسان في اصاقه، لكن شرط ألا يستسلم لغناها. ومن يسع وراءها فلينبقب حولها، وإذ ذاك، لن يجدها وحدها، بل سيلقى سبع شقيقات لها أحقرهن أو فر جمالاً منها. أما كبت الشهوة فلا ينفع، لأن جسدك يعرف حاجاته الضرورية وميراثه الحقيقي، فلا يستطيع أحسداً أن يخذله... جسدك هو قيثارة فضلك، وأنت وحدك تستطيع أن تخرج منها أنغاماً فتاة أو أصواتاً مشوشة مضطربة^(٢).

غير أن المرتبة الحسبة كانت تُسمّى، أحياناً، بالضميم، إذ يُكثّف جبران جسده جهداً وضئياً أكثر مما يطيق. ويشدّد الخناق على غرائزه فتؤلمه، لكن من غير أن تحدث اضطراباً وخللاً في اتزانته النفسي. وقد يشهد على ذلك حلم جبران الذي رواه ميخائيل نعيمة^(٣). فتفسيره السيكولوجي استناداً إلى كارل يونغ « يخالف تماماً ما ذهب إليه صاحب «مرداد» . فالصخرة المعزولة وسط النهر التي انقرض جبران عليها تُبثّل وحدته القاسية الموجعة،

(١) يقول جبران لماري هلسكل : سنة ١٩٢١ : « عندما يجبرك فنان ما أنه لا يستخدم الأجساد العارية ليفرج عن الجنس في ذاته ، وأن الجسد العاري لا قيمة جنسية له بالنسبة إليه - فصدقيه ، انه يقول الحقيقة إن كان فناناً فعلاً » (توفيق صايغ : أضواء جديدة على جبران ، ص ٢١٠) . ويقول فؤاد افرام البستاني نقلاً عن بربراه بانغ التي لازمت جبران في السنوات السبع الأخيرة من حياته : « إن جبران كان في جميع علاقاته روحانياً سائماً يترفع عن الشهوات البشرية . كان همه من ذلك الحب الصوري الشديد الميام المنفى بالفن والجمال المتخللين من القيود الأرضية . هو روحاني في نظرائه ، في آحاديثه ، في علاقاته جميعها ... لا أعرف له علاقة غرامية واحدة » . وتذكر بانغ أن جبران روى لها حكايته مع سيدة أميركية التقاه في حفلة شاي عند أحد اللبنانيين ، فدعته إلى حفلة شاي في منزلها ، وإذ قصدها ووجدتها وحيدة استفسر عن سائر المدعوين . فأجابته : لا مدعوين غيرك . فنحن وحدنا. فكان أن غادرها مستغراً ، ولم يلحقها ثانية. (المشرق م ٢٧ (١٩٣٩) ص ٢٦٦-٢٦٧) . انظر ، أيضاً ، جريدة « النهار » عدد ٧٢/٨/١٨ .

(٢) راجع النسي - م . ك . م : « اللذة » ، ص ١٢٧ - ١٣٠ .

(٣) ميخائيل نعيمة : جبران خليل جبران ، ص ١٧١ .

وما الأسمى التي ألتفت عليه سوى رمز لطاقته الحسية وحاجاته الجسدية التي كان يقسو عليها ، أحياناً ، حتى كاد يرمقها ، وقد انسلت الأسمى من النهر ، رمز عقله الباطن ، لتطالب بحقها المهضوم ، منلرة إياه بالحق الأذى بحسه إذا استمر في وحدته المضنية وعمله الشاق الدائب ^(١) .

ونتيجة اكتفاء الطاقات النفسية الثلاث ، بصورة عامة ، والتمزام مرتبة المعرفة وضمها الصحيح اقترن موقف جبران الفني الرأفي بموقف اجتماعي عملي متوازن . فبعد أن كان ، عهد الاضطراب ، لا يرى من الحياة إلا شقاً واحداً ، غالباً ما كان وليد الحلم ، أو وليد عقله الباطن وأزماته ، أمسى في عهد الاتزان يرى الحياة في شقيها : فالحلم اقترن بالواقع ، وغدا للحياة لحمة وسدّى ووجه وقفاً ، واكتملت آفاق الرؤية أمام عينيه ، لأن فيها أضاء سراج الحكمة . وهذا التكامل يظهر ، من جهة ، في صرف بعض همة الى تنظيم قضاياها المالية وشؤون حياته العملية ، مما لم يألّفه من قبل ، حتى يعترف لما يري هاسكل أنه ، بعد أن عاش دائماً في جانب من جدار الحياة ، يحسن به أن يعرف الجانب الآخر ، وإذا أخطأ أو فشل فلن يدع المصاعب تقهره ، بل سيحاول الانتصار عليها ^(٢) ، ومن جهة أخرى ، يبدو في تزاوج الواقع والحلم عبر أدبه ، وحسبك أن تسرح الطرف في « السابق » و « النبي » و « يسوع ابن الانسان » و « التائه » حتى تدرك حقيقة الأمر : فشجرة الخيال عرقت في أرض الواقع ، والحكمة حالفت الرؤيا الشعرية . ولعل في خطبة فرانكل خبر ما يوضح هذه الناحية إذ يقول : « هو كجميع عظماء الشرق ، كبير الأحلام ، بعيدها ، بيد أن أحلامه كلتها فلسفة عملية . فهو يدعو الناس الى التأمل في نجوم السماء ، ولكنه لا يجعلهم يتناسون أنهم أبناء الأرض ...

(١) راجع C. G. JUNG, Psychologie de l'Inconscient, p. 154, 159, 167; — C.G. JUNG, L'homme et ses symboles, p. 49-50

(٢) راجع رسائل ٤ المجلد ٣ نشرين الأول ١٩٢٤ و ١٩ آذار ١٩٢٥ ، و ٨ نشرين الثاني The Letters of K. Gibran and M. Haskell, p. 653, 654-655, 661-662, 671-١٩٢٩

وهو لا يحقر كالتناسك المتخشف رفاة العيش وطيبات الأرض، ولكنه يعرف جيداً كيف يُمَيِّز بين الطيبات التي تزيد في كمال الحياة وعزمها ، وتلك التي تُضَلِّها وتعمل على فقرها وذُلِّها ... ولذلك أقول إنَّ هذا الرجل ليس حالماً ورائياً فحسب ، بل هو فيلسوف بالغ الحكمة في إيضاح ما خفي من أسرار الحياة ومكنوناتها . وإذا حلَّتْ أفكاره وفلسفته اتفُتِحَ لك أنَّ الفلسفة النابعة من كلِّ جزء من أجزائها لا تنحصر بالفرد ، بل هي فلسفة اجتماعية إذا أدركت الجماعات والشعوب فحواها وعملت بها كانت خير وسيلة لسعادتهم وطمأنيتهم في هذه الأرض ^(١) . ولا ريب في أنَّ مرحلة الاتزان ساعدت جبران على إبداع أدب عَقَلَ فيهِ الروحانية وجعلها عملية ، كما حاول توليد ذاتٍ مُخَلَّصة جديدة من تزواج النفيسة الشرقية والنفيسة الغربية ، ولعلَّ في هذا الائتلاف بعض ما يوضح سرَّ رواج مؤلفاته الانكليزية ولا سيما « النبي » في العالم الانكلوساكسوني .

وفي رسوم جبران قعُّ على عَدَدٍ لا يُسْتَهَانُ به من النماذج التي يصحُّ أن تكون إسقاطاً لمراتبه النفسية الثلاث في عهد الاتزان ، وقد ميَّزنا فيها ثلاثة أنماط : النمط الأوَّل - وهو يعود الى عهد « النبي » - يمثل وحدة الذات وسلامها على تعدُّد الطاقات النفسية فيها ، ولعله توضيح لفكرة جبران : « أنت صالِحٌ ، يا صاح ، إذا كنتَ واحداً مع ذاتك » ^(٢) . ففي الرسم (رقم ١٠١) ثلاثة أجساد متمدة في الفضاء ، منعطفة أعناقها الى الوراء ، كأنها مستسلمة لخيفة عليا ، وهي متناسقة الوضع والحركة ، ومن بينها تخرج ذات مُصْعَدَةٌ الى العلاء وقد لفها بعضُ الضباب . وتكرَّرُ الفكرة نفسها في الرسم (رقم ١٠٢) لكن ضمن إطار مختلف كأنه أكدياسُ تُرابٍ أو رُكَّامُ سحابٍ ، ونسرى الأجساد نصيرة مُعَاوَاة ، والوجوه مُطمئنة راضية مُخَالفا في سُهاد ، وتشر

(١) جوبب سمود : جبران حياً وميتاً ، ص ٥٦٧ ، ٥٦٨ ، ٥٦٩ ، ٥٧٠ .

(٢) النبي - م . ك . م . ص ١٢٢ .

بالسلام والاكتفاء ييمنان عليها جميعاً ، وبمجازية الروح تُفسح وراء رأس
 الذات المتسامية فرجةً من نور كأنها مدخل الى ملأ الأرواح . أمّا الرسم
 (رقم ١٠٣) فيُمثّل طاقات الذات الثلاث في وحدة اتزانها على تفاوت
 مراتبها : فهي إطار طبيعي يبدو ثلاثة أشخاص في انسجام تامّ على أوضاعهم
 المختلفة ؛ فأحدُهم قاعدٌ على الحضيض ، حانياً جذعه ، حاجباً وجهه ،
 مُطأطأ رأسه حتى الأرض ؛ والثاني متصب ، رجله اليسرى تلامس الترى
 ورجله اليسرى تخطّ ساقَ الأول برفق ، إلا أنه ، نظير رفيقه الأدنى ،
 يحجب وجهه . بينما تُشرف من فوقهما ، وكأنها خارجة منهما ، ذاتٌ
 أنثوية الشكل فاتنة التكوين ، ملء عينيها النقاوة والمحبة والسلام ؛ إنها ، في
 أرجع الظن ، رمز الطاقة الروحية التي استعادت منصبها ومجدها في هذا
 الدور ، تُهيمن على طاقة المعرفة وقد تواضعت لها ، وعلى طاقة الحسية وقد
 خضعت لأختها ، ولزمت مرتبتها الدنيا . والنمط الثاني - ويعود الى أواخر
 حياته - يُمثّل ثلاث ذوات في اكتفاء وانسجام تامين . فالرسم (رقم ١٠٤)
 يواجهك فيه ثلاثة أشخاص ذوي قوّة وعافية ، تلاحظهم مشرّكين في التفاهم
 والسلام وتشابه الأجسام المكثرة المضل ، لكنّ الأوسط منهم يبدو لك أنه
 القائد الموجه ، ولعله يُمثّل الطاقة الروحية وقد اتحدت فيها المحبةُ
 بالقوّة ، بينما يُمثّل الذي عن يمينه طاقة المعرفة ، والذي عن يساره طاقة
 الحسية وقد تجرّدت من عدائيتها وشفّت عن حبّ متنامٍ تنطق به لطاقة
 قسامات الوجه وورشة حركة اليد . والرسم (رقم ١٠٥) - وقد يكون ذا
 صلة بالهة الأرض - تتكرّر فيه الفكرة نفسها لكنّ مع اختلاف في الوضع ؛
 فالأشخاص جالسون ، وأجسامهم ليست باكتناز أجسام السابقين ، لكنّ
 الرضى والاكتفاء والنبطة بادية على وجوههم ، ويرامى الأوسط فيهم مقدّماً
 عليهم ، بينما يتجاوونك أن الذي عن يساره كأنه يحزف على قيثارة الحب .
 أمّا النمط الثالث - وقد يعود الى عهد التائه - فيُمثّل ثلاث ذوات : واحدة
 ملائكية والأخرى بشرية تميّز بالمهابة والجلال ، والثالثة تُطالعُ فيها شيئاً

من البؤس والخضوع والتدني ، ولعلها رموز للتألوث الذي رآه جبران في كل نفس : ذات اللمبة مُجْتَنَعَة تسكن الانسان وتخطئه ، ووحدها قادرة على مفارقة الأرض ، وأخرى بشرية تتوازي الدنيا ، وثالثة دنيئة أشبه بالسبخ لما تصير بشراً سويّاً^(١) . ففي الرسم (رقم ١٠٦) يبدو ، وسط إطار طبيعي ، رجل ذو بأس وعافية جالماً باطمئنان ويده مُمسكتان برجلي ملاك يتعالى في الفضاء باسط اليدين والجناحين الى علّ ، ولعلّ الرجل رمزُ طاقة المعرفة المعافاة في هذا الدور ، يرفع طاقة الروحانية وكأنه يستظل بها آمناً ، خاشعاً ، مُتَبَارِكاً ؛ بينما يجلس الى جانبه وفي زاوية الرسم شخصٌ حتى رأسه وسنّره يديه وبدت الدونية عليه ، وقد يرمز الى الطاقة الحسية ، الى المسخ والجبراني الذي عرف قدره فلزم حده . وفي الرسم (رقم ١٠٧) يبدو ملاكٌ مرتفعاً قليلاً عن الأرض وهو ينظر الى شخص استوت جلسته ، ولطفت قسمائه حتى تخاله أنى ، وأطبق عينيه ومع ذلك تشر أنه يتملى وجه الملاك بطمأنينة ونشوة وسعادة ، وقد ألقى يديه بجنوّ على آخر ركع بخشوع وأمان عند رجله ، مُتَكَبِّراً على ركبته كأنه يلوذ بكفه طالباً عطفه ورعايته . تُرى ، أليكون الجالسُ باستقامة رمزُ المعرفة المطلقة السوية التي تستلهم ملاك الروحانية وتعطف على الطاقة الحسية تلك التي يجب أن تكون في الانسان خادمة لكن غير مظلومة ؟ أما الرسم (رقم ١٠٨) فتكرّر فيه الفكرة نفسها ، لكن بدل أن يكون الشخصُ الجالسُ ناظراً الى الملاك فهو يُمسكُ بين يديه رأس الشخص الآخر مُحَدِّثاً الى وجهه بجنوّ ، في حين أن هذا الأخير تراه جاثياً وكأنه يلوذ بعطف الأول مستنيراً بوجهه ؛ أما الملاك فينظر الى الاثنين برضى ، ولعلّ الرسم تمثيل لتوافق طاقات النفس الثلاث في التزام مراتبها الصحيحة ضمن وحدة الشخصية المتزنة .

ذاك كان عهد الأثران النفسي ، تحققت فيه ذات جبران المتظمة ، بعد أن

(١) المصدر السابق ، ص ١٠٦ .

انجمت فيها القوى الحيوية واعتدلت مراتبها ، متجهة نحو غاية سامية مشتركة هي مثله الأعلى : الناصري . وهذا الائتلاف ولد في نفسه السلام بعد الاضطراب . وقد ساعد على قيام هذا العهد عدة عوامل : انحراف صحة جبران التلويحي ، ونحوته الى الكتابة باللغة الانكليزية الأمر الذي أكسبه جمهوراً جديداً يقرأه فيفهمه ويحبه ويحلف عليه ، ونشوب الثورة الروسية وانتهاء الحرب العالمية الأولى . وقد برزت آثار عهد الطمانينة وخصائصه في أدبه ورسمه مثلما ظهرت في مواقفه السلوكية .

ونظرة سريعة نلقيها على شخصية جبران عبر المراحل الإنتاجية الثلاث ثريتنا أنها مرت في عهدين رئيسين : عهد اضطراب نفسي (١٩٠٣ - ١٩١٨) وعهد سلام (١٩١٨ - ١٩٣١) ، مرد كل منهما الى حدوث تغيير داخلي في الراتب النفسي لطاقتاته الحيوية . وهذا التغيير الباطني الذي أسهمت في قيامه عدة عوامل مساعدة كان لا بد من أن تسقط صورته في إنتاجه ، فإذا الحب الحسي العاطفي المصبوغ بروحانية لم تستم صفاءها يمين على المرحلة الأولى ، والقوة بوجهيها المادي والروحي تغلب على المرحلة الثانية ، والمحبة الروحانية الشاملة التي تتوازن فيها المتناقضات متجردة من الشهوة والعداينة تسيطر على المرحلة الأخيرة . وبينما كانت الطاقة الحسية مضطربة متقدمة على طاقة المعرفة الذهنية في اللعوين الأولين ، استقام الراتب النفسي وفق النظام الصحيح الذي تقتضيه الشخصية المتزنة ، وذلك بعد أن تضاعفت الطاقة البيولوجية ، الحيوانية - النباتية ، متفجرة الى المرتبة الثالثة ، بحيث أتيح للطاقة الروحية المتمثلة في القيم الانسانية والفضائل الاجتماعية الخلقية والدينية أن تتفقد الإحاطة بلا منازع ، وتمارس بحرية حتى سلطانها فتفعل فعلها الموحد الخبير في مجمل الشخصية . وقد أثر الواقع النفسي المتغير في مفهوم جبران للمطلن ، تبعاً لاختلاف الأطوار ، مثلما أثرت نظرته الى المطلن في مفاهيمه جميعاً . وقد أفضى هذا التطور الى نتائج واضحة في سلوكه وفي أدبه ورسمه . ولما كانت سيطرة نزعة على أخرى ضمن الشخصية لا تعني «موت»

الترعة المقهورة ، فقد أخذت الطاقات النفسية المظلومة تُسمع نداءها ، في كل من الدورين الأولين ، مؤكدة استمرار وجودها في « الظل » ، و متحينة « الفُرص » المواتية لاستعادة نشاطها . وقد نتج عن اختلال الاتزان النفسي في المرحلتين الأولىين أعراض اضطرابية ظهرت في حياته وإنتاجه ، فالتقلق والحيرة والاحساس بالشقاء والتوتر النفسي برزت في أعماله وإنتاجه معاً . غير أن « مثل جبران الأهل ما فيه » بوجهه ، مهيباً به الى الاتزان ، حتى انتصر أخيراً ، بعد أن عززت قواه عدة عوامل ظرفية مؤاتية : فاذا بملكوت السلام يقوم في ذاته ، وينعكس عبر أدبه في ثلاثة رموز كبرى هي « القاب » في « المراكب » التي كانت البحر الذي عبر عليه من عهد الى آخر ، و « لدم ذات العماد » ، و « أورفليس » ، وكل منها يمثل الواقع النفسي الذي تحمي فيه المتناقضات ويسود الانسجام والأمان . وقد تميز العهد الأخير بخاصيتين مهمتين هما تحقُّن وحدة الشخصية وسلامتها بعد معاناتها للتنازع والانقسام ، واكتفاء المراتب النسبية الثلاث بحيث عرف كل منها حقّه فاحتلّ منصبه الصحيح ولزم حده فما ظنكم ولا ظلم . وكان هاتين الخاصيتين معالم بارزة في أدبه ورسمه هل السواء .

نلك كانت محاولة تحليل وتأويل تفسيريّ لتطور الجبراني ، لكن صاحب « النبي » انتظم آثاره ، على تطورها المرحليّ ، خطّاً ثابت هيمن عليه وجه يسوع الناصري الذي اتخذته مثلاً أعلى فكان لنشاطه الحياتي والفني محرّكاً وغاية ، كما كان لقلقه النفسي عاملاً حاسماً استصرّ اضطرابه بدفعه الى الاتحاد الماهي به . فكيف استقام له مثله الأهل ، وما أسباب ذلك ونتائجه ! وما هي الميزات الخاصة والزبا العامة التي اتصف بها يسوع جبران ، وكيف انعكست آثارها في إنتاجه وسلوكه ؟

وحدة الذات
- ١٩١٩ -
(رسم رقم ١٠١)



وحدة الشخصية المنزلة
- النبي -
(رسم رقم ١٠٢)



المراتب النفسية الثلاث في وحدة اتزانها - النبي - (رسم رقم ١٠٣)



الطاقات النفسية الثلاث ذات الباس - ١٩٣٠ - (رسم رقم ١٠٤)



الطاقات النفسية الثلاث
ذات الرقة
- ١٩٣٠ -
(رسم رقم ١٠٥)



(رسم رقم ١٠٦)

تصعيد ملاك الروحانية في ثلوث الذات - الثاني -

ملك الروحانية
عاطفا على شقيقه
- أواخر حياته -
(رسم رقم ١٠٧)



تغاطف الثالوث
في وحدة الذات
- أواخر حياته -
(رسم رقم ١٠٨)

الفصل الثالث خَطُّ الثَبَاتِ فِي الرَّمَايِلِ الثَّلَاثِ اِتِّحَاؤُهُ السَّاهِي بِسُجُجِ النَّاصِرِي

إنَّ الذات لا بُوْحَدُ قواها الحيويَّة في كُلِّ متناغم ، ولا يُشكَلُ المُنبَهُ
المُناسب لها الذي يحرِّكها نحو الاحتمال إلاَّ المُثَلُّ الأعلى . غير أنَّ الإرادة
لا تُلبِّي نداء أيِّ مُثَلٍّ أعلى عَرَضَ لها . فهي تعصِي المُثَلَّ العُلْيَا المناهضة
لطبيعة الذات وجبالتها . ولذا كان لكلِّ شخصيَّة مُثَلُّها الأعلى الخاصَّ الكفيل
بتنبيه نشاطها . غير أنَّ المُثَلَّ الأعلى قد يُثير الذات ، أحياناً ، ويُوهمها بأنَّه
سُبلُها درجة التحقُّق المعافى . وبالتالي السلام ، لكنه . في الواقع ، يُبقيها
بعيدة عن المحبَّة المرتجاة ، ويقتصر فضله على تحريك طاقات الانسان ، إذ
يبدو لعينه مُحَرِّكاً صادقاً ومُنَبِّهاً مناسباً في حين أنَّه ، أصلاً ، زائفٌ
كاذبٌ ^(١) .

والمُثَلُّ الأعلى عَرَضٌ يختاره الانبئان اختياراً واعياً ، فلا يسوغ الكلام
على وجوده إلاَّ لدى وجود الإدراك والتمييز في الطفل . ولا ريب في أنَّ
ألوف الفِكَر كانت تَخْلُج في ذات جبران عهدَ الطفولة الثانية ، وقد يكون
لكلِّ منها تأثير في أخلاقه وسلوكه ، بيد أنَّ تلك الأفكار لا تنبثق كلها عن
حاجات نفسيَّة عميقة . فكان لا بدَّ ، والحالة هذه ، من أن ينبثق المُثَلُّ الأعلى

(١) راجع منهفك : علم النفس والأخلاق ، ص ٩٧ - ١٠٨ .

انبثاقاً يتسجم مع طبيعة النفس واتجاهاتها الحيوية . زدْ الى ذلك أنَّ المثلَّ الأعلَى يجب أن يبدو لمُتبنِّي جبران صادراً عن حاجته العظمى التي لا تقاوم ، حاجته لتحقيق الذات وبلوغ الاكتمال . وما كانت كلُّ فكرة تحملُ له هذا الوعدَ الكبير ، ذلك بأن الأفكار ، على حدِّ تعبير هادفيلد ، « كالخصى التي تفرس الماء على شاطئ البحر ، أمَّا المثلُّ الأعلَى فكالمجرم السماوي الذي يتحكَّم في حركات المدِّ والجزر » (١) .

ولم يشغلْ جبران صراعاً لو تردَّد لاختيار مثله الأعلَى ، فالظروفُ البيئية والربوبية مهتدة السبيل له ، وتكوينه النفسي قاده عضوياً اليه ، وحاجاته العميقة الكبرى أملتْه عليه ، بحيث يسوغُ القول إنَّه كان حصيلة وضعه السيكولوجي الشعوري واللاشعوري ، الأمر الذي يفتح لنا السؤال هل كان اختياره مثله الأعلَى حرّاً بكلِّ ما تحملُ الحرّية من أبعاد ؟

فلنعدْ بشريّ ، مسقط رأس الشاعر ومرعى طقوفه ، غنيةً بالذكريات الدينية والرموز الروحية (٢) . وهي ، على صغرهما ، حافلةٌ بالكنايس حيث كانت الصلاة ، في قائل الزّمن ، تُقام صُبح مساءً ، ممَّا عزَّز الصبغة الدينية في الجوِّ الربوبيّ ، فإدّا أهاليها يحرصون على أن يجتمع أفرادُ الأسرة جميعاً ، قُبيلَ الرقاد ، يتلون الصلاة معاً ، وعلى أن تكون الكلمات الأربع الأولى التي يتلفظ بها أطفالُهم هي : أباً وماما ثمَّ يسوع ومريم (٣) . ولئن طُبّقَ هذه القاعدة ، ماضياً ، جلَّ البشرَويّين ، قبليني أن تطبقها أسرة جبران ، وفيها الأمُّ المشهورة بالتقوى والتدين ، ابنة الخوري اسطفان رحمة من كانت لا تبي

(١) المرجع السابق ، ص ١١٤ .

(٢) تعرف بشري على وامي قاديشا الشهير ، و « قاديشا » لفظة سريانية تعني « مقدس » . ويذكر الخوري القناطوس جميع أن صراحه يبلغ صديدها ، في سالفات الحقب ، هذه أهم السنة ، وكان دحيان بجزرها يمثل في الأصابع شمال الصحاب (المشرق ، مجله ٣٠ (١٩٣٢) ، ص ٤٦١ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٥٣٩ و ٥٤١ .

نروي لطفها حكايات يسوع الناصري على أنه أعظم شعراء عصره وأروعهم^(١).

في هذا الجوف المشحون بخيالات يسوع ورموزه ، والمُرْتَقى بضغط الشعور بالذنوبية ، وه التعلّق بالألم ، تعرف جبران الطفل الى تمثال يسوع المصلوب الذي صنعه نسيه اسحق جبران^(٢) (صورة رقم ١٠٩) ، ذلك التمثال الضخم المنتصب أمامه كجبار من لحم ودم ، الموحى برهبة الصمت وجلال الألم ، المقرب الكفّين والتقدمين ، المكثّل بالشوك والمُضَرَّجٌ بالدماء ، فكان له تجربة كاوية . وكرّر زيارته الى منزل عمته حيث كان المصلوب ، ليقف

(١) الحكمة ، السنة الرابعة ، العدد ١١ (أيلول ١٩٥٥) ، ص ٢٤ .

(٢) أخبرنا جماعة من قدامى بشري (صيف ١٩٦٨) ، بينهم السيدة أسى حنا الضاهر ، أن إسحق جبران كان متزاً بحفاقة خنية باهرة ، لكنه لم يزاول الفن ولا أعطى موهبه مداعها . وغير ما خلف لنا تمثال يسوع المصلوب ، صنعه من خشب السديان على الأرجح ، ونحته بقضبان القاس . وقد اطمنا عليه بعد محاولات جاهدة ، فلذا هو على قسط وافر من التجاعيد والدة . وقد كان موضوعاً داخل صندوق خشبي كبير ومقفلاً عليه في غرفة داخلية ملحقة بكنيسة مار سابا في بشري ، فسمّناه على المصليب ، بمساعدة بعض أهالي البلدة ، ورضناه وصورناه . وقبل أن نراه ، سأنا كاهن الكنيسة من المادة المصنوع منها ، فأجبنا أنه صنع من الشمع . ولما ذكرنا له أن جماعة من قدامى بشري أكلوا لنا أنه صنع من الخشب ، أجبنا بصيغة مرحة : « أنا الذي أصله ، فأنا أدري به من سوالي » . وبعد أن قصصنا التمثال ، بمبادرة خادم الكنيسة وبعض أهالي البلدة ، ظهر لنا أنه صنع من الخشب ، وصقل وطلّ حتى كاد يوهن ، لونه وشبه لونه ، أنه من الشمع . وطول التمثال نحو ١٩٠ سنتيمتراً ، وجسمه على لون ضارب إلى الوردي وضرّج ، في عدة مواضع ، بأسحر يوسي بالدم ، وهو مقرب الكفّين والتقدمين ، مكثّل الرأس بالشوك ، وقد جعلت يدها متراكبتين عند الكفّين وأسكمت تركيزها بأدوات شغلة . وقد تكشف لنا أن ابن اسحق جبران ، نقولا ، اتصف بالهلاقة عنها . وقد ورد ذكره في مذكرات بربره يانغ ، وعلى لسان جبران نفسه حيث قال : « وتقوم اليوم في تلك الكنيسة (٢) منحة للقرائة حفرها نقولا ابن صبي ، والله ظهري » جبران الصغير . كم أحب أن أرى تلك المنصة ، مرة ثانية ، واستمع لكلماتها الصلوة (هذا الرجل من لبنان ، ص ٢٠٧) . وفي بوسطن يلبس اليوم اسم « خليل جبران » ابن نقولا جبران واحداً من الفنانين البارزين (انظر مجلة الأسبوع العربي ، العدد ٢٨٤ ، ١٦ تشرين الثاني ١٩٦٤ ، ص ٧٠-٧٥) .

أمامه ، متفعلاً ، صامتاً ، متأملاً ، ترينُ الخَشْيَةَ عليه ^(١) . ثم وقعت الحادثة التي ستُصعدُ أفعاليته حتى الفروة : فقد أهدى عمهُ تمثاله الى كنيسة مار سابا ، وكان أن مثل الكاهن مع فريق من أبناء البلدة تمثيلية الصلب ، يوم جمعة الآلام ^(٢) ، وكان جبران الصغير ، مع مَنْ في الكنيسة ، يشاهد «يسوع» الوديع الجبار ، يسوع الذي أحبه واقترن وجهه بوجه أمته التي طالما حدثتْ عنه ، كيف يُسمّر «الجلاطون» يديه ورجليه ، ويرفضونه عالياً فوق الصليب ! وإذا يسوع الناصري ، وسط أزماته النفسية المكبوتة ، وأفعاليته المتوترة المتضائلة ، وعلمه ذكرياته وتحيلاته المشتتة ، ينتهي ليولدَ مثلاً أعلى في وجهه . هذه الولادة الطارئة حتمتها وضعُ جبران الشعوريّ واللاشعوريّ ، وبشهادٍ عليها مصيرُه الحياتيّ بِجُلٍّ ما فيه من تصرفات وإبداعات فني ^(٣) .

- (١) مقابلة مع أسى حنا القاصر - صيف ١٩٦٨ . وقد ذكرت لنا السيدة أن اسحق جبران كان ، أحياناً ، يخيّل الاولاد بتثاله الضخم الذي يعد أول تمثال كبير للصلوب في بشري .
- (٢) المرجع السابق نفسه . إن تمثيلية الصلب ما تزال تقام في بشري ، حتى هذا اليوم ، في جمعة الآلام ، وقد أصبحت عادة طقسية في الكثير من كنائس لبنان .
- (٣) ذكر ميخائيل نسيه خبراً يلامس جوهره ما تأكد لنا ؛ لكنه ، كمعادته في الكتابة عن جبران ، يسترسل في الأسلوب الروائي . يقول : « كانت ليلة الخميس من سبسة الآلام . وكانت كامنة جبران جالسة على حصى في بيتها ، وعلى صدرها طفلتها سلطانة ، وعصرها ستة ، وإلى جانبها مريانا التي سبقت اعتناقها لسلطانه إلى هذا العالم بستين ، وقد ألقت برأسها على فخذ أمها ونامت نوماً هيناً ، وأمام الأم بكرها من زوجها الثاني وهو شاعرٌ إليها ، ومصنعٌ إلى كلامها بكل ما في سبته الخمس وأشهره الأربعة من الشوق إلى استماع الحكايات . في تلك الليلة نام جبران ويخلف أجفانه تتسابق خيالات غريبة : أكمة عليها صليب ، وعلى الصليب رجل يلمية شقراء وشعر أشقر سترسل وقد سر يديه ورجليه ، ولا ذنب له إلا أنه نزل من السماء ليجهل الناس كلهم صالحين ، ومن حواشي جواهر يبدون نارة أنفاساً بلا شعور ، وطوراً صالفة يلمس سوداء تكاد تلمس الأرض . وفي أيديهم حرايب يطعنون بها التي على الصليب بأستين في وجهه وتهكمين عليه واسمهم اليهود . وفي السماء كرمي كبير يرتكز على أربعة نجوم ، وعلى الكرسي « الغرب » وقد تدلت لحينه العظيمة البيضاء إلى الأرض وهو يقول : « هذا هو ابني الوحيد » . ثم ينفخ في نار ليصها من فوق على رؤوس اليهود . وحدث أسفل الصليب امرأة اسمها الغفراء تنصب وتصبح - يا ابني ! يا ولدي ! - أفلق جبران مع فجر الجمعة « الخزيمة » فرأى في الباب أخاه بطرس وزمرة من رفاقه ،



نمّال المصلوب لاسحق جبران

(صورة رقم ١٠٩)

ولقد استبان لنا أن جبران ، عهد الحفوة ، كان يتنازع نفسه تباران
 حيفان أشبه بمد وجزر : مد يتطلق من جانب والده ، مشحوناً بقوة وردحاً
 وعظماً ، فيحدث فيه ، بتكرار صدمه ، فجوة نفسية يحتلها شعور بالذونية
 سرعان ما يقترن ، بفعل الرجوع ، بترعة عدائية ، وهي ترعة لا تفرها ذاته
 الاجتماعية ولا ضميره ، فتراجع لتكمن في عقله الباطن حيث تتكشف وتتبرز
 براند كل طارئ ضاغط أو مدلل ، متحينة الفرصة التي تتلغ فيها ،
 منحررة من عقالمها ، وجزر تخبأ فيه طاقته النفسية المبكوة متجهة شطر
 أمه ، قطب التنازع الآخر ، حيث في حضنها تنبسط انطوائيته ، ويبدأ

• وكلهم حفاة على أمة الخروج من البيت . وإذا سأل أحد إلى أين ؟ أجابه بأنهم صاعدون
 إلى الجبل ليتنصروا مع المسيح ويأتوا بأزهار يسمونها على عمله في حفلة جنازة في الكنيسة .
 فتوصل إليه أن يأخذ سه . ومالك بطرس إلى ذلك لأنه كان يجب أبعاد من أمة محبة جنة ،
 لكن رفاقه شذوه من كه وغرجوا به في الحلال فكلين أن لا وقت لهم للشادة والإطلاق وتسيح
 دموعهم .

• بكى جبران وانتصب طويلاً ، ولم تستطع له أن تمزيه لا بالزبيب ولا بالوجود . ولم
 يزد شرب أبيه الذي كان يدخن سيكارتو ويمتص قهقهته المرة ، والحصام الذي أدى إليه
 الضرب بين والده ، إلا حويلاً ودموعاً ، فما كان من أبيه إلا أن دفعه إلى خارج البيت
 وأغلق الباب قائلاً : « سرعني لذة قهوتي وسيكارتو . انقذف من وجهي » .

• على الظهر ، وحلف وقت الحفلة ، وجبران لم يرجع . فقالت أمه لعله ذهب مع بعض
 أبناء الجيران إلى الكنيسة . وانطلقت مع زوجها وجيرانها وجيرانها إلى الكنيسة . فرأت
 هناك بطرس ورفاقه وقد جلاوا بالكثير من الأزهار . أما جبران فلم تر له أثراً . وانتهت
 الحفلة فسألت بطرس عن أبيه فأجابها أنه لم يره كل ذلك النهار . فقالت لعله عاد إلى البيت .
 لكنها عندما رجعت إلى البيت لم تجده هناك ، فاضطربت أفكارها وانهاكت على زوجها فترجته
 واتقي المسؤولية عليه إذا - لا سمح الله - حل بابنها سوء . وأدبراً أخذت بطرس وبعض
 رفاقه وراحت تفتش معهم عن جبران . فوجدوه قبيل الغروب في المقبرة خلف الكنيسة
 وفي يده طلة صبرة من « بنور سرج » ، وعندما أقبلت عليه لتقربه على فطير تحول كل غضبها
 إلى حنان وهيبة بهد أن سمعت من فمه كيف أنه ذهب إلى البرية ، وحده . ليشتط مع
 المسيح ، وكيف جاد بأزهار ليضعها على عمله في الكنيسة فوجد الكنيسة مغلقة ، وكذلك
 قصه المقبرة ليغش ما بين القبور عن قبر المسيح فيضع أزهاره عليه . (ميخائيل نعيمة :
 جبران خليل جبران ، ص ٢٨ - ٢٩) .

توتره ، ويوافقه الغراء والأمان والراحة ، فيتملق بها تملق الفريق بنحسبة
 الخلاص . غير أن تشبته الذهني بأمة وتعلقه العاطفي بها لم يستطيعا أن يظفرا
 باقرا مشروع من ذاته الاجتماعية وضميره بكرسهما بوجه أيه . وإذا قسّم
 بين هذين التيارين بأمر الحاجة الى تصريح شعنتها المضغوطة ، فلا نجد إلا
 قد طلع فيها يسوع بديلاً ومزياً يتمتع فيه التبطان : فمن جهة ، مدّ يسوع
 ظلاله على وجه أمه القدوة المسامية في صباه ، والندبة بالأبدية بالروح الأم -
 في شبابه ، ذلك بأن محبتها وتضحياتها وآلامها وروحانياتها لم يسعه إلا أن يرى
 فيها امتداداً للمسلم القادي ، ومن جهة أخرى ، تراءى يسوع له رمزاً للأب
 المثالي إذ يتحقق فيه الوجه الأروع لإثبات ذاته بمحاولة احتفاله ، بل اتحاده
 الماهي به . وإذا جبران ، من بعد ، يباشر نسج ملحمة الحياة : ليم لا يكون
 هو يسوع القرون العشرين ؟ أو نجسنا من نجسناه ؟ ليم لا يرتضي الألم والوحدة
 والروحانية طريقاً مختاراً بدل أن يعانيها معاناة سلبية مفروضة عليه ^(١) ؟ ليم
 لا يكرس حياته لكفاح المراثين والإصلاح الروحي والرسولية ؟ وهكذا أصبح
 الناصري المحرك والغاية وقطب الجاذبية : منه يصدر النداء ، والبس
 تتجه القوى النفسية ، في أعماق جبران يندوي صوته ، يبيب بمبولة وطاقاته الى
 الانسجام والانتظام ، وبشخصيته الى الاتزان والأمان ، عن طريق السعي اليه
 والافتداء به ، بل كاد يتوحد فيه والضمير الذي قال عنه : هو الضمير الخفي
 نخالقه فيوجدنا ، ونحوه فيقضي علينا ^(٢) .

وقد ظهر تعلق جبران العاطفي بيسوع منذ سنه الباكورة ، والقرون اهتمامه
 الفكري به باهتمام فني منذ حداثة ^(٣) . ولئن كانت مزامير داود المبشرة بمجيء

(١) راجع J. P. SARTRE, SAUDELAIRE, p. 1731 ، فحين يودير وجبران تشابه في
 اختيار طريق الألم اختياراً واعياً بعد أن فرض عليها .

(٢) مراسل المروج - م . ك . ج . ١ ، ص ٩٧ .

(٣) ذكرت لي السيدة أسى القصار (صيف ١٩٦٧) أن جبران في طفولته الثانية كان يمشي
 يصنع أشبه فنية بدالية ذات صلة بشخص يسوع ، كان يمشي ميكلاً صغيراً من بكر المحيطان ،
 أو يشبه بمراد مختلفة تملج صغيرة لأبناء كنائس . أنظر أيضاً :

B. YOUNG, This man from Lebanon, p. 8, 97.

المسيح المختص مي أجل^١ ما علق بذاكرته من المحفوظات في طفولته الثانية ، فإن الكتاب العربي الأوحى الذي اصططحه من أمير كا الى لبنان عهدَ درسه في « الحكمة » كان سيفر الأناجيل^(١) . وما أن يمضي بضعة أشهر على حلوله في باريس حتى يجهر بحبه لربنا لأنه رآه يحب يسوع ويفهمه ، ويُبدي أن أمته الأكبر هو في أن يصبح قادراً على رسم حياة الناصري كما لم تُرسم من قبل « ذلك بأن فنه لن يجد ملاذاً أو فرّ سلاماً من شخصيته^(٢) » .

وكان لذكرى الصلب أثرٌ عميق خاص في نفسه ؛ فمدى طفولته الثانية كان ينصرف وبعض أترابه الى جمع الأزهار الفواحة ضمّت ضمّت ، يحملها الى المعبّد ويقدمها الى يسوع المصلوب^(٣) ؛ ونراه في كهولته ، ينطوي على نفسه يوم الجمعة الحزينة ، « كتيّاً ، وحيداً معتزلاً » ، ساهراً الليل كله ، يُجدّد معاناته المأساة ، حتى اذا ما شارف الفجر واقتضت ساعة المحنة المُصنّعة « دعا صديقه برباره يانغ بالهاتف ، قائلاً : « مرةً أخرى قد اقتضت^(٤) » . وإنه لحريّ بالذكر أن من تأثيرات هذه الذكرى المؤلمة اهتمامه بجمع الصلبان^(٥) ، واقتناؤه سجادة جدارية كبيرة بتوسطها رسمُ المصلوب (صورة رقم ١١٠) كان يُزيّن بها صلبه « صومعته » في نيويورك^(٦) ، فتملأ عينيه بحضور دائم للمأساة ابن البشر .

(١) انظر انطون كرم : محاضرات في جبران ، ص ٢٨ .

(٢) رسالة ٢٩ نيسان ١٩٠٨ ، p. 27. The Letters of K. Gibran and M. Haskell.

(٣) حبيب سمود : جبران حياً وميتاً ، ص ١٤ . لقد تنبه سمود للأثر البالغ الذي أحدثته في نفس جبران ومستجباته ذكرى الصلب ، فقال عنها أنها « قد أبقت في نفسه أنقى تذكّار وأبلغ صورة واقعه في تطور إدراكه ، فألميا عليه « يسوع المصلوب » و « يوم الجمعة الحزينة » وكثيراً من مرويّاته في « يسوع ابن الانسان » (المصدر نفسه) .

(٤) B. YOUNG, This man from Lebanon, p. 147 .

(٥) حُرنا ، في متحفه ببشري ، صيف ١٩٦٧ ، حل مجموعة من الصلبان ذات أحجام متفاوتة .
(٦) سجادة المصلوب ما تزال مرفوعة في متحفه ببشري ، وقد أبقي على ترتيب غرفة نومه حسبما كان في نيويورك ، حل وجهه بالبشر .



ويسوغ القول إن "قلب جيران وذعته بقيا مشغولين يسرع حتى لحظة وفاته . ولحسن الحظ أن التاريخ حفظ لنا الحلم" من هنيهاته السعيدة تلك ، بفضل ماري هاسكل وبربارة يانغ . ففي يوميات الأولى مطما في الرسائل بينها وبين جيران (١٩٠٨ - ١٩٢٣) تسجيل لأموه شتى عن جيران والناصرى . ومن غريب الاتفاقات أنه حيث تكف هاسكل عن تدوين ملاحظاتها حول الموضوع ، تبدأ يانغ التي لازمتها من سنة ١٩٢٣ حتى وفاته (١)

ومن أهم ما نعرفه ، في ما يعود الى وثائق هاسكل ، أحلام جيران عن يسوع . وسواء أكانت الأحلام صحيحة الممد والسر ، أم داخلها بعض المبالغة والتعديل (٢) ، فإنما تركد اهتمام جيران البالغ بشخصه « وجوهره النفسي العميق له . سنة ١٩١٢ ، يتأوه في إحدى رسائله الى هاسكل ، قائلا : « آه يا ماري ، يا ماري ، لماذا لا يمكنني أن أراه في أحلامي كل ليلة ؟ » (٣) فضلا عن أن الحلم بالشخص نفسه ، اذا تكرّر ، ليدل ، وفق كارل يونغ ، على تمريض نفسي يكون الحلم بحاجة اليه ، او على ارتقاب حدث نفسي ذي خطورة في حياته (٤) .

ولا بد من تسجيل ملاحظات خمس حول أحلامه : أولا ، ظهرت الحلقة الأولى من سلسلة أحلامه « اليسوعية » ، يوم كان في الرابعة عشرة والنصف ، وهو على متن الباخرة العائدة الى لبنان . ثانيا ، لا يترامى الناصري له ، في أحلامه ، إلا في وطنه بشري . ثالثا ، يظهر له ، دوما ، حل الشاكلة نفسها : قوي البنية ، معتدل القوام ، مشوش الشعر ، فقير الزي . رابعا ، أحاديته معه

(١) مع العلم بأن هاسكل استمرت في تدوين ملاحظاتها حول جيران عامة ، وفي مراسله طول حياته . لكن رسالة كتبها اليه سبقت وفاته بأربعة أيام فقط .

(٢) يزعم جيران أن من عادته أن يرى يسوع « لا أقل من مرتين في العام الواحد . لكنه لا يراه مطلقا أكثر من أربع مرات في العام الواحد » (صابغ ، أسواء جديدة على جيران ، ص ٥٨) .

(٣) المصدر السابق ، ص ٦٠ .

(٤) راجع C. G. JUNG, L'homme et ses symboles, p. 53-54

وصيلاته به كانت ودّية أليفة . خامساً ، انقطعت أخبار أحلامه عنه سنة ١٩٢٣^(١) .

وتعليل ذلك أن يسوع لم يكن خارج جبران ، بل داخله ، يحيا فيه بعض ذاته . كان من طاقته النفسية الجزء الروحيّ الأسمى الذي أصبح مثله الأعلى ، وقد اندمج فيه وجه الأب المثالي ووجه أمّه المتسامية . وقد يكون لهذا السبب تراءى له فور رحيله عن والدته ليقابل والده . أمّا لماذا لم يظهر له إلاّ في بشريّ ، فذلك مردّه ، على الأرجح ، الى ارتباط شخص الناصري بأولى ذكرياته عنه التي تكوّنت في مسقط رأسه ، آوّة الطقولة . وتراثه له على تلك الشاكلة يعود الى أنّ شخص يسوع ، وهو امتداد نفسيّ لشخص جبران ، لا بدّ من أن يتأثر بوضعه الجسمانيّ ومفهومه الخاصّ لروحانيّة الجهاد والرسولية . وموقفه الودّيّ منه سببه حاجته النفسيّة الى إقامة السلام مع نفسه ، والناصريّ وخدعه القادر على حسم الصراع الذي ألقاها سنوات كثيرة . أمّا انقطاع أحلامه عن يسوع سنة ١٩٢٣ ، فقد يُفسّر بأنّ جبران كان يحاول ، جاهداً ، طوال عهد الاضطراب ، الاتحاد الماهيّ بمثله الأعلى ، لكنّ واقعه النفسيّ لم يتّسع له تحقيق بنيته ، ولذا وجبّ تدخل العقل الباطن لملء الثغرة ، فكانت أحلامه ثمرة تعويض لذلك . بيد أنّ حياة جبران أخذت تتلبّس بحياة يسوع الرسوليّة ، منذ نشره كتاب « النبي » ، فحلّ الواقع الاقنطانيّ الواعي ، إذ ذاك ، محلّ النشاط اللاواعي ، واحتلّ إنتاجه ، خاصّة في « النبي » و« يسوع ابن الانسان » مكان الأحلام . ولا ريب في أن اقتناع جبران بأنّه ويسوع

(١) انظر توفيق صايغ : أسنود جديدة على جبران ، ص ٥٨ - ٦٠ . مما يقول جبران إن يسوع « لا يشبه أبداً آية من الصور المعروفة له ... ففي الصور يبدو على القوام وكأنه قد خرج لنوء من الحمام ، بشعره المسوي جيداً . أما أنا فأراه في يوم قاطط - دوماً أراه في منتصف النهار - وحلّ قدميه غبار ، وفي يده عصا ، وشعره منكوش ، يرتدي ثوباً رمادي اللون ، ذا حاشية بلون القلار ، وقد تهرأ وحش في أسفله » (المرجع المذكور ص ٥٩) . انظر أيضاً الخواص - م . ك . ج : « مساء العبد » ص ٨٠ - ٨١ ، فقد أورد فيه وصفاً لناصرية يشبه ما تقدم .

مولودان في اليوم عينه ، أي في السادس من كانون الثاني ، زاده إيماناً بالعروة الوثقى التي تربطه بالناصري^(١) . أما برباره يانغ فتلاحظ أن جبران لم يكن يكتسبها كثيراً على يسوع ، لكنه كان ، حينما يفعل ، يصبح « كمن مسته لإصبع النار الإلهية » . فجبران ، كما يبدو ، لم يكن يتأثر بالحديث عن أي موضوع تأثره بالكلام على « صديقه وأخيه »^(٢) . وبفضل يانغ نطلع على انفعالات جبران الإبداعية ، أيام أمل على صديقه كتابه ورسم لوحاته^(٣) .

ميزات يسوع جبران الخاصة :

لكن ، كيف فهم جبران يسوع ؟ وأية ميزات خاصة كان مثله الأعلى ينطوي عليها ؟ إن مفهوم جبران ليسوع اختلف بعض الشيء عن مفهوم عامة المسيحيين له . فهو ذلك الذي أطلعت حقائق الإنجيل وانعكست صورته على مرآة نفسه ، فتأثرت بواقعه وخصائصها ، ولا سيما في المرحلتين الثانية والثالثة . وإلى هذا التباين في الرؤية مرّد قوله فيه : « مرة » ، كل سنة عام ، يلتقي يسوع الناصري يسوع الناصري ، بين ربي لبنان ، فيتحدثان ملياً ، وكل مرة ، ينصرف يسوع الناصري وهو يقول ليسوع الناصري : « أخشى ، يا صاح ، أنبا لن ننتفح أبداً أبداً »^(٤) . أما الذي تميز به يسوع جبران فيمكن إجماله بثلاث : كان إنساناً كاملاً ، وقوياً جباراً ، وشاعراً مبدعاً . وقد انعكس تأثير هذه الصفات في إنتاج جبران وحياته .

(١) توفيق صايغ : أضواء جديدة على جبران ، ص ٦٠ .
ما يزال بعض الطوائف المسيحية ، كالأقباط وكنائس من الأرمن ، يحتفل بذكرى ميلاد يسوع في ٦ كانون الثاني ، بينما تعتبر الطوائف المسيحية الأخرى هذا التاريخ ذكرى مسودته أو ميلاده الروحي . ويؤكد جبران ولادة يسوع في كانون الثاني على لسان حنة أم مريم .
راجع : Jesus the Son of Man, Heinemann, London, 1957, p. 6 . وخطاً ما ورد في الترجمة العربية للكتاب من ولادته في شهر كانون الأول (المجموعتكاملة العربية ، ص ٢٠٧) .

(٢) B. YOUNG, This man from Lebanon, p. 98, 99

(٣) استغرق تأليف « يسوع ابن الإنسان » وضع رسومه ثمانية عشر شهراً Ibid., p. 93-111

(٤) Sand and Foam, p. 98.

أ - الإنسان الكامل : يقول كارل يونغ : « رمز المسيح ذو خطورة جئتي لعلم النفس من حيث إنه شأن صورة بوذا - يمثل الذات التي بلغت أسس درجات التطور والتمايز »^(١) . ويسوع جبران لم يكن هو الله ، بل كان كائناً إنسانياً التصرف ، لكن « كامل الصفات ، مثله مثل بوذا »^(٢) . فهو لم يترك كأس جبور بشري إلا شربها ، ولم يدع غاية من الآلام لم يجبرها بكليته ، من غير أن يكون في حياته كلها ظل لما يشوب أو يهيب^(٣) . وقد وُلد ونشأ نظيرنا . وكان تصرفه بين الناس عادياً في الأكل والشرب والعشرة والمعاونة^(٤) . ولعل خير ما يجعل ذلك قوله فيه : « لأخينا يسوع ثلاث عجائب لسنا ندون في الكتاب : الأولى أنه كان إنساناً مثلي ومثلك ، والثانية أنه كان يتحلى بروح فكاكة وظرف ، والثالثة إدراكه أنه غالب مع انه غلب »^(٥) . لكن يسوع لم يفهمه أحد لا من أعدائه ولا من أتباعه : قتله الرومانيون وتلك كانت من زلاتهم ، وأحبته أنصاره حتى صنعوا منه إلهاً ، وتلك كانت من أخطائهم^(٦) .

ولئن زار يسوع الناصري أرضنا ، مرة ، بقي رأي جبران أن المسيح قد جاء الى العالم مراراً ، ومشى في بلاد كثيرة ، وسُمع صوته في أفواه الأنبياء والرسل ، ذلك بأن المسيح هو شعلة الألوهية أو كلمة الرب التي تتجسد ، مرة ، كل بضعة مئات من السنين . وقد اتحدت منذ ألفي سنة بشخص يسوع

(١) C. G. JUNG, Psychologie et Alchimie, p. 26

(٢) قد يكون الروحانية الهندية ومفيدة التخصيص التي آمن بها جبران أثر في مفهومه لیسوع .

(٣) B. YOUNG, This man from Lebanon, p. 95-96; 170-71

(٤) راجع « يسوع ابن الانسان » - م . ك . م . ص ٢٢٢ - ٢٢٥ ٢٢٦ ٢٢٩ - ٢٤٠ .

(٥) Sand and Foam, p. 61

(٦) راجع يسوع ابن الانسان - م . ك . م . ص ٢٨٦ - ٢٨٧ . لا يسنا إلا الإلحاح إلى أن مفهوم جبران ليسوع ثلاثي في نقاط كثيرة ومفهوم رينان له . راجع :

E. RENAN, Vie de Jésus, Paris, Colmann-Lévy.

التناصري^(١) . فيسوع كان لجبران نموذج الانسان الكامل الذي أبلغه تساميه في ادوار حياته المتعاقبة - امتدادات المسيح - ذروة التطور الانساني ، فكان أشبه بمحصاء خالد اجتمعت فيه المعرفة والحكمة والقوة والطيبة والفضيلة ، فضلاً عن الشباب الدائم^(٢) . ولذا فغير عجيب أن يتخذ جبران مثاله الأعلى ، وهو يراه ، بروح الألوهية المتجسدة فيه ، يمثل في الانسان أبعد أعماقه وأسمى أعالیه^(٣) . إنه طريق القلب الى الله وحياته وقيامته^(٤) ، وهو بطل أحلامنا الذهبية^(٥) ، وسيلتنا الى المسيح فينا ، الى ذاتنا البعيدة^(٦) ، بل هو جميعها متسامين بحبيتنا الى النجوم ، كما جاء على لسان أمه^(٧) .

فمن خلال ملامح يسوع الجبرانية يستبين أنه ، كثال أعلى ، كان في مثال الساعين اليه ، لا خارج قدراتهم . وبذلك يختلف عن انسان نيتشه المفقود . فيسوع رسمه جبران طريقه « وشرعه غايته البشرية ، وأمضى حياته كلها يصارع نفسه ، ويحاهد ، ابتغاء تنقية ذاته والتتره عملاً يشوب سمعته سواء في علاقاته مع النساء او مع الناس عامة ، رجاء التوحد به « او السمو اليه بحيث يصبح جليلاً مثله بتقبل روح المسيح فيه . وإنما ذلك الجذب الروحاني الانساني الذي تشهده في أدبه ورسومه يصعد بأبطاله وأمانيه وأحلامه وعواطفه وأفكاره في معراج التخطي والتكامل مردّه الى نشدان الكمال الذاتي المتحقق في مثله الأعلى .

ب - القوي الجبار : ويسوع جبران لا يبدو ضعيفاً ودبعاً مستكبراً كما

(١) راجع يسوع ابن الانسان - م . ك . م . ص ٢٢٥ - ٢٢٧ .

(٢) B. YOUNG, This man from Lebanon, p. 95-98

(٣) يسوع ابن الانسان - م . ك . م . ص ٢٢٥ .

(٤) المصدر السابق ، ص ٢٧٨ .

(٥) المصدر السابق ، ص ٣٦١ .

(٦) المصدر السابق ، ص ٢٣٥ - ٢٣٦ .

(٧) المصدر السابق ، ص ٢٢٠ .

يتمثله سوادُ المسيحيين ، بل هو قويٌّ جبّار . وإنْ تُحاول اكتشاف الخطأ البياني لِتَطوّر نظرة جبران إليه تَرَأْ أنَّ القوّة يتسرّب بها منذ المرحلة الإنتاجيّة الأولى ، على ما امتازت به هذه من خصائص الحب . إلا أنَّ القوّة تَهْزَن بالرحمة في الطور الأوّل ، وتمثّلُ عاريةً في الدور الثاني ، لتعودْ تُشْفَعُ بالمحبّة في الطور الثالث . فبينما تسمع جبران يُخاطب يسوع - بشخص يوحنا المجنون : « تعالَ ثانيةً يا يسوعُ الحميّ واطرُدْ باعةَ الدين من هياكلك ، فقد جعلوها مغاور تلوّى فيها ألغاصي رَوْعهم واحتياهم . تعالَ وحاسبِ هؤلاء القباصرة ، فقد اختصّبوا من الضعفاء ما لهم وما لله ... امدُدْ يدك يا يسوعُ القويّ وارحمنا لأنْ يد الظلوم قويّة علينا ، أو أرسل الموت ليقودنا الى القبور حيث ننام براحة مخفّورين بظلّ صليبك الى ساعة مجيئك الثاني ... »^(١) إذا بك ترى أنَّ ميزات المحبّة والرحمة قد تقلّصتْ في شخصه عبر « العواصف » ، وبرزتْ سماتُ البأس والجبروت : فيسوع بكرُ أخوين ، « واحد مات مجنوناً وواحد لم يولد »^(٢) ؛ أمّا المجنونُ فنبتشه ، وأمّا الآخر فهو « أناه جبران الذي جلبت القوّة به ، وما برح يرتقب أن يلدّه الزمن ويُعطيه على العالم . والناصرّي هو « عاصفة هوجاء تكسرُ بيبوبها جميع الأجنحة الموجهة »^(٣) ، وهو « الثورة التي تُقيم ما أقعدتْهُ الأمم ... والعاصفةُ التي تفتلج الأنصاب التي أنبتَتْها الأجيال ... والذي جاء ليُلقي في الأرض سيقاً لا سِلاماً »^(٤) . ضلّت البشرية إذْ كرمْتَه مسكيناً ضعيفاً مهاناً ، وأخطأتْ معنى قوّته الحقيقيّة ، فيسوع لم يعشْ « مسكيناً خائفاً ، ولم يمِتْ شاكياً متوجعاً ، بل عاش لائراً وصلّيباً متمرداً وماتَ جبّاراً ... » ، وكان « على خشبة الصليب المُضْطَرّجة بالدماء أكثرُ جلالاً ومهابةً من ألف ملك على ألف عرش في ألف مملكة » ،

(١) م. ك. ج. ١ ، ص ١٠١ - ١٠٢ .

(٢) العواصف - م. ك. ج. ٢ ، ص ١٩ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٢٥ .

(٤) المصدر السابق ، ص ٨٢ .

بل كان « بين الترع والموت أشدّ متولاً وبطشاً من ألف قائد في ألف جيش في ألف معركة »^(١) . ولما انقضت ساعة محنته « فزلّ من على صليبه وسار كالجبار ينتظّب على الأجيال بالروح والحقّ ويملأ الأرض بمجده وجماله »^(٢) .

أمّا « يسوع ابن الانسان » (الدور الثالث) فقد تبادلت في المحبة والقوة الروحية بأجل المظاهر ، فيسوع اذا ظفر به أعداؤه ، مرة ، فانّ عربته ستمرّ فوقهم ، وستدوسهم حوافر غياله^(٣) ، وستؤلف كلماته جيشاً لا تراه العيون ، وتقلب ، بغير فأس ولا حربة ، كهنة أورشليم والقباصرة^(٤) . أليكون حَمَلًا أمام سباع من وقف مواقف الجرأة البالغة امام الزانية التي جربوه بها ، وفي ساحة الميكل حيث جلدت باعة الحمام وقتلّت مواثد الصيارفة . ونطق بما فيه نهاية الشجاعة والتفريع ، إذ أنّبه ذوي السيادة والسلطان ، وجعل مملكته فوق ممالك الأرض ، وشرّع نفسه الطريق والحقّ والحياة ، وألذّر بقاء العالم قبل فناء كلمة واحدة من كلماته ؟^(٥) إسمعه يخاطب يهوذا بعد أن أظهر له تأييده اذا شاء أن يكون ملكاً على اليهود . قال له « بصوت راعب كرعد السماء ... : تخلف عني يا شيطان ! وهل يخطر لك أنني جئت في مواكب السنين لأحكم ثلثة من النمل يوماً واحداً ؟ إن عرشي يفوق بصيرتك . وهل يمكن الذي يحوط الأرض يحتاجيه أن يتشدّ ملجأ في عش مهجور منشي ؟ أم هل يشرف الحي ويرتفع بواسطة لابس الأكلان ؟ إن مملكتي ليست من هذه الأرض ، ومجلسي لم يبن على جماجم أسلافكم ... هل وزنتي في الميزان فوجدتني جديراً بأن أقود جيشاً من الأتراك ؟ ... كثير هو الدود المجتمع حول قلبي ، ولكنني لن أصليه ضرباً . قد ملئت المنزل والمجون وسمنت نفسي

(١) المصدر السابق ، رابع مقال « يسوع المصلوب » ، ص ٢٢ - ٢٦ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٤٨ .

(٣) يسوع ابن الانسان - م . ك . م . ص ٢٤٢ .

(٤) المصدر السابق ، ص ٢٤٨ .

(٥) المصدر السابق ، ص ٢٤٨ - ٢٤٩ و ٢٦٩ - ٢٧٠ .

الثقة على الدبابات التي تحسني جانباً لا تتخطى بين أسوارها وقلاعها الحصينة» (١).

وقد يُخال إليك أن الجيروت الروحي الذي يسفه جبران على يسوع في الدور الثالث فيه طفرة قوة من المرحلة الثانية ، لكن الحقيقة أن يسوع جبران ، هنا ، تتوازن فيه المحبة والقوة الروحية ، من جهة ، ومن جهة أخرى ، يخلع جبران عليه صفات المسيح الملائكة المظلم الذي قال له الرب : « اجلس من يميني حتى أجل أعدائك موطناً لقديك » (٢) ، والذي قال نفسه : « ومن غلبت وحفظت أصالي إلى المنتهى فإني أوتيه سلطاناً على الأمم فيرعاهم بعضاً من حديد وكأني غزب يتحطمون مثلما أوتيت أنا من عند أبي » (٣) ، والحلم بعودة المسيح لأرم خيال جبران منذ بواكيره الأدبية ، حسبما ترى في « يوحنا المجنون » .

وبين رسوم جبران الكثيرة التي يمثل بها يسوع اثنان مُميزان تلمس فيهما توازن القوة والمحبة ، أحدهما (رقم ١١١) رسمه جبران ليكون صورة لغلاف كتابه « يسوع ابن الانسان » فرفضه القسم الفني في دار النشر المتولية إصدار الكتاب ، بحجة أنه غير مكتمل الرأس ، الأمر الذي أصاب جبران في صميم إحساسه الفني وجعله يرسم ، مكرهاً ، لوحة أخرى (٤) ، والثاني (٥) يمثل المسيح فيه قوة كونية ذات جيروت إلهي ، بين الكواكب والمجرات ، ويظن أن جبران أعدّه ليكون صورة لغلاف العدد الممتاز من مجلة السائح الذي لم يصدر .

(١) المصدر السابق ، ص ٢٠٤ - ٢٠٥ .

(٢) الكتاب المقدس - العهد القديم - مزبور ١٠٩ : ١ ؛ العهد الجديد ، متى ٢٢ : ٤٤ .

(٣) رؤيا يوحنا ٢ : ٢٦ - ٢٧ .

(٤) راجع قصة هذا الرسم في « هذا الرجل من لبنان » لبريارد يونغ ، ترجمة سمير عفيف بابا ، ص ١٤٣ - ١٤٤ .

(٥) الصورة التي التقطناها هذا الرسم لم تنجح ، ولم تسمح لجنة جبران لنا بالتقاط صورة جديدة من متحفه .

ج - الشاعر المبدع : وكان يسوع جبران « سيد الشعراء ... سيد ما قيل وما أنشد من الكلام »^(١) . يقول فيه أحدُ ألسنة جبران في « يسوع ابن الانسان » : « قد حبستُ نفسي شاعراً فيما مضى ، ولكنني عندما وقفتُ أمامه في بيتٍ غنياً عرفتُ للحال ما مقام الضارب على آلة ذات وتر واحد أمام الذي يأمر جميع الآلات وجميع الأوتار فتطيعه ، فقد اجتمع في صوته ضحكُ الرعود ، ودموعُ الأمطار ، ورقصُ الرياح والأشجار »^(٢) .

وقد استطاع جبران أن يكشف أحد أسرار الجمال في أسلوب يسوع ، فيُذكر أنه يخاطب روح الانسان ، و « يحرك أمثاله وقصصه من خيوط الفصول كما يحرك الزمانُ نسيجه من خيوط السنين والأجيال »^(٣) . ولعل من أسباب نجاح الأدب الجبراني ، ولا سيما « النبي » ، ما يشكله من عودة الى الجوهر الانساني والطبيعة . فكالناصري كان جبران يوقظ الروح الانسانية ، ويُعيد نسج الطبيعة كما تُنسج الفصول ، مكثرًا من استخدام المثل والموعظة .

ولا مبررة في أن الكتاب المقدس ، مُذْ تُرجم الى العربية ، تظل تأثيره في أساليب الأدباء ، لكننا لا نجد ذلك التأثير عميقاً وواضحاً في أدب أي كاتب لبناني أو عربي ، مثلما الحال في أدب جبران . ومردُّ الأمر الى العلاقة النفسية الحميمة بين جبران ويسوع . فجبران التزم نهج الكتاب المقدس عامةً ، وأسلوب الناصري خاصةً ، لارغبة في التجديد الأدبي فحسب ، بل كضرورة نفسية يحتملها مجاوبه مع مثله الأعلى . فاليازجيان والبستاني وسائر الأدباء ممن عملوا في قفل الكتاب المقدس واهتموا به ، لم يبرز في أسلوبهم أثرُ الأناجيل . ذلك يؤكد أن البيئة الثقافية ، كالبئة الاجتماعية ، لا تؤثر في نفس الأديب ما لم يتمتع تأثيرها في المجال السيكولوجي المرتبط بنفسه ارتباطاً حميماً .

(١) المصدر السابق ، ص ٣٥٧ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٢٦٢ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٢١٠ .



يسوع المحب القوي

(رسم رقم ١١١)

والذين يردون أسلوب جبران، خصوصاً في «التي»، إلى الأسلوب النيتشي، يُخلطون تأثير نيتشه نفسه بالكتاب المقدس. وجبران الذي كان دور الفيلسوف الألائلي في حياته وأدبه دور تأكيد لمرحلة القوة التي غاضها، طبعياً، وصفاتها من كتاباتها، طبعياً، كان يتعرف من النتج المشتركة بينه وبين نيتشه، اختراعاً مباشراً.

وقد انعكست «شاعرية» يسوع على مفهوم جبران للفرق. فالشعر الحقّ مسيحٌ حقّ، والشعر الزائف مسيحٌ كذاب^(١). وبما أن الشاعر خدا ظلاً من ظلال الناصري، فقد رآه نبيّاً منبوذاً في أمته، الروح تُحييه، والسماء تملأه زينة، ليضيء أمام العابرين في ظلمة الليل. لطيف وسط العنف، مُحِبّ وسط الكراهية، يشعر أنه والبشر أجمعين أبناء روح قدّوس. يزهّد بجمده، ويحسن الله سجيته، ويلمح بضحكي من أجل الحقيقة^(٢). وكالناصرى لا ينتمي إلى هذا العالم، فهو فيه متغني غريب حتى عن الأهل والخلان، ذلك بأنّ وطنه الحقيقي هو ملائكة الروح. ومع أنه يُطعم الناس من قلبه طعاماً روحياً، ويهبهم من نفسه سلاماً ومحبة، ويعلمهم سبيل السعادة، فهم يضنون عليه حتى بالخيز والمأوى^(٣). هذه الصفات الروحانية يحلمها جبران، أيضاً، على الفنانين الصادقين وأبناء المعرفة كالقوة؛ فهؤلاء ذوو حطاء مسيحي، فيه بتدليل النفس وصكّيب للذات وجذب للناس إلى أعلى؛ وهم مُتجرّدون عن الماديات، غُرَباء في أقوالهم، مُحِبّون، قائلون على الجمود^(٤).

(١) دسة وابستنة - م. د. ج. ٢، ص ١٥١.

(٢) راجع المصدر السابق: «صوت الشاعر»، ص ٢٢٧-٢٢٢.

(٣) المصدر السابق، ص ١٩١-١٩٢. راجع كذلك: المراسف - م. د. ج. ٢، ص ١٢٢. القاموس العربي، ص ١٤٥-١٤٧ و ١٤٩ و ١٥١. الفصلان ١، ص ١٢٩-١٤٢ و ١٤٢. الشاعر ص ١٦٢-١٦٥.

(٤) راجع المصدر السابق: «نحن وأنتم»، ص ٤٥-٤٨ و جبران حياً وميتاً، للهيبي محمود: «لكم لتعلموني لتي»، ص ١٢٢-١٢٦. كذلك: الموسيقى - م. د. ج. ١، ص ٤٥-٥١.

تلك هي الصفات الخاصة التي ميزت يسوع جبران عن يسوع عامسة
المسيحيين : كمال في الإنسانية ، وقوة روحية ، وشاعرية فذة . لكن ،
ليسوع جبران مزايا أخرى عامة مألوفة لدى المسيحيين ، ويمكن إجمالها في
سبع : الاستشهاد ، والفضيلة ، والألم المظهر ، والإصلاح الروحي ، والترعة
الإنسانية ، وكفاح المرائين ، والفريفة الروحية الرسولية ، وجميعها إذ
وسمت مثل جبران الأهل ، وسمت في الوقت نفسه حياته وإنتاجه . وإنما
سنفرد للمزية الأولى قسماً خاصاً وذلك لخطورة أثرها في نفسية جبران وآثاره ،
ثم نعرض لساير المزايا مجتمعة في قسم آخر .

مزايا يسوع العامة وانعكاسها في آثار جبران وسلوكه :

أ - الاستشهاد : إن فكرة فداء المسيح للبشر بموته على الصليب ، حسبما
هي مألوفة لدى عامة المسيحيين ، غريبة عن فكر جبران ؛ فهو يرى في صلبه
نوعاً من البطولة الواعية ، من الاستشهاد الأسمى ؛ ولذا أكرنا استخدام العبارة
الأخيرة على لفظة « الفداء » لتكون أكثر أمانة لخطه الفكري . وتوق جبران
إلى التشبه بيسوع مصلوباً ، لنقل شهيداً ، كان يُشيع فيه عدة حاجات
نفسية : فرغته في الصلب ، في معاناة الآلام ، كانت في المرحلة الثانية من
إنتاجه إحدى ذرائع إثبات ذاته وكسبه المزيد من الثقة بنفسه . يكتب إلى ماري
هاسكل في ٢٣ تشرين الأول ١٩١٢ : « إنني عاكف على كتابة شيء قد يقلب
العالم العربي كله ضدّي ، لكنني تأهبت لذلك ، فقد تعودت أن أسمى
على الصلب . وفي الواقع ، أتمتع بذلك لأنه يجعلني واقفاً من نفسي »^(١) .
ومثل هذا الشعور نستشفه مجدداً ، في مقالته « المصلوب »^(٢) التي يتوحد فيها
« بالمجنون » . فهو يسأل الناس أن يصلبوه لأن الصلب يكسبه مزيداً من القوة
والحرية والتوحد والتفرد ، إنه يهدئ ثورة نفسه . يقول « المجنون » لصالبيه :

The Letters of K. Gibran and M. Haskell, p. 212 (١)

The Madman, p. 60 (٢)

« اذكروا فقط أنني كنتُ أبتم . فأننا لا أقوم بتكفير عن ذنب ولا بتضحية ، ولستُ أرغبُ في مجد ، وليس لي موضوعُ غفران ، لكنني ظننتُ فسألتكم أن تقدموا لي دمي شراباً » . ثرى ، هل أصبحتُ معاناة الآلام اختياريّاً ، هنا ، علاجاً لتوتره النفسي ؟

لكنّ ، لطلبه الموت معنى نفسياً آخر ، تلقاه خصوصاً في المرحلة الأولى والثالثة ، هو الخلاص من الأسر والغربة والانتماج بالأبدية حيث يتحد بالمسيح و « بأمة - الروح » ، ولذا يجتذبه فكرةُ الموت وتُمتعه . يقول لي زيادة في أواخر حياته : « أما تعلمين ، يا ميّ ، أنني ما فكرتُ في الانصراف الذي يسميه الناس موتاً ، إلا وجدتُ في التفكير لذة غريبة وشعرتُ بشوقٍ هائل إلى الرحيل » ^(١) . وشوقه هذا لم يولد في كهولته ، لكنه كان يعلن نفسه منذ فتاته . ففي ذكرى مولده السادسة والعشرين ، كتبَ في باريس : « قد أحيتُ الموت مرّات عديدة ، فدعوته بأسماء عديدة ، وتشبّيتُ به سرّاً وعلناً » ^(٢) . لكنّه قبل ذلك العهد كان قد بلغ ذروة خطئه اليائس في التعبير عن « جمال الموت » ^(٣) ، وفي الحنين الحادّ للانتماج بالأبدية ، بالأم الروحية ، بنفسه سكّرت بالمحبة ، وشبعت من الأيام والليالي ، واليقظة أرهقت أجفانه ، ولذا فهو يطلب راحة القبر .

« دعوا بنات الحميّ يقتربن وينظرنَ خيال الله في عينيّ ويسمعن صدى نغمة الأبدية متسارعة مع أنفاسي ... »

« ها قد بلغتُ قمة الجبل فصبحتُ روحي في فضاء الحرية والامتثاق ... »

(١) رسالتُ جبران ، ص ١٠٠ .

(٢) دمة وابضامة - م . ك . ج ٢ ، ص ١٩٤ - ١٩٥ . راجع ، أهدأ ، رسالته إلى ماري هسكل في ٦ كانون الثاني ١٩٠٩ (ذكرى ميلاده السادسة والعشرين) ، ففيها يقول : « أنا ما زلتُ بالقياس على حبي للموت ، فيها ألحج الحياة نصف حبي » .

The Letters of K. Gibran and M. Haskell, p. 20.

(٣) دمة وابضامة ، م . ك . ج ٢ ، ص ٢١٥ - ٢١٨ .

فلم أعد أسمع سوى أنشودة الخلود متألفة مع ميول الروح ...

« لا تلبسوا السواد حزناً عليّ ، بل تردّوا البياض فرحاً معي ... »

« اغسلوا هذه الآثواب ودكّوني عارياً الى قلب الأرض . مدّدوني ببطء
وعذوه على صدر أمّي ... »

إنّه الفرح بالموت يحبّه نداء « المصلوب » وقد اتّحد بأمة في عالم الروح ؛
إنّها بهجة الانتماء من سجن السأم يُفْضي من لم يجاوز العشرين إلا قليلاً ؛
إنّها فرحة الاندماج برّب المحبّة والقوّة المرسوم ظلّه في عينه . فالمت بطلّ
أن يكون رعباً ، او فراراً انهزامياً ، او علاجاً حصائياً . لقد أصبح ارتقاء
واتصاراً . لأنّ فيه اقتداءً لاشعورياً بمن قهر الموت بالموت ! ولذا فشمّة
موتان : واحدٌ يؤدّي بصاحبه الى الانسحاق ، الى التراب ، وآخر يُفْضي به
الى التلبّة والتفخر ، الى « المصلوب » ، قال الله . هذان النوعان واضحيان في
« مواكبّه » ^(١) :

« والموتُ في الأرض لابن الأرض خاتمةٌ »

وللأثيريّة فهو البدءُ والظَقَرُ

فالمتُ كسالمحور ، من خفّت عناصره

يجتازه وآخر الانتقال يتحدرُ »

ولأنّه من « الأثيريّين » اقترنت الحياة بالليل في نفسه ، والموت بالفجر
الذي تحمل يداه الراحة والرحمة لكلّ نفس تشعر بفرحتها في الأرض ، وتنفو
الى مجاوزتها ^(٢) . طُكِبُ الموت ، إذن ، خُداً عمليّةً وداخليّةً تستهدف العودة

(١) م . ك . ج . ٢ ، ص ٢٧١ .

(٢) في قصيدته « يا نفس » يتناجي ذاته :

« يا نفس ما العيش سوى ليل اذا جن انتهى »

بالفجر ، والفجر يوم

وفي هذا قلبي دليل على وجود السبيل

في جرة الموت الرحوم

(البدائع والطرائف - م . ك . ج . ٢ ، ص ٢٩٤) .

الى الأصل الروحي الممتد ، الى نبع المحبة الصارخة في وجه الساعرين بها . يقول في « اليقظة الأخيرة » ^(١) : « وأنت أيها القاضي والنائد ، لقد أحبتكما ، أيضاً ، لكنكما عنتما وأبتماني مصلوباً قلتما : « إن دماء تترف نزفاً لإيقاظاً » والخطوط التي ترسمها على جلده الناصع لبهية المنتظر . إنه موقف المسيح على الجلجلة ، بثبات محبته يصنع المازنين ، ولئن حواه ارتعاش فيكون « أشبه بارتعاش الراعي الواقف أمام الملك يضع يده عليه ليقلده وساماً » ^(٢) .

وقد كان يسوع المصلوب آثاراً صريحة في أدب جبران وورسه . فخيال الموقف البشري القاضي ، وجد جبران عزاءه في رحلاته التأملية الطويلة حول مأساة ابن البشر . فمنذ كتاباته الأولى حتى الأخيرة لم يفارقه وجه المصلوب . إنها محاولة « مباحشة خيالية دائمة لبطله الأسمى . ففي « الأجنحة المتكسرة » ، يختار جبران ، للقامات مع سلمى ، هيكلاً مجهولاً رُسمت داخله صورتان ، إحداهما تمثل يسوع المصلوب وحوله المرمغان وأمرأتان تتحيان . وأمام المصلوب ، كان يلتقي سلمى ، مرة في الشهر ، فيصرقان الساعات الطوال ، « مفكرتين بنفى الأجيال المصلوب فوق الجلجلة » ^(٣) . وفي « مساء العبد » ، إذ يكون مستغرقاً في عزلة وأحلامه ، يرى رجلاً قريبه ، فيقول في نفسه : « هو مستوحش مثلي » . لكنّ عليه في الوحدة والقرية ما لبث أن انتصب « وتعالى قامته وسطع وجهه ووسط ذراعيه » فظهر أثر المسامير في كتفيه ، فارتدى جبران راحته أمامه ، صارخاً : « يا يسوع الناصري » ^(٤) . وفي « يسوع المصلوب » ، يبلغ جبران ذروة تأملاته حول آلام المسيح ، قبل « يسوع ابن الانسان » . فإذا هو يشارك الإنسانية معه في وقفة خاشعة أمام « شبح مكلل بالأشواك » ، باسط ذراعيه أمام اللانهاية ، ناظر من وراء حجاب الموت الى

The Forerunner, p. 59 (١)

The Prophet, p. 77-78 (٢)

م. ك. ج. ٢ ص ٧٠ - ٧١ . (٣)

المرامد - م. ك. ج. ١ ص ٨٢ . (٤)

أعماق الحياة . ويأبى جبران الوهن المصلوب ، فيجعله قوياً جبّاراً يصرع الموت بالموت . ويعجّد إلكليل الشوك على رأسه ، فهو « أجل وأجل من تاج بهرام » ، والمسامر في كتفه ، فهو « أسنى وأقنم من صولجان المشتري » ، وقطرات الدماء على قميصه ، فهي « أسنى لماعاً من قلائد عشتروت » (١) . ولا يسعني إلا أن أتمجّل ، وراء ذلك ، تمثال المصلوب الجبّار الذي كان جبران الطفل يقف لإزائه متأثلاً متهيّباً خاشعاً ، شاعراً بصفره أمام جبروت المعلق على الصليب (٢) . وفي « رمل وزبد » ، يتوحد جبران بالمصلوب توحداً تاماً ، إذ يخاطبه : « أيّها المصلوب ، أنت مصلوبٌ على قلبي ، والمسامير التي تنقب يديك تنقب حُجبَ فؤادي . وغداً ، عندما يمرّ غريبٌ بهذه الجملجة ، لن يعرف أنّ دم اثنين سُفِحَ هاهنا ، لكنه سيعتقد أنه دم واحد فقط » (٣) . أمّا في « يسوع ابن الانسان » فكثيراً ما كانت صور الصليب تُشبّ في خيال جبران على ألسنة رُؤاته ، ولا سيما نيقوديموس الشاعر ، وسوسان الناصرية ، وفيلبس ، وباراباس ، وكلوديوس ، ويعقوب ، وسلمان القيرواني (٤) .

(١) المصدر السابق ، ص ٢٢ - ٢٦ .

(٢) هذا المصلوب الجبار ، يترأس ثانية ، لنا ، في نحن وأنتم » (المصدر السابق ، ص ٤٨) .

(٣) Sand and Foam, p. 62

(٤) يتم نيقوديموس الشاعر كلامه في يسوع قائلاً : « أنا واضٍ بنتم قيسارته التي كان يحملها وينتثر

أوتارها عندما سمرت بدا جسده (عل الصليب) ، ونزقت منها الدماء » (Jesus the Son of

Man, p. 91) . وسوسان الناصرية تذكر يسوع حاملاً صليبه ، يواكمشد غفير ، ووراء تمثلي

أمه ، وخلفها وقبر صهيون نورومة بل العالم طراً ليتقم لنفسه من انسان حر واحد (ibid., p. 140) .

وفيلبس يشرح بموت الانسانية كلها عندما مات ، وكيف هم الحزن الطيبة وتنقب فيها

الحياة ، ويعظم كلمات التسامح التي نطق بها عل الصليب (ibid., p. 143-146) . وباراباس

يستعيد كلمات المسيح الأخيرة وجوابه له إذ تنجب من صليبه بين لصين : « لولا هذا المسامر

الذي يميت يدي لكنت مددتها وصافحت يدك » (ibid., p. 162) . وكلوديوس قائلاً الله يذكرك

ساعات يسوع الأخيرة : كيف حزناً به ونزعوا ثوبه ووضوا إلكليل الشوك على رأسه ، ووقصوا

سحوله ، وكيف اتبس للفران لثاقبه وهو يلفظ أنفاسه عل الصليب (ibid., p. 164) .

ويعقوب أمرو السيد يتحدث عن المشاء الأخير وجبل الزيتون والقبض عليه ، ويتم قائلاً :

« لقد صلب ، ودمه صنع للأرض طيناً جديداً » (ibid., p. 171) . وسلمان القيرواني يروي

كيف حمل صليبه الطفل ، فرحاً ، غير شاعر بعبث ، وكيف فرزوا المسامر في يديه

ووجهه ، وتمت ضربات المطرقة صدمت أعضائه (ibid., p. 172-173) .

الى أن يتم كتابه بتمجيد آلام المسيح ، ذاكراً إخوته الأحرار الصامتين بحيواتهم
حياته ويُرتَمون أناشيده ، لكنهم يتألمون لأنهم لم يشاركوه في الصلب
العظيم ؛

« فالعالمُ يصلبهم كل يوم ،

لكن بطرقٍ بسيطة .

فالسما لا تهتز ،

والأرض لا تستخف بموتها .

فهم يُصلبون ، ولا أحد يشهدُ عذابهم ،

يُديرون وجوههم ذات اليمين وذات اليسار ،

ولا يجدون مَنْ يَعِدُهُمْ بمكانٍ في ملكوته ،

ومع ذلك ، فهم يودّون أن يُصلبوا مرةً إثر أخرى ،

علَّ إلهكَ يكونُ لهم إلهاً ،

وأباك يكون لهم أباً » ^(١) .

ولست قليلةً رسومه التي يبرز فيها المصلوبُ بروزاً صريحاً حاملاً معنىً
نفسياً خاصاً ، وقد اخترنا منها ثلاثة للدلالة . ففي الرسم (رقم ١١٢) الذي
يعود الى المرحلة الأولى (١٩٠٧) ، يُطلُّ المصلوبُ بعيداً قريراً ، من علٍّ ،
قوةً إلهاميةً ضبابيةً ، إنما حاضرة التأثير في مجرى الحياة — حياة جبران —

ibid., p. 104-105 (١)



(رسم رقم ١١٢)

الأم ما، محي - ١٩٠٧ -



(رسم رقم ١١٣)

الانسلاخ المرير عن المصلوب - ١٩١٧ -



المصراع في ظل المصلوب

(رسم رقم ١١٤)

وقد اتحدت بالأرض - الأم ، المثالمة والمتشكلة برأس امرأة حزينة منطبقة
صنها ، ومفرجة قليلاً شفتاها ، وماء يترقق من فمها مكوّناً أمامها بركة
صغيرة تحيط بها تربة ينمو فيها بعض الزهور وبجانباها فلذات صخرية .
أ يكون لادعي جبران الروحي المأهول بالصلوب يحدث في واقعه الحيائي -
المرتبط بذكرى أمه وفعلها الغيّر - تفتحات روحية شعورية مُشكلة بضع
زهرات نامية حول الماء ، يجول صخور الوحدة القاسية ؟ وفي الرسم (رقم ١١٣)
الذي يرقى الى المرحلة الثانية (١٩١٧) يمثل المسيح مصلوباً في خلفية الصورة ،
وأمامه رجل يبدو ذا بأس إذ يرفع بذراعيه جسم امرأة ما تزال يسراها منبسطة
على بسرى المصلوب ، وكأنها كانت تحاول الاقتداء به بصلب نفسها عليه ،
فأثى من يريد انتزاعها عنه . ولعل في إخفاء الرجل وجهه وراء المرأة ما
يُبدى خطئه من عمله ، وفي حجب وجهها يدها مع ملامستها ذراع المصلوب
ما يُرجح قيام صراع في ذاتها بين أن تكون للمسيح او لغيره . وقد يكون في
ذلك تمثيل لواقع جبران التضيي في أواخر المرحلة الثانية إذ اشتدّ نداء الناصري
في الذات الجبرانية يطالبها بالتسليم نهائياً لملكها الأعلى ، بينما كانت الطاقة
الحسية ما تزال ناشطة في نزعتها الى القوة بنية إثبات وجودها في وجه الآخرين
بمن فيهم المرأة . وفي الرسم (رقم ١١٤) الذي يعود في أغلب الظن الى المرحلة
الأخيرة ، يراءى المصلوب جباراً ضبابياً ، في خلفية الصورة « ويبدو مهيمناً
على حركة نزاع بين رجل وامرأة ، لتقل بين رجل ونجربته الجنسية ، إذ
الشخصان والمصلوب انمكسات خارجية لحالة نفسية . إنها ذات جبران
للذهنية المتفهمة الماددة تتجاذبها الروحانية مُتمثلة بالمصلوب متكّلة الأعلى
والحسية مُتمثلة بالمرأة . يبدى يحنو على رأس الأنثى ، ويبدو يدفعها عنه ، وهي
ما تزال تحاول التثبت بجسده ، بحركة عصبية عنيفة ، مُحيطَة عقه وظهره
بيديها ، ومتعلقة فخطيه برجليها ، في حين أن المصلوب يُلح عليه لاتخاذ
موقف ينسجم ومعناه : تحمّل الأم والتضحية في سبيل الارتقاء الروحي .

إن المسيح « المُخلص » في الآداب العالمية ، قد يمت بصلة الى النموذج

البدائي الرئيس «المُعْتَبَر» ، لكن « يسوع المصلوب » حسبما يتغلغل في حياة جبران وإنتاجه ، مرتبط أيضاً ارتباطاً حميماً بوجوديته الروحية . ولئن كان الموضوع الأدبي أو الفني -ولا سيما لدى الأدباء والفنانين المحدثين- «فرصة» أو «ذريعة» ، فهو ليس أية «ذريعة» ، فالفنان يختاره من بين مئات الموضوعات المعروضة في الحياة ، بحيث يُصَبِّح إثاره إياه «صفة» مميزة لفته ^(١) . وجبران إذا اختار موضوع الناصري ، وألح على صورة « المصلوب » ، وردّها في مختلف مراحل إبداعه الأدبي الفني ، فلأن « المصلوب » فرض نفسه عليه ، منذ طفولته ، فأصبح جزءاً من نفسه وكيانه ، بل غداً عنصراً دينامياً جليلاً في الطبقة الروحية من ذاته التي منها انبثق المثل الأعلى الذي وجهه طول حياته . وإن كان دور « المصلوب » خطيراً في تأثيراته الصريحة ، فخطورته لم تكن أدنى في تموجاته الرمزية عبر أدبه ورسمه .

وتختلف تموجات « يسوع المصلوب » الرمزية عن تأثيراته الصريحة في أنها تشمل من الصليب أعماقه المضمونة دون شكله . إنها تحمل وجه الموت كفصل مميز ذي بُعدين : الإقناذ والتخطي . فالإقناذ لأن المسيح كان بموته «مخلصاً» للكثيرين ، وبامتداد ظله على أبطال جبران ، يُصَبِّح كلٌّ منهم مسيح نفسه ، يُسْتَشْهَد في سبيل إقناذها من شتى العبوديات . والتخطي لأن المسيح تخطى العالم وغلب الموت بموته وقيامته ، ولذا يُشكِّل الموت لأشخاص جبران جسراً يُلْفِهم حياةً أفضل وأجمل ، إما بالبعث في الأرض بالتضمص أو بالبعث في العالم الروحي . هكذا غدا معظم أبطال حكاياته شهداء ضحايا لوحشية الإنسان ، أو شهداء متمردين على تقاليد بالية وأوضاع فاسدة . والصفتان اتحدتا في شخص المسيح : فهو رافض «لقبم العالم ومقاييسه ، نالراً عليها ، وموقفه الرافض جعله شهيداً ثورته ؛ لكن وحش الماسد والمظالم قضى عليه من غير أن يخرج ذنباً ، فثورته كانت روحية من أجل إقناذ ظالمه ، فكان ، إذا ، شهيداً ضحية ، اجتمعت في موته الجبرية والطوعية . لكن الموت قد

(١) M. DUFRENNE, *Phénoménologie de l'expérience esthétique*, t I, p. 393-395

يزور أحياناً أشخاص جبران زيارةً طليعية ، لكنه يتخذ ، آنثذ ، وجهه « الحبيب الجميل » ، يعاقبونه بالشوق والفرح لأنه يحمل لهم معنى « المخلص » . وبذلك يتحصل من كتاباته ثلاثة مواقف ازاء الموت : الموت الجبري والموت الطوعي والموت الطبيعي ، ووراءها جميعاً وجه يسوع المصلوب .

أما الموت الجبري فطليعة ضحاياه رُسُل الروحانية والحقيقة . يندكر جبران بعضهم ، وهو يقابل بين « نحن وأنتم » : « قد سمعتم سقراط ورجمتم بولس وقتلتم غيلو وقتلتم بعل » بن أبي طالب وحقنتم مدحت باشا ، وهؤلاء يميون الآن كالأبطال الظافرين أمام وجه الأبدية^(١) . لكن هذا الموت الجبري كانت تنمو في أعماقه بذرة الاختيار التي دفعت أولئك الأبطال الى معاكسة ارادة المحيط القاسد ، وبالتالي الى الاستشهاد الطوعي . في هذا الخط الاستشهادي الروحاني ، يبرز أثر المصلوب الرمزي في « السلاسل الحاقة » حيث تتكفل ضرورة الاستشهاد بحمل ملك مدينة « عيشانا » يقطع رأس النبي لأنه نطق بالحقيقة بعد أن ناشده إياها^(٢) ، كما يتجلى في المصير الذي فرضته الحتمية الباطنية نفسها على « المصطفى » في « موت النبي »^(٣) ، وهو آخر قسم يجب أن يتم « ثلاثيته » : يعود « المصطفى » الى أورفليس حيث يلقى في السجن ، وبعد أن يطلت سراحه ، يقصد ساحة المدينة التي علم فيها ، وهناك يجمعونه حتى الموت . ولكنه يدعو كل حجر يصيبه باسم مبارك .

شهداء الحق والروحانية لا نلقاهم بين البشر فحسب ، بل بين سائس

(١) المواصف - م . ك . ج ٣ ص ٤٨ .

(٢) The Forerunner, p. 41-43

(٣) كان مخطط جبران يهدف إلى جعل حياة النبي « وكرارته في ثلاثة : « النبي » ويتناول علاقة الإنسان بالإنسان ، وقد أنجزه ونشره في حياته ، و « حديقته النبي » ويتناول علاقة الإنسان بالكون ، وحال موته دون إنجاز ، فأكلته ببراهه يانغ ، حسب رؤيتها ، ونشرته ؛ و « موت النبي » الذي أطلع ماري عسكل على فكرته الرثية سنة ١٩٢٢ وبقي في ضمير النبي . انظر : B. YOUNG, This man from Lebanon, p. 119 ؛ أيضا ، توفيق صايغ : ألفوا جديدة على جبران ، ص ٢٢٨ - ٢٢٩ .

الكائنات الحية ، فامتدادات المصلوب تبسط على وجوه الحياة كلها . ففي « رؤيا » (١) لوحة رائحة لعصفور صغير مات في قفصه جوعاً وعطشاً ، وهو بجانب مجاري المياه ، ووسط الحقول التي منعها قضبان الشرائع الظالمة عنه . وإنما الطائر رمز الانسان الروحاني التائق الى التحرر من ربة التراب « من خلاله يسلم وجه المسيح المصلوب ، حينما يتحول الى قلب بشري فيه جرح عميق بقطر دمًا قرمزيًا » . لكن يبدو أن المصلوب اختلط ، في عقله الباطن ، بأمته الميتة ، فاذا جوانب الجرح المفتوح في القلب الروحاني تحاكي « شفتي امرأة حزينة » . كذلك في « المعرفة ونصف المعرفة » (٢) تمتد التحوّجات الرمزية على عالم الضفادع ، فاذا الناطقة بالحق فيهن تقع ضحية الأخرى الأناثيات ، فيتمازن بعد خصام ، ويتفقن على قذفها في تيار الماء لأنها حاولت جمع أشنات الحقيقة بجمع القلوب المتفرقة .

لكن الموت الجبري ، في كتاباته ، ضحايا من نوع آخر : أناس عاديون أبرياء ، ذوو قلوب بسيطة وسرائر نقية ، مسالمون وفقراء . انهم امتدادات للمصلوب أقل تألقاً من أبطال الحقيقة والروحانية . منهم أبناء أمته البسطاء الذين اضطهدوا وجاعوا ثم ماتوا أبرياء . ماتوا

« ... على الصليب .

« ماتوا واكتسبهم مملودة نحو الشرق والغرب ، وعيونهم معلقة الى سواد الفضاء ...

« ماتوا لأنهم لم يحبوا أعداءهم كالجناء ، ولم يكرهوا محبيهم كالجاحدين .

« ماتوا لأنهم لم يكونوا مجرمين .

« ماتوا لأنهم لم يظلموا الظالمين .

(١) دقة وإبانة - م . ك . ج ٢ ، ص ١١١ - ١١٥ .

(٢) The Forerunners, p. 4443

« ماتوا لأنهم كانوا مسلمين ... » (١)

ولذلك فهو يتحسر لأنه لم يكن مع قومه « الجاهلين ، المضطهدين ، السائرين
في موكب الموت نحو عهد الاستشهاد ... » (٢)

ومنهم المحكومون الأبرياء ، وفي « صراخ القبور » أمثلة لهم : « في دافع
بجيانه عن شرف عذراء ضحية وأُنقذها من بين أنظار ذئب كاسر ، فقطعوا
عنه جزاء شجاعته ... وصيبة لأمس الحب نفسها قبل أن تنتصب المطامعُ
جسدَها ، فرُجِمَتْ لأن قلبها أبى إلا أن يكون أمينا حتى الموت ... وفقر
بائس أوهت ساعديه حقول الدير فطرده الرهبان ليستعضوا عنهما بسواعد
غيره . فطلب الخبز لصناره بالعمل فلم يجد ، ثم رجاء بالتسوك فلم يثله ،
وعندما دفعه اليأس الى استرجاع قليل من الفلة التي جمعها بأتاعيه وعرق جبينه
قبضوا عليه وفتكوا به » (٣) .

لكن « ضرورة الاستشهاد » لم تكن تعمل مستقلة في هذه الاقصوصة ، بل كانت
أشبه بمصرف لنشاط الشعور بالدونية في فعله الارتدادي المتمثل باثبات الذات .
فالقن ، هنا ، يؤدي لجبران دور تنقية الأهواء : فرغبته الدفينة في تخجير
الظالمين وازدراء رجال الدين والحملة على الأغنياء أتبع لما أن تُحقّق انقراجات
عن كتبها في فلّك المصلوب . ولعلّ في تعليقه وَضْع السيف والزهور والصليب
فوق كل من القبور الثلاثة ما يُظهر ذلك : أما القن فالصبيبة التي أنقذها
أغمدت سيفه بتراب قبره ليبقى هناك رمزا يتكلم أمام وجه الشمس عن مصير
الرجولة في دولة الحيف والغبوة ، وأما الصبيبة « شهيدة الحب » فحببها
« وضع ... باقة » من زهور الحقل فوق جسدِها المامد لتتكلّم بذيولها وفنائها
البطيء عن مصير النفوس التي يقدّسها الحب بين قوم أعنتهم المادة وأخرسهم

(١) المواصف - م . ك . ج . ١ ، ص ٩٠ - ٩١ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٨٩ .

(٣) الأرواح المتردة - م . ك . ج . ١ ، ص ١٢٨ - ١٢٩ .

الجهل ، وأمّا الفقير فأرمله ، وضعت ... صليباً على قبره ليستشهد في سكية الليل نجوم السماء على ظلم رهبان يمولون تعاليم الناصريّ الى سيوف يقطعون بها الرقاب ويمزقون بحدودها السينة أجساد الماسكين والفقهاء ^(١) . وإنما الرموز الثلاثة ، السيف والزهور والصليب ثلاثة أبعاد لكيان واحد . فالسيف نفاذ الصليب الرمزيّ في عالم الظلم ، والزهور تفتح الروحانيّ في دنيا المادة . وعبر الصليب صرّف جبران شحنات انفعالاته المضغوطة ضدّ الاقطاعيّتين السياسيّة والدينيّة . انفعالات بلغ احتشادها وتكتفها حدّ الانفجار المشهود المحسوس : « وقفتُ متهدّداً ، ولو لامستُ شعلاتُ تنهلاتي أشجار ذلك الحقل لتحركت وتركتُ أماكنها وزحفتُ كتاب كاتب وحاربتُ بقضبانها الأمير وجنوده ، وهدمتُ بمنوعها جدران الدبر على رؤوس رهبانه » ^(٢) .

وأمّا الموت الطوعيّ فشهادته هم الأبطال او الشرفاء او المتمرّدون على الشرائع الاجتماعيّة . ومثال الأخيرين المحبّون الذين يحاولون تحطيم الحاجز الاجتماعيّ الفاصل بينهم بتحطيم أجسادهم . ألم يتصر المسيح على الأرض بانتصاره على الجسد الذي هو من جبلة الأرض ؟ فما يمنحه العالم تحقّقه الأبدية ، وما تعجز عنه الميظنة تستطيعه الأحلام ، بل ما يفرقه الوعيّ يجمعه اللاوعيّ عبر الفنّ . انه التعويض النفسيّ يُنجز عمله متوسّلاً بالرموز الأدبيّة .

ففي « حكاية » يقع ابن زراع في حبّ ابنة الأمير ، وإذ يقتل المسافرة الاجتماعيّة الشاسعة التي تفصل بينهما يكفّ عن الطمع بلقائها « إلا في الأبدية حيث المساواة » . إسمعه يخاطب الموت : « تعال يا موت وأنقطني ... خلّصني يا موت فالأبدية أجدر بقاء المحبّين من هذا العالم . هناك يا موت أنتظرُ حبيبي » وهناك أجتمع بها ^(٣) . تُرى ، هل استكبرت ابنة الأمير عليه وأبدت احتقارها له ، حتى استبدّ اليأس به ؟ لا ، فالفتاة الرّبة ستترك مجد والدها لتتبع حبيبها الى

(١) المصدر السابق ، ص ١٢٦ و ١٢٨ و ١٢٩ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٢٨ .

(٣) دسة وابسة - م . ك . ج ٢ ، ص ٩٩ - ١٠٢ .

أقاصي الأرض ! انه الحلّ المنطقيّ الذي يلجأ اليه المحبّون . لكن المصلوب لن يدع الحكاية ثلاثي خاتمتها من غير أن يطعمها بطابه: الماشقان سيقتلان نفسيهما لئسّطهما ان يستمتعا بالحبة في الأبدية ، بحرية أوسع . موت طوعيّ يستحيل فيه الشهيد مسيح نفسه ، يموت لينقذها من ضراوة الشرائع البشرية .

هذا اللون من الموت الطوعيّ نراه ، أيضاً ، في مضجع العروس ، لكن مفروناً بالموت الجبري . ذلك بأن جاذبية المصلوب جمعت اليها الموقنين . فالعروس تقتل حبيبها ، لكنّ قتلها هذا لا يُنسبها الى الظالمين ، لأنها استجملت للقيام بعمل كان يودّ هو أن يعمل ، ولذا فهو يشكرها : « دعيني أقبل اليد التي كسرت قيودي » . لقد نابت منابه في تحريره . فالموت لشريف إحصان جليل يسدى اليه وعبة خالصة يُمنحسّها . تُعلل العروس قتلها حبيبها بقولها : « هو حبيبي وقد قتلته لأته حبيبي - هو عريسّي وأنا عروسته ، وقد بحثنا فلم نجد مضجعاً يليق بمنائنا في هذا العالم الذي جعلتموه ضيقاً بتقاليدكم ومظالمًا بمجهالتكم وفاسداً بلهائكم ، ففضّلنا الذهاب الى ما وراء النجوم . اقربوا أيها الضمحاء الخائفون وانظروا لعلكم ترون وجه الله منعكاً على وجهينا ، وتسمعون صوته المذبذب منبعثاً من قلبينا » . إن الخنجر ، هنا ، امتداد للصليب : ذو صفة مقدّسة ، جسر عليه يعبر الشهيد الى عالم « الحق » والروح . تقول العروس وهي منحنية فوق جثة حبيبها الذي قتلته : « اقربوا أيها الحبيباء ، ولا تخافوا خيال الموت ، فهو عظيم لا يدنو من صغاركم . اقربوا ولا تريحفوا جزعاً من هذا الخنجر ، فهو آلة مقلّدة لا تلامس أجسادكم القذرة وصدوركم المظلمة » . إن مثله الأعلى يرفض أن يكون الموت إلا للمُسحاه ، اولئك الذين يكسرون القيود ويفكّون السلاسل ويسرعون نحو الشمس . ولذا ، وكما يكون الاقتداء بالمصلوب كاملاً في العقل الباطن ، يجعل جبران العروس الحاملة للخنجر - الصليب - مخاطب زوجها - جلادها - قائلة : « أنا أغضرك صغارتك ، لأنّ النفس الفارحة بلهاياها من هذا العالم تنفض جميع زلات هذا

العالم . ولذلك فمن منطلق اللاوعي أن تنتهي الحكاية بتموّج « أغاني الملائكة » فوق شهيدَي الحب » ^(١) .

وفي « رجوع الحبيب » — مثال للشهيد البطل المضحيّ بنفسه لإعلاء لراية النصر — يتوقّف موكب الجنود الظافر القارغ من المعركة عند « جثّة هامدة مرتحية على أديم التراب المجبول بنجيع الدماء » ، فإذا هو ، بعد استطلاع هويّته ، ابن الصبيّ أحد أبطالهم . ويلقي وجه المصلوب ظلاله : فكما نهشت الجراح صدر يسوع تبين « كلوم الشغار في صدره كأنها أفواه مزيدة تتكلّم في هدوء ذلك الليل عن همم الرجال » . وفيما يفكّر الجنود بما يعملون له ، يقول أحدهم : « لنحملّه الى غابة الأرز ونقبره بقرب الكنيسة ، فنظلّ عظامه مغفورة بظلّ الصليب الى آخر الدهر » . ويقول آخر : « تعالوا نجثو مصليّين حواله صلاة الناصري » ^(٢) ... وهكذا يقضي المنطق النفسي الجبراني بأن يكون الشهداء الأبطال ، أيضاً ، امتدادات رمزيّة للمصلوب .

وفي « السمّ والدم » مثال الشريف المضحيّ بنفسه كي لا يكون موضوع شُبّهة لدى صديقه . فنجيب مالك ما أن تبلغه رسالة صديقه فارمى الرجال معلناً فيها أنّه هجر بيته وزوجته سوسان — بعدما تأكّد له أنّ الحبّ العظيم الشريف يضمّ قلبها الى قلب نجيب ، ويستحيل تغيير مجراه لأن السماء رسمته — يتحرر باطلاق النار على نفسه على مشهد من حبيبه ، حتّى لا يموت عهسد الصداقة ^(٣) .

إنّ جبران العائش في ظلّ المصلوب ، التائق الى التوحّد به ، كان يحاول عبر امتداده في أبطاله أن يعرّض عمّا قاله من جهاد واستشهاد في الحياة الواقعيّة . كان في نفسه ظلّ إله جبّار ينفخ الروح فيه باستمرار ليقوده الى

(١) الأرواح المتسرّدة - م . ك . ج ١ ، ص ١٤٠ - ١٥١ .

(٢) دمة وابساسة - م . ك . ج ٢ ، ص ٢١٠ - ٢١٤ .

(٣) المواصف - م . ك . ج ٣ ، ص ١٥٠ - ١٥٤ .

وحدة سامية ونبوة متمردة ومن ثم إلى الصلب ^(١) . فدرّب الجبلجة هو درّب
التجزية المثل وطريق التخطي لوضعه النفسي والاجتماعي .

وأما الموت الطبيعي فأهلته هم المتألمون في حياتهم ، الناشئون الخلاص
من سجن العالم ، و الأبريتون ، الناقون إلى العودة من ديار الاغتراب إلى
الوطن الروحي . ويشاء محور الثنوية الناشط في ظلّ الناصري المصلوب أن
يشكّل الفقراء أكثرية أبطال جيران المتألمين . فالفقير شجاع أمام الموت ،
عكس الغني ، بل هو في حين دائم إليه ، يُقبل عليه إقبال حبيب على حبيه ،
لأنه متقدّ ، رحيم ، جميل ، رسول الآلهة ^(٢) . فمرتا البانية كانت ترتّب أن
يشترى الموت فضلات أنفاسها المتقطعة براحة القبر ، ، وإذ أُرِف موعد
الرحيل أعلنت : « ها هي الساعة قد دَنَت وعريسي الموت قد جاء بعد هجرانه
ليقودني إلى مضجعه الناعم » ^(٣) . ويوحنا المجنون يسألك الناصري : « هل
بالتاس مسرة ، والبؤساء ينظرون بأعين كثيرة إلى الموت نظرة المظلوم إلى
المتقد ؟ أو يخاطبه قاتلاً : « امْدُدْ يدك يا يسوع القوي وارحمنا لأن يد
الظلم قوية علينا ، أو أرسل الموت ليقودنا إلى القبور حيث ننام براحة
مخضوبين بظلّ صليبك إلى ساعة عيئك الثاني » ^(٤) . والأرملة الفقيرة تناجي
مولودها الحديد وضمعها ينهل : « لماذا جئت يا قلّة كبدي من عالم الأرواح ؟
أطمعاً بمشاطرتي الحياة المرة ؟ أرحمة بضضي ؟ لماذا تركت الملائكة والقضاء
الوسيع وأتيت إلى هذه الحياة الضيقة المملوءة شقاءً ومذلة ؟ ولا يلبث الموت
المتقد أن يستجيب ندامها فيخلّصها وطفلها من سجن الأرض ^(٥) .

وبين المتألمين فئة أخرى قوامها الماشقات اللواتي يجب أن يمتنّ تنفيذاً

(١) The Earth Gods, p. 88

(٢) دسة وابتملة - م . ك . ج ٢ ص ١٨٠ - ١٨١ .

(٣) حرائق المروج - م . ك . ج ١ ص ٨٧ و ٨٢ .

(٤) المصدر السابق ، ص ١٠١ و ١٠٢ .

(٥) دسة وابتملة - م . ك . ج ٢ ص ١٥٠ .

لرغبة العميقة المتحركة بمنف في محور الدونية^(١). من أمثالهم "بطلة" رماذ الأجيال والنار الخالدة ، ، وسلمى كرامة التي يسارع "المظلم" الى تخليصها ، بعد أن خلّص والدها وطفلها ، فتناجي ، وحيداً الميت : " قد جئت لتأخذني ، يا ولدي ، جئت لتدليّني على الطريق المؤدية الى الساحل . ها أنا ذا يا ولدي فسير أمامي لنذهب من هذا الكهف المظلم " (٢) . كذلك بطلة " مخبآت الصدور " تلك التي زوّجها والدها رجلاً غنياً طمعاً بماله ، فلم تُسعد معه لأن حبّها كان يتّجه الى فتى فقير جعلته السماء نصفها الآخر منذ الأزل - هذا الفتى - مثلما الحال في الحكايات السابقة رمزٌ لجيران - ولأنها لا تستطيع تخطي الشرائع البشرية فهي تذبّل في السكينة ، مرتقبة افتتاح أبواب الأبدية لتقودها المنيّة الى حيث تلتمح نصفها الآخر^(٣) .

لكنّ الموت قد يزور الحبيبة زيارة طبيعية من غير أن يكون لجيران منافس في حبّها . اذ ذاك يكون محور الأمّ ناشطاً في ظلّ يسوع المصلوب . ونموذج ذلك في أدبه تلقاه في " سفينة في ضباب " (٤) حيث يرى جيران في حلمه من عشقها في خياله قبل أن تراها عيناه ، مصلوبة على شجرة تنفّح مزهرة وقطرات الدماء تسيل من كفّيها وقدميها على غصنّي الشجرة وعمدها ثم تنسكب على الأعشاب وتخرج بأزهار الشجرة المثورة^(٥) ، وبعد الرؤيا يتحقّق موتها في الواقع ، قبل أن يتعرّف إليها ويبوح لها بحبّه .

أمّا " الأكريتون " ، فحياتهم في موتهم ، لأنهم غرباء عن الأرض . وفي طليعتهم الشعراء الذين لا يستطيع جيران أن يتصوّرهم غير روحانيين لأنهم واقعون في مجال امتدادات الناصري . فالشاعر يجب أن يعيش فقيراً وأن يموت

(١) راجع ما كتبناه هذا الشأن في " محور سعادة السلطة " .

(٢) انظر الأجنحة المتكسرة - م . ك . ج ٢ ، ص ٦٦ - ٦٨ و ٨٦ - ٩٢ .

(٣) دسة وابصانة - م . ك . ج ٢ ، ص ١٧٦ .

(٤) راجع ما كتبناه بشأنها في " محور الأم " .

(٥) البدائع والطرقات - م . ك . ج ٣ ، ص ١٨٨ - ١٨٩ و ١٩٣ .

فقيراً ، بل يجب أن يبقى غريباً محروماً مُضطهداً حتى يقوى التشابه بينه وبين الشاعر الأكبر . هذا نراه في « موت الشاعر حياته » حيث المحتضر يناجي المنيّة قائلا : « تعالي أينما المنيّة الجميلة فقد اشتاقتك نفسي . اقترني وحلي قيود المادّة فقد تصبّت من جرّها . تعالي إليّ يا أينما المنيّة الحلوة وأنقذيني من بين البشر الذين يحسبونني غريباً عنهم لأنّي أترجم ما أسمع من الملائكة الى لغة البشر ... » لكنّ المصلوب سرعان ما يتحوّل الى بحيرة ينصبّ فيها رافد محور الدنيويّة ورافد محور الأمّ . فمن جهة تتحدّ المنيّة بأمره الميتة لتعالج قلق انفصاله عنها وتُشجّع جوعه إليها : « ضمّني الى صدرك المملوء محبة ، قبلّي شفّتي التي لم تذلّ طعم قبلة الوالدة ولا لمست وجنة الأخت ولا لمست نحر المحبوبة ، أسرعي وعاقبني يا حبيبتي المنيّة » ، ويلبّي عقله الباطن نداءه ، فاذا المنيّة تتحوّل « امرأة ذات جمال غير بشري » ، فصاقله وتقبّل « شفّته قبلة محبة » ، قبلة تركت على شفّته ابتسامة اكفاء ، ومن جهة أخرى نشاء حركة إثبات الذات أن يتدفّع مواطنو الشاعر الجاحظون الى إقامة تمثال له عظيم في وسط المدينة ، والاحتفال بذكره كل عام ^(١) .

استتصارُ حركة إثبات الذات المصلوب لتعبير عن نفسها تلقاه أيضاً في « الشاعر البلطكي » الذي يعيش فقيراً ، غريباً ، متألماً ، الى أن يمجده رجال الأمير ميتاً في حديقة القصر ، وقد عائق قيثارته ، وحدّق الى « أعماق الفضاء كمادته كأنه يرى بين الكواكب خيال إله غير معروف » . ويعكس جبران قيامة المسيح هل « الشاعر البلطكي » ، فيبعثه الى الحياة ، بعد ألف سنة يعيش في قصر الأمير مكرماً ^(٢) .

وكأنما جبران الشاعر يُضفيه المكوث في الأرض وتفتنه العوالم الأثيريّة ،

(١) دسّ وابسلة - م . د . ج ٢ ، ص ١٠٥ - ١٠٦ .

(٢) المواصل - م . د . ج ٣ ، ص ١٤٤ - ١٤٩ .

فيده حنيته للجلجلة الى استجبال ساعة الاحتضار ، فيتمسّس في منازلها
نحوّم فوقه عقابٌ تكدها تلبية الأبدية لنداء الروح فيه ، فيناجيه طالباً عفوها ،
لتباطئه في تقديم جسده طعاماً لها ، ذلك بأنّ إرادة الموت فيه ، وهي أقوى
دوافعه ، ما تزال تجاذبها إرادة الحياة وهي أضعف دوافعه . ولعلّ في هذا
التجاذب استحضاراً لذكرى التنازع النفسي الذي عاينه الناصري على جبل
الزيتون . وكما قدّم المسيح جسده مأكلاً ، هكذا يُقدّم المحتضر جسده مائدة
للعقاب ويستضيفها بمحبّة وترحيب :

« اقربي ، يا رفيقتي الجليلة ، اقربي ،

« فالمائدة أُعدّت ،

« والطعام حقير زهيد ،

« لكنه يُقدّم بحبّة .

« تعالي واغرزي متقارك هنا ، في جنبي الأيسر ،

« وأخرجني هذا الطائر الأصفر من قصعه ،

« فجناحاه أصبحا عاجزين عن الرقعة .

« أودّ لو يخلق معك في السماء .

« هكّمي ، يا صديقتي ، فأنا البلية ، مُضيفك

« وأنتِ ضيفي العزيز المكرّم » ^(١) .

وفضلاً عن التحوّجات الرمزية ليسوع المصلوب ، تلقى في أدب جبران
لازمات الترف الدموي والاتصاب الخفي تتكرّر . ولعلّ منطلقها دماء

المصلوب التازقة وانتصاب صليبه في القضاء (١).

تلك هي نموذجات المصلوب الرمزية في أدبه . أمّا في رسومها فالتخطي وإيقاظ النفس بقهرها وتمييدها بالألم يأخذان ، غالباً ، شكل امرأة يدها مبطونتان انبساطاً يوحى بصليها . لكن ، كما رُفِعَ « المصلوب » بين شخصين ، « المصلوبة » كذلك تكاد تمثل ، دائماً ، بين فردين . وفي حين أن « المصلوبة » امتدادٌ رمزي للمسيح الثالث ، فالكاكتان الجانيبان يختلف معناهما عن معنى

(١) من أمثلة ذلك وصفه ثم ابن مرتا البانية « كأنه جرح صيق في صدر متوجع » (م . ك . ج ١ ، ص ٨٠) . ويوحنا الجنون يخاطب الرهبان قائلاً : « اغلظ بي ما شئت ، فالقشاب تفرس القبيحة في ظلمة الليل لكن آثار دمائها تبقى على حصيد الراعي حتى يجيء القبر وتطلع الشمس » (المصدر السابق ، ص ٩٥ - ٩٦) . ثم يتأجج المسح سائلاً إياه عن المرة : « أتكون في » أن نصرخ متظلمين متعدين فيمشوا علينا بأنبيائهم حاملين علينا يسوفهم وسنايك غيولهم فتسحق أجساد نسائنا وصناورنا وتسكّر الأرض من مجاري دمائنا ؟ » (المصدر السابق ، ص ١٠٢) . وفي « صراخ القبور » ينظر جيران فلا يرى « سوى خيال الموت المريع منتصباً بين الجثث المملوطة بالدماء » (المصدر السابق ، ص ١٤١) . وفي « مضج العروس » تنسج العروس فوق جثة حبيبها « والخنجر في يدها يقطر دماً » ، ثم تظن نفسها ، وتلقي في الناس خطية « ونجيع العماء ينهل بنزارة من صدرها البلوري » (المصدر السابق ، ص ١٤٩) . وفي « خليل الكافر » يقول غلام الشيخ عباس خليل : « إن أبديت عانة نجرى على الثلج كالمروء المذبح » ، ويقول النساء عن الشيخ عباس انه « مات خائفاً مرتاعاً ، لأن شيخ سمعان الرامي كان يظهر له مرتدياً أثواباً ملطخة بالدماء » (المصدر السابق ، ص ١٨١ و ٢٠٨) .

أما صور الانتصاب الخفي فتتكرر أيضاً في كتاباته . ويستعني الصورة وضع الشخص النسبي المائي الألم أو المرتقب الغراء أو القبيحة . فمرتا البانية ، ساحة نزاعها ، كانت تبحث إلى شيء غير منظور متصّب في فضاء القبرة » (م . ك . ج ١ ، ص ٨٢) . وسلم المحبب الشهيد كان واقفاً يوم مرس حبيبه ، كتيباً متفرداً عن الناس المتبطين ... هدفناً إلى شيء غير منظور في فضاء تلك القاعة » (المصدر السابق ، ص ١٤١) . و خليل الكافر بينما كان يضرب راحيل ومريم كيف طرد من البئر « انبسطت ملاحه ونظر كأنه رأى شيئاً جميلاً متصّباً أمامه في ذلك الكوخ » (المصدر السابق ، ص ١٦١) . وقبيل تبليغ الأمير غير موث « الشاعر البهلبي » يظل وصيبه « صابئين حائرين مترقبين كأن نفوسهم قد فترت بوجود شبح غير منظور متصّب في وسط تلك القاعة » (م . ك . ج ٢ ، ص ١٤٦) .

المصنّين ، فهما يُمثّلان عنصرين في النفس متنازعين أو قبيضين يتجاذبان الذات ، فتحيا في صراع تُحاول تخطيها أو التوفيق بينهما بالمحبة والالم والتضحية ، أي بالاتحاد الماهي يسوع المصلوب . وأمثال هذه الرسوم كثيرة في فن جبران ، وقد اخبرنا منها ثلاثة : الرسم (رقم ١١٥) وهو يُمثل امرأة مبسوطة اليدين على هيئة مصلوب ، لاوية العنق ، ووراءها رجلان جلسا على الصخر وأمسكا بذراعيها حائيتين عليها . والفكرة نفسها تتكرّر في الرسم (رقم ١١٦) مع فارق بسيط هو أن الجميع وقوف ، والرجلان يحجبان رأسيهما خلف المرأة ، وليس ثمة من إطار طبيعي . أمّا الرسم (رقم ١١٧) فيُظهر وسط مُحيط صخري ، امرأة مصلوبة حقاً على صليبي رجلين ، وقد برز المساران في راحتها ، وبدت قطرات دم تازف من جرحها ، وانطلقت رؤوس الثلاثة انطاف الالم المُستجد والنشوة الروحية . أليكون الرسم ، وهو يتسبب الى النبي ، يمثل ذات جبران في ثالوثها المؤلف المتظم وقد اتحدت اتحاداً مختاراً وأعيأ بصورة المصلوب ؟

ب - مزاييا يسوع الأخرى :

أولى هذه المزاييا الفضيحة ، وهي أشبه بشجرة جذعها المحبة ، ومن أغصانها التقشّف والتضفّف والرحمة والعدل والقناعة والتواضع والزهد التي يُمكن إيجادها بالروحانية العملية . وإنك ترى أثرها بارزا في طريقة عيشه ، وإن وتّره إثبات الذات ، وأقلقه محور الالم ، وتسمع صوتها غاطقاً في أفواه أبطاله وإن داخل صفاء سلوكهم وأفكارهم بعض الكدّر الناتج عن واقعه النفسي المرحلي في الدورين الأولين ؛ فيها يقابل «يوحنا المجنون» ظلم الرهبان وقساوتهم ^(١) ، وبها يواجه «خليل الكافر» جشعهم وكبريائهم وشهواتهم ^(٢) . ولقداء المحبة تُصني اليه في كلمات كثيرة سحابة المرحلة الأولى . إسمعنه يُحرّك ذات جبران ويحاول تنظيم نشاطها ؛ مخاطبه ابنة الطبيعة - الالم الروحية -

(١) راجع مرائد المبدع - م . ك . ج ١ ، ص ٨٩ - ١٠٤ .
(٢) راجع الأرواح المنردة - م . ك . ج ١ ، ص ١٥٢ - ٢٠٩ .



(رسم رقم ١١٥)

المصلوبة بين التقيضين



المصلوبة
والوجهان المحتجبان
- ١٩١٨ -
(رسم رقم ١١٦)



(رسم رقم ١١٧)

الذات المصلوبة - النبي -

قائلة: " تخافون إله الآلة وتمزقون إليه الخقد والغضب ، وهو إن لم يكن حبة ورحمة ظم يكن شيئاً ^(١) . وهي جبران ، هنا ، أن المطلق إما أن يكون حبة أو لا يكون ، سيساعده على تحقيق اثترانه في المرحلة الثالثة . كذلك استلهاه المحبة من مثله الأهل جعله يُمَيِّز بين مفهومها الزائف المبني على الأخذ والأتانية ومفهومها الصحيح المبني على العدل والعتاء ^(٢) . يخاطب الانسان قائلا: " أنت أخي وأنا أحبك ، والمحبة هي العدل بأسمى ظواهره ، فان لم أكن عادلاً بمحبي لك في كل المواطن كنتُ مرلوغاً ساتراً بشاعة الأتانية يثوب المحبة البهي ^(٣) . كذلك يتضح إدراكه أن المحبة تُحرر النفس ، وسبق لإصنا الى أن التحرير عملية باطنية لا تتم إلا بانتظام المراتب النفسية ومنح كل منها حقها . يقول جبران : " المحبة هي الحرية الوحيدة في هذا العالم لأنها ترفع النفس الى مقام سام لا تبلغه شرائع البشر وتقاليدهم ولا تسوده نوايس الطبيعة وأحكامها ^(٤) . وفي دور القوة كان لوجه المحبة ومضات سطعت في سلوكه حبال المنكوبين من أبناء بلاده على غمرة اللامبالاة والتشويش لدى الجالية اللبنانية السورية (مستند رقم ٧) ^(٥) ، كذلك تألفت في بذور والتي ، التي كانت تنضج في نفسه عهد الاضطراب ، ^(٦) مثلما أشعت في مقالتيه " في ظلام الليل " ومات أهلي ^(٧) ، حيث يمنح على أبناء قومه

(١) دسة وابصلة - م . ك . ج ٢ ، ص ١٢٦ .

(٢) STOCKER, De la Psychanalyse à la Psychoanalyse, 95-114

(٣) دسة وابصلة - م . ك . ج ٢ ، ص ٢٢٢ .

(٤) الأجنة المتكسرة - م . ك . ج ٢ ، ص ٢٢ .

(٥) ما يقوله في رسالته إلى أمين الرمياني : " أما السوديون كافة فهم اليوم العرب ما كانوا عليه بالأسس ، والزهراء يزدهادون زعامة والترادون ثروة . جميع هذه الأمور قد جعلني أن أكره الحياة يا أمين ، ولولا صراخ الجباع الذي يملأ قلبي لما بقيت دليقة في هذا المكتب ، بل لما بقيت ساحة في هذه المدينة ... أي والله يا أمين ، إنه لمن الأفضل مفارقة الجباع جرهم والمنكوبين تكبتهم . ولو خبرت الآن بين الموت والحياة بين هؤلاء المخالفين لاعتبرت الموت .

(٦) انظر المسند رقم ١٥ . كذلك راجع توفيق صايغ : أضواء جديدة على جبران ، ص ٢٢٧ .

(٧) المواقف - م . ك . ج ٢ ، ص ٧٣ - ٧٥ و ٨٨ - ٩١ .

الذين يمحدهم منجل المجاعة الرهيبة ويتحسّر لمجزه عن إنقاذهم حسبما يجب .

وقد مدَّ قهقُفُ الناصري ظله على أشخاص جبران ، فاذا جلَّهم فقراء وروحانيون وأبطال مُفضَّلون في كلِّ صراع مع الأثرياء . وإن يكن في أساس هذه المفاضلة إثبات لا شعوري للذات ، فطبقاتها العليا الواعية خاضعة لنداء الناصري الذي كان أخصا للفقراء .

أما القهقُف فمحور الأمّ كان يُشكّل قاعدته اللاشعورية ، لكن بحاله الواعي الأعلى حكيم بمجاذبية يسوع ، شأن موضوع القفر . وقد برزت أفكار ذلك في سلوكه « عهد هيمنة الحب على واقعه النفسي » وإحداق الحسناوات الباريسيات والأجنبيات به ^(١) ؛ كما برزت في انقطاعه عن النساء حوالى ١٩١٢ ^(٢) ، وتبدّيه لاسكل ويانغ - وهما اللتان نسيأت لهما أطول عشرة معه -

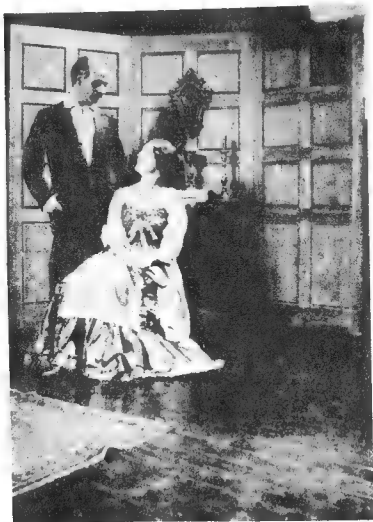
(١) بعد أن عرف جبران أن صديقه يوسف الخزيك قد رفض طلب أولنا الفتاة الروسية لإقامة علاقة جنسية بينهما ، قال له : « أنا فخور بك يا يوسف ، لأنك برهنت أنك شهم ، وليبت نداء العقل لا القلب ، وليس سهلا أن يتصر العقل على الجسد » (يوسف الخزيك : ذكرياتي مع جبران ، ص ١٤٢) . ومع أن روزينا الفتاة الإيطالية الساذجة التي لها « أجمل جسم امرأة » كانت تميل « موديلاً » أمام الخزيك وجبران ، فإن علاقة جبران بها ، بشهادة صديقه ، كانت جد عفيفة ، فكان الشهوة كانت تنيب عن جبران ، وهو في نشوة فنه ، أمام الحمل الماري . يسبح ما يقول له الخزيك : « كانت الفتاة بالإيطالية : - روزينا انزعي ثيابك .

وبكل بساطة واطمئنان نزع روزينا ثيابها والتفت اليها بسؤال واحد تعرفه جيداً : - أي جلسة تريدان أن أجلس ؟ وفكر جبران ملياً قبل أن يجيب :

- كأنك سابعة في الفضاء أينما الآنسة ... محسوفة على أذرع الملائكة ... إلى السماء ! »
وقائى ، أغبراً ، مذكرات مارييتا ج . لزون التي صلت « موديلاً » أمام جبران في نيويورك ، مدة طويلة ، لتترك تنفقه وتصميمه الواعي على الاقتداء بحياة المسيح . وما ترويه أن جبران لما رأى ملاح الأنوثة النافجة تظهر عليها في مراقبتها ، طلب منها أن لا تمد اليه عنقه وسيدة ، بل تصطبغ مريبتها . ولما لم يكن لديها حرية ، اصططبت صديقة لها تكبرها سناً . وإذ حاولت هذه أن تراود جبران ، طلب من مارييتا أن تمنعها من القدوم الى محترمه . (انظر صورة رقم ١١٨)
(جريدة النهار عدد ١٩٧٢/٨/١٨) .

(٢) يكتب إلى ماري في نيسان ١٩١٤ : « كلما ازدادت همراً ازداد الناسك في وقرة وتأكداً » .

The Letters of K. Gibran and M. Haskell, p. 324



(صورة رقم ١١٨)

ماريتا وجبران داخل محترفه في نيويورك

تَبَدَّى المعلم الرسول للتلميذة المؤمنة . فماري كانت تؤمن بعظمته وخلود مآثره، ونتمت لتسجيل دقائق حياته وكلماته، وتقدسه، وتثق بأقواله فتتها بالأنبياء العظام بل بالله عز وجل^(١) . تقول له ، سنة ١٩١٢ : « يا أعزّ تجليات الله ... يا معلّم ... أنت حرّيتي وروبي الذي يفهم كلّ شيء ... يا بروميثيوس ، أيها المسيح ،^(٢) . وواضح من قولها أنّها كانت تنظر إليه كأحد تجسّدات «الكلمة» الربّانية «والشعلة الإلهية» . وسنة ١٩١٧ تكتب إليه : « إنّ صورك الصغيرة عزيزة وعظيمة لديّ كأنّها صنع يد الله قصّها »^(٣) ، وتُبدي إجلالها له حتى العبادة^(٤) .

أمّا بربراة يانغ فكانت تتق بأقواله ثقةً عمياء، وتؤمن بأنّه « أرسل من لدن الله العليّ مُبشّراً ليُصلح ادراك البشر لحقيقة الحياة والوجود... أرسل لمن له أذنان للسمع وليرشد الأرواح المظلمة ... »^(٥) وتؤكد قائلة : « إنّ رؤية جبران ساعة واحدة في خلال المخاض المديد الذي تولّد عنه الكتاب (يسوع ابن الانسان) لتعني بأنّ هذا الرجل الذي من لبنان هو ، في الحقيقة ، من نسج سماويّ ، بل من جبلة فيها من الألوهية أكثر ممّا في جبلة . كذلك فإنّ رؤيته متجلباً أمام العيون البشريّة لقبول بصحة دعوته كمختار حبيب للألّة العظام»^(٦) .

وقد ظهر هذا التعفّف في أدبه . فجلّ بطلاته ، حتّى في الدور الأول ، روحانيّات الميول^(٧) . وجهه لسلي « حبّ علويّ لا يعرف الحسد لأنّه غنيّ ،

(١) انظر توفيق صايغ : أسرار جديدة على جبران ، ص ٦٤ - ٦٥ ، كذلك ص ٣٩ - ٤٥ و ٦٠

(٢) رسالة ٢٢ - ٢٣ نيسان ١٩١٧ ، p. 525. The Letters of K. Gibran and M. Hankoll.

(٣) رسالة ١٢ تشرين الأول ١٩١٧ . Ibid., p. 537, 538. انظر كذلك Ibid., p. 542, 581

(٤) بربراة يانغ - هذا الرجل من لبنان ، ترجمة - ص ١٢٣ ، انظر : أيضاً ، ص ١٢١ .

(٥) B. YOUNG, This man from Lebanon, p. 90

(٦) لا نثبت كلام يانغ دلالة على صحة دعواه ، لكن شهادة على موقف جبران الرسولي المتعلّف وتأثيره من هذا الذليل فيها .

(٧) انظر المجموعة الكاملة لولفات العربية ، ج ١ ، ص ١١٦ و ١١٧ و ١٢٠ و ج ٢ ،

الأجنحة المتكسرة ، ص ٢١ و ٢٢ و ٢٦ و ٢٧ و « صفة واهتمام » ، ص ١٦٢ - ١٦٣

و ١٨٥ - ١٨٦ .

ولا يوجع الجسد لأنه في داخل الروح . ميل قوي يفسر النفس بالقناعة . مجاعة
عميقة تملأ القلب بالافتقار . عاطفة تولد الشوق ولكنها لا تثيره ... (١) .
فضلاً عن أن الحب يحدث في نفوس أبطاله ولادة روحية قوامها تبديل
مُعْجِز ينقل الإنسان من الشقاء إلى الهناء ومن الجحيم إلى النعيم .

والروحانيّة العمليّة ، عند جبران ، أساسُ سعادة الإنسان ، تماماً مثلما
الحياة المادية أمُّ شقاءه . تُشَدُّ السعادة : « الإنسان حبيبي وأنا حبيبي . أشتاقُ
إليه ويحبُّني ، ولكن ، أواه ! لي في محبته شريكة تُشَقِّقني وتُعَذِّبني ، وضرة
طاغية تدعى المادة تبعدنا حيث نذهب ونفترقنا كالرقيب » (٢) . فكل عهد

(١) الأجنحة المتكسرة - م . ك . ج ٢ ، ص ٤٢ .

كما تقول سلسلي لجران : « إن المحبة المطلوبة استلوك المحبوب ، أما المحبة غير
المتناهية فلا تطلب غير ذاتها . المحبة التي نجيء بين نقطة الشباب وغفلة تستكفي بالقلع وتقتنع
بالوصل وتنمو بالتقبل والعتاق ، أما المحبة التي تولد في أحضان اللانهاية وتنبط مع أسرار
الليل فلا تفتح بغير الأبدية ، ولا تستكفي بغير الخلود ، ولا تفتق متبوية أمام شيء سوى الألوهية
(المصدر السابق ، ص ٨١) .

(٢) انظر حمة وابسامة - م . ك . ج ٢ ، ص ٢٠٢ .

(٣) نتائج السعادة نشيخها قاتلة :

« أطلب حبيبي في البرية تحت الأشجار وبقرى البسيرات فلا أجده ، لأن المادة قد غرته
ودعيت به إلى المدينة ، إلى الاجتياح والفساد والشقاء .
أطلبه في معاهد المعرفة وفي هياكل الحكمة فلا أجده ، لأن المادة ، تلك التي ترتدي القرب ،
قادتني إلى مساكن الأناثية حيث يخطئ الأهمك .

أطلب في حقل القناعة فلا أجده ، لأن دعوتي قد قيدته في سلاسل الطمع والشراسة .
أناديه من القبر عندما يبشم المشرق ، فلا يسمعي ، لأن كرى الاستسكك قد أثقل عينيه .
أدأبه في المساء إذ تسود السكينة وتنام الأزهار ، فلا يحفل بي ، لأن انشغاله بمآلي الله يشغل
صميره .

حبيبي يميني ، يطلني في أمسالي وهو ان يحدني إلا في أمسالي الله ، يروم وصالي في صرح
المجد فلي بناء على جماجم الفسافس وبين اللعب والقفعة ، وأنا لا أواله إلا في بيت البساطة
التي بنت الآلة على شفة جدول المواظف . يبريد تقبلي أمام الطفلة والفتاة وأنا لا أدعه يلثم
ثري إلا في الوحدة بين أزهار الطير . يعطيني الحيلة وسيلاً بيننا ولا أطلب وسيلاً إلا السبل
المنزه ، السبل الجليل . (حمة وابسامة - م . ك . ج ٢ ، ص ٢٢٢ - ٢٢٣) .

الاضطراب ، كان نداء الناصري يجعل جبران يشعر أن "السعادة لن يحققها إلا" إذا انصرف على ثمرات المديونة الفاسدة ومعاقل الأناثية فيه ، فالسعادة لا تُلقي في أعماله المستهدفة لإثبات ذاته في وجه الآخرين ، بل في "أعمال الله ، المبنية على البساطة والظهور والتزاهة .

أما المزيمة الثانية فهي الألم المظهر الذي ارتضاه يسوع طريقاً للسمو والنقطة ^(١) ، فقد طبع بخائمه حياة جبران وإنتاجه . فإثر فجيعة بأمه وأخته وأخيه لا بد من أن يكون التبكيت قد ساوره ف شعر كأنهم ماتوا من أجله ، رجاء تحصيل مستقبله ، فاعترم إرهاق نفسه في عمل متواصل ، مجلوباً بالألم الناصري . فكان يسهر حتى ساعة متأخرة من الليل ، راسماً كتاباً ، فتسأله أخته أن يعطي جسمه بعض الراحة أو يُغيّر ثوبه البالي ، لكن دونما جلوى . فالتفت الحساس المستيقظ الروح أي أن يلقي تبة إعائه على كاهل أخته وحدها ، ورغب في أن يحمل القسط الأوفر من التضحيات والأنساب . لكن كتاباته العربية كادت لا تدر عليه شيئاً نافعاً ، ولم تمدّه رسومه إلا بالنزّار ، فاضطر إلى رسم غلافات الكتب والعمل في تجليدها ، والجلوس للفنانين لقاء دعون يدفعونها له ويعود فيبدع بها رسومه ^(٢) . وهكذا أتيح له أن يقيم المريض الأول في أوائل ١٩٠٤ ، لكن الحياة أبت إلا تجريمه كأس الأوجاع حتى الثمالة ، فشبّ حريق في صالة العرض التهم كل مجهوده ^(٣) . وملء مرحلة القوة (سنة ١٩١٥) يقول لما ري هاسكل : "لو أن" الألم يجعل الإنسان عظيماً .. لكنك الآن بظلمة الجبل " ^(٤) . ويمكن القول إن حياته طوال السنوات الثلاث عشرة الأخيرة قد رُسمت دوبّ جلجلة حقيقة : فالعلة كانت تنمو متضامّة

(١) راجع يسوع ابن الإنسان - م . ك . م . ص ٢٥٧ - ٢٥٨ - ٢٦١ - ٢٦٢ ، ٢٦١ ، ٢٦٢ ، ٢٥٦ ، ٢٥٧ .

(٢) K. GIBRAN, The Procession : G. KHEIRALLAH, p. 16-18

(٣) B. YOUNG, This man from Lebanon, p. 185

(٤) توفيق صايغ : أفسوا جديدة على جبران ، ص ٩٥ . انظر أيضاً رسائل ٢٣ حزيران و ١٠ تشرين الأول ١٩٠٩ ، و ٢٢ تشرين الأول ١٩١٢ ، و ١٩ تموز ١٩١٤ ، والأسبوع الأخير من كانون الأول ١٩١٦ ، في The Letters of K. Gibran and M. Haskell

في جسمه ، وهو لا ينس بكلمة شكوى أو تضرع حتى للأقربين من أصدقائه ، ولا يقوم بأية خطوة لإقناذ صحته . أهمل جسده ولازم صومعته ، دأباً على الرسم والكتابة ، مذبياً طاقته الحسية ، متوجعاً ، متصبراً في صمت ، راغباً أن يتخطى المذاب والأوصاب ويسمر بها . فالغلاف المادي لم يره يستحق حتى بعض اهتمامه ، في أواخر حياته ، ولذا لم يطلب طبيباً ولم يتناول دواء ، وقبل وفاته بيوم واحد ، عاده صديق فوجده ، والأوجاع هدته ، والملة أثقلت ، ما فتئ يبتسم ابتسامة الأطفال^(١) ، شأنه شأن بلبل لا يفني إلا وهو ينخر صدره^(٢) .

ويستوقفك في كتاباته تراوَجُ الألم والفرح ، وصبرورثهما خاصة جوهرية من خصائص نفسيته ونفسيات أبطاله . يقول في توطئة دمعته وابتسامته : « أنا لا أبدل أحزان قلبي بأفراح الناس ولا أرضى أن تغلب الدموع التي تستلدها الكتابة من جوارحي وتصير ضحكاً . أتمنى أن تبقى حياتي دمعاً وابتسامة : دمعاً تظهر قلبي وتُعْهني أسرار الحياة وغوامضها ، وابتسامة تدنيني من أبناء عيْدي وتكون رمز تعجيدي الآلهة^(٣) . ويخاطب جبران الفقير قائلاً : « والدموع التي تنرفها ، أيها الحزين ، هي أعذب من ضحك المتناسي . وأحل من قهقهة المستهزئ . تلك دموع تغسل القلب من أدران البغض وتعلم ذارفها كيف يشارك منكسري القلب بشواعره ، هي دموع الناصري^(٤) . ويتصله على باب الهيكل : « وما هذه الأيدي الخفية الناعمة الخشنة التي تقبض على روحي في ساعات الوحشة والانفراد ، وتسكب في كبدي حمرة

(١) K. GIBRAN, The Procession : G. KHEIRALLAH, p. 23 (١) كذلك نواد انرام

الجبتي : المشرق ٢٧ (١٩٢٩) ، ص ٢٦٥ ، وحبيب سمود : جبران حياً وميتاً ، ص

٥٢٥ - ٥٢٦ ، ١١٢ - ١١٥ .

Sand and Foam, p. 18 (٢)

(٣) دمعاً وابتسامة - م . ك . ج . ٢ ، ص ٩٥ .

(٤) المصدر السابق ، ص ١٨٤ .

ممزوجة بمرارة اللذة وحلاوة الأوجاع ؟ ^(١) وتكاد لا تتعرف بطلاً من أبطال حكاياته إلا مثلاً فرحاً بآلامه . فعل الحسيني تمر الساعة « وهو فرح بدموعه ، مضطرب بلوعته » ^(٢) . وابن مرتا البانية لا يدري الناس ، لصاحبه ، « أن أمه قد طهرت طفولته بأوجاعها ودموعها » ^(٣) . ويوحنا المجنون لم يستطع رهبان دير أليشم أن يسجنوا غير جسده ^(٤) لأنه كان يحاول الاقتداء الفعلي بالناصري ، فيتألم معه بالجسم ويتمجد معه بالروح . و « أيدي الرهبان التي أكلت أعضائه لم تحس عواطفه المستأمنة بجوار يسوع الناصري . والمرء لا تعذبه الاضطهادات اذا كان عادلاً » ، ولا تحفنه المظالم اذا كان بجانب الحق ، فسقاط شرب السم مبسماً ، وبولس رُجيم فارحاً ^(٥) . و « خليل الكافر » لا تهد عزمه الروحي فنون التعذيب والتحقير التي أنزلها به للرهبان ، من تقريعه ، الى جلده بسيات المرس ، الى سجنه شهراً كاملاً في حجرة رطبة مظلمة ، الى تجويعه وإعطاشه وإذلاله ، الى النخرية به وصنعه ورفسه ، ثم الى طرده خارج الدير حيث يقاسي أهوال العواصف والثلوج والخوف والجوع ^(٦) .

(١) العواصف - م . ك . ج ٣ ، ص ٢٧ . انظر أيضاً القيداع والطرقات - م . ك . ج ٣ ، ص ٢٩١ .

(٢) تمر الساعات المروج - م . ك . ج ١ : « مواد الأجيال والفتار الخالصة » ، ص ٧١ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٨٤ .

(٤) روى لنا السيد ستالسد شطرن رحبه ، من مواليد العقد الثامن من القرن التاسع عشر ، في مقابلة أجريتها معه صيف ١٩٦٧ ، أنه كان شاهد عيان للعادة القاتلة ، بحكم إقامته في مزرعة أليشم . قال : كان جبران ، وهو في نحو الحادية عشرة ، يرضى بقرتين في الأراضي المشوشة المجاورة لأبلاك دير مار أليشم . وكان كثيرون من القرعة يملكون ذلك . وحدث أن شردت البقرتان للحرول راحتهما الصغير في بعض التلال ، ودخلتا أطراف أراضي الدير ، فغضبوا للرهبان ، ولم يفلتوا سراحهما إلا بعد أن دفع جبران عشرة قروش . وأكده السيد رحبه أن جبران لم يفلد ذلك مطلقاً وعن سوء نية . وإذا سألتها ما اذا كانت روايته للعادة ناتجة عن ذكره ، وقائلاً لم يتأثير قرأته حكاية « يوحنا المجنون » ، أكده لنا أنه يذكر وقائلاً تلمساً ، وأن لم يسع بقصة جبران من قبل إذ هو يجهل القصة .

(٥) مرالس المروج - م . ك . ج ١ ، ص ٩٢ و ٩٦ - ٩٧ .

(٦) الارواح المتمردة - م . ك . ج ١ ، ص ١٦٧ - ١٧٠ .

وتشهد : الأجنحة المتكسرة ، صراعاً بين واقع جبران النفسي في المرحلة الأولى وفناء المثل الأعلى الذي يفرض عليه تراثاً نفسياً متظلماً . وقد تمثل هذا النزاع بشخصيَّتيْ عشروت ويسوع . فـعشروت إلهة مقلدة ، لكن روحانيتهما في خدمة الحب وإشباع الوجدانية ، إنها الروحانية المشوبة بالمتع الحسية والتي خذلنها المعرفة والعذالة . أمّا الناصري فمحفوظ بالآلام والمسرات الروحية الناجمة عن كبح الميول الحسية الجاهحة ، إنه نموذج الألم المطهر المرقى المزني . وفي حبكة القصة لم ينشب أيّ اصطراع بين مشيئة الوالد وإرادة المطران ، ولا بين مشيئة الفتاة وإرادة أبيها ، ولا حتى بين ضرورة الثورة على التقاليد والإذعان لها ، فالأساوية كادت تنحصر في الصراع بين إنفاذ مشيئة عشروت ، وإتمام مشيئة الناصري ، بين متابعة الاستسلام للمسرات الجسدية وممارسة التضحية والروحانية العملية بحمل صليب الآلام . وكان الانتصار لصوت المثل الأعلى . تقول سلمى لجبران في نهاية صراعها النفسي : « هي العجبة المطهرة بالنار التي توقظي الآن عن اتِّباعك إلى أقاصي الأرض وتجعلني أميت عواطفني وميولي لكي نحيّا أنت حراً نزيهاً ، ونظلّ في مأمن من لوم الناس ونقولاهم القاسدة »^(١) . وحال صورة المصلوب نجو خاشعة هامة : « ها قد اخترت صليبك يا يسوع الناصري وتركتُ مسرات عشروت وأفرأحها . قد كللتُ رأسي بالأشواك بدلاً من القار ، واغتسلتُ بدمي ودموعي بدلاً من العطور والطيب ، ونجمرتُ الخلّ والملقم بالكأس التي صُنِّعتْ للخمر والكثير ، فاقبلتني بين تابييك الأقوياء بضعفهم ، وسبّرتني نحو الجملجة برفقة مختاريك المستكفين بأوجاعهم المضبوطين على كتابة قلوبهم »^(٢) .

وإنّ رحلة جبران الأدبية من السابق حتى والتائه كان الألم والقبضة

(١) الأجنحة المتكسرة - م . ك . ج . ١٢ ص ٨١ .

(٢) المصدر السابق . كذلك يشر يوسف الفري ، في وحدة ، بالأم والثقة سأ (العواصف - م . ك . ج . ١٢ ص ١١٢) .

بالتسامي الناتج عنه يتزوجان فيها دائماً . فالألم يوصلُ النفس ^(١) ، ويُبغِذِي المحبة ، وهو الطريق إلى الحق ^(٢) ، وإلى العظمة الروحية ^(٣) . فالمحصرة العائشة بلا ألم فارغة ، والألم الذي تحمله المحارة في أحشائها يتبلور لؤلؤة خارقة الجمال ^(٤) ، بل إنه الحارس الذي يصون اتزان النفس ، بالتضحية ، ويشفي أمراضها . يقول المصطفى :

« الكثير من ألكم تختارونه أنتم بأنفسكم .

« إنه الدواء المر الذي يشفي به الطبيب في داخلكم نفوسكم المريضة .

« فثقوا بالطبيب ، واشربوا دواءه بصمتٍ وهدوء ،

« لأنَّ يده ، ولو كانت ثقيلة وقاسية ، تقودُها يدُ اللامنطور الحانية ،

« ولأنَّ الكأس التي يحضرها ، ولو حرقت شفافكم ، إنما صُنِعتْ

بطينٍ بلكه الخراف بدموعه المقدسة » ^(٥) .

ولا حاجة لإجهاد النفس وإنعام الفكر أمام لوحاته لتستطلق الألم فيها ،

فهو صارخٌ في الكثير منها ، يوائيك ويبرِّأ أوتارَ قلبك في مختلف المراحل .

وإنه لحري بالذكر أن الألم الذي استسلم جيران له بمشيئة رسولية واعية ، في

مرحلة الاتزان ، لم يبعث في نفسه أي اضطراب أو خلل ، لأنَّ قيمته

ومفاهيمه جميعها كانت تدور حول محاورها الصحيحة ، فما زادت عنها ،

والتور الذي ضمَّره كان ينهلُ من وجه المطلق الحق ، فما انهمر من وجه آخر .

ولذا فنزبُ الجلجلة الذي سار فيه ما كان إلا ليزيده دُنُواً من الناصري مثليه

الأعلى ، ويُسمِّي فيه ، ميله الآلام ، صحة النفس وغبطتها ^(٦) .

(١) Send and Foam, p. 34

ibid, p. 23

ibid., p. 37

The Wanderer : « The Pearl, » p. 20

(٥) النبي ، وغمه في العربية يوسف الخال ، ص ٦٤ .

(٦) راجع STOCKER, De la Psychanalyse à la Psychosynthèse, p. 232

أما الميزة الثالثة فهي الإصلاح الروحي الذي هو إحدى خصائص رسالة الناصري^(١) ، وكاد يستأثر بهم جبران طول حياته . فرسائله الفنية شغعت برسالة إصلاحية وروحية واعية ، منذ البداية . فقَبِلَ سفره إلى باريس يوضح لنخلة جبران أن بغضه الشرائع والتقاليد البشرية هو ثمرة عبثه ، العاطفة الروحية المقدسة التي يجب أن تكون بدء كل شريعة على الأرض لأنها ظلُّ الله في الإنسان ؛ ويسأل نفسه عما إذا كان بوسعه أن يحوِّك بصائر الناس عن الجمال والأشواق إلى النور والحق^(٢) . وقد لازمته عزيمة الإصلاح في باريس ، وكانت حافظه الواعي الأقوى على الكتابة ومدار حديثه الأبرز مع أمين الريحاني^(٣) . وبُعَيْدَ اندلاع نار الحرب العالمية الأولى ، يُعلم ماري هاسكل اعترامه نشر « كتابه المفتوح إلى الإسلام » واصفاً إياه بكونه « رسالة بسيطة إلى جميع المسلمين ، تُفَسِّرُ بالمُلوِّبِ نبويّ » ، لماذا الحكومة التركية مدعّمة للإسلام اجتماعياً وسياسياً^(٤) .

وإننا نسمع صوت الإصلاح الروحي في نضايف كتاباته ، عبر المراحل جميعاً . غير أنه التزم ، في الدور الأول ، تحرير الإنسان من عبودية الإنسان بانتهاج طريقين : طريق الثورة على التقاليد والشرائع ، ونموذجها انتفاضة « خليل الكافر »^(٥) ؛ وطريق العودة بالإنسان إلى براعة الطبيعة حيث تفتح

(١) راجع حكاية « يوحنا المجنون » في هرائس المروج ، و « خليل الكافر » في الأرواح المتردة ؛ كذلك يسوع ابن الإنسان - م . ك . م . ص ٢٢١ - ٢٢٤ .

(٢) رسائل جبران ، ص ١٩ . انظر أيضاً في ما يخص كتاب « فلسفة الدين والتمدين » ص ٢٦ .

(٣) راجع يوسف الحويك : ذكرياتي مع جبران ، ص ٦١ ، ٦٢ ، ٩٥ ، ٩٧ ، ١١١ ، ١٨٤ .

(٤) توفيق صايغ : أضواء جديدة على جبران ، ص ١٢٤ . ولعل هذا الكتاب المفتوح إلى الإسلام « أفرغ ، فيما بعد ، موجزاً ، في مقالة « إلى المسلمين من شاعر مسيحي » (انظر صبيب سمود : جبران حياً وميتاً ، ص ٢٧ - ٣٨) .

(٥) انظر أيضاً « يوحنا المجنون » في هرائس المروج ، و « صراخ التنبؤ » في الأرواح المتردة ؛ كذلك راجع في دمة وابتهامة - م . ك . ج ٢ : « رؤيا » ، ص ١٢٢ - ١٢٤ ؛ « على مطلب الدهر » ، ص ١٨٢ ؛ « يوم مولدي » ، ص ١٩٠ .

الذات بحرية وسلام ، بعيدة عن فساد المصلحة وحسف الأنظمة السياسية والاجتماعية والدينية ، ونموذجها « فلسفة الدين والتدين » ، وفيها يتصور جبران مجتمعا فطريا قويا يقوم في جوار الأرض ويقوده شاعر نبي اسمه خليل ابن سالم يحيط به رهط من تلاميذه أبرزهم رشيد بن منصور . ولا ريب في أن بطل هذا المجتمع السعيد يمثل جبران نفسه في حنيته الى الرسولية ، إنه التجسد الفني لثله الأمل ، في المرحلة الأولى ^(١) .

أمّا في الدور الثاني فالتزم تحرير الانسان من عيوباته وقيوده الداخلية ، واتجه سبيل البناء النفسي الثوري الذي يبدل جذريا التكوين الاجتماعي والخلقي والفكري . ويميز الثورة الثانية عن الأولى كونها ثورة « المبادئ والتعاليم الايجابية المجردة » ، المتطرفة في إبراز الحق ، لأن من يعتدل باظهار الحق يبين نصف الحق ويبقي نصفه الآخر محجوبا وراء غوفه من ظنون الناس وحقولهم ^(٢) .

وليكون جبران أكثر واقعية في رسالته الإصلاحية الروحية ، أنشأ سنة ١٩١١ ، « الحلقات الذهبية » ، وجعل سبيلها الاعتماد على النفس لا على الدولة ، وغايتها بناء الذات بتحريرها من الأمراض الداخلية . فالمعرفة والاستقامة والحرية والازدهار إنما يأتي بها كضاح الفرد واجتهاده لا الحزبية السياسية أو تأييد الحكام . بل يؤغل أبعد من ذلك حينما يوصي بتربية المواطنين تربية صالحة تستكمل فيها الرجولة الحقة ، وإذ ذاك فقط يصبح بوسعهم أن

(١) لعل هذه المخطوطة المحفوظة في متحفه كانت المعلولة البشرية الأولى التي ستفهم ، بهه نفسه ، إلى « قنبي » .

(٢) القوافي - م ، ك ، ج ٢ : « المخدرات والمباهج » ، ص ٥٨ - ٦٤ . راجع أيضا : « الأضرار المسومة » ، ص ٧٦ - ٧٩ « اليهودية » ، ص ١٦ - ١٩ « كلك في البهائم والخرافات - ج ٢ : « لكم لبنانكم ولي لبناني » ، ص ٢٠٢ - ٢٠٩ « العهد الجديد » ، ص ٢٥٥ - ٢٦٠ « وجبران حيا وميتا لحبيب سمود : « لكم فكرتكم ولي فكرتي » ، ص ٩٥ - ٩٨ .

يجبوا أشرافاً سواء في ظلّ الحاكم الصالح أو الحاكم المستبدّ الباطي . فتحرير النفوس من عبودية التقليد والتقاليد يُبقيها حرةً حتى وهي في الأغلال والسجون ^(١) . هذا التحرير النفسي الباطني هو الذي صرفه عن أيّ عمل سياسي إلى تحقيق ذاته الفردية ^(٢) ، بعد أن انقضت عنه مواطنوه لأنهم لم يفهموه ، إذ كانوا يظنون أنّ شقاءهم مصدره السلطة العثمانية ، يزول بزوالها ، بينما ألحّ هو على كون منبع تصهم في داخلهم ، لا ينحس إلا بالقضاء على عهوديات الأوهام والخرافات والتقاليد البالية وسائر الأمراض النفسية المستحوزة على ذواتهم .

وطبعي أن يتخذ الإصلاح الروحيّ وجهةً إنسانيةً ، ما دامه يستهدف بناء الفرد النفسيّ بناء صحيحاً ، ويرتبط بالناصري . فالترعة الانسانية اجتذبت جبران باكراً ، على حبة الغامر لوطته . فانك تسمع نداءها في بواكيره : « أعطني من مآتي السياسة وأخبار السلطة ، لأنّ الأرض كلّها وطني وجميع البشر مواطني » ^(٣) . وهي سترداد تيلرا وتأكداً مع الزمن . إسعج صوت الشاعر : « أحبّ سقط رأسي ببعض عيني لبلادي ، وأحبّ بلادي بقسم من عيني لأرض وطني ، وأحبّ الأرض بكلّ عيني لأنها مرتع الانسانية روح الألوهية على الأرض ... تلك الألوهية السائرة بين الأمم ، المتكلّمة بالمحبة ، المشيرة إلى سبيل الحياة ، والناس يضحكون مستهزئين بأقوالها وتعاليمها ، تلك التي سمعها بالأمس الناصريّ فصلبوه ، وسقراط فسمّوه ، والتي سمعها اليوم القائلون بالناصريّ وسقراط ، وجأهروا باسمها أمام الناس والناس لا يقتلون على قتلهم ، ولكنهم يسخرون بهم قائلين : « السخرية أنسى من القتل وأمره » ^(٤) . وانسجاماً مع نزعته هذه ، أعلن إيمانه بوحدة الأديان ، وبأخوة الانسان

(١) راجع خطاب « الحلقاء الذهبية » ، وهو مخطوط محفوظ في مخطوطته .

(٢) انظر توفيق صايغ : أسود جديدة على جبران ، ص ١١٠ و ١٥٥ .

(٣) دمة وابتناء - م - ك . ج ٢ : ٥ يا لامي ، ص ١٦٠ - ١٦١ .

(٤) المصدر السابق ، ص ٢٢٨ - ٢٢٩ .

للإنسان ، واندماج النفوس في حقيقة واحدة في عالم الروح ^(١) ، وبترعة الى المطلق لا تعرف حدوداً ولا حدوداً . يكتب الى ماري ، سنة ١٩١٢ ، بصدده الحرب البلقانية التركية : « لستُ وطنياً ... فاننا حريص جداً على نزع الكمال المطلق ، وليس لهذه التركة وطن ، ومع ذلك فقلبي يكتبني من أجل سوريا ^(٢) . كذلك فالشاعر الكبير ، في نظره ، يجب أن يكون إنسانياً لا يلتزم وطنياً ضيقة ^(٣) . ولئن كانت نزعته الانسانية الإصلاحية الروحية قد تأثرت بثقافة معينة ^(٤) ، فإن الناصري ، لا ريب ، يبقى يتحكم بها بتحكم الجرم السماوي بحركات المد والجزر ، حسباً حداد هادفيلد تأثير المثل الأعلى . وبين رسومه واحد يرمز الى وحدة الأديان ويمثل المسيح مصلوباً على أجساد الأتباء السابقين ودونه أفراد تحيط بهم أفاعي الشهوات ، وآخرون يحاولون تخطي الأرض للاتحاد بجسد النبوة (رسم رقم ١١٩) .

ولأن الناصري كان معادياً للمرائين فقد ألزم جبران نفسه الاقتداء به ، لاسيما أن محور النبوة مهّد له السبيل برفض أية سلطة اجتماعية او دينية ^(٥) .

(١) المصدر السابق ، ص ٢٣٠ - ٢٣١ .

(٢) رسالة ٢٢ تشرين الأول ١٩١٢ The Letters of K. Gibran and M. Haskell, p. 211

(٣) انظر توفيق صايغ : أضواء جديدة على جبران ، ص ١٩٦ و ٢٠٥ .

(٤) تلح ، خاصة ، إلى الفكر الهندي وفلسفة إرسون .

(٥) ليس من الموضوعية العلمية رد حملة جبران على رجال الدين إلى مساكنة بعضهم إياه في حبه - الصاهر . فهذه الحملة إذا كان ورامها حلفز لاشعوري لاثبات الذات ، فإن مثل جبران الأعلى قد أسهم في تخطيها تخطيها واعياً ، كما استندت إلى أحداث واقعية آلت جبران : منها إنزال الحرم الكنيسي بجده الخوري اسطفان رحمه إثر خفقه زواجاً لم يرش عنه بعض أعيان بشري . أما المعنيان فكانا وردان عيسى الخوري وجسملة حنا الصاهر ، وكانت الابنة والدة جبران . وسبب الطعن في زواجهما اتهام الخروس بأنها كانت سكرى ، إذ عقد القران يوم ٥ خميس السكاري . وبقيت جسملة الصاهر منفصلة عن زوجها اثني عشرة سنة قبل أن يعترف بزواجها بصورة نهائية رسمية . (مقابلة مع السيدة أسمى الصاهر) ، واضطروا أمه إلى بيع أواني منزلها لرشوة الأسقف كيما يسهل أمر سفرها لدى السلطات الأميركية (المرجع السابق ، وجميل جبر : جبران ، ص ٢٠) ، والفلس على والده واتهامه زوراً وجننه بدسيسة أحد رجال الأكليروس (المرجع السابق - جبر ، ص ١٩) ، ثم الجو الديني الشكلي الصارم في معه



(رسم رقم ١١٩)

وحدة الأديان - ١٩١٨ -

غير أن مثله الأعلى نظم حملته الكفاحية ضد رجال الدين فجعلها تقتصر، في حياته، على المرائين فقط الذين يذكرون بالفريسيين، في حين أن الآخرين ممن عرفوا بالصدق والتقوى كسبوا صداقته، فاحترمهم واستقبلهم وأسهم في مشاريعهم الخيرية^(١).

« فيوحنا المجنون » في تأنيبه لإنهم، يتخذ المسيح مرجعه، وحياته قلوته، وأقواله سلاحه، ورحمته حجة ضدّهم؛ فاذا دخل الكنيسة عاد مكتئباً، لأنّ التعاليم التي يسمعا من على المنابر والمذابح هي غير التي يقرأها في الانجيل. وحياة المؤمنين مع رؤسائهم هي غير الحياة الجميلة التي تكلم عنها يسوع الناصري^(٢).

و « خليل الكافر » اذا تمرد على رؤسائه فلأنّ غايته المثل السمي لتطبيق تعاليم الناصري التي رأى أنهم زاغوا عنها، فأراد أن يُعيدهم إليها، فما أفلح، فثار وخرج عليهم. ولئن كان خليل، في أثناء إقامته في الدبر، يمثل واقع جبران النفسي في المرحلة الأولى، فان نداء الناصري ما انقلّب يبيب به ليُعيد الاتزان إليه، إذ في الاتزان فقط تُدرك قيمُ الروح إدراكاً عقلانياً، وتنتزه الروحانية تنزهاً فعلياً من شوائب الماديات. وكان أن فعل نداء اليقظة الروحية في نفسه، فتمرد، لا من أجل أن يشارك الرهبان ما كلهم ومشربهم وراحتهم، ويساويهم في رفاقتهم، لكن من أجل تنفيذ مشيئة الناصري. وهكذا يُصبح شخص خليل صورة لواقع جبران النفسي المرتجى الذي لن يبلغه نهائياً قبل المرحلة الثالثة، إنّه تجسيد فني تعويضي مستيق للاتزان النفسي حيث تسيطر

١٠ الحكمة وإدخاله مع سائر رفاقه الموارنة كرمًا في « أعمدة الجبل بلا دنس » (انطون كرم : محاضرات في جبران خليل جبران ، ص ٣٠) . وقد ألفتنا سابقاً، إلى أحداث أخرى جرت له في صباه .

(١) من هؤلاء الأب يوسف الذي عرفه في صباه ، والأب الهوجي نزيل بوسطن . راجع برباره بونغ : هذا الرجل من لبنان ، ص ١٣٢ - ١٣٣ ؛ وفردا الحرام البستاني . المجلد ٣ ، ص ١٦٦ (١٩٢٩) ، ص ٢٦٢ - ٢٦٣ ويوسف الحويك : ذكرىاتي مع جبران ، ص ١٦٣ و ١٦٦ .

(٢) مراسل المروج - م . ك . ج ١ ، ص ٩٠ و ٩٤ - ٩٥ .

الميل الروحية على الميول الحسية ، وتنتصر المحبة على الأنانية ، والعطاء على الأخذ ، يبقطة المعرفة وانتظامها في مرتبتها الصحيحة . وتتواصل حملات جبران على الرياء الديني في سائر كتاباته ، من قصائد دعة وابتناسمة الثرية الى الأجنحة المتكسرة الى العواصف والمواكب ^(١) .

ولئن كان لغربة جبران الروحية وشائج تصلها بالغربة المألوفة لدى عباقرة الشعراء والفنانين ، فإنها تنفرد بمعنى خاص تستمدّه من غربة يسوع ^(٢) . وكأنما أراد جبران أن يهضم « وحدته ولبدة شعوره بالدونية ، فلا تبقى مختصة من خارج ، فارتضاها وجعلها تنضوي تحت مثله الأعلى ، وحملها معنى الاغتراب الرسولي عن العالم الأرضي والميام بالعالم الروحي . وقد ظهرت آثار هذه الغربة في يَفُوعه وفنونه مثلما في شبابه وكهولته ^(٣) . وأهلّت بها كتاباته ، فلازمت مناجياته وتأملاته ، وأصبحت مزجةً بأبطال حكاياته ^(٤) . وهي تبلغ ذروة خطتها البيانيّ، عهد الاضطراب ، في كتابه «المجنون» ^(٥) ، كذلك في شخصية الربّ الأول من «آلهة الأرض» الذي يتجسّد فيه نداء الناصري ،

(١) راجع في المجموعة الكاملة ج ٢ ، دعة وابتناسمة ، ص ١٢٣ و ١٢٤ : الأجنحة المتكسرة ، ص ١٨ و ٢٠ - ٤١ و ٥٨ : المواكب ، ص ٢٤٤ : ج ٣ ، العواصف : « الشيطان » ، ص ١١٥ - ١٢٨ : « السم في القسم » ص ١٥٤ .

(٢) انظر يسوع ابن الانسان - م . ك . م . ص ٢٠٦ و ٢٠٧ و ٢٠٨ و ٢٢٥ - ٢٢٦ : كذلك العواصف - م . ك . ج ٢ ، ص ٨١ و ٨٢ .

(٣) راجع يوسف الحويك : ذكريلقي مع جبران ، ص ١٢ ، ٣٢ ، ٢١١ ، ٢١٢ . كذلك برباره يونغ : هذا الرجل من لبنان ، ص ١٣٢ : والرسائل ذات التواريخ التالية : ٢٠ تشرين الأول ١٩٠٩ و ١٣ كانون الأول ١٩١٢ و ١٩ تموز ١٩١٤ في :
The Letters of K. Gibran and M. Haskell .

(٤) راجع المجموعة الكاملة ، ج ١ : «رماد الأجيال والنار الخالدة» ، ص ٦٦ و ٧٠ و ٧١ : «مرثا البانية» ص ١٧٥ ج ٢ ، دعة وابتناسمة : ص ١٣٥ ، ٢٠٢ ج ٣ ، العواصف : « حفار القبور » ص ٩ ، « ملك السجين » ص ٢٠ ، ٢٢ : « العاصفة » ص ١٠٦ و ١٠٨ : « الكلام » ص ١٦٧ : « الوحدة والانفراد » ص ٢٦١ - ٢٦٥ : « البداية والظراف » : « البلاد الصغيرة » ص ٢٩٥ .

(٥) راجع «المجنون» - م . ك . م . ص ٩ ، ١١ ، ١٢ ، ١٣ ، ٣٧ ، ٤٠ ، ٤١ .

أوان المرحلة الثانية . أما أسباب غربة هذا الإله الجبراني ووحده الأليمة فيمكن ردّها الى إحساسه بالفناء البشري ، و بطلان جهوده لدفع التماسي في الانسان الذي بات واقعه جيلة أوجاع ومصائب يتلاعب بها الأقياء ويقتلون ، والى رفضه لمتصاص دم الضعفاء على عطشه . كذلك تُردّ الى نبذه الحبّ الجنسي الشهواني مع كونه قوة ذات سيادة على الأرض ، وتنكيهه عن أعجاد العالم ، وتآلمه من أمه الذي هو أشبه بأغلال لربوبيته تؤخر انطلاقه السريع نحو الكائن الأسمنى ^(١) . إسمعه يقول ، ممتلاً حنين جبران الحاد الى تخطي واقعه المضطرب رجاء تحقيق الاتزان :

« كالنجم تنهض نفسي في داخلي

« عارية غير مُحفلة .

« وكالبخر غير المستكن » ،

« يطرح قلبي عه حطاماً قانياً من الانسان والأرض .

« لن أعلق بما استمسك بي ،

« بل أريد أن أسمو الى ذلك الذي يسو فوق مقلودري » ^(٢) .

وبصورة طبيعية ، كل ذات تحقّق وحدتها واتزانها وتنعم بالسلام ، تُدخلها غربةٌ روحيةٌ تتميز ، بعض الشيء ، عما يشعر به الفنانون العظام من غربة . فهله قد تنشأ من مخالفة المحيط في الرؤيا والإحساس والفاهيم ، بينما تنشأ تلك من مغايرة أساسية في التكوين النفسي . إنها غربة الاتزان وسط الاضطراب ، والانتظام وسط الفوضى ، والرسولية الروحية وسط التنازع المادي . هنا الشعور أحرب عه جبران ، مرة ، بقوله : « أحياناً ، تعبرُ بي أيامٌ كثيرة أشعرُ فيها كأنني وصلتُ تَوْأً من كوكبٍ آخر . فانا امرؤ بلا أسى حل هذه

(١) راجع ما وضعه طرلسان الرب الأول في « آله الأرض » .

The Earth Gods, p. 26 (٢)

الأرض ، وحركات الناس وأصواتهم جميعها غريبةٌ عني ^(١) . وقد جعله هذا الشعور في وحدة صارمة ليست سوى صورة باهتة لوحدة أعظم يتوق الى بلوغها إذ يتحدُّ بذاته الروحية المثل . وليست وحدته هذه نتيجة لادوية لمحور الدونية ، بل هي إحدى خصائص التكامل الروحي الواعي الذي لن يدرك غايته ما لم يتخلع عنه تعسف الغلاف الترابي ^(٢) . يصف المصطفى نفسه في خطبة الوداع بأنه من « مشر الماعين الناشدين أبداً أشدَّ السُّبُل وحدة » ^(٣) . اكنَّ وحدته هذه إن أقصته عن الناس ، فقد جعلته أقرب الى نفوسهم وأقرب على سبَر أغوارها وقهَم أسرارها ^(٤) ، وليس هيامة وليد اضطراب نفسي ، بل مزيةً رسوليةً هي سبيلٌ الى مزيد من الحياة ؛ فالوحدة عاصفة خرساء تقصف جميع أغصاننا الميتة ، لكنها تُخلِّق جنودنا الحية أعمق في القلب الحلي من الأرض الحية ^(٥) .

نرى ، أبسوغ القول إن حياة جبران الرسولية ، تلك الملحة الحية ، أبلغته المحجة التي طالما صبا إليها ؟ لو كان الاثران النفسي همَّ جبران الأوحى لرقد جبران في أحضان الأبدية مطمئناً ، وهو يقول : إني بلغت سرادي . لكن جبران كان واحداً من قلة على هذا الكوكب « تجاوز مطاعهم آفاق الأرض وقدرة الانسان ، فكأنه كان يحيا في ترقب دائم لميوط الوحي عليه ، لتوحده توحداً تاماً حقيقياً بشخصية بطله الأسمى ، لصيرورته مسيحاً جديداً ^(٦) .

B. YOUNG, This man from Lebanon, p. 12 (١)

The Forerunner : « Beyond my solitude », p. 55-56 (٢)

The Prophet, p. 79 (٣)

Ibid., p. 86-87 (٤)

Sand and Foam, p. 58 (٥)

(٦) يقول في رسالة إلى مي زيادة ، سنة ١٩٣٠ : « الانتظار سنوات الزمن ، يا مي ، وأنا هالماً في انتظار . أنا دائماً أنظر ما لا أراه . ويخيل لي في بعض الأحيان أنني أعرف سياتي ترقباً حدث ما لم يحدث بعد . وما أشبهني بأولئك المقسمين الذين كانوا يجلسون بجانب البحيرة متربعين يهبط طلاك يحرك الماء » . (رسائل جبران ، ص ٩٦) . وهو يلح إلى ما ورد في الإنجيل يوحنا الفصل الخامس : ١٤ - ٢ .

وهذا ما زاد عذابه . كان يشعر بأن الحياة حمكة رسالة عليه تأديتها للناس ، لكن هذه الرسالة بقيت في صدره مغلقة بالضباب ، فلم يلفظ منها سوى الحرف الأول . ولعل غير ما يمثل وضعه النفسي قبيل وفاته قوله لصديقه مي زيسادة :

« ... أما تعلمين يا مي أنني ما فكرتُ في الانصراف الذي يسميه الناس موتاً ، إلا وجدتُ في التفكير للذة غريبة وشعرتُ بشوق هائل الى الرحيل . ولكني أعود فأذكر أن كلمة لا بد من قولها ، فأحارب بين صجري واضطراري وتُطلق أمامي الأبواب ، لا ، لم أقل كلمتي بعد ، ولم يظهر من هذه الشعلة غير الدخان . وهذا ما يجعل الوقوف عن العمل مرراً كالعقم . أقول لك يا مي ، ولا أقول لسواك ، اني اذا ما انصرفتُ قبل تهجتي كلمتي ولفظتها فاني سأعود لأقول الكلمة التي تتمايل الآن كالضباب في سكية روحي .

... أتستفrien هذا الكلام ؟ إن أغرب الأشياء أقربها الى الحقائق الثابتة ، وفي الارادة البشرية قوة اشتياق تحوّل السديم قينا الى شمس » (١) .

لكن ، أما قال جبران ، أيضاً : « ليست قيمة الانسان بما يملكه ، بل بما يتوق الى بلوغه » (٢) ولئن لم يحقق جبران ما صبا اليه ، فقد حققه له سواء . فما أن عائق الأبدية حتى أحاطه المعجبون بهالة نبوية (٣) ، وكتب مواطنوه

(١) المصدر السابق ، ص ١٠٠ . لعل أنتظار جبران المضي الدائم لصبر رثته رسولاً حقا ، من غير أن يتحقق الحدث الجلل الذي ارتقبه ، هو الذي جعله يقول في مرارة ، أمام ميخائيل نعيمة ثم يبرأه بانغ : « انني نذير كاذب » B. YOUNG, This I am a false alarm (انظر) man from Lebanon p. III ونعيمة : جبران خليل جبران ، ص ١٧٥) .

The Forerunner, p. 9 (٢)

(٣) وضع شكراة الجبر كتاباً سماه « نبي أورفليس » (دار المكتشف ، بيروت ، الطبعة الثانية ١٩٦٧) ، وحاول فيه إثبات نبوة جبران وسلاواته بالرسول .

وقد سعى الكثيرون جبران ، بعد موته ، « نبياً » - فبريدة - نيويورك ص ٥ الأميركية نشرت في ١٥ نيسان ١٩٣١ مقالا رئيساً عنوانه : « نبي مات » (حبيب سمود : جبران حياً وميتاً ، ص ٥٨٥) . وقال برز باين : « لو كنت من المؤمنين برجوع المسيح مرة أخرى إلى

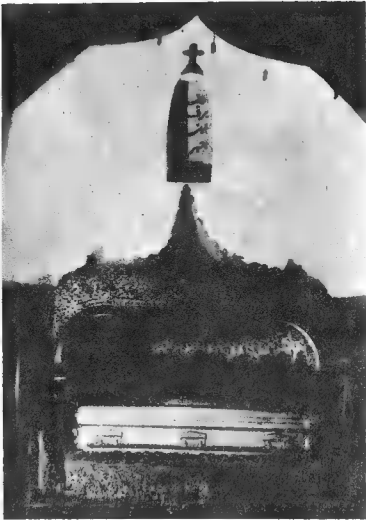
فوق ضربيه : « هنا يرقد نبينا جبران » (صورة رقم ١٢٠) (١) .

ذاك كان خَطَّ الثبات في المراحل الثلاث : اتحاد جبران الماهي يسوع الناصري . فوضعه السيكولوجي الطفولي المتأزم من جراء نبذه اللاواعي لوالده المستلِط المُرهِق ، فضلاً عن الظروف الدينية العامة والخاصة التي ترعرع فيها مهدت السبل في نفسه لاكتشافه صورة رمزية للأبوة المثالية في شخص يسوع ، لاشعورياً ، فاتحد به اتحاداً ماهياً ، ثم اتخذته ، واعياً مختاراً ، مثله الأعلى ، فاحتلَّ الناصريُّ ، هكذا ، وعيه ولاوعيّه ؛ فاذا جبران مهمٌّ به في يقظته وأحلامه « يسمع نداءه الروحي » ، عبر مراحل حياته جميعاً ، يبيب بشخصيته الى الاثنان ، عهد الاختلال والاضطراب ، ويشيع السلام فيها ، عهد الوحدة والاستقرار . وكان ليسوع جبران ميزات خاصة تولدت من اقتران الحقيقة الإنجيلية برؤية جبران الباطنية ، فهو انسان كامل لا إله ، وقويّ جبّار على محبته ورحمته ، وشاعر مُبدع بزّ كلَّ من نظم ونثر ؛ وقد انعكست هذه الصفات في فكر جبران وأسلوبه ، فاذا هو يسعى الى بلوغ الانسان المتفوق الكامل في ذاته المثلى ، والى قَرْن القوة الروحية بالمحبة بعد تغلبه على محنة الحسنة المستفحلة عهد الاضطراب ، والى محاكاة الناصريِّ بأسلوبه النبويِّ في

= الأرض لايمقت أنه عاد في شخص جبران » (المرجع السابق ، ص ٥٨٤) . وقال فرانكل : « والحقيقة التي لا مرية فيها أن جبران هو من بداية هذا الكتاب (النبي) إلى نهاية نبي محبة وسلام » (المرجع السابق ، ص ٥٧٦) . وفي ١٠ كانون الثاني ١٩٣٢ ، قال الأب فرنسيس رحمة بمناسبة نقل جثمان جبران من كنيسة القديس يوحنا إلى مقره الأخير في دير مار ماركس : « لكن أنمرس الموت شغفني ذلك النبي » ، فان موجات صوته لم تزل في أذنان العالم » (المرجع السابق ، ص ٥٦٠) .

(١) أمّرت السلطات الدينية ، فيما بعد ، بتسريف كلمة « نبينا » وجعلها « بيننا » .
وأرّان الاحتفال ينقل جثمانه إلى بئرّي ، « أصبحت الحدث المصالح الفكرية هائلة وعطس على عرض قبة الصليب الحظّة على المدينة والروابي المقدس : « هذا هو جدث النبي جبران يرف فوقه ملاك المهدوء والسكينة » (صبيب محمود : جبران سيّاً وميتاً ، ص ٥٦١) .

ما يكتب . كذلك كان يسوع مزايا عامة انعكست آثارها في سلوك جبران وإنتاجه ، وفي طليعتها الاستشهاد الذي وجد فيه إشباعاً لحاجاته النفسية بإثبات ذاته عبّر تكمّص المصلوب تكمّصاً قسبياً ، كما كان له تأثيرات صريحة وتموجات رمزية ذات اندياحات واسعة في أدبه ورسمه . أمّا المزايا الأخرى ، أضي بها الفضيلة ، ولا سيما وجهيها المحبة والتعفّف ، والألم المظهر المشفوع بالنقطة ، والإصلاح الروحي المستهدف بناء النفس الصحيحة ، والترعة الانسانية المتجاوزة المخلود والأوطان والموحدة الأديان ، وكفاح المرائين المستغلين غباوة المؤمنين ، والقربة الروحية الرسولية ، فجميعها تخلّت آثارها إنتاجه وطبعت حياته في خط تصاعدي ، حتى يسوغ التساؤل هل كان في الأرز النابضة ببحا مرحلة عمره الأخيرة في حكم النبوة المرتقبة !



جبران « النبي » قبل أن تعرف الأيدي إرادة محبيه (صورة رقم ١٢٠)

مقدمة

دراستنا هذه قد تستوي ضرورة تاريخية في تصعيد الأبحاث الجبرانية خاصة ، والدراسات الأدبية عامة ، في لغة المضاد ، إذ إنها تمتاز عنها جميعاً في الغاية والمنهج . أما الغاية فهي محاولة تحليل وتأويل للفراغ والمتناقضات والتطورات في إبداع جبران الفني وسلوكه ، وذلك بالسمي إلى فضاء أسرار شخصيته وخصوصاً أدبه ورسومه ، بعد أن تضاربت الآراء فيها ، واستغلقت الرموز ، وامتدت أعماقها المضمخة عن السعة إليها ، وأما المنهج فهو ميزتين : الأولى أنه موضوعي تجريبي يُعَيِّد من نتائج سيكولوجيا الفن خاصة وعلم النفس عامة ، من غير أن يَزَجَّ في متاهة التخمينات والفرضيات أو يُساق إلى التحيز للمذهب قسري دون آخر ، والثانية أنه يقرن الدراسة التحليلية المستهدفة تحليل النشاط السلوكي والإنتاجي بنش عيِّله في طفولة الفنان بدراسة تركيبية تستكمل الرؤية التحليلية الشاملة لتطور شخصية جبران وآثاره على ضوء العوامل الباطنية والظاهرية الطارئة ، مثلما على الجهد الإرادي والمثل الأعلى ، بحيث يتاح للبحث أن يقبض على كلية البنية النفسية في شعورها ولاشعورها وفي ظاهراتها المتغيرة والثابتة .

وقد انطلقنا من واقع جبران الفني ، معتبرين آثاره الأدبية ورسومه ،

فضلاً عن مذكراته ورسائله ومخطوطاته وبعض وقائع حياته المتحررة أشبه بمختبر تجري فيه عمليات التقيب والتحقيق ثم البناء المنهجي . وكان دليلنا المنطقي في هذا السيل هيمنة الموضوع وتكراره لما يمدلان من معنى التركيز النفسي . فاذا التمجيس بقودنا إلى اكتشاف ست بُؤر وجدانية فكرية هي أشبه بمراكز جاذبية تستقطب جلّ خواطر جبران وعواطفه وأخيلته . عينا بها معاداة السلطة ، والتعلق بالأم ، والاهتمام الخاص بالناصري . والتفتني بحب المرأة ، وتمجيد القوة ، والكراسة بالمحبة الشاملة ؛ وكل من هذه الظواهر الحيوية ينسبط أثره أفتياً ، بصورة صريحة أو عبر تموجات رمزية ، على أدبه ورسمه وحياته ، لكنّ الثلاثة الاولى منها يمتد فعلها عمودياً ، أيضاً ، حتى يتأصل في طفولة الفنان بينما تخضع الأخرى للتطور المرحلي وظروفه الطارئة .

وأفضت دراستنا إلى نتائج لا ندعي العصمة فيها ، لكننا مطمئنون إلى أنها كانت حصيلة استقصاء أمين للأسباب وتقصّ دقيق للظواهرات وتحقّق شامل بنطوي على تحرر أفتي وعمودي معرّز بالشواهد الإنتاجية والسلوكية . ففي مجال التحليل المحوري تكشف لنا أن جبران نشأ في بيت سادّه تضادّ تربوي وعاطفي : فمن جهة ، والد رادع ، متسلّط مرهق ، تصعّ تسميته « يأكل الطاقة » ؛ ومن جهة أخرى ، والدة حنون تتألم من سلوك زوجها لكنّها تصبر على متّصر ، وتفهم ابنها فتحميه وتقيه غضبات أبيه ، وتعزّيه ، و « تحضنه » . وبين القطبين طفل بالغ الحساسية ، موهوب ، ذكي ، طموح . فكان لا بدّ لهذه الظروف التربوية الشاذة من أن تُضخّم « الشعور بالدونية » في نفس جبران الصغير ، وبدل أن يثق بأبيه مُرشداً معصوماً يقوده إلى « أرض الموعد » ، « اصطلم » به ، وكبّت عقله الباطن عدائيته ضدّه . حتى إذا ما شبّ ورفدت شعوره بالدونية عوامل طارئة مختلفة ، تحصل من مُجسّل ذلك أعراض « تطلبُ عليها صفة العصائية » ، منها ما هو مباشر كالخجل والتردّد في الإقدام على جلائل الأعمال ، ونكوصه عن « النفاذ »

الجنسي والاجتماعي ، ومنها ما هو ارتدادي تمثل في حركة تعويض نفسي لإثبات الذات ملكت سُبُلًا متشعبة مدى حياته ، فكان ميله الشديد إلى الاستقلال ، ودأبه على العمل الشاق الموصول ، وهواه للديالغات والادعاءات ، ومحاولات تأكيد رجولته تجاه المرأة ، فضلاً عن سعيه المحموم إلى التفوق ومعاداته السلطة اللذين برزا جليين في سلوكه وإنتاجه حيث كان الفن يؤدّي وظيفة العلاج النفسي بتصرفه الشحنات الوجدانية المتضاربة على التزعات المكبوحه وتنقيته الأهواء المكبوتة. وكان من الحتمية النفسية بعد تبنّي جبران اللاوعي لوالده ، أن يتجه ، من جهة - إلى تقمّص صورة رمزية للأب المثالي لن يراها تتحقّق إلا في يسوع الناصري إذ يتخذ مثاله الأعلى . بعد اعتاده به اتحاداً ماهياً . ومن جهة أخرى إلى التوجّه شطر أمّه والتعلّق بها عاطفياً وذهنياً . وقد ازداد إعجابه بشخصها ، مع الأيام ، فأصبحت قدوة متسامية في عينه تشغل فحة رحمة من وعيه ولاوعيه ، الأمر الذي أثار في سلوكه العام وموقفه من النساء اللواتي محضهنّ المودة والاحترام . إذ أسقط عليهنّ وجه أمّه المتسامي ، فتعلّق بهنّ تعلّق الطفل « بأمّهاته » . وعانى من جرّاء ذلك نزاعاً باطنياً بين رغبة الجسد الشعورية وصدود النفس اللاشعورية . وقد أتاح لنا اكتشاف المحورين المتولدتين من تضادّ أبيه وأمّه تعليلاً وتأويلاً لقسمٍ وافر من غوامض أدبه ورسمه . فاذا عداؤه لسلطة الشرائع والتقاليد وللآباء ورجال الدين وللأثرياء حكماً أو مواطنين عاديين ، يكمن وراءه عداؤه اللاشعوري لوالده ، فذاك أبٌ غير حريّ بالأبوة وأولئك امتدادات لسلطته غير جديرين بالسلطة ، ولذا يستحقّون جميعاً التحقير والنشوبه . واذا تعلّقه بأمّه ينداح تموجات رمزية يسقطها عقله الباطن على بطولات رسومه وحكاياته ، فبرز فيها الأمّ المتسامية ، والمحبيّة الأمّ التي تغويه فيها الثمرة المحرّمة ويصدّه عنها السيف الناريّ ، إلا أن يسمو بها مجرّدة من خلاف الرب فيجعل اتّحاده بها اتّحاد قسّين في شعلة روحية مقدّسة . ويكون للتماذج البدائية الرئسة يسقطها اللاوعي الجمعي آثار رائحة في إنتاجه .

فالأبدية - أو الروح الأم - يهفو إلى معانقتها والاندماج بها يجذبه حين "حاد"، والطبيعة - الأم ، ولا سيما بمظهرها الأرض والبحر ، يملوه الشوق إلى مغازلتها أو اللوبان فيها ، والأمة - الأم يقف منها موقف التناقض الوجداني المأساوي فيثور عليها مؤثماً إذ يراها تسلك سبيل "الفي" جاحدة عطاءه النبوي ، ويحذب عليها حذب الابن البار على والدته المريضة إذ يراها جريحاً شاكياً .

أمّا في مجال التركيب النفسي فقد تبدّت لنا أسباب التغيُّر في اتجاهه الاجتماعي والقيمي وموقفه من القضايا والأشياء ، فإذا مردّها إلى التطوُّر في نظامه النفسي خلال مراحل إنتاجيّة ثا ث ساد الاختلال والاضطراب الأوليّين منها (١٩٠٣ - ١٩١٨) على تفاوت في العلة والأعراض والمظهر بين دور وآخر ، وهيمن الاثنان على الطور الأخير (١٩١٨ - ١٩٣١) . وقد أظهر التفصّي أنّ يسوع الناصري ساد تراتبه النفسي ، طول حياته ، خصوصاً أنّ حاجته اللاشعورية للاتحاد الماهي به هيأت وضعه النفسي لاعتناقه مثلاً أعلى اعتناقاً واعياً . فتعرّزت بذلك طاقته الروحانية وتصدّرت قيمته الداخلية ؛ لكن إدراكه الباطني ، مع ذلك ، بقي متكدراً ، وطمأنينته معكّرة ، صحابة المرحلتين الأوليين ، لأنّ مرتبة المعرفة واحترام الذات فيه ما فتئت مظلومة محرومة ، ومرتبة الحسبة البيولوجية مستفحلة مُغتصبة ، سوى أنّ اتجاه الحب العاطفي الأساسي في الدور الأول (١٩٠٣ - ١٩٠٨) تحوّل إلى اتجاه قوّة في الدور الثاني (١٩٠٨ - ١٩١٨) ، من غير أن يتأثّر صوته كلياً . وبتحرّينا أعراض الاضطراب النفسي المتغلّفة في حياته وآثاره ، والمنبسة على نحو خمسة عشر عاماً من نشاطه الإنتاجي ، تبدّى لنا أنّ الحصر والحبسنة والألم والكتابة الناتجة عن الاضطراب الداخلي والفاعلية المحورية اللاواعية تسري عروقها في ليل نفسه ، فلا يُجدي في علاجها محيط أليف ، ولا توافر أصحاب وأحباب ، ولا تهيو غني ومجد وشهرة ، إذ العلة الباطنية تستعصي على الدواء الخارجي .

ولمّا كانت ذاتُ جبران ، كأيّة ذات أخرى ، تُحييها قوّةُ حافظةٍ مُبدعةٍ تيب بها أبداً إلى الاتّزان ، فقد لاحظنا ، عبّر سلوكه وإنتاجه ، مظاهر الصراع الناشب بين نظامه النفسي القوضوي التأمّم وإرادة الانتظام المُعافي التابعة من مثله الأعلى الذي ما انفكّ ييب بينه النفسي إلى التزام التراب الصحيح . وقد أدّى ، أخيراً ، هذا السعي الإرادي الحثيث ، تُسغفه العواملُ الطارئة واندفاعه اللاواعي إلى الاتحاد الماهي بالناصري ، إلى إقامة الاتّزان في شخصيته ، فائتلفت قواها ، واستقام نراتبها القيمي . ودخل مراتبها جميعاً الاكتفاء ، فكفّ النزاع وساد السلام ، وشمل المتناقضات تصالّحٌ وتكامل بعد تجرّدها من حسّيتها ، وتصافت الرؤية الباطنية ، واعتدلت المقاييس ، وسطّح ذلك كلّهُ في أدبه وورسه . غير أن مشيئة جبران كانت تطمح إلى أبعد من الاتّزان ، لقد أرادت الحياة الرسولية ، فكان عليها أن تدفع ثمنها آلاماً وغربة ارتضاها مختاراً ليتخطى واقعه البشري ، مُصعّداً في معراج الروحانية ، رجاء اندماجه بذاته الإلهية العظمى .

وأخيراً ، لقد تكشفَ لنا ، بتقصينا التجريبي المنهجي ، أن العوامل الشعورية واللاشعورية غالباً ما كانت تعمل معاً ، مؤثرة في موكّلات جبران الأدبية الفنية ومواقفه السلوكية . فاذا كان موقفه العدائي من السلطة - كيفما تمثّلت ، ولا سيما في رجال الدين والأغنياء - مُعترفاً في عقله الباطن كفعل ارتداديّ ضدّ تسلّط والده المُرهق ، فانه كان محكوماً أيضاً بجاذبية الناصري الذي اتّخذ مثاله الأعلى فصيحَ نظرته إلى الأشخاص والأشياء والقضايا بصيغة روحية إصلاحية . كذلك إن كان موقفه العام من النساء مُسبّراً بتلقّيه اللاشعوريّ بأمّة ، فقد كان لسعيه إلى الاقتداء يسوع اثرٌ واعٍ في « تغفّه » يُضاف إلى التأثير اللاواعي لاتّحاده الماهي به .

وجبران اعترضت حياته ، ولا سيما في الدورتين الأولىين ، مصاعبُ وآلامٌ ، من قسوة عيشه وموت أحبائه واحتراق رسومه وصدود مواطنيه عنه ،

فضلاً عن مُعاداة رجال الدين والإقطاعيين السياسيين له ، لكنه بدلَ أن يعاني التجارب المُصنَّعة الطالعة عليه مُعاناةً سليبةً شأن الكثيرين من الأناسي ، فإنه ارتضاهُ واعياً مُختاراً ، وجعلَ منها نُسخاً لشجرة حياته ومعناها الكفاحي ، فاذا الألم يعتصرُ نفسه لا يُحطَمُها ، بل ليمسُ بها ، ويُخرج من جراحه خمرةً بكراً تطفحُ بها كؤوسُ أدبه وفنّه دهاقاً . لقد فرّخت عليه العواملُ الإرثيةُ النفسيةُ والظروفُ البيئيةُ البيكولوجيةُ قدراً خاصاً كان يُمكن أن يعزّو له مهيضُ الجناح ، لكنه سرعان ما انخرط في صراعٍ عنيدٍ مديدٍ مع تلك الظروف الصعبة ، بل مع نفسه عينها ، في أعماقها المُعنّمة ، ليبدعَ بإرادته المُغالبة معنى حياته ومصيره السلوكي والفني .

أملُّنا أن تكون هذه الدراسة قد أسهمت في إضاءة أفقٍ جديدٍ يُساعدُ على فهم جبران الإنسان ، وكشف أغوار الفتنان فيه ، وجلاء الغوامض من علل إنتاجه ومراميه ، ولا سيما على فضٍ رموز رسومه المُستغنىة وربط نشاطه السلوكي بإبداعه الفني ، بحيث يُتاح لدارسه أو قارئه أو مُتلقِّه رؤية أشمل وأعمق وأشدُّ التحاماً بالحقائق النفسية .

الفهارس

- ١ - فهرسُ المصادر والمراجع .
- ٢ - فهرسُ الرسومِ والصُّورِ الفوتوغرافيةِ والمخطوطاتِ النُصُورَةِ .
- ٣ - فهرسُ الأعلامِ .
- ٤ - جدول المصطلحات النسبية الواردة في الدراسة .
- ٥ - لوحة بيانية لأهمِّ الوقائع في حياة جبران .

فہارِ سِدِّی الصَّائِرِ وَالْکَرَامِ

المراجع المستعملة في هذه الدراسة هي ذات الطبعات المذكورة في التفهرس الآتية .
أما لما اتفق أن ذكر في المراسي طبعة أخرى أنتم فالقصد منها الإلماع ال تاريخ
الإصدار الاول .

أ - آثار جبران العربية او المترجمة المستعملة في هذه الدراسة

- ١ - رسائل جبران : صفحات مطوية من أدب جبران الخالد ، جمعها وقدم لها جميل جبر ، دار بيروت ، بيروت ، ١٩٥١ .
- ٢ - كلمات جبران خليل جبران ، جمعه انطونيوس بشير ، القاهرة ، مصر ، ١٩٢٧ .
- ٣ - المجموعة الكاملة لمؤلفات جبران خليل جبران ، قدم لها وأشرف على تنسيقها ميخائيل نعيمة ، مكتبة صادر ، بيروت ، ١٩٥٥ . وقد أشرنا إليها في الدراسة بحرفتي : م . ك .
- ٤ - المجموعة الكاملة لمؤلفات جبران خليل جبران العربية عن الانكليزية ، دار صادر ودار بيروت ، بيروت ، ١٩٦٤ . وقد أشرنا إليها في الدراسة بحروف : م . ك . م .
- ٥ - مخطوطات محفوظة في متحفه تضم " فلسفة الدين والتدين " ، وخطاب والحلقات الذهبية ومسودات كتابات أو رسائل ووجهت الى مي زياده .

٦ - النبي - وضعه في العربية يوسف الخال ، دار النهار للنشر ، بيروت ، ١٩٦٨ .

٧ - النبي - ترجمة ميخائيل نعيمة ، مطبعة المناهل ، بيروت ، ١٩٥٦ .

ب - آثار جبران الإنكليزية أو المنقولة المحمدة في هذه الدراسة

- 1 — The Earth Gods, Heinemann, London, 1962.
- 2 — The Forerunner, Heinemann, London, 1963.
- 3 — The Garden of the Prophet, Heinemann, London, 1937.
- 4 — Jesus the Son of Man, Heinemann, London, 1957.
- 5 — The Letters of Kahlil Gibran and Mary Haskell, Arranged and edited by Annie S. Otto, Smith and Co. compositors inc., 1970.
- 6 — The Madman, Heinemann, London, 1946.
- 7 — The Procession, poems, edited, translated and with a biographical sketch by George Kheirallah, the Wisdom Library, New York, 1958.
- 8 — The Prophet, Heinemann, London, 1936.
- 9 — Sand and Foam, Heinemann, London, 1957.
- 10 — The Wanderer, Heinemann, London, 1965.

ج - المراجع العربية الأدبية والتاريخية

- ١ - الأدب العربي في آثار الدارسين ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ١٩٦١ .
- ٢ - بشروني ، سهيل - جبران خليل جبران : مختارات ودراسات . دار المشرق ، بيروت ، ١٩٧٠ .
- ٣ - جبر ، جميل - جبران ، سيرته ، أدبه ، فلسفته ورسمه ، دار الرجباني ، بيروت ، ١٩٥٨ .

- ٤ - جبر ، جميل - مي وجبران - دار الجمال ، بيروت ، ١٩٥٠ .
- ٥ - الجبر ، شكر الله - نبيّ أورفليس ، دار المكشوف ، بيروت ، ١٩٦٧ .
- ٦ - الحويك ، يوسف - ذكرياتي مع جبران ، حررتها إدليك جريديني شيبوب ، دار الاحد ، بيروت ، ١٩٥٧ .
- ٧ - خالد ، أمين - محاولات في درس جبران ، المطبعة الكاثوليكية ، بيروت ، ١٩٣٣ .
- ٨ - الأديس ، المطران يوسف - تاريخ سوريا ، المجلد ٧ ، بيروت ، ١٩٠٥ .
- ٩ - رحمه ، الخوري فرنسيس - تاريخ بشرّي او مدينة المقدّمين ، الجزء الاول ، سان باولو - برازيل ، ١٩٥٦ .
- ١٠ - زكّا ، طنسي - بين نعيمه وجبران ، مكتبة المعارف ، بيروت ، ١٩٧١ .
- ١١ - زيدان ، جرجي - بناء النهضة العربية ، دار الهلال ، (بلا تاريخ) .
- ١٢ - سكيك ، عدنان يوسف - الفتنة الانسانية عند جبران ، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ، ١٩٧٠ .
- ١٣ - الشدياق ، أحمد فارس ، الساق على الساق في ما هو الفاريانق ، دار مكتبة الحياة ، بيروت ، ١٩٦٦ .
- ١٤ - صايغ ، توفيق - أضواء جديدة على جبران ، منشورات الدار الشرقية للطباعة والنشر ، بيروت ، ١٩٦٦ .
- ١٥ - عبّود ، مارون - جدد وقدماء ، دار الثقافة ، بيروت ، ١٩٦٣ .
- ١٦ - غريب ، روز - جبران في آثاره الكتابية ، دار المكشوف ، بيروت ، ١٩٦٩ .
- ١٧ - فارس ، فليكس - رسالة المنبر إلى الشرق العربي ، الاسكندرية ، ١٩٣٦ .
- ١٨ - الفكر العربي في مائة سنة ، نشر الجامعة الأميركية في بيروت ، ١٩٦٧ .
- ١٩ - الكتاب المقدس ، المطبعة الكاثوليكية ، بيروت ، ١٩٦٤ .

- ٢٠ - كحالة ، عمر رضا - معجم المؤلفين ، ج ٣ ، مطبعة الرفاعي ، دمشق ، ١٩٥٧ .
- ٢١ - كرم ، انطون غطاس - محاضرات في جبران خليل جبران : سيرته وتكوينه الثقافي ، مؤلفاته العربية ، معهد الدراسات العربية العالية ، القاهرة ، ١٩٦٤ .
- ٢٢ - كمدي ، كمدي فرهود - ميخائيل نعيمة بين قارئيه وعارفيه ، ١٩٧١
- ٢٣ - لوسيرف ، جان - التزعات الصوفية عند جبران خليل جبران « ترجمة شعبان بركات ، المكتبة المصرية للطباعة والنشر ، صيدا - بيروت ، (بلا تاريخ) .
- ٢٤ - محمود ، حبيب - جبران حياً وميتاً : مجموعة تشتمل على مختارات مما كتب ورسم جبران خليل جبران ومما قيل فيه . قدّم لها وعني بتأليفها وإخراجها حبيب محمود ، دار الريحاني للطباعة والنشر ، بيروت ، ١٩٦٦ .
- ٢٥ - مشاق ، المعلم ميخائيل - الرسالة الموسومة بالدليل إلى طاعة الإنجيل ، طبعة ثالثة - المطبعة الأميركائية بيروت « ١٨٨٧ .
- ٢٦ - ناصر ، نمر - الخوري يوسف الحداد الكاتب (رسالة أعدت لنيل شهادة الكفاءة في كلية التربية ١٩٧٠) .
- ٢٧ - نعيمة ، ميخائيل - جبران خليل جبران : حياته ، موته ، أدبه ، فنه ، دار صادر ودار بيروت ، بيروت ، ١٩٦٠ .
- ٢٨ - يونغ ، بربارة - هذا الرجل من لبنان ، ترجمة سعيد حنيف بابا ، دار الاندلس ، بيروت ، ١٩٦٤ .

د - المراجع الأجنبية الأدبية المختصة بجبران

- ١ - CHALLITA, M. — Lutes et Triomphes de Gibran, une étude sur sa vie, son œuvre et son message, éd. orient-occident, Beyrouth, Liban, 1970.

- 2 — HAWI, KHALIL S. — Kahlil Gibran, His Background, Character and Works, Beirut, A.U.B., 1963.
- 3 — OTTO, ANNIE S. — The Parables of K. Gibran, New York, the Cit. Press, 1963.
- 4 — OTTO, ANNIE S. — The Art of K. Gibran, Port Arthur, Texas, Hinda Printing Co., 1965.
- 5 — YOUNG, B. — This man from Lebanon, New York, A.A. Knopf, 1963.

٥ - المراجع العربية النفسية

- ١ - أحمد ، محمد خلف الله - من الوجهة النفسية في دراسة الأدب ونقده ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٤٧ .
- ٢ - اسماعيل ، عز الدين - التفسير النفسي للأدب ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٦٣ .
- ٣ - جيلفورد ، ج . ب - (مشرف على التأليف) - ميادين علم النفس النظرية والتطبيقية ، جزمان ، أشرف على ترجمته الدكتور يوسف مراد ، دار المعارف ، مصر ، ١٩٦٢ .
- ٤ - حسين ، طه - الجريدة (مصر) ، ١٩١٤ ، يناير وفبراير ومارس .
- ٥ - الخولي ، أمين ، مجلة كلية الآداب (القاهرة) ، م ٤ ج ٢ ١٩٣٩ .
- ٦ - الخولي ، أمين - مجلة علم النفس ، مصر ، م ١ ، ١٩٤٥ .
- ٧ - سويف ، مصطفى - الأسس النفسية للإبداع الفني في الشعر خاصة ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٥١ .
- ٨ - طويل ، ناهدة - شخصية جبران خليل جبران ، دراسة نفسانية . (رسالة مطروحة على الآلة الكاتبة قدمتها المؤلفة الى قسم علم النفس في الجامعة اللبنانية لنيل دبلوم الدراسة العليا في علم النفس) . صدرت ،

- اخيراً ، عن مطابع التجارة والصناعة ، بيروت ، ١٩٧٣ .
- ٩ - عبد القادر ، حامد - دراسات في علم النفس الأدبي ، لجنة البيان العربي ، القاهرة ، ١٩٤٨ .
- ١٠ - مراد ، يوسف - مبادئ علم النفس العام ، دار المعارف ، مصر ، ١٩٦٦ .
- ١١ - النويهي ، محمد - ثقافة الناقد الأدبي ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٤٩ .
- ١٢ - النويهي ، محمد - نفسية بشر ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٥١ .
- ١٣ - النويهي ، محمد - نفسية أبي نواس ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٥٣ .
- ١٤ - هادفيلد ، ج . ا . - علم النفس والأخلاق ، ترجمه محمد عبد الحميد ابو الغزم وراجحه الدكتور عبد العزيز القوصي ، مكتبة مصر (١٩٥٣ ؟)

و - الصحف

- ١ - الأديب ، مجلد ١٥ ، ١٩٥٦ ، عدد ١٠ (عيسى الناعوري) .
- ٢ - الأسبوع العربي ، ١٩٦٤ ، المجلد ٢٨٤ ، تشرين الثاني ، (ليلى شعيب)
- ٣ - الأندلس الجديدة ، ١٩٣٥ ، شباط (شكر الله الجمر) .
- ٤ - الحكمة ، ١٩٥٣ ، العدد الأول (داود سعاد) .
- ، ١٩٥٥ ، عدد ١١ (ادمون وهبه) .
- ، ١٩٥٧ ، عدد ٤ (عيسى الناعوري) .
- ٥ - الرسالة (جونية) ج ٣ ، ١٩٥٧ ، عدد ٤ (عيسى الناعوري) .
- ٦ - الرسالة (مصر) ، ١٩٣٥ ، أعداد ٨٩ و ٩٠ و ٩١ و ٩٢ و ٩٣ (خليل هنداوي) .
- ٧ - السمر ، ١٩٣١ ، عدد ٢ (إيليا أبو ماضي) .

- ١٩٣٥ ، عدد ١٨ (إيليا أبو ماضي) .
- ٨ — العصابة الأندلسية ، المجلد ٩ ، ١٩٤٨ (عبد المسيح حداد) .
- ٩ — القضايا المعاصرة ، ١٩٧٠ ، عدد ٤ (حسن خالد) .
- ١٠ — المجالس ، مجلد ٣ ، عدد ١٠٦ .
- ١١ — المشرق ، مجلد ٣٠ ، ١٩٣٢ (الحوري أغناطيوس جميع) .
- ، مجلد ٣٧ ، ١٩٣٩ (فؤاد افرايم البستاني) .
- ١٢ — المصور ، ١٩٥٥ ، ٢٩ نيسان (سليم البزري) .
- ١٣ — المتكطف ، ج ٨٦ ، ١٩٣٥ ، عدد ٢ (حسن كامل الصيرفي) .
- ١٤ — المكشوف ، ١٩٣٧ ، عدد ١١١ .
- ١٥ — المنارة ، المجلد ٢ ، عدد ١٠ .
- ١٦ — النهار ، عدد ١٨/١٩٧٣ .
- Time, 13 August, 1965 — ١٧

ز — المراجع الأجنبية الفلسفية والعلمية والإستيطيقية

- 1 — ABRAHAM, Dr. KARL — Oeuvres complètes, Payot, Paris, t. I 1965, t. II 1966.
- 2 — ADLER, A. — Connaissance de l'homme, trad. par J. Marty, Paris, Payot, 1955.
- 3 — ——— Le tempérament nerveux, tr. du Dr. Roussel, Paris, Payot, 1955.
- 4 — ——— Le sens de la vie, tr. du Dr. H. Schaffer, Paris, Payot, 1955.
- 5 — BACHELARD, G. — Formation de l'esprit scientifique, Vrin, 1938.
- 6 — ——— Lautréamont, José Corti, 1939.
- 7 — ——— La Psychanalyse du Feu, Gallimard, 1939.

- 8 — ——— L'Eau et les Rêves, José Corti, 1942.
- 9 — ——— L'Air et les Songes, José Corti, 1943.
- 10 — ——— La Terre et les Rêveries de ■ Volonté, J. Corti, 1948.
- 11 — ——— La Terre et les Rêveries du Repos, J. Corti, 1948.
- 12 — ——— La Poétique de l'Espace, P.U.F., 1957.
- 13 — ——— La Poétique de la Rêverie, P.U.F., 1960.
- 14 — ——— La Flamme d'une Chandelle, P.U.F., 1961.
- 15 — BASCH, VICTOR — Essai critique sur l'esthétique de Kant, Paris, Vrin, 1927.
- 16 — ——— La Poétique de Schiller, Paris, Alcan, 1911.
- 17 — ——— Titien, Paris, Albin Michel, 1920.
- 18 — ——— Schumann, Paris, Alcan, 1926.
- 19 — ——— Etudes d'esthétique dramatique, Paris, Vrin, 1929.
- 20 — BAUDOUIN, CH. — Le Symbole chez Verhaeren, Genève, Mont-Blanc, 1924.
- 21 — ——— Psychanalyse de l'Art, Alcan, 1929.
- 22 — ——— Psychanalyse de Victor Hugo, Genève, Mont-Blanc, 1943.
- 23 — BAYER, R. — Histoire de l'Esthétique, Armand Colin, Paris, 1961.
- 24 — BERGSON, H. — L'Evolution créatrice coll. des Prix Nobel, éd. Rombaldi (Belgique — France), 1971.
- 25 — BERTHELEMY, J. — Traité d'Esthétique, éd. de l'Ecole, Paris, 1964.
- 26 — BODAMER, JOACHIM, Sexualité, Amour et Névrose, tr. de l'allemand par Etienne de Peyer, Ed. Labor et Fides, Genève, 1970.
- 27 — BONAPARTE, M. Edgar Poe, 3 vol., Paris, P.U.F., 1958.
- 28 — BURKS, B.S. — A Study of identical twins reared apart under different types of family relationships, in McNemar — G. and M.A. Merrill, studies of personality, New York, 1942.
- 29 — BURLOUD, A. — Psychologie, Hachette, 1961.
- 30 — CATTELL, R. — La Personnalité, 2 vol., Paris, P.U.F., 1956.

- 31 — CHANG, S.T. — The ethical sentiment in children, *educ. rev.* (chinese), 27 (No. 5), 1937.
- 32 — CHARDIN, P.T. DE — Construire la Terre, éd. du Seuil, Paris, 1958.
- 33 — DACO, P. — Les prodigieuses victoires de la psychologie moderne, marabout, 1960.
- 34 — ———— Les triomphes de la psychanalyse, marabout, 1965.
- 35 — DAIM, WILFRIED — Transvaluation de la Psychanalyse, L'homme et l'Absolu, trad. de l'allemand par Pierre Jundt, Albin Michel, Paris, 1956.
- 36 — DALBIEZ, R. — La Méthode Psychanalytique et la doctrine freudienne, 2 vol., Desclée de Brouwer et cie, Paris, 1949.
- 37 — DUFRENNE, MIKEL — Phénoménologie de l'expérience esthétique, 2 vol., Paris, P.U.F., 1953.
- 38 — DURAND, G. Les structures anthropologiques de l'imaginaire, Paris, P.U.F., 1960.
- 39 — FECHNER, G. — Zur experimentale Aesthetik, t. II : Vorschule der Aesthetik, Leipzig, Breitkopf, 1871-1876.
- 40 — FREUD, SIGMUND — Délire et rêves dans la « Gradiva » de Jensen, tr. fr. par M. Bonaparte, Paris, Gallimard, 1971.
- 41 — ———— Un souvenir d'enfance de Léonard de Vinci, tr. fr. M. Bonaparte, Paris, Gallimard, 1927.
- 42 — ———— Leonardo, translated by Alan Tyson, Penguin Books, London, 1963.
- 43 — ———— Essais de Psychanalyse appliquée, tr. fr. M. Bonaparte et E. Marty, Paris, Gallimard, 1971.
- 44 — ———— Introduction à la Psychanalyse, tr. fr. S. Jankélévitch, Paris, Payot, 1964.
- 45 — ———— Essais de Psychanalyse, trad. Jankélévitch, Payot, 1927.
- 46 — GEIGER, MORITZ — Ueber das Wesen und die Bedeutung der Einfühlung, Innsbruck, 1911.
- 47 — ———— Beiträge Zur Phenomenologie des ästhetischen Genu-

- sces, Jahr b. f. philos. und phänomenol. Forshung (Husserl), Halle, Niemeyer, 1913.
- 48 — Zugänge Zur Aesthetik, Leipzig, Berlin, 1928.
- 49 — GROOS, K. — Der aesthetische Genuss, Tübingen, 1902.
- 50 — ——— Beiträge Zur Aesthétik, Tübingen, 1924.
- 51 — HARTMANN, NICOLAI — Zur Grundlegung der Ontologie, 1935.
- 52 — ——— Der Aufbau der realen Welt, Berlin, 1940.
- 53 — ——— Aesthetik, 1953.
- 54 — HUISMAN, D. — Encyclopédie de la Psychologie, 2 vol., Fernand Nathan, 1962.
- 55 — HUYGHE, R. — Dialogue avec le visible, Paris, Flammarion, 1972.
- 56 — JONES, E. — Essays in applied psychoanalysis, London, Kegan Paul, 1923.
- 57 — JUNG, C.G. et von FRANZ, HENDERSON, JACOBI, JAFFE — L'homme et ses symboles, Paris, Pont Royal, 1964.
- 58 — ——— La Psychologie de l'inconscient, tr. par R. Cahen, Lib. de l'Univ. Georg et cie, S.A. Genève, 1963.
- 59 — ——— Métamorphoses de l'âme et ses symboles, tr. de Y. Le Lay, Lib. de l'Univ. Georg et cie., S.A. Genève, 1953.
- 60 — ——— L'homme à la découverte de son âme, préf. ■ adapt. par R. Cahen, éd. du Mont Blanc, Genève, 1962.
- 61 — ——— Types psychologiques, préf. et trad. de Y. Le Lay, Lib. de l'Univ. Georg ■ cie, S.A. Genève, 1958.
- 62 — ——— Essais de psychologie analytique, tr. par Y. Le Lay, éd. Stock, Paris, 1932.
- 63 — ——— Psychologie et Alchimie, trad. par le Dr. Roland Cahen et H. Pernet éd. Buchet/Chastel, Paris, 1970.
- 64 — ——— Problèmes de l'âme moderne, tr. Y. Le Lay, Buchet/Chastel, Paris, 1961.
- 65 — ——— L'âme et la vie, tr. R. Cahen et Y. Le Lay, Buchet/Chastel, Paris, 1963.

- 66 — LALANDE, A. — Vocabulaire technique et critique de la philosophie, Paris, P.U.F., 1972.
- 67 — LALO, CHARLES — L'expression de la vie dans l'art, Paris, Alcan, 1933.
- 68 — ———— L'art loin de la vie, Paris, Vrin, 1939.
- 69 — ———— L'art près de la vie, Paris, Vrin, 1942.
- 70 — ———— Les grandes évasions esthétiques, Paris, Vrin, 1947.
- 71 — ———— L'économie des passions, Paris, Vrin, 1947.
- 72 — ———— Notions d'Esthétique, Paris, P.U.F. 1960.
- 73 — LIPPS, THEODOR — Aesthetik, Psychologie des Schönen und der Kunst, 3 vol., Leipzig - Hambourg, 1903 - 1906 - 1923.
- 74 — LUCAS, F.L. — Literature and Psychology, Cassel and Co., London, 1951.
- 75 — MEUMANN, E. — Einführung in die Aesthetik der Gegenwart, Leipzig, 1908.
- 76 — ———— System der Aesthetik, Leipzig, 1914.
- 77 — NEUMANN, E. — Art and the creative unconscious, Routledge and Kegan Paul, London, 1959.
- 78 — RENAN, E. — Vie de Jésus, Paris, ~~calmann Lévy~~.
- 79 — RICHTER, IRMA — Selections from the Notebooks of Leonardo da Vinci, London, 1952.
- 80 — SARTRE, J.P. — Baudelaire, Gallimard, 1964.
- 81 — SCHELER, MAX — Wesen und Formen der Sympathie, Bonn, Cohen, 1923; tr. fr. Lefebvre, Paris, Payot, 1923.
- 82 — SOURIAU, E. — L'avenir de l'esthétique, Paris, Alcan, 1929.
- — STAGNER, R. — The role of parents in the development of emotional instability, Amer. J. orthopsychiat, 1938.
- 84 — STAGNER, R. and M.H. KROUT — The study of personality development and structure, J. abnorm. soc. psychol., 1940.
- 85 — STOCKER, A. — De la psychanalyse à la psychosynthèse, Beauchêne et ses fils, Paris, 1957.
- 86 — ———— Etudes sur la psychologie de la personne, St. Maurice, édit. St. Augustin, 1956.

- — ———— *Traitement moral des nerveux*, Paris, Boucheine, 1954.
- 88 — SUTTIE, IAN — *The origins of Love and Hate*, Penguin Books, 1963.
- 89 — UTITZ, E. — *Grundlegung der allgemeinen Kunstwissenschaft*, 1914 - 1920.
- 90 — VALENTINE, C.W. — *The experimental psychology of Beauty*, London, Methuen and co., 1962.
- — VISCHER, F.T. — *Aesthetik oder Wissenschaft des Schönen*, Munich, 1922.
- 92 — VOLKELT, JOHANNES — *System der Aesthetik*, 3 vol., Munich, Beck, 1927.
- 93 — WEBER, J.-P. — *La Psychologie de l'art*, Paris, P.U.F., 1961.
- 94 — ———— *Génèse de l'œuvre poétique*, Paris, Gallimard, 1960.
- 95 — WUNDT, W. — *Grundzüge der physiologischen Psychologie*, 3 vol., Leipzig, 1908 - 1911.

فهرس
السنوم والسنو الفوتوغرافية والفوتوغرافية

٥٤	شلالات قاديشا	صورة فوتوغرافية	١
٥٥	جبال بشري الشائعة ولوديتها الممثلة	صورة فوتوغرافية	٢
٥٥	غابة مار سركيس	صورة فوتوغرافية	٣
٦٤	البيت الذي ولد فيه جبران	صورة فوتوغرافية	٤
٦٥	منزل جبران الأصيل بعد تربيته وتحسين جواره	صورة فوتوغرافية	٥
٦٥	مسكن جبران في طفولته الثالثة : قبو بشكل قاعدة خفيفة	صورة فوتوغرافية	٦
٦٥	لقصر الحاكم		
٦٦	أطلال قصر الحاكم راسي بك حنا الضاهر	صورة فوتوغرافية	٧
٦٦	منزل حنا الضاهر ياتياً حل قدمه	صورة فوتوغرافية	٨
٧٩	النقى الطلح سلا سيف إثبات الذات !	صورة فوتوغرافية	٩
٩٤	رأس جبران	رسم	١٠
٩٤	رأس جبران في وضع آخر	رسم	١١
٩٥	رؤوس الأعلام تنصهر عتوف جبران في نيويورك	مجموعة رسوم	١٢
١٠٨	السلطة المتعجزة	رسم	١٣
١٠٩	الولد والأب المطبوس الوجه	رسم	١٤
١٠٩	والد مطبوس الوجه وابنته	رسم	١٥
١١٠	الأب المطبوس الوجه والأم وطفلهما	رسم	١٦
١١١	الأب الملائكي الجسم والابن يتنازعان الأم	رسم	١٧
١١٢	أم وطفلهما حيوان متماثلان وأب ميت مطبوس الوجه	رسم	١٨
١١٢	النقى المصلوب بين أمه وأبيه المطبوس الوجه	رسم	١٩
١٢١	الامومة - القتل	رسم	٢٠

١٢١	الامومة - الحكمة	رسم	٢١
١٢٢	الامومة - التنزية	رسم	٢٢
١٢٢	الامومة - المحافظة	رسم	٢٣
١٢٣	الامومة - العناية	رسم	٢٤
١٢٣	الطفل منشئ بقوى أمه	رسم	٢٥
١٢٤	الطفل يرضع ثدي أمه الميتة	رسم	٢٦
١٢٤	الشاب الرضيع	رسم	٢٧
١٢٥	الاندماج بالأم	رسم	٢٨
١٢٦	المودة إلى رسم الأم	رسم	٢٩
١٢٧	الاتصاف الأمومي المتضائف	رسم	٣٠
١٢٨	الستور - الأم حانية على الطفل	رسم	٣١
١٢٨	الستور - الأم حشنة بالطفل	رسم	٣٢
١٢٩	الستور - الأم حانية على الشاب	رسم	٣٣
١٣٠	جبران وأمّه	رسم	٣٤
١٤١	وجه أمه ملازم وجه المرأة	رسم	٣٥
١٤٥	حلا المتشاعر	رسم	٣٦
١٤٥	ميشلين	رسم	٣٧
١٥٥	ماري حاسكل	رسم	٣٨
١٥٥	مي زيادة	رسم	٣٩
١٦٢	كاملة وحده	رسم	٤٠
١٦٣	مريم أم يسوع	رسم	٤١
١٦٤	مريم المجدلية	رسم	٤٢
١٦٥	جان دارك	رسم	٤٣
١٦٦	الأم المتطلعة إلى اللانهاية	رسم	٤٤
١٧٣	يد الأم الفاصلة	رسم	٤٥
١٧٣	يد الأم الفاصلة في وضع آخر	رسم	٤٦
١٧٥	الاتحاد الجسمي الرحيم وتماز الشفاء	رسم	٤٧
١٧٥	الرجل - المرأة في صراع مرير	رسم	٤٨
١٨١	الملك الأنكوي حاجج بطشانية في سرير الأضرار	رسم	٤٩
١٨٥	الطباب وحنين المودة إلى المروج - الأم	رسم	٥٠

١٨٦	الأم السعلوية	رسم	٥١
١٨٧	فروح الأم تطل من غيب الأبدية لتساق أبنيتها	رسم	٥٢
١٨٨	الحياة الجديدة الأثرية التي تلد أبنائها	رسم	٥٣
١٨٩	يد الفتوة الأبدية وجين العناية الأمومية	رسم	٥٤
١٩٥	الطبيعة - الأم	رسم	٥٥
١٩٩	الأرض - الأم إلهة معبودة	رسم	٥٦
٢٠٠	الأرض - الأم وابنتها في كتفها	رسم	٥٧
٢٠١	الأرض - الأم والأخيل المظور	رسم	٥٨
٢٠٤	البحر - الأم والموت والولادة	رسم	٥٩
٢٠٥	البحر - الأم والبعث الإلهي حابطاً عليها	رسم	٦٠
٢٠٦	زفاف البحر إلى الشمس	رسم	٦١
٢١٣	وجه أمي وجه أمي	رسم	٦٢
٢١٤	الآلة - الأم الصريح وحلقها الهي	رسم	٦٣
٢١٥	الآلة - الأم جسد الموت وحل صدرها طفلها الهي	رسم	٦٤
٢١٥	و الحمل المصل في قلبه	رسم	٦٥
٢٤٥	الأرض أنتى حزينة	رسم	٦٦
٢٤٥	الحب في كتف الطبيعة - الأم	رسم	٦٧
٢٤٦	إنهاء الأتونة الصلابة	رسم	٦٨
٢٥٨	السنور المتجبر	رسم	٦٩
٢٥٩	السنور والأجساد المتناهية	رسم	٧٠
٢٥٩	القدم الساحقة	رسم	٧١
٢٦٠	الأجساد النامية من القنبعة الصخرية	رسم	٧٢
٢٦١	إرادة الصراع في الوجه المتألم	رسم	٧٣
٢٦٢	المفكر	رسم	٧٤
٢٦٣	قلامي	رسم	٧٥
٢٦٣	القائد	رسم	٧٦
٢٧٦	المجد العظيم	رسم	٧٧
٢٧٧	ه أنا ه المقيد أمام الفات الروحية	رسم	٧٨
٢٧٨	ه أنا المثالي ه والذات الروحية	رسم	٧٩
٢٧٩	المتحابان في الفتوة الروحية	رسم	٨٠
٢٨٠	المتناق الروحي	رسم	٨١

٢٨١	روح الحب يبلوك الحببين	رسم	٨٢
٢٨٢	حبة النفس	رسم	٨٣
٢٨٣	الصلوة	رسم	٨٤
٢٨٤	الذات الروحية	رسم	٨٥
٢٨٤	الستور الخالي على النفسها	رسم	٨٦
٢٨٥	مصهر الحب النفس	رسم	٨٧
٢٨٥	يد الروح ترفضان البشر إلى عبادة الآلهة	رسم	٨٨
٣٠٣	العارية	رسم	٨٩
٣٠٣	عائلة الرعاة	رسم	٩٠
٣١٧	حولة كنفق والفساح	رسم	٩١
٣١٧	القفاز في الفراغ	رسم	٩٢
٣١٨	الذات الجالسة المستطبة	رسم	٩٣
٣١٨	الستور المتألم	رسم	٩٤
٣١٩	تجربة المرأة	رسم	٩٥
٣١٩	المحوي	رسم	٩٦
٣٢٠	الصراع النفسي	رسم	٩٧
٣٢١	الذات الجبرانية تحاول التخلص من قيود الحسية	رسم	٩٨
٣٢١	الذات الجبرانية في ثالث مراتبها قبيل الانزاع	رسم	٩٩
٣٣٥	هـ قنبي	رسم	١٠٠
٣٥٠	وحدة الذات	رسم	١٠١
٣٥٠	وحدة الشخصية المنزعة	رسم	١٠٢
٣٥١	المراتب النفسية الثلاث في وحدة انزاعها	رسم	١٠٣
٣٥٢	الطاقات الثلاث ذات البأس	رسم	١٠٤
٣٥٢	الطاقات الثلاث ذات الرقة	رسم	١٠٥
٣٥٣	تصميم حلاكة الروحانية في ثالث الذات	رسم	١٠٦
٣٥٤	حلاكة الروحانية عاطفاً على شقيقه	رسم	١٠٧
٣٥٤	تعاطف الثالث في وحدة الذات	رسم	١٠٨
٣٥٩	تمثال المصلوب لاسحق جبران	صورة فوتوغرافية	١٠٩
٣٦٣	فرقة نوم جبران تصورها سجد المصلوب	صورة فوتوغرافية	١١٠
٣٧٣	يسوع المصعب القوي	رسم	١١١
٣٨١	الألم مدمي	رسم	١١٢

٢٨٢	الاسلخ المزير عن المصلوب	رسم	١١٣
٢٨٣	الصراع في ظل المصلوب	رسم	١١٤
٢٩٨	المصوبة بين التقيذين	رسم	١١٥
٢٩٨	المصوبة والوجهان المحجبين	رسم	١١٦
٢٩٩	الذات المصوبة	رسم	١١٧
٤٠٣	ملويينا وجبران داخل محترقه في نيويورك	صورة فوتوغرافية	١١٨
٤١٥	وحدة الأديان	رسم	١١٩
٤٢٣	جبران ه النبي ه قبل أن تحرق الأيدي إرادة محبيه	صورة فوتوغرافية	١٢٠

٩٢	رسالة جبران إلى أمين الريحاني في ٥ نيسان ١٩١١	مخطوطة	١
١٢٩	مسودة رسالة جبران إلى مي زيادة	مخطوطة	٢
١٥٧	رسالة جبران إلى مي زيادة في ٣٠ أيار ١٩٢١	مخطوطة	٣
٢٢٠	رسالة جبران إلى عاري هاسكل في ٢٦ أيار ١٩١٦	مخطوطة	٤
٢٣٥	فقرات من مسودة رسالة إلى مي زيادة	مخطوطة	٥
٢٥٥	الحق هو القوة	مخطوطة	٦
٤٠١	رسالة من جبران إلى أمين الريحاني في أواخر الحرب العالمية الأولى	مخطوطة	٧

فخر ربه الأعمام

لم يذكر في هذا الفهرس اسم جبران لوروده في معظم صفحات الدراسة ، كذلك اسم
 ماري هاسكل الوارد في عنوان كتاب الرسائل المتبادلة بينها وبين جبران (The Letters
 of K. Gibran and M. Haskell) إذ إنه يكاد يضارح اسم جبران في كثرة تكرراره .
 ويخرج من غايه هذا الفهرس أسماء الأبطال الخياليين الذين ترد أسماؤهم في حكايات جبران
 وقطعه الأدبية أمثال سلسي كرامه ووردة الهاني ويوسف الفخري وغيرهم .

آدم ١٦٩ - ١٧٠ - ٢٩٥

آليوت (ت.س.) ٩٢

ابراهيم (كارل) ١٣٥ - ١٤٠

ابن خلعون ٩١

ابن الرومي ٢١

ابن سينا ٩١

ابن الفارض ٩١ - ٢٩٥

ابو المزم (محمد عبد الحميد) ٢٢٧

ابو ماضي (إيليا) ١٨ - ٣٨ - ٦٨ - ٧٧ - ١٤٩ - ٢٩٠

ابو نواس ٢١ - ٩١

أبي طالب (علي بن) ٣٨٦

أحمد (محمد خلف الله) ٢١

أدار (الفرد) ٣١ - ٥٨ - ٥٩ - ٦٢ - ٧٤ - ٧٥

أرسطر ٩٩

اسماعيل (عز الدين) ٢١

ألار (ميشال) ١٦

امرسون (رو.) ٢٧ - ٤١٤

انجلوز ١٠٣

- اقلون (فرح) ۴۰
 اوتو (آئي) ۱۹ - ۳۴ - ۹۱ - ۱۹۱ - ۲۱۱
 اوتيز (آ) ۲۴
 اوسن (چين) ۳۳
 اولغا ۲۹۷ - ۴۰۲

 بابا (محمد طيف) ۳۷۱ - ۴۰۴
 باراباس ۳۷۹
 بارتليت (يورل) ۹۱
 باش (فكتور) ۲۰ - ۲۱
 باشلار (غاسون) ۲۰ - ۲۱ - ۱۹۲ - ۲۰۲
 بركليسي (ج) ۲۲ - ۹۹ - ۱۰۳
 برزباين ۴۲۰
 بركسون (هري) ۹۱ - ۲۲۸ - ۲۳۹
 بركس (ب.س.) ۳۰۶
 برلو ۲۸۷
 برفار (ساره) ۹۱
 بروميوس ۴۰۴
 بروفس ۳۳
 بيزوي (سليم) ۶۰
 البيستاني (المعلم بطرس) ۳۷۲
 البيستاني (سميد) ۱۶
 البيستاني (نواد آرام) ۱۴۲ - ۱۳۶ - ۱۵۸ - ۲۲۲ - ۲۳۴ - ۲۴۲ - ۴۰۷ - ۴۱۶
 بشروئي (سهيلى) ۱۶ - ۱۹
 بشار بن برد ۲۱
 بشير (انطونيوس) ۳۵
 بك (لبن) ۳۳۷
 بلاشوار (ماريا) ۸۶
 بلايك (وليم) ۲۷
 بلغتش (توماس) ۶۹
 بنيت (ارنولد) ۳۲۴
 بوجير (جوهان) ۹۱

بودامير (ج) ۲۹۲

بودلير (شارل) ۳۶۱

بوديزان (شارل) ۳۱ - ۹۹

بودا ۳۶۷

بود (شارلوت) ۱۰۲

بولس الرسول ۲۹۸ - ۳۲۶ - ۳۳۴ - ۳۸۶ - ۴۰۸

بونابرت (ماري) ۱۹۰ - ۱۹۶ - ۱۹۸

بواتريس ۱۰۵

بوتر (ويتر) ۹۱

تابلت (سلطانه) ۱۴۴ - ۱۴۶ - ۱۵۳ - ۱۶۱ - ۱۶۹ - ۲۱۸

تشانغ ۱۳۲

تولوز - لوتريك (خري ده) ۸۶

تورو (خري) ۲۷

جانه ۳۱

جاگويي ۳۱

جير (جسبل) ۱۹ - ۲۷ - ۳۴ - ۵۳ - ۶۲ - ۶۷ - ۶۸ - ۶۹ - ۷۰ - ۷۶ - ۷۷ - ۸۴ -

۸۸ - ۹۱ - ۱۳۷ - ۱۵۴ - ۱۵۶ - ۱۶۴ .

جير ان (اسحق) ۳۵۷ - ۳۵۸

جير ان (عليل) ۵۹ - ۶۱ - ۶۲ - ۶۸ - ۱۳۳ - ۱۳۷ - ۱۶۷

جير ان (عليل بن نقولا) ۳۵۷

جير ان (سلطانه) ۶۸ - ۲۹۰ - ۲۹۱ - ۳۵۸

جير ان (عيد) ۵۹

جير ان (ليل) ۶۱

جير ان (مريانا) ۶۸ - ۲۹۱ - ۲۹۶ - ۳۲۶ - ۳۵۸

جير ان (نخله) ۵۳ - ۵۶ - ۸۰ - ۸۱ - ۹۶ - ۱۳۷ - ۲۰۸ - ۲۹۷ - ۳۰۸ - ۴۱۱ .

جير ان (نقولا) ۳۵۷

الجر (فكراته) ۱۸ - ۴۲۰

جيسيج (الغروي الفيلطوس) ۵۸ - ۲۵۶

جوردس ۳۲۸

جيانفورڊ ۲۶ - ۵۱ - ۱۳۷ - ۲۳۷

جبله ۱۴۷

ساري (خليل) ۱۸ - ۱۹ - ۲۷ - ۳۴ - ۳۵ - ۳۸ - ۵۹ - ۶۰ - ۶۸ - ۶۹ - ۷۲ - ۸۸ -

۱۵۴ - ۱۷۱ - ۲۳۲ - ۲۴۸ .

سجاد (عبد المسيح) ۱۸ - ۱۵۴

الحداد (الغوري يوسف) ۳۸ - ۷۶ - ۷۷ - ۷۸ - ۲۰۸ - ۳۰۸

سجين (طه) ۲۱

سنة (أم مريم) ۳۶۶

سواء ۱۶۹ - ۲۹۵

الطويلك (يوسف) ۳۵ - ۷۲ - ۷۳ - ۷۸ - ۸۰ - ۸۴ - ۹۹ - ۱۰۰ - ۲۹۷ - ۳۰۱

الخال (يوسف) ۴۱۰

خاله (أمين) ۱۸

خاله (ضمان) ۲۰

خوري (ساري) ۱۴۳ - ۱۵۳ - ۱۵۴ - ۱۷۱ - ۲۱۹ - ۳۰۱

الغوري (وردان عيسى) ۴۱۴

الغولي (أمين) ۲۱

غير الله (يوردج) ۳۸ - ۱۳۷ - ۱۵۱ - ۲۹۱ - ۲۹۶ - ۴۰۶ - ۴۰۷

دارك (جان) ۹۱ - ۱۶۱

دارون ۲۷ - ۴۴

دافنتي (ليوناردو) ۶۰ - ۱۸۰ - ۱۸۳

داكرو (بيار) ۴۱ - ۵۹ - ۶۳ - ۸۸ - ۹۰ - ۱۰۷ - ۱۱۴ - ۱۳۴ - ۱۷۶ - ۳۰۷ -

۳۴۰ - ۳۴۳

داليوز (رينه) ۱۰۳

دارد (القيسي) ۲۵۰ - ۳۳۴ - ۳۶۱

داي (فرد هولته) ۶۹ - ۱۴۸ - ۱۴۹ - ۲۴۴

داي (ولفرد) ۳۳ - ۲۲۷ - ۲۹۴ - ۳۰۶

الدبس (المطران يوسف) ۸۲

دسوار (م.) ۲۴

دنظر (فانلوت تيلرايف) ۷۰ - ۱۴۳

هوران (ج.) ١٩٢ - ١٩٤
 هورن (م.) ٢٠ - ٢١ - ٣٨٥
 هون جوان ٧٣
 هويي (الاب) ٤١٦
 هوسي ٩١
 دېك ابن الحصي ٩١
 ديلى ٩٢

راسل (جورج وليم) ٩١
 رحمة (الهوري اسطفان) ٦١ - ٣٥٦ - ٤١٤
 رحمة (بطرس) ٥٣ - ٦٢ - ٦٨ - ٢٩٠ - ٣٩٦ - ٣٥٨ - ٣٦٠
 رحمة (حنّا أسعد خطّار) ٣٨ - ٤٠٨
 رحمة (حنّا عبد السلام) ٦٨
 رحمة (الهوري فرنسيس) ٦٧ - ٨٢ - ٢٢١
 رحمة (كاملة) ٥٩ - ٦٨ - ١١٦ - ١١٩ - ١٣٢ - ١٣٣ - ١٣٥ - ١٣٦ - ١٥٢ -
 ١٦٠ - ١٦٧ - ١٩٧ - ٢٠٧ - ٢٥٧ - ٢٩٠ - ٣٥٦ - ٣٥٨

رويلر ١٣١
 رودان (لونغست) ٩١
 روزفلت (شقيقة الرئيس) ٣٢٤
 روزينا ٧٢ - ٤٠٢
 الريحاني (أمين) ٩٢ - ١٤٣ - ٤٠٠ - ٤١١
 ريشتر (إرما) ١٨٣
 رينان (إرنست) ٢٧ - ٤٤ - ٣٦٢ - ٣٦٧

زكا (طنسي) ١٨
 زياده (مي) ٣٥ - ١٣٧ - ١٣٨ - ١٥٣ - ١٥٤ - ١٥٦ - ٢١٠ - ٢١٩ - ٣٢٩ -
 ٣٣١ - ٣٣٤ - ٣٣٧ - ٣٠١ - ٣١٠ - ٣٧٦ - ٤١٩ - ٤٢٠ .

زيفدان (إميل) ٣٢٤
 زيفدان (جرجي) ٤٥

سارتر (جان بول) ٣٦١
 ساتيرن (فرنك) ٩٢

- سالت ديفيس (روث) ٩١
 سباير (لغلاف) ٣٣٦
 سفاخر ١٣٢ - ١٣٣
 سفاذه (فلود) ٧٥ - ٧٨ - ٣٠٨
 سقراط ٩١ - ٣٨٦ - ٤٠٨ - ٤١٣
 سكليك (صفان) ١٩ - ٢٧
 سليمان الحكيم ٢٤٢ - ٢٩٥
 سمعان (الخوري) ٦٢
 سمعان القبرواني ٣٧٩
 سوتي (أيان) ١٢١ - ٢٠٧ - ٢٠٨ - ٢٠٩ - ٣٠٧ - ٣٢٥
 سورير (أ) ٢٤
 سوسان (الناصرية) ٣٧٩
 سوييف (مصطفى) ٢١ - ٩٩

 شاردان (بيار تيارده) ٢٦٥
 شلول (بولس القرمول) ٢٩٨
 شتوكر (أ) ٢٢ - ٢٢٧ - ٢٦٦ - ٢٨٧ - ٢٨٨ - ٢٨٩ - ٢٩٢ - ٣٠٦ - ٣١٢ -
 ٣١٤ - ٣٢٣ - ٣٢٩ - ٣٣٩ - ٣٤١ - ٤٠٠ - ٤١٠
 الشدياق (أحمد فارس) ٤٥
 الشدياق (أحمد) ٤٥
 شكسيم (وليم) ١٤٠
 شمعون (متير) ١٦
 شميل (شيل) ٤٥
 شيبوب (ألفريك جريغنيو) ٣٥
 شيلر (م.) ٢٠ - ٢١

 صايغ (توفيلد) ١٧ - ١٨ - ٣٤ - ٧٠ - ٧١ - ٧٢ - ٧٣ - ٧٥ - ٨٠ - ٨١ - ٨٢ -
 ٨٤ - ٨٥ - ٩١ - ١٠٥ - ١١٧ - ١٤٢ - ١٤٣ - ١٤٦ - ١٤٧ - ١٥٠ -
 ١٥١ - ١٥٢ - ١٥٣ - ١٥٤ - ١٥٩ - ١٧٤ - ١٧٧ - ١٧٩ - ٢٠٨ -
 ٢٣١ - ٢٣٢ - ٢٣٦ - ٢٣٧ - ٢٩١ - ٢٩٧ - ٣٠١ - ٣٣١ -
 ٣٣٤ - ٣٤٣ - ٣٦٥ - ٣٦٦ - ٣٨٦ - ٤٠٠ - ٤٠٤ - ٤٠٩ -
 ٤١١ - ٤١٣ - ٤٦٤ .

الصيرني (حسن كامل) ١٨

الضاهر (آل) ١٩ - ٨٤ - ١٤٣

الضاهر (آل حنا) ٦٠ - ٦٣

الضاهر (أسكندر) ٦٩

الضاهر (أسى يوسف حنا) ٣٨ - ٥٩ - ٦٠ - ٦١ - ٦٢ - ٦٣ - ٦٩ - ٧٠ - ٧٢ -

٧٥ - ١٤٢ - ٢٥٧ - ٢٥٨ - ٢٦١ - ٤١٤

الضاهر (جسيلة حنا) ٤١٤

الضاهر (حلا) ٦٩ - ٧٢ - ٨٤ - ١٠٢ - ١٠٤ - ١٠٥ - ١٤٢ - ١٤٦ - ١٥٢ - ١٦٩ -

٢١٨ - ٢٢٩ - ٤١٤

الضاهر (راجي بك حنا) ٦٠ - ٦٣ - ٦٩ - ٧٥

الضاهر (سميدة) ٧٢

الضاهر (سليم حنا) ٦١ - ٦٧ - ٧٧

الضاهر (طنوس) ٦٧ - ٦٩

الضاهر (عزيز) ٦٩

طافور ٢٩٩

طوق (شمس) ٣٨ - ٥٩ - ٦٨ - ٧٢ - ٧٧ - ١٢٢ - ١٢٣

الطويل (ناعمة) ٧٠

حياد (المعتد بن) ٩١

حيود (مارون) ٧٦ - ٧٧ - ٧٨ - ١٥٦ - ٢٠٨

حيه البهاد ٢٥٣

حيه الحصيد ٥٢

حيه القادر (حانة) ٢١

حيه النور (جورج) ١٦-١٩٨

حريضة (نسب) ٢٣٢

عشروت ٣٧٩ - ٤٠٩

العقاد (جاس مصمود) ٢١

فايهر (ي) ٢٠ - ٢١

فروس (ك) ٢٠

غريب (أمين) ٥٣ - ٧٨ - ٨٠ - ١٠٠ - ١٥١ - ٢٢٠ - ٢٩٦ - ٢٩٧ - ٢٠٨

غريب (روز) ١٩ - ٢٧

الغزالي ٩١

خليلور ٢٨٦

خوگه ١٠٢ - ١٠٣

فارس (فليکس) ١٨

فانغر (ريشارد) ٨٧

فالتين ٢٢

فانغر (ج) ٢٠ - ٢١

فرانس (م . ل . خون) ٣١ - ١٧٦

فرانشسکا ١٠٥

فرانكل ٢٤٤ - ٤٢١

فرجه (أ) ٣٣

فرنكلين (ينجاين) ٨٠

فرويد (سيغوند) ٢٠ - ٢٥ - ٣٠ - ٣١ - ٤١ - ٥٧ - ١٣١ - ١٥٨ - ١٨٣

فكوريا (الملكة) ٩١

فولكلت (ج) ٢٠

فونت (و) ٢٠ - ٢١

فيلير (ج . ب .) ٢٣ - ٢٤ - ٢١

فيشر (ف. ت.) ٢٠

فيلس ٣٧٩

فانرم (دارد) ٦١

فانرم (شارل) ٦١

كاتال (ديجون) ٢٦ - ٥١ - ١٣٢ - ١٣٣ - ١٣٧

كراوت ١٣٢

كرم (انطون فطاس) ١٨ - ١٩ - ٢٧ - ٣٨ - ٥٣ - ٥٦ - ٥٧ - ٥٩ - ٦١ - ٦٢ -

٦٩ - ٨٨ - ١٨٣ - ٢٠٣ - ٢٢٠ - ٢٦٢ - ٤١٦

كسفر ١٠٢

كسفي (كسفي فرخود) ١٨

كلابو با البتروني ٢٠٢

كلوديرس ٣٧٩

كنوف ٢٣١

لاند (أ) ٢٤

لانو (شارل) ٢٢ - ٢٦ - ٨٧ - ٩٩ - ١٠٢

لوتي (بيار) ١٠٢

لوروش (عزري) ٣٣٧

لوسون (مارييتا ج.) ٤٠٢

لوسيرف (جان) ٣٣٤ - ٣٣٧

لوكانس (ف. ل. ل.) ١٤٠

لييس (ت) ٢٠

ماركهام (ادوين) ٩١

ماكي (بيروسي) ٩١

مسي الانجيلي ٣٧١

الفتني (ابو الطيب) ٩١

محمد (النبوي) ٢١٨

محدث باشا ٣٨٦

مراد (يوسف) ٥٨ - ١٣٥

مراش (فرنسيس) ٢٧ - ٩١

مريم العنبراء ١٥٩ - ١٦٠ - ١٦١ - ١٨٢ - ١٩٧ - ٢٥٦ - ٢٥٨ - ٣٧٨

مريم المجدلية ١٦٠ - ١٦١ - ١٩٧ - ٣٧٨

مسعود (حبيب) ١٦ - ٢٤ - ٣٥ - ٦١ - ٨١ - ١٣٧ - ٢٣١ - ٢٤٨ - ٢٩٧ - ٣٣٤ -

٢٣٦ - ٣٦٢ - ٣٧٤ - ٤٠٧ - ٤١١ - ٤١٢ - ٤٢٠ - ٤٢١

مشافة (ميخائيل) ٤٥

المصري (ابو العلاء) ٩١

المنفلوطي (مصطفى لطفي) ٢٠٨

موت (الالهة) ١٨٣

موسه (الفرد) ١٠٢

موسي (النبوي) ٢٥٠

موريجان (أ) ٢٠ - ٢١

ميشفيلك (جرون) ٩١

ميشلين (اميل ميشل) ١٤٤ - ١٤٦ - ١٤٧ - ١٥٣ - ٢٠٨ - ٢١٨ - ٢٩٢ - ٣٠١

تاهوليون ٩١

نافسر (عمر) ٧٦

الناصردي (ميس) ١٨

نيميه (ميشاليل) ١٨ - ٣٥ - ٥٩ - ٦٨ - ٧٧ - ٨١ - ٨٣ - ١٣٢ - ١٣٧ - ١٤٣

١٤٦ - ١٤٩ - ١٨٠ - ٢٢٩ - ٢٣٢ - ٢٣٤ - ٢٦٩ - ٢٧٢ - ٢٩٠

٢٩١ - ٣٢٩ - ٣٤٣ - ٣٥٨ - ٣٦٠ - ٤٧٠

نورمان (أ) ١٨٠

التنوي (محمد) ٢١

نيتشه (فريدريك) ٢٧ - ٨٦ - ٩١ - ٢٣٧ - ٢٥١ - ٢٥٢ - ٢٥٤ - ٢٩٧ - ٢٩٨

٣٠٠ - ٣٠١ - ٣٦٨ - ٣٦٩ - ٣٧٤

نيكوديموس ٣٧٩

هادفيلك (ج. ١) ٢٢٧ - ٢٢٢ - ٣٥٥ - ٣٥٦

هارتمان (ن) ٢٠ - ٢١

هاردني (لا مار) ١٤٧

هاريس (فرانك) ١٤٢

هاتشك (ماري) ١٧ - ١٩ - ٣٤ - ٣٦ - ٧٠ - ٧١ - ٧٢ - ٧٣ - ٧٥ - ٨٠ - ٨١

٨٢ - ٨٣ - ٨٤ - ٨٥ - ١٠٥ - ١١٦ - ١١٧ - ١٢٠ - ١٣١ - ١٤٣

١٤٤ - ١٤٦ - ١٤٧ - ١٤٨ - ١٤٩ - ١٥٠ - ١٥٢ - ١٥٣

١٥٤ - ١٥٨ - ١٥٩ - ١٧٤ - ١٧٧ - ١٧٩ - ١٨٠ - ١٩١ - ٢٠٢

٢٠٨ - ٢١٨ - ٢١٩ - ٢٢٠ - ٢٢١ - ٢٢٢ - ٢٢٣ - ٢٢٤

٢٢٥ - ٢٢٦ - ٢٢٧ - ٢٢٨ - ٢٢٩ - ٢٣٠ - ٢٣١ - ٢٣٢

٢٣٣ - ٢٣٤ - ٢٣٥ - ٢٣٦ - ٢٣٧ - ٢٣٨ - ٢٣٩ - ٢٤٠

٢٤١ - ٢٤٢ - ٢٤٣ - ٢٤٤ - ٢٤٥ - ٢٤٦ - ٢٤٧ - ٢٤٨

هارسمان (لودانس) ٩١

هزيم (الغناطيرس) ٤٥

هندلوي (غليل) ١٨

هتوسون ٣١

هورني (كارن) ۲۲ - ۲۲۶

هويسان (د.) ۲۶ - ۲۳ - ۵۱ - ۲۲۷

هويغ (رينه) ۸۶

هينر (لكتور) ۳۱

هيلانه (الملكة) ۲۹۵

واپلد (اوسكار) ۱۱۲

ورينغر ۲۴

وكسكل ۵۱

اليازجي (ابراهيم) ۳۷۲

اليازجي (ناصريف) ۳۷۲

يانغ (برباد) ۱۸ - ۳۶ - ۳۷ - ۵۲ - ۶۰ - ۶۹ - ۷۱ - ۷۲ - ۷۶ - ۷۷ - ۸۲ -

۸۳ - ۸۵ - ۸۹ - ۹۱ - ۱۳۲ - ۱۳۴ - ۱۳۶ - ۱۴۰ - ۱۴۹ - ۱۵۳ -

۱۵۶ - ۱۶۰ - ۱۶۷ - ۲۱۹ - ۲۲۰ - ۲۲۲ - ۲۲۴ - ۲۲۴ - ۲۲۶ -

۲۲۸ - ۲۳۸ - ۲۴۴ - ۲۰۸ - ۲۲۸ - ۲۳۶ - ۲۳۴ - ۲۴۴ - ۲۵۷ - ۲۶۱ -

۲۶۲ - ۲۶۴ - ۲۶۶ - ۲۶۷ - ۲۷۱ - ۲۸۶ - ۴۰۲ - ۴۰۴ - ۴۰۶ -

۴۱۶ - ۴۱۷ - ۴۱۹ - ۴۲۰ .

يسوع الناصري (أو المسيح) ۲۷ - ۲۹ - ۳۲ - ۹۷ - ۱۰۷ - ۱۱۳ - ۱۳۴ - ۱۵۹ -

۱۶۰ - ۱۶۱ - ۱۸۳ - ۱۹۲ - ۱۹۳ - ۱۹۷ - ۲۰۲ - ۲۱۱ -

۲۲۶ - ۲۲۷ - ۲۳۲ - ۲۳۴ - ۲۳۶ - ۲۴۷ - ۲۴۸ - ۲۵۰ -

۲۵۴ - ۲۷۴ - ۲۷۵ - ۲۹۱ - ۳۰۰ - ۳۰۸ - ۳۱۳ -

۳۴۴ - ۳۴۴ - ۳۴۶ - ۳۴۸ - ۳۴۸ - ۳۴۸ - ۳۴۸ -

۳۴۸ - ۳۴۸ - ۳۴۸ - ۳۴۸ - ۳۴۸ - ۳۴۸ - ۳۴۸ -

۳۴۸ - ۳۴۸ - ۳۴۸ - ۳۴۸ - ۳۴۸ - ۳۴۸ - ۳۴۸ -

۳۴۸ - ۳۴۸ - ۳۴۸ - ۳۴۸ - ۳۴۸ - ۳۴۸ - ۳۴۸ -

۳۴۸ - ۳۴۸ - ۳۴۸ - ۳۴۸ - ۳۴۸ - ۳۴۸ - ۳۴۸ -

۳۴۸ - ۳۴۸ - ۳۴۸ - ۳۴۸ - ۳۴۸ - ۳۴۸ - ۳۴۸ -

۳۴۸ - ۳۴۸ - ۳۴۸ - ۳۴۸ - ۳۴۸ - ۳۴۸ - ۳۴۸ -

۴۲۱ - ۴۲۰ - ۴۱۹

يعقوب (أخو يسوع) ۳۷۹

يهوذا الاسخريوطي ٢٢٨ - ٢٧٠

يهوشا الانجيلي ٤١٩

يوسف (الاب) ٤١٦

يوسف (مسيح مريم) ١٩٧

يوسف (شامل) ٧٥

يوشع (كارل) ٢٠ - ٢٢ - ٢٥ - ٢٦ - ٢١ - ٢٢ - ٨٥ - ٩١ - ١٢٠ - ١٥٨ - ١٧٦ -

- ٢١١ - ٢٤٣ - ٢٢٨ - ٢٠٠ - ٢٩٨ - ٢٩٢ - ٢٩٠ - ٢٢٧ - ١٨٠

. ٣٦٧ - ٣٦٤

يوشع (يوشع بطرس) ٧٥

مسند
المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم في الدرر السنية

الكلمات المتبوعة بنجمة هي من اقتراحنا . وقد أوردنا بعد كل منها الصفحة التي ذكرت اللفظة فيها مفسرة إلا ما أتاح النصّ إيضاحه .

- ١ -

mangeur d'énergie	أكيلُ الطاقة • (ص ٥٩)
substitution	إبدال (استعاضة)
vision	إبصار (رؤية)
attitude	إتجاه (موقف)
identification	إتحاد ماهي • (تتمص نفسي) (ص ٣٦١)
équilibre	إتزان
excitation	إثارة
affirmation de soi	إثبات الذات • (ص ٧٤)
égoïsme	أثرة (أنانية)
respect de soi	إحترام الذات
probabilité	إحتمال
sensation	إحساس
rêveries	أحلام اليقظة
épreuve	إختبار (تجربة)

contre-épreuve	إختبار عكسي (تجربة عكبة)
empirique	إختباري
déséquilibre, trouble	إختلال
perception	إدراك حسي
conception	إدراك معنوي (تصور)
aperception (Leibniz)	إدراك باطني • (ص ٤٢٧)
volonté	إرادة
volonté de puissance	إرادة القوة
héritage psychique	إرث نفسي • (ص ٤٢٩)
réaction	إرتداد (إستجابة - رجح - ردّ عكسي)
crise	أزمة
sondage	إستبار
introspection	إستبطان (تأمل باطني)
introspectif	إستبطاني
introspectionnisme	إستبطانية (المذهب الإستبطاني)
réaction	إستجابة (رجح - ردّ عكسي - ارتداد)
raisonnement	إستدلال
esthétique	إستطيقا (علم الجمال)
esthétique sociologique	إستطيقا اجتماعية
socio-esthétique	إستطقي (علم الاجتماع) ...)
prédisposition, aptitude	إستعداد
exhibitionnisme	إستعرالية (عرض اللات)
induction	إستقراء
investigation	إستقصاء
polarisation	إستقطاب

amour sympathique	إستطافىّ • (حبّ -) (ص ١٣١)
invention	إستنباط
déduction	إستنتاج
soubassements psychologiques	أسُس نفسية
projection	إسقاط
satisfaction	إشباع
inquiétude, désordre, trouble	إضطراب
syntômes	أعراض مرضية
sublimation	إعلاء
incitation	إغراء
séduction	إغواء
estime de soi	إكبار الذات
dépression	إكتئاب
intégration, plénitude	إكتمال (تكامل - امتلاء)
inspiration	إلهام
sécurité	أمان
égo - le moi	أنا (إ -) (الذات)
égoïsme	أنانية (أثرّة)
extraversion	إنبساط
impulsion	إندفاع
harmonie	إنسجام (اتلاف)
impressionnisme	إنطباعية
introversion	انطواء
émotion	إنفعال
émotions esthétiques	إنفعالات جمالية

- ب -

intrinsèque	باطني (ذاتي)
excitant, stimulant	باحث
mutilation	بتر نفسي . (ص ١٣١)
maturation	بلوغ
structure psychique	بنية نفسية
foyer inconscient	بؤرة لاشعورية . (ص ٢٩)
foyer affectif	بؤرة وجدانية . (ص ٢٩)
milieu	بيئة (وسط)

- ت -

influence	تأثير
impression	تأثر (انطباع)
coordination	تآزر
affirmation de la personnalité	تأكيد الشخصية . (ص ٨٨)
synthèse	تأليف (تركيب)
contemplation	تأمل
introspection	تأمل باطني (استبطان)
réflexion philosophique	تأمل فلسفي
interprétation	تأويل
rationalisation	تبرير إيهامي (ص ١٤٢)
expérience	تجربة
essai et erreur	تجربة وخطأ
expérimentation	تجريب
expérimental	تجريبي

investigation horizontale	تَحَرُّقٌ أَفْقِيّ
investigation verticale	تَحَرُّقٌ صُورِيّ
constatation, vérification	تَحْقِيقٌ
réalisation de soi	تَحْقِيقُ الْمَادَاتِ
analyse	تَحْلِيلٌ
analyse thématique	تَحْلِيلٌ مَعْرُوفِيّ • (ص ٣٣)
analytique	تَحْلِيلِيّ
psychanalyse	تَحْلِيلٌ فُضَائِيّ
association des idées	تَدَاعِي الْخَوَاطِرِ
association libre	تَدَاعٍ حُرٍّ
associationnisme	تَرَابُطِيَّةٌ
hiérarchie psychique	تَرَاتُيبٌ نَفْسِيّ • (ص ٢٨٨ - ٢٨٩)
hiérarchie des valeurs	تَرَاتُيبُ الْقِيَمِ • (ص ٢٨٨ - ٢٨٩)
hiérarchique	تَرَاتُيبِيّ • (ص ٢٨٨ - ٢٨٩)
psychosynthèse (Stocker)	تَرْكِيبٌ نَفْسِيّ • (ص ٣٣)
ascétisme, abstinence	تَرَهُّدٌ
autoritarisme	تَسْلُطٌ
abréaction	تَصْرِيفٌ - تَفْرِيفٌ
antagonisme	تَضَادٌّ
catharsis littéraire	تَطْهِيرٌ أَدْبِيّ (تَنْقِيَةُ أَدْبِيَّة)
sympathie	تَعَاطُفٌ
fixation à la mère	تَمَلُّقٌ بِالْأُمِّ (عُلُوقُهَا)
motivation	تَحْلِيلٌ
compensation	تَعْوِيزٌ
interaction	تَفَاعُلٌ

désintégration	تفكك
supériorité	تفوق
traditions	تقاليد
identification	تقمص نفسي (اتحاد ماهي)
intropathie, empathie, Einfühlung	تقمص وجداني . (٢٤٠)
évaluation esthétique	تقويم جمالي
adaptation, ajustement, accommodation	تكيف
contiguïté	تلازم
orchestration symbolique (Weber)	تموجات رمزية . (ص ٢٩)
ambivalence	تناقض وجداني
excitabilité	تهيج

- ث -

instabilité	ثبات (عدم الثبات)
-------------	---------------------

- ج -

sexualité	جنسية
homosexualité	جنسية مثلية
psychosexualité	جنسية نفسية
sexuel	جنسي
essence	جوهر (ماهية)
essentiel	جوهرى

- ح -

état	حالة
nécessité interne	حاجة داخلية . ، باطنية (ص ٢٨٦)

intuition	حدس
frustration	حرمان (خيبة)
sensibilité	حساسية
hypersensibilité	حساسية بالغة ، مفرطة
anxiété	حُضْر
culture	حضارة
jugement de valeur	حكم قيمي (ص ٢٣)
indécision	حيرة (تردد)
vital	حيوي

- خ -

extrinsèque	خارجي - ظاهري
propriété	خاصة
expérience	خبرة
caractéristiques	خصائص (سمات)
plan et méthode	خطة . (ص ٢٨)
morale, éthique	خُلُقِيَّات
frustration	خيبة (حرمان)

- د -

motif	دافع
impulsion	دافع أعلى
infériorité	دونية
dynamique	دينامي
condamnation de soi	دينونة الذات . (ص ٣١٤)

- د -

égo, moi	ذات (أنا)
abnégation	ذات (إنكار) -
narcissisme	ذات (عشق ال -) (الهيام بها - النرجسية)
super ego	ذات عليا
subjectif	ذاتيّ
subjectivité	ذاتية
intelligence	ذكاء
souvenir	ذكرى
intellectuel	ذهنيّ
mentalité	ذهنية (عقلية)

- ر -

réaction	رجع (ردّ فعل - ارتداد)
désir	رغبة
censure	رقابة
symbole	رمز
spiritualité	روحانية
vision	رؤية (إِبصار)
doute	ريبة (شكّ)

- س -

raison suffisante	سبب كافٍ
bonheur	سعادة
béatitude	سعادة بالغة (غبطة)

paix, tranquillité,	سلام
comportement, conduite	سلوك
traits	سمات
dominantes (Weber)	سوالد • (ص ٢٤)
normal	سويّ
dominance	سيطرة
psychologie	سيكولوجيا (علم النفس)
psychologie analytique	سيكولوجيا تحليلية
psychologie appliquée	سيكولوجيا تطبيقية
psychologie de l'art	سيكولوجيا الفن
fluide, influx	سيال
influx nerveux	سيال عصبي
masse fluide (Bergson)	سيالة (كتلة)

- ش -

érotisme	شَبَقِيّة
quantum énergétique	شحنة من الطاقة
personne épuisante	شخص مُرهق
personnalité normale, authentique	شخصية صحيحة
persona	شخصية مُقنّعة ، مُنتَحلة
anormal	شاذّ
conscience	شعور (وعي)
sentiment d'infériorité	شعور بالدونية
sentiment de culpabilité	شعور بالذنب
pressentiment	شعور داخلي (هاجس)

sentiment d'incomplétude

شعور بعدم الاكمال

conscient

شعوري (واعي)

macération

شهوات (إماتة -)

mortification

شهوات (قمع -)

sensuel

شهويّ

sensualité

شهوية

- ص -

authenticité de la personnalité

صحة الشخصية

intégrité psychique

صحة قلبية

inhibition

صدّ (كفّ)

conflit

صراع (نزاع)

œuvre d'art

صنّيع فني

mystique

صوفيّ

mysticisme

صوفية

devenir

صيرورة

- ض -

contrôle de soi

ضبط النفس

nécessité

ضرورة

implicit

ضمّني

étiolement

ضمور جنسي

conscience

ضمير

- ط -

énergie

طاقة

libido (Freud)	طاقة جنسية
caractère	طبع ، خلق
procédé, méthode	طريقة (نهج)
infantile	طفولي
quiétude, sécurité	طمأنينة
ambition	طموح
intention	طوية
ombre (C. Jung)	طيف . (ص ٢٦)

- ب -

phénomène	ظاهرة
circonstances	ظروف
conjectural	ظني (تخميني)

- ج -

habitude	عادة
sentiment	عاطفة
facteur	عامل
umwelt (Uexküll)	عالم محیط بالشخص . (محیط نفسي) (ص ٥١)
génie	جفري (نابغة)
agressivité	عدائية (عدوانية)
exhibitionnisme	عرض الذات (استمرائية)
névrose	عصاب
symptôme	عرض مرضي
accidentel	عرضي
intellect	عقل

conscient	عقل واع (وعي - شعور)
inconscient	عقل باطن (لاوعي - لاشعور)
rationaliste	عقلاني
rationalisme	عقلانية
rationnel	عقلي
raison suffisante	علة كافية (سبب كافٍ)
esthétique	علم الجمال (إستيقا)
science normative	علم معياري
psychologie analytique	علم النفس التحليلي
processus mental	عملية عقلية
élément	عنصر
clinique	عياديّ • (ص ٢٠)
concret	عيني

- غ -

finalisme	غائية
fin, but	غاية
instinct	غريزة
instinct de conservation	غريزة البقاء
séduction	غواية
altruisme	غيرية

- ف -

immoral	فاسد (فاسق - لا خلقيّ)
activité	فاعلية (نشاط - حيوية)

individualité	فردية
hypothèse	فرضية
physiologie	فيزيولوجيا
inné	فطري
action	فعل
idée fixe	فكرة متسلطة
philosophie de l'art	فلسفة الفن
surréalisme	فوقواقعية
phénoménologie	فينومينولوجيا (مذهب الظاهريات)
phénoménologique	فينومينولوجي

- ق -

règle, norme	قاعدة
habilité	قدرة
angoisse	قلق
angoisse de séparation	قلق الانفصال
répression, suppression	قمع
valeur	قيمة
valeur qualitative	قيمة نوعية

- ك -

refoulement	كبت
contenir, réprimer, maîtriser	كبح
inhibition	كف (صد)
perfection morale	كمال خلقي

essence	كنه (ماهية - جوهر)
cosmique	كونيّ
existence <i>psychique</i>	كيان نفسي
ontologique	كيانيّ
qualité	كيفية
être	كينونة

- ل -

motifs (Weber)	لازمات . (ص ٣٩٥)
inconscient	لاشعور
inconscient collectif (C. Jung)	لاشعور جمعيّ
inconscient	لاوعي
indifférence, insouciance	لامبالاة
plaisir	لذة
hédonisme	لذة (مذهب لا -) (المتعبدية)

- م -

essence, quiddité	ماهية (جوهر)
principe	مُتَبَدِّة (مذهب اللذة)
hédonisme	مثل أعلى
idéal	عالم نفسيّ
champ psychique	عبد خالصة
amour pur	محور نفسي . (ص ٢٠)
thème (Weber)	مُتَبَدِّة
résultants	

adolescence	مراهقة
palier biologique (Stocker)	• مرتبة بيولوجية (ص ٢٨٨)
palier sensuel (Stocker)	• مرتبة حسية (ص ٢٨٨)
palier animalo-végétatif (Stocker)	• مرتبة نباتية حيوانية (ص ٢٨٨)
palier de l'amour (Stocker)	• مرتبة المحبة (ص ٢٨٩)
palier de la connaissance et de la justice (Stocker)	• مرتبة المعرفة والعائلة (ص ٢٨٨)
tempérament	مزاج
autonome	مستقل بذاته
communion	مشاركة
destin	مصير
adéquat	مطابق (مكافئ)
absolu	مطلق
faux absolu (W. Daim)	مطلق زائف
vrai absolu (W. Daim)	مطلق صحيح
données immédiates	مُعطيات مباشرة
complexe (Freud)	مُعقد
complexe d'œdipe	مُعقد أوديب
complexe de castration	مُعقد الخِصاء
fallacia	مُغالطة
paradoxe	مفارقة
factice	مُفتعل (مُصطنع)
concept	مفهوم
résistance	مقاومة
réquisit, exigence	مُقترضي

refoulé	مكبوت
acquis	مُكْتَسَب
analogie	مُثَالَّة
virtuel	مُمْكِن (بالقوة)
stimulus	مُنْبِه
stimulus adéquat	مُنْبِه مناسب
aberrant	مُنْحَرِف
logique	منطق
passif	مُتَعَمِّل
gènes héréditaires	مورثات
attitude	موقف (اتجاه)
métaphysique	ميتافيزيقا (ما بعد الطبيعة)
inclination, penchant	مَيْل

- ن -

narcissisme	نرجسية (الهيام بالذات ، عشقها)
tendance	نزعة
humanisme	نزعة إنسانية
caprice	نزوة
activité supérieure	نشاط أعلى
relatif	نسبي
système	نظام (مذهب)
théorie	نظرية
pénétration sociale	نفاذ اجتماعي
âme organisée, équilibrée	نفس منتظمة متزنة

psychique	نفسى
critique psychanalytique	النقد التحليلي النفسي
régession	نكوص (تنهقر)
type	نمط (نموذج)
archétype	نموذج رئيس
méthode	منهج (طريقة)
spécificité	نوعية

- ٨ -

pressentiment	هاجس (استشعار)
don de soi	هبة الذات (إيثار)
but	هدف
passion	هوى

- ٩ -

réalité	واقع
actuel	واقعي (بالفعل)
affectif	وجداني
affectivité	وجدانية
panthéisme	وحدة الوجود
milieu	وسط (بيئة)
Umwelt (Uexküll)	وسط ذاتي سيكولوجي . (ص ٥١)
capacité	وسع (كفاية)
obsession	وسواس
fonction psychique	وظيفة نفسية . سيكولوجية

re-naissance

ولادة جديدة

illusion

وهم

illusoire

وهمي

- ي -

certitude

يقين

لومستهم بيسانيتهم
للهم الوفاء في حياة جبريل

السنة	وقائع شخصية	صدقاته العاطفية	أحداث خارجية
١٨٨٣	مولده		
١٨٩٥	هجرته إلى بوسطن (١)		
١٨٩٨	عودته إلى بيروت وبسده		
	دراسة في معهد الحكمة		
١٨٩٩		بداية تجاربه العاطفية مع حلا الصاهر وسلطانة ثابت	
١٩٠٢	إنهاء دراسته في معهد الحكمة وفاة أخته سلطانة		
١٩٠٣	عودته إلى بوسطن وفاة أخيه بطرس ثم أمه		
١٩٠٤	مرض فته الأول في بوسطن استراق رسويع في المرض الثالث		
١٩٠٥			
١٩٠٦			
١٩٠٧			
١٩٠٨		توطد صداقته لحاسكل وميتلين وبداية تبادلته الرسائل مع الأولى	إعلان الدستور العثماني
١٩٠٩	تعرفه إلى رودان بداية اطلاعه على إنتاج نيتشه ورينان وبلا يك وفاة والده		
١٩١٠	التفاقه الربيعاني في بنارس قبول لوحته « الحريف » في معرض الربيع الباريسي عودته إلى بوسطن		
(١) بعض الباحثين يبين تاريخ هجرته سنة ١٨٩٤ وليس في الأمر قطع .			

السنة	وضع المؤلف	صدر المؤلف	تطور المؤلف عبر التاريخ
١٨٨٣			
١٨٩٥			
١٨٩٨			
١٨٩٩			
١٩٠٢			
١٩٠٣	بواكير دعة وإبشامة (١)		بداية مرحلة الحب
١٩٠٤	الموسيقى (١) عراس المروج (١)	بواكير دعة وإبشامة	
١٩٠٥		الموسيقى	
١٩٠٦	الأرواح المنردة (١)	عراس المروج	
١٩٠٧	فلسفة الدين والتدين		
١٩٠٨	بداية العواصف ونهاية دعة وإبشامة (٢) الأجنحة المتكررة في صيتها الأول (٣)	الأرواح المنردة	بداية مرحلة القوة
١٩٠٩			
١٩١٠			
(١) تاريخ ترجيبي . (٢) باستثناء قطعتين هما ، في أرجع الفن ، صوت الشاعر و و يوم مولدي . كتبهما في باريس . (٣) أدخل اليه بعض التعديلات بين ١٩٠٨ و ١٩١١ .			

السنة	وقائع شخصيته	علاقاته العاطفية	أحداث خارجيته
١٩١١	تأسيس رابطة الخلفاء الذهبية		
١٩١٢	انتقاله إلى نيويورك		
١٩١٤		أول رسائل مي زيادة اليه	نشوب الحرب العالمية الأولى
١٩١٥		بداية صداقته لماري غوري	
١٩١٧			الثورة الروسية
١٩١٨			نهاية الحرب العالمية الأولى
١٩١٩			
١٩٢٠	تأسيس الرابطة القلمية		
١٩٢١	بدء تدهور صحته (١)		
١٩٢٣			
١٩٢٤	بداية صداقته لبربارا يانغ		
١٩٢٥			
١٩٢٦			
١٩٢٨			
١٩٢٩			
١٩٣٠			
١٩٣١	وفاته		
١٩٣٢			
١٩٣٣			
(١) انحراف صحته كان مزمنًا .			

السنة	وضع المؤلف	صدر المؤلف	تطور العمل عبر انتاجه
١٩١١	خطاب الخلفات النعبية		
١٩١٢	بداية المجنون	الأجنحة المتكسرة	
١٩١٤		دعوة وابتناء	
١٩١٥	بداية آله الأرض		
١٩١٧			
١٩١٨	نهاية المجنون والمواصف - المواكب - بداية السابق والنبي	المجنون	بداية مرحلة المسبة الروحانية وتوازن المتناقضات
١٩١٩		المواكب	
١٩٢٠	نهاية السابق	المواصف - السابق	
١٩٢١		إرم ذات اللسان	
١٩٢٣		البدائع والطرائف - النبي	
١٩٢٤			
١٩٢٥	بداية رمل وزبد (١)		
١٩٢٦	نهاية رمل وزبد	رمل وزبد	
	بداية يسوع ابن الانسان		
١٩٢٨	نهاية يسوع ابن الانسان	يسوع ابن الانسان	
١٩٢٩	نهاية آله الأرض		
١٩٣٠	الثالثه (٢)		
١٩٣١	تمشيلة ملك البلاد ورامي الفض (٢) - حديقه النبي (٣)	آله الأرض	
١٩٣٢		الثالثه	
١٩٣٣		حديقه النبي	
(١) إلا شتائاً قليلاً .			
(٢) تاريخ تراجيكي . (٣) لم ينجزه فأقته برباره يانغ .			

ملاحق

دراسات جبروت النفسية
على ضوء البادع والراشيات

مبرر هذا الملحق

أُنجزت دراسة « جبران خليل جبران » وناقشتها ^(١) ، وأنا على ثقة من الأسلوب المنهجي العلمي الذي اتبعته والنتائج التي أفضى إليها . ولكن كان في مخططي أن أقرن هذه الدراسة « بمدخل إلى سيكولوجيا الفن » ، استغراقاً لإعدادة مني زمناً مديداً ، وفيه عرضت المناحي السيكلوجية الرئيسة المختلفة المطبقة على الفن وتقدتها ، وخلصت من ذلك كله إلى نظرة تحليلية تأويلية عامة ومنهج تجريبي قد يصلح تطبيقهما على أية دراسة من هذا النوع . لكن ظروفًا معقدة اقتضت مني فصل المدخل ، عنها وإرجاء طباعته . وإذا لمست تسليماً أعمى وإيماناً شبه ديني بالمذهب الفرويدى لدى بعض المشرفين على الدراسات النفسية في جامعاتنا ^(٢) ، فقد رأيت أن

(١) جرت مناقشة « جبران خليل جبران : دراسة تحليلية - تركيبية لأدبه ورسمه وشخصيته » في معهد الآداب الشرقية - بيروت ، نهار الاثنين الموافق التاسع والعشرين من تشرين الأول ١٩٧٣ ، واستغرقت أربع ساعات . وقد اشترك فيها الدكتور جبور عبد النور وسعيد البستاني وأسمد علي ومنير شمعون ، وأدارها ميثاق الآلار ، وهم يتوزعون اختصاصات في الآداب والفلسفة وعلم النفس . وما أظنه الدكتور عبد النور أن هذه الدراسة تدخل في نطاق المباحث الرائجة القليلة جداً في المذاهب الغربية ، والنادرة في المؤلف العربي . كذلك عدها الدكتور بستاني من « الدراسات المثالية » ، واعتبر صاحبها « رائداً في هذا الميدان » . وقد منح صاحب الدراسة بالاجماع شهادة الدكتوراه في الآداب برتبة شرف أول .

(٢) لقد أعلن الدكتور منير شمعون - وهو رئيس قسم علم النفس في المعهد العالي الفرنسي ببيروت - في ختام نقاشه لدراسي : « أن لا خلاص إلا بفرده وأن لا مذهب يصح اعتناؤه خارج مذهبه مظهرًا لهذا التصريح موقفاً تنسيفياً ، غير موضوعي . وقد رددت على قوله بما يجب في أثناء المناقشة . لكنه ، على موقفه هذا ، لم يجب ثقته عن دراسي ، بل انحرف في الموافقة الإيجابية عليها .

ويبدو أن لهذا الموقف التنسيفي أشيائه ، أيضاً ، في قسم علم النفس في الجامعة اللبنانية . وحسبنا النظر في الدراسات التي وضعها الدكتور نزار الزين ، رئيس قسم علم النفس في الجامعة الأنطونية

من واجبي ، بعد أن فرغتُ من طبع الدراسة ووزعتُ عدداً كبيراً من نسخها ، أن أتدارك الأمر ، فألحق بأعدادها الباقية هذا « الملحق » الذي لا زمتني فكرته كما جسر ضميري .

لست أنكر أن في الملعب الفرويدي جوانبٌ صحيحة أبدتها المذاهبُ النسبية المختلفة ، ولا سيما تأثير العقل الباطن في سلوك الإنسان وإنتاجه ، وكذلك تأثير الطفولة . وقد اعتمدتُ بعضها في عدة مواطن من دراستي . ولكنني كنت حريصاً دائماً على عدم الانسياق في تيار التخمينات والفرضيات والمسلّمات الفرويدية ^(٣) ، إذ إنها ليست حقيقة مُتَزَلَّة ، خصوصاً أن

= الذكر ، لو الرسائل الجامعية التي كان موجهاً لها حتى تتحقق خطورة الأمر . وأكثني بالالمام إلى دراسة السيدة ناعمة الطويل : « شخصية جبران خليل جبران ، دراسة نفسانية » (١٩٧٣) التي قدمت لنيل دبلوم الدراسة العليا في علم النفس ، ففيها من التحليلات والتعليقات الفرويدية الاجتياحية ، الموجهة بصورة مسبقة ، ما يمسح روحانية جبران وسمو فنه ، دونما برهان . ولست أدري من يتحمل القسط الأكبر من ثبوت هذا العمل : أهو فرويد حيث أم المشرّف على الدراسة أم صاحبها نفسها ؟ فهي تستند مثلاً ، إلى رسم « يد القدرة الأبدية » وعين العنانية الأمومية (انظر ص ١٨٩ - ١٩٠ من دراستنا) - وهو من أسس رسوم روحانية ، وفيه تعبير عن حنين الأرواح الدائم للانسجام بالأبدية المشتلة بيد القدرة المبسطة تتوسطها عين العنانية الأمومية - لتؤكد أنها اكتشفت فيه وفق مقررات فرويد ، « نزعة التخصّض » (masturbation) ! كذلك تستشف من رسم « الصراع النفسي » (انظر دراستنا ، ص ٣١٥ - ٣١٦ و ٣٢٠) « نزعة لواطية » (راجع كتابها ص ١٢٠ و ١٣٥) . ولا يغني ما مثل هذه التحليلات الاجتياحية - التي قد يسوقها صاحبها وهو لا يفكر أية نية سيئة - من تأثيرات هدامة في سلامة البحث الموضوعي والأخلاق ، وفي روحية حضارتنا .

(٣) ان الوثائق التي جعلها فرويد منطلقه في دراساته التحليلية لم تكن وسائل يخلص منها إلى نفي أو إثبات ، بل كانت أجهزة لتبرير فكرة رسخت في ذهنه مسبقاً . فالنتج الذي أرادته تجريبياً أسس لديه خادم النظر ، وظولته محصورة في تأكيدها عبر الفن ، كما جبر النشاطات الانسانية الأخرى ، وهكذا فقد صفة التجريبية الأمينة ليندر تسفياً . من حواشي ذلك وقوع فرويد في خطأ جسيم يبي عليه القسم الأكبر من دراسته حول ليو ناردو دالشي (راجع دراستنا الأساسية ، ص ١٨٣ ، الحاشية (٢)) .

هذه التجريبية التسفلية جعلت التحليلات الفرويدية ، من الوجهة السيكولوجية لا تأتي بأي جديد حقاً حسبما يقول فريبير ، « ذلك بأنها تكشف مفرد أوديب حيث كان ينتظر اكتشاف

المذاهب النفسية التي باتت تُناهض فرويد وتلخص الكثير من نظراته تتكاثر يوماً بعد يوم .

إن فرويد لم يقف إلا على المرتبة الحيوانية السفلى من الكيان البشري ، وبها حصّر كل هذا الكيان زاعماً أن ليس من طبيعي في الانسان إلا حياته الغريزية الدنيا ومظاهرها ، وأن جميع النشاطات الحضارية الراقية من دين وخلق وفكر وفن مصدرها الغريزة الجنسية . وهكذا فإن الطبقات الفكرية والخلقية في الكائن البشري التي تعلو المرتبة الغريزية السفلى ، والتي تنطوي عليها أيضاً الطبيعة البشرية ، نظر فرويد اليها كمناصر غريبة . فالتحليل النفسي ، على حد قول شتوكر ، « تورط في الخطأ منذ نقطة انطلاقه : ففرويد لم يشأ الاعتراف إلا بمستوى الانسان البيولوجي كواقع طبيعي حقيقي . وبناء على ذلك ، فإن ما وضعه الطبيب النمساوي ، على النجاح الصائب الذي أحرزه ، يبقى غير معقول . فالاعتراضات أخذت تردّد حتى بين أنصاره . ذلك بأنهم تنبهوا إلى أن فرويد لم يُحسن طرح القضية ، إذا كُفي في كلامه على الإنسان بنظرة بترت هذا الانسان ، قاطعة رأسه ... وبما أنه لم يكن يُقر له إلا بحياة غريزية فقد كان متعنّداً عليه أن يمضي في

- معقد أوديب . ومن الوجهة الاستطيقية ، بقيت الحلول والتأويلات مجرد تخمينات لا يعرف أصلها من النجاح لافتقارها تحليلياً ، إلى أساس واقعي » (WEBER, La Psychologie de l'Art, p. 84) . فالتأملات الفرويدية تنمو غالباً في حلق متفرغة : اعلان اكتشاف « معقد لدى فنان ، والسبب وجود آثار رمزية له في قصيدة أو صنيع فني . ولكن ما الذي يثبت أن تلك الآثار ترمز حقاً إلى ذلك المعقد ؟ أعلن بعض المحللين اكتشاف « معقد الخساء » لدى مالارميه ، زاعماً أن آثاراً رمزية له تظهر في « نشيد القديس يوحنا » . ولكن ما الذي يؤكد تأكيداً حاسماً أن تلك الآثار ترمز إلى معقد الخساء ؟ إن هذه الطريقة واضحة في النتيجة التي أنفست إليها في دراسة فرويد لليوناردو : منح المحلل ذكرى الفنان - الوحيدة التي اجتمعها متطابقاً لبعده - معنى رمزياً يتسجم مع فكرته ، وأد سقط الرمز بسقوط الرموز إليه أنهار البناء كله . ولكن فرويد لو تدارك خطأه ، لما كان يمجّز عن منح الفكرى معنى آخر أو عن العثور على مستندات أخرى يمنحها تأويلاً يتسجم مع مفهومه ، وهكذا يسخر النتيج التجريبي والتقصي لتبرير نظره يدافع عنها ، وليس لاكتشاف حقيقة واقعة فضلاً .

شيد بناء كبير ينتهي إلى التوفيق بين نظرنه كبيولوجي وحقيقة الحياة الانسانية المتكاملة كما تنبجس من البيولوجيا وتتخطاها^(٤). وقد جرأت « نفسانية » فرويد المادية عدة مذاهب سيكولوجية على الانخراط في اتجاهات مادية متضاربة ، حتى ان كثيرين من الباحثين في علم النفس وقفوا في هذه الاحولة ، فاذا هم ينشئون علم نفس « دوغما نفس »^(٥) ، « مفقدين » هكذا ، الحياة الباطنية كيانها ومعناها .

تجاه هذا التيار المادي العاني كان لا بد من نظرة تُعيد إلى علم النفس معناه الأصلي ولا تتخرج من قترنه بمعرفة روحية تتخطى في منطلقاتها تجارب الطفل لتستلهم أقباسها من الوعي^(٦) ، إذ يتمذر ، واقمياً ، الكلام على النفس ككيان باطني موضوعي يقابل موضوعية العالم الخارجي ، من غير الكلام على الروح بمعناها الميتافيزيقي^(٧) .

STOCKER, De la Psychanalyse à la Psychosynthèse, p. 8. 9. 57. (٤)

R. DALBIEZ, La Méthode Psychanalytique et la Doctrine Freudienne,

t. II, chap. VI : La psychanalyse et la vie de l'esprit, p. 329-386.

D. HUISMAN, Encyclopédie de la Psychologie, t I : A. VERGEZ, p. 17-18. (٥)

C. G. JUNG, L'homme à la découverte de son âme, p. 49-54. انظر أيضاً :

(٦) أي من المعرفة غير البشرية التي ليس مصدرها العقل الانساني ، بل طاقة روحية كونية تتجاوز قدرتها الإدراكية إمكانات العلماء بمراحل شاسعة . ولئن ظهر بعض التناقض والمفارقات بين ما سمي « حقائق دينية » في الصور الماضية ، « وحقائق علمية » في الصور الحديثة ، فالإزام الموضوعية يوجب ان ننظر إلى الأمر كأنه يبين الاختيار الأسئلة التالية : أولاً ، هل ما يسمى « حقائق روحية » أصله الوعي فعلاً ، أم أن النقل الشفهي والتفارق الزمني والمستوى الذهني للشعب المعني ، آنذاك ، أسهمت كلها في تحريف « الحقيقة الروحية » أو صلبها بمصبغة جديدة أنفدتها منهاها الأصل ؟ ثانياً ، هل ما يسمى « حقيقة علمية » هو ، فعلاً ، حقيقة ثابتة غير قابلة للتغير والتعديل ؟ أم تعدل « نظرية النسبية » مفاهيم سابقة كثيرة كان ينظر إليها حتى الأسس القريبة « كحقائق علمية » ثابتة ؟

(٧) كبرون من السيكلوجيين تنبهوا لتغير الكلام على الشخصية أو النفس ككيان باطني موضوعي من غير أن يأخذوا بعين الاعتبار معنى الروح الميتافيزيقي ؛ منهم شتوكر وفالديوز وبرلو وهورنغ وبرفسون في مناحي السيكلوجية . انظر بمثابة :

C. G. JUNG, L'homme à la découverte de son âme, p. 35.

زِدْ إلى ذلك أن المذاهب النفسية القائمة لم يستقم أي منها ، بعد ، حقيقة علمية نهائية ثابتة ، إذ إنها ما تزال موضوع جدال وقشاش شديد ، وغاضعة للامتحان وغربلة الزمان ، كذلك فالمطلعون على تطور علم النفس مدى قرن ونصف ما يزالون يرون أن اليوم الذي قد ينظر فيه جميع السيكولوجيين النظرة نفسها ، ويرضى كل منهم بعمل الآخرين ، يرامى جد بعيد^(٨) ؛ فما الذي يمنع ، والحال هذه ، أن نستفيد ، بنية الكشف عن حياتنا الباطنية وتحليلها ، من كل معرفة إلى أي مصدر انتمت ، إذا حملت لنا ضوءاً جديداً بإمكانه جلاء غوامض لم تحلها التفسيرات النفسية^(٩) الراهنة ؟ هذه الافادة تصبح ضرورة ملحة إذا ثبت بالبراهين الإعجازية الملموسة الحاسمة ، الخارقة لقوانين الطبيعة والمتخفية قلرة الانسان وعلومه ، أن «الوحي» مصدره طاقة روحية كونية ليس العقل البشري بالنسبة إليها إلا كشعاع ضئيل بالنسبة لشمس عظيمة وهاجة^(١٠) .

في الاسلام أن «الروح» أو الملاك جبريل هو الذي أوحى إلى النبي العربي الكريم آيات القرآن الشريف . ولما كان الوحي عملية إلهامية باطنية ذاتية لم تتجاوز شخص الرسول العربي ، فقد اتهمه المشركون والكافرون - وكانوا يومئذ الأكرية - باختلاق القرآن وافتراء آياته . فكان ردُّ الروح : «أم يقولون افتراء قلُّ فأتوا بعشر سور مثله مُفْتَرَيَاتٍ وادْعُوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين . فإلَّم يستجيبوا لكم فاعلموا انما أنزل بعلم الله وأن لا إله إلا هو فهل أنتم مسلمون»

J. C. FLUGEL, A Hundred years of Psychology, revised by D. J. WEST., (A) Methuen, London 1964, p. 358.

C. G. JUNG, L'homme à la découverte de son âme, p. 54. انظر أيضاً :

(٩) المعجزات الخارقة لقوانين الطبيعة لا يمكن أن يعتبرها المتكبر العلم إلا برهاناً حاسماً على وجود قلرة روحية تعطل العالم المادي ولا تخضع لتوايس الأرضية . انظر :

C. S. LEWIS, Miracles, Collins, Fontana Books, 1968, p. 946.

(سورة هود ، آية ١٣) ^(١٠) .

لقد أراد الروح ، أن يخاطب الرسول العربي عقول قومه حتى ينتبهوا لكون السور القرآنية ببلاغتها ومضامينها معجزة "منبوذة" حقيقتية تحرق العادي المألوف عند العرب وتخطي مستواهم الأدبي والذهني ، عصرئذ ، وليس في مقدور البشر صنع المعجزات . لكن عقولهم الغافلة وقلوبهم المختوم عليها رفضت هذا البرهان ، وطالبت النبي بمعجزة مادية ، "كأن" تنزل الآيات مكتوبة في القراطيس بغير يد ، حتى يصدقوا بالوحي . فكان جواب الروح : " ولو نزلنا عليك كتاباً في قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا إن هذا سحر مبين " (سورة الأنعام ، آية ٧) . ذلك لأنهم غلاظ الأفهام لا يستطيعون أن يُمَيِّزُوا بين المعجزة الحقيقية والشعوذات الكاذبة ^(١١) . والله قادر على أن يفعل ذلك ، ولكنه عز وجل ، هو الذي

(١٠) وردت آيات أخرى ماثلة ، منها : " وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بصورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين . فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين " (سورة البقرة آية ٢٣ و ٢٤) .

(١١) إن السحر رفيق الجهل وعدو العلم ، وبذريته الجوفاء السقيمة لا تنو إلا في تربة الضلغ الذهني والفتاوة . وهذا الصمد يقول برغسون : " هيئات أن يكون السحر قد بدأ ظهور العلم كما زعموا ، فهو الحاجز الأكبر الذي كان على المعرفة المنهجية أن تكافح ضده " .

H. BERGSON, Les deux sources de la morale et de la religion, P.U.F., 1967, p. 181.

ولا نكون مخطين إن نحن قلنا عن المؤمنين بالسحر في القرن العشرين إنهم ما يزالون يعيشون في عصر " ذهني سحري " ، ذلك بأن فرايزر قد استنتج من دراسته لمظاهر السحر في العالم بأنه طبيعي أن يسبق في الجانب للذهني من الثقافة الإنسانية " عصر سحري " ، كما يسبق في الجانب المادي عصر حجري . انظر :

J. G. FRAZER, The Golden Bough, A Study in Magic and Religion, Ab. ed., London, Macmillan & Co., 1963, p. 63.

وليس أبعد من الحقيقة من أن نلهم السحر ، شأن بعض الجاهلين لقوانين العلم ، كقوله

بُوت المواقف ويختار معجزاته .

إن ما طالب به الكفار والمشككون منذ نحو ١٤٠٠ سنة ، شرع « الروح »

= تستطيع أن تؤثر في أبصار الناظرين وجعل حواسهم ، إذ يزعمون أن فئة من الناس يمكنها بقدرة الإيماء أن تخلق أشكالاً وأصواتاً تكون موجودة باعتبار الحواس وغير موجودة باعتبار الواقع . فهذا يكذب المنطق الصحيح ومعنى الإيماء العلمي . فالسحر إن لم يكن مجرد وهم بدائي مرده إلى الجهل والتخلف العقلي ، يكون مجرد خدعة أو حيلة يلجأ إليها الساحر المزعم إليها ليهي الناظرين من دقة مراقبته ، ويحسبهم يتوهمون أن ما يطلع بنفث عليهم إنما وجهه بغير سبب طبيعي ، بينما تكون سلسلة الأسباب الطبيعية المادية هي التي ولدتها ، ولكنه بخفة يده وأصالة السرعة الاحتمالية حاول صرف الانتظار عن متابعتها . وانه لما يشرف العقل العربي أن يكون لفرقة الممثلة المتقلبة - وقد ظهرت منذ أكثر من ألف سنة - موقف من السحر مماثل موقف العلم الحديث « فنكر وجوده كقوة ضلية إنكاراً تاماً ؛ وقد ظهر ذلك في « تفسير الكشاف » للزعروري .

وإذا جمعت ألفاظ « السحر » ومشتقاته ومرادفاته الواردة في الكتب القديمة ، وقورنت معانيها بذكاء ودقة ، ونظر في الدلول التي حملها إياه الوحي لا الناس ، لما كان له من معنى غير الوهم والكذب والمكر والخداع . (انظر في القرآن الكريم ، سورة الطور : ١٢ - ١٤ ؛ سورة يونس : ٧٦ و ٧٧ ؛ سورة طه : ٦٩ ؛ سورة المؤمن : ٨٨ و ٨٩ - وانظر في التوراة : ثنية الإشتراع ١٨ : ١٠ - ١٥ ؛ أشعيا ٤٤ : ٢٤ ؛ ٤٧ : ١٣ و ١٤ ؛ ٨ : ١٩ و ٢٠ ؛ زكريا ١٠ : ٢ ؛ أرميا ٢٧ : ٩ و ١٠ ؛ ٢٩ : ٨ و ١٩ ؛ ميخا ٣ : ٨ - وانظر سفر التكوين ٤١ - ٨ ؛ دانيال : الإصحاحات الثاني والرابع والخامس) . والإيمان بالسحر يلبس اليوم لدى الكثيرين من « المثقفين ! » ثوبا حديثا يسونه تارة الإيماء التسليطي ، وطورا التنويم المغناطيسي ، ومرة اليوغا والفكرية ، ومرة أخرى موجبة طبيعية ، وغير ذلك من تسميات موهبة ؛ وهم بذلك يريدون تحاشي الأخطى بمنى السحر القديم لئلا يقال عنهم متخلفون . وأما التسميات الحديثة مجرد أفتنة يظنون بها الوجه القديم . هذه الأكاذيب الممارسة العالمية الرواج يمكن الإطلاع على أسرارها في المراجع الآتية :

M. BOLL, L'occultisme devant la science, P.U.F.

J. HLADIK, Prestidigitation et illusionnisme, P.U.F.

R. TOCQUET, Tout l'occultisme dévoilé, Médiums, Fakirs, Voyantes, Amiot-Dumont.

DICKSONN, Mes trucs dévoilés, Albin Michel.

M. GARDNER, Les magiciens démasqués, Presses de la cité, 1966, p. 343-360 : EBP & PK.

بحقته في الجلسات الروحية الإعجازية التي يقفها الدكتور داهش (١٢) ،

(١٢) أول الجلسات الروحية عقدتها الدكتور داهش في ٢٣ آذار ١٩٤٢ ، في بيروت ، بحضور المحرم الأديب يوسف الحاج والد الدكتور كمال الحاج استاذ الفلسفة في الجامعة اللبنانية. وتمتد الجلسات الروحية في ضوء النهار أو تحت الأنوار الكهربائية . وليس فيها تعميم أو حرق بخور أو سلك ستائر أو تجمعات أو صلوات . والمميزات تحدث فيها بمنتهى البساطة والوضوح . وقد تمس لي حضور عدة جلسات حدث في أثناءها كثير من المظاهرات الروحية المارقة لقوانين الطبيعة .

ولد الدكتور داهش في مدينة القدس سنة ١٩١٢ ، ونشأ في لبنان حيث أطلق دعوته الروحية. وما أن ناهز الخامسة عشرة من عمره حتى أخذت الصحف العربية تتحدث عن مبادراته ، فآمن بدعوته كثيرون من المثقفين ، بينهم الشاعر الفلسطيني مطلق عبد الخالق صاحب ديوان الرحيل ، والشاعر الزحلي سليم ديموس ، والأديبة الفنانة ماري حداد رئيسة نقابة الفنانين اللبنانيين سابقا ، وهي معروفة بتأليفها في اللغة الفرنسية ، ولها عشرات الفوحات الزينية الفنية . واحتاق السيدة حداد مع أفراد أسرته المبادئ الداهشية ، سنة ١٩٤٢ ، أثار نقمة شقيقته السيدة لور شيحا حقيقة الشيخ بشارة الخوري رئيس الجمهورية اللبنانية الأسبق (١٩٤٣ - ١٩٥٢) ، الأمر الذي دفعها الأخير إلى الاتفاق مع بعض المقامات الدينية على اضطهاد الدكتور داهش وسجنه ونفيه وتلفيق الشائعات المغرضة لتليل مته . لكن صاحب الدعوة الجديدة ازداد ، على الزمن ، متنة وقوة ، ونشطت دعوته مجاوزة البلاد العربية إلى مختلف أنحاء العالم .

وفي حين كانت الأقلام في لبنان ملجومة أو مأجورة ، تعالت أصوات جريئة في المهجر تندد بالظلم الذي يصيب الحق ويقمع الحريات ويهزج بالدهاشيين الأبرياء في السجون . وكان من أبرزها صوت جبران سوح صاحب مجلة المختصر والصادرة في بوانس اميرس . فانه تتبع قضية اضطهاد الداهشية ، وسجل مراحلها ودقائقها بأمانة . قال في العدد السابع من السنة الثانية (تموز ١٩٤٧) ، ص ٣ :

«وماري حداد... تلك التلميذة الأمينة لمبادئ الداهشية، هي شقيقة زوجة الرئيس (بشارة الخوري) . ويمكننا بهذه الصلة أن نحصل على ما تريده من سيادة ونفوذ فيما لو انفصلت عن داهش . ولكن ، لا . ان هذه السيدة لا تستل بأحد ، ولا هي طالبة سيادة ونفوذ . انها لا تتنازل عن حريتها لقاء كل ما في العالم من زخرف وجه . حرية القول والفكر والمقيدة ، هي تتافع عنها حتى الموت .

وها هي في السجن تمذب وتهان وتجلدها هي تستلث فوصل صوتها إلى الأقطار الأمريكية.»

« هي تطلب حرية رجل أوجد قضية لسعادة العالم ، وهي تعتقد هذه القضية وتصفها . هي لا تريد أن تخون ضميرها ، لا تريد أن تكون مستعبدة . هي تكتب تاريخ الحرية بدسها ليقرأه الذين بعدنا . ولا شك أن أبناء العربية بعد خمسين سنة سوف يقرأون هذه السطور :

« من نحو خمسين سنة تطهت المرحومة ماري حداد وسجنت لأجل الحرية . ثم جلست وسأل فيها ، فاستفأنت بجميع مفكري العرب وكتابهم وشرائهم وصحافيوهم . ولكن صوتها كان صرخة في واد لأن رجال الفن في ذلك العهد كانت حواسهم من تبن وغشائهم من أقنار ... » وبعد أن يتحدث عن مي زياده (ماري زياده) وسجنها ظلماً ، ينتقل إلى الحديث عن ماري حداد ، فيقول في الصفحة ١٤ و ١٥ من العدد نفسه :

« ومن غرائب الصدف أن هذه السجينة الثانية اسمها ماري أيضاً . أما الصدفة الأخرى من كل ذلك فهي أن الأدب العربي يمثل الآن نفس الدور الذي مثله مع الأول : فهو لم يتقدم خطوة واحدة في هذا الباب . لم يتحرك لدفاع عن هذه المظلومة . والأرجح أنه لن يتحرك . ولكنه بدون شك سيشتي في جنازتها ... وسيرثها ، لأن صناعة الكيالك وقرئاء سياسة في لبنان وفي كل الاقطار العربية ... ولعلها الصناعة الوحيدة التي يستطيع أن يفتخر بها الأدب العربي ... »

ونحن نكتب هذه السطور لا لنطرحها على باب الأدب العربي طالين نجدة . لا ، اتنا لا نضع الوقت بتحريك جثة . ولا نحن نكتبها لنطرحها على أبواب محاكم الجرف طالين عدلا وإنصافاً . لا . اتنا نعلم أن الجساسة استقلوا ونحروا من كل سلطة أجنبية - وغير أجنبية - فصار الأمر والنهي بأيديهم ... ولكننا نكتب هذه السطور لتاريخ . فالذين يزورون لبنان ، بعد عصر طويل ، يجب أن لا ينسوا زيارة هذا الباستيل ... هو أثر تاريخي عظيم لا يقل دوة عن صين والأرز .

يجب على الزائر أن ينظر تلك المفردان جيداً ، ثم يذكر أن تحت ذلك السقف أقامت أكبر كاتبات الشرق في ذلك الجيل ، لأن أباهما جنى عليها جنائين : أوجدها ، وترك لها بعض أملاك . وقد سجنتم متهمة بالجنون . ولكن ذلك الجنون لم يذهب بمقلها بل بجياها . هناك انكسر ذلك القلم الذي كان يسطر للبهان والسرور ، وهناك أمين الأدب إهانة تستحق التسجيل في تاريخ جميع آداب العالم .

ويذكر الزائر أيضاً أن بين تلك المفردان سجن ماري حداد ، وعلقت ، وأُعتبت ، وجلست ... لأنها دافعت عن حقيقة ما أرادت أن تخونها ، ولأنها طلبت إنقاذ مظلوم من مخالف الاضطهاد والظلم ، ولأنها لم تلن ولم تخضع لحكومة الجرف ، هذا الباستيل سيكون أروع ما تحمله من مشاهد لبنان أيها الزائر .

وفي العدد الثاني عشر من « المختصر » (تشرين الأول ١٩٤٦) ، ص ١-٢ ، كتب جبران :

.....

- مسرح ، تحت عنوان « صفة وهوبة » :

« قلنا فيما سبق إن قضية الدكتور داهش هي حرب طاحنة بين امرأتين ، أو بين اثنتين . ويظهر بحدوث أن للثنتين أختا اسمه ميشال : هو ميشال شيحا صاحب جريدة « له جور » Jours هـ التي تصدر باللغة الفرنسية . وهي مثل « البشير » ، أي تصدر في بيروت ولكنها تتلقى من روميه . وبما أنها اكثريكية ، فميشال شيحا صاحبها يكون في صف خصوم داهش بطبيعة الحال : أي ضد شقيقته ماري حداد . وبما أنه صاحب جريدة وشقيق زوجة رئيس الجمهورية وأحد أصحاب بنك فرعون وشيحا ، فهو شخصية لها وزنها في سير هذه الحادثة .

ثم تظهر فتاة اسمها ماجدا هي بنت ماري حداد . والأختة ماجدا من أنصار داهش أيضا ، بل من المتحمسين له كل التحصب . وهذه الفتاة تشاهد ما يعمل بداهش من المصائب وكيف تطارده الحكومة وتسجنه وتدير مسألة نفيه - تشاهد كل ذلك فتغضب وتخط ... ويبلغ بها الكدر أن تصمم على الفتك برئيس الجمهورية زوج خالتها ليقرنها بأنه المسبب الأكبر لهذه النكبة . ويعرف الدكتور داهش بهذا التصمم فلا يرضى عنه . لأن « قتل الناس لا ينطبق على المبادئ الداعشية » ، فيكتب إلى ماجدا أن تقلع عن هذه الفكرة ، ويخبرها عن السقوط في هذه الهوة ... وتسلم ماجدا الكتاب وتصل به ، فتستن عن ارتكاب جريمة القتل ، ولكن هذا المنع يوقظها في حالة صعبة خطيرة أدت إلى نتيجة مؤسفة ... فالصلاح الذي أهدته لقتل سولها قتلت به نفسها ... وجهت المسس إلى صدقها وأطلقت الرصاص ... وماتت ماجدا . وموت ماجدا نقل الحادث من طور إلى طور ... فمتما رأت ماري حداد أن بنتها صارت جثة هامدة أمامها تحولت من سيدة تدافع عن قضية إلى لبوة مفترسة لا تراهي في البطش قاعدة أو نظاما ...

ويظهر الحال - ميشال شيحا - أمام موت ماجدا فيجد لها فرصة ثمينة لكي يستغلها كما يريد ، فيشيع عن ابنة أخته : « أنها كانت متحمسة للدكتور داهش إلى حد الموت ... ويمكن أن يكون انصل بها ، فهي قتلت نفسها لسر جريمة » . ومثل هذه الاشاعة تتناقلها الألسن بسرعة البرق . ولا سيما أن خصوم داهش يحملونها حالا إلى كل سكان لأنها سلاح قاطع ضد عدوهم .. وهكذا سارت الركباني هذا الخبر في كل لبنان وسوريا .

ولو اكتفى الحال الفاضل بترويج هذه الاشاعة لنجست خطه برة من الزمن ... ولكنه أراد أن يؤيد بها بقرار طبي . فطلب أن يجري كشف حل جثة ماجدا بطريقة قانونية ، وأن يكون ذلك أمام هيئة منسطة ليكون القرار حاويا كل الشروط الرسمية النظامية .

وتم له ما أراد... وحضرت هيئة منسطة من رجال طب واستنطاق وشهود وبوليس،-

.....

« فكان عددهم نحو الثلاثين ، وكلهم رجال ... لكي يشعروا هذه الجريمة ... ويمكننا أن نصور حال ماري حداد أمام هذا المشهد ، مشهد ثلاثين رجلاً يشاهدون جثة بنتها ماجدا ويحسونها فحشاً طيباً ... »

وينتهي هذا الفصل بقرار يتكلم فيه الضير ... ذلك لأن أصحاب الإنسانية كلها ترتجف في مثل هذا الموقف « ويظهر التفسير بعبارة غريبة غير طبيعية لجمل الإنسان كالجينة أمام الحق ... فيكتب طبيب الحكومة هذا القرار المسحوب أيضاً حل الزنك ، وهذه صورته بالحرف الواحد :

« بتاريخ ٢٧ كانون الثاني ١٩٤٥ بناء على تكليف حضرة مدعي عام بيروت وبحضوره ، أجريت محاكمة ماجدا ابنة جورج حداد . وبعد التحقيق بالمحضرين لديها وبطلبها وأوضاعها التناسلية لم أشاهد عندها أقل أثر ظاهر يدل على حمل حاضره أو سابق . وخصوصاً أنني شاهدتها بأنها غير مفضوضة البكارة حيث غشاء البكارة لم يزل موجوداً وبجائته الطبيعية . »

الدكتور الشرعي

الياس الحلوه

وتقرأ ماري حداد هذا القرار عن بنتها ، القرار الذي يمكننا أن نسميه بكورة علنية ، أو طهارة مكشوفة ... وتتنظر ماري حداد إلى جماعة الرجال الفاحشين وتقول لهم : انكم شرفمة منطحة تحترم سلطة منطحة ... »

وما استطاع الرجال الفاحشون إلا أن يصمتوا أمام هذه الكلمات ... وتقول الوثائق : أنهم تكسوا رؤوسهم ثم انصرفوا الواحد بعد الآخر ، متسللين مثلما تتسلل الشاب الماكرة . ثم تكتب ماري حداد إلى أخيها ميشال هذا الكتاب :

« إلى الدساس ميشال شبيحة »

إن أظهر غشاة في هذه الأرض انتحرت احتجاجاً على جرائمكم .

لقد تألمت ضد رجل بري ، حتى جعلتموه يذوق من العذاب جيلولة ثانية . وذلك طوال أشهر متعديدة . وهو لا يزال إلى الآن يتألم .

فمن خيانة إلى سجن إلى ضرب إلى جوع إلى عطش ، إلى عذابات نفسية وجسدية ، وهو يدور ملجأ ووطن ، مطاردي في كل مكان ، بيننا والدة تنلف وأخت تنصف (أي أم داهش وأخته) ، وأصدقائه يتألمون ويلومون أنفسهم لأنهم لم يصلحوا شيئاً لأجله ضدكم .

إن تلك الفتاة العزيزة أمطنتهم أمثلة المنظمة والبطولة .

فأنتم إذن سبب موتها .

وما أن معها يصرخ ضدكم . وفي تخيلاتكم الخبيثة تصورت عنها تصورات رهيبة . »

حتى لا يبقى من حجة ، بعد اليوم ، لمُنكري وجود الروح وجاحدي وجود الله (١٢) .

= فيها حاركم وذلكم . إذ كيف يجوز شربل (هو يوسف شربل النائب العام الاستثنائي) يكون أمرك أن يطلب من الأطباء أن يقوموا بفحص هو إحنة الطهر والمغاف ؟
ولقد قام بهذا الفحص الفتيح الدكتور حلو بحضور أصاف وحده (المدي العام) وثلاثين شخصاً من عصاية البوليس ، ومنهم الوفاء السافل عارف إبراهيم مدير البوليس .
قصصت بهم مملنة أنهم أدوات مجرمة تنفذ أوامر عصاية أثيمة من المجرمين ، وأن صلهم هذا يدل على وضاعة أفكارهم وحقارة لبانات قلوبهم . إننا ننتبط به رغم أننا واشتزازنا الشديدين ، وذلك من أجل " الهدف السامي " الذي نمتقد به ونؤمن بقدسيته . إذ إن هذا الفحص يضيء بنور جديد الحقيقة الرائعة ، ويهدد الفئوم أمام أبصار الذين أصمتهم دعاياتكم الكاذبة وإشاعاتكم المنحطة .

فليجيئوا ، إذن ، تشریح هذه الحجة الظاهرة ليس أمام الدكتور حلو فقط ، بل أمام جميع أطباء المدينة ليشهدوا بأعينهم الحقيقة الساطعة .

فهل تستطيعون أنتم إلا أن تفكروا بالأمر الدنيئة المنحطة ؟

وهل يمكنكم أن تتصوروا أنه من المستطاع أن يماثر الناس بعضهم بعضاً في هذه الأرض إلا لأسباب دنيئة قفرة ؟

فباسم موت ابني ودمها الزكي الطاهر وباسم آلام والدة أمام التضحية الكاملة التي قدمتني ابني

اني أطلب هذه المرة ، أيضاً ، أن نماد إلى الدكتور داهش جنسيته مع التحريضات الشرقية والمادية .

مازي حداد الداهشية :

(١٣) ان غاية المعجزات الداهشية الخارقة لقوانين الطبيعة ، والتي شهدت المئات منها وتحققت من صاحبها د. داهش عشر سنوات (١٩٦٣ - ١٩٧٣) ، هي إثبات وجود العالم الروحي وإجراء الإيمان بالله ، بعد ان سادت النزعة المادية الإلحادية معظم البشر ، وتغلقت في الجامعات متكررة بفنائع العلم . وهذه الحواشي تشمل عشرات الأنواع : من علم القيب ، إلى بحث الحياة في الجماد ، إلى شفاه الأمراض ، إلى تغيير طبائع الأشياء ، إلى إعادة تكوينها بعد فناءها ، إلى استدعائها أو نقلها بلمح البصر ، عبر المسافات الشاسعة... كل ذلك تقوم به " الروح " المتجالية في شخص الدكتور داهش صاحب الجلسة الروحية .

وقد أجمع العلماء ، وبينهم ماكس بلانك حائز جائزة نوبل في الفيزياء ، على ان نواميس =

الطبيعة لا تخضع لأية إرادة بشرية ، فهي وجدت قبل ظهور الحياة على الأرض ، وستبقى بعد زوالها . انظر :

MAX PLANCK, L'Image du monde dans la physique moderne, éd. Gonthier, 1963, p. 8.

وكأنما الله تعالى حي . المحلّسات الروحية . الداعشية في قوله الكريم : « رفيع الدرجات ذو العرش يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده ليتشر يوم التلاقي » (سورة غافر ، آية ١٥) . والداعشية تصدق الأديان الموحدة : الاسلام والمسيحية والموسوية ، وتلحق الناس إلى وحدة دينية تعود بالأديان إلى منابعها الأصلية النقية ، بحيث يمم البشر الاخاء والتحاب والعدل والسلام ، فيصبح الدين هو الحياة وقد سما بها جناحا الايمان والعمل الفاضل معا . والداعشيون يؤمنون بأن الدكتور داهش هو هاد من هداة الله تبعاً للآية الكريمة القائلة : « ولكل قوم هاد » (سورة الرعد ، آية ١٣) ، وبأن المسيح لا يد من بعثته الثاني ، حسبما بشر الإنجيل ، ووفق ما أئذ القرآن في آيته القائلة : « وانه (المسيح) لعلم الساعة فلا تترن بها وتبصروا هذا صراط مستقيم » (سورة الزمر ، آية ٦١) .

وقد طلق جبران مسوح في مجلته « المختصر » - العدد السادس من السنة الثانية (حزيران ١٩٤٧) ، ص ١ - ٣ ، حل الناية الانسانية من الداعشية الهادقة إلى ايقاظ الفسيفساء والقيم الروحية في العالم حتى يمم العدل والإخاء ويقضى على الاستعمار والاستبداد ، بقوله : « ... وكان الرجل (داهش) سائرآ في جهاده ينتقل من فوز إلى فوز ، غير عارف أنه يحمل جريمة لا تقدر أن تنفرها له ، وهي أنه ابن بلادنا ... فلو جئنا بهذه التسليم أحد رهبان فرنسا وإيطاليا ، أو أحد مبشري الانكليز والأميركان لتلقيناها بالرغبي والقبول . وأعجبت بها ، ثم نشرناها بكل سرعة لأنها من مصدر أجنبي .

أما أن يتنادي بها رجس ولد تحت سماء شرقنا ، ويقولوا لنا باللفة العربية ... فهذا دجال مشعوذ ... يريد أن يستولي على عقول الناس ... يحاول خدع النساء وسلبهن الأموال ... وبما أنه كذلك فيجب أن نجرده من جنسيته بلا هماكة ... ولا نقبل أن يدافع عنه أحد ... وأن نسله لأقوى رجال البوليس وأكثرهم بربرية ، ليشتموه ويحرقوه ... ويصفوهه ويحلقوه حتى يمتزق لحمه ... ثم نطرحه على الحفود التركية عرضة لجميع الأخطار .

وتوهمت الحكومة أن الحركة الداعشية انتهت هناك ، وأنها انتصرت على الرجل بهذا الإبعاد ، وصار يمكنها أن تنام ملء جفניה ، ولكن المبادئ في العالم لها طبيعة لا تنفد . فهناك على الحفود التركية حيث ترك الرجل بين محالب الشقاء والمخاوف ... هناك بدأت حياة داهش الحقيقية . هناك انتهت مصالح حكومته ، وبدأت مصالح انسانية تعمية . هناك سكنت الوزراء والمحكام ورجال الأمن ليتكلم رجل منظم . فلم يترك داهش وحده وراء تلك الحفود ، بل

- العنق في ذلك القفر بضمير الأمة التي اغتبطته .

هذا عرض داهش من الناحية الانسانية . وله عرض آخر من الناحية الشرقية لا يقل من الأول شرفاً ونبلًا . فهو يريد أن يجعل أبناء العربية أمة واحدة بازالة كل ما بينهم من سوء التفاهم . وهنا يتعرض إلى أمر خطير لم يسبقه إليه أحد ، وهو : أن يخبر جميع نصارى الشرق من هو محمد ... لأن جميع نصارى الشرق لا يعرفون محمداً إلى الآن . والصورة التي له في أذهانهم لا تنطبق على الحقيقة ، لأنها صورة استعمارية وضعت في عقولنا قموس روما وباريس وروما لندن وواشنطن وبرلين .

فالمستمر لم يسلطنا ما في أراضينا من الاغلال والذهب والبترول فقط ، بل وضع في أذهاننا دروساً سامة تجعل بين المسلمين والنصارى نفوراً لا ينتهي ، وخصوصة تنمو مع مرور الأيام . فأراد داهش أن يجلي العدو من عقولنا أيضاً كما انجل من أراضينا ، بأن ينزج في هذه الشخصية ما أحاطه الأجنتي بها من الأكاذيب ، ويطيننا من محمد الصورة الصحيحة التي نحن بأشد الحاجة إلى معرفتها في هذا العهد ...

وداهش يتكلم عن النسي العربي كثيراً ، وبين رسائله وفضله على التفكير الانساني ، وينصح كل مسيحي أن يدرس الموضوع بانخلاص وفزاحة ووداعة ، فتكتشف له حقيقة جديدة ، وتزول كل الفوارق التي بينه وبين أشبه المسلم ، ويكون زوالها حقيقياً هذه المرة لأنه قائم على درس وإنصاف وإيمان .

والجدير بالذكر أن الداعشية تظهر وحدة الاسلام والمسيحية ، ووحدة ما أنزل من قبل ومن بعد ، لا بالنظريات والآراء المتضاربة ، بل بالبراهين الحسية . ولضيق المجال ، أكتفي بعرض قضية خلاف واحدة بين المسيحيين والمسلمين هي قضية صلب المسيح . ففي الأناجيل أنه صلب ، وفي القرآن « وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم » (سورة النساء : آية ١٥٧) . فأى الكتابين على صواب ؟ الحق أنهما كليهما على صواب ، لكن الحقيقة لا يمكن أن توضح إلا من ضمن الداعشية .

لقد تبين لي ، ولشركات غيري - منهم الأطباء جورج عيسا ، فريد أبو سليمان ، نجيب العلي ، والمحامي ادوار تون - أن الدكتور داهش ست شخصيات أخرى غير شخصه البشري ، وهذه الشخصيات كناية عن سيالات أي قوى روحية هي استنفادات له كاتبة في حواله حلوية حبابية ، وبإذن الله يسبح لها ، أمهانا ، أن تتجسد لإتمام أمور أو غايات روحية خطيرة . فتخط شكله البشري تماماً بحيث تصبح شبهه . وإذا ذلك ، يمكن من كان حاضراً أن يخالسها ويحادثها ويحسسها ويذاكلها . لكنه قد لا يستطيع أن يميزها عن داهش البشري ، إلا إذا كانت ترتدي ثياباً مختلفة ، وكان الناظر يعلم سابقاً ما يرتديه الدكتور داهش . وكثيره في المرات التي تظهر فيها فجأة ، وتتوارى فجأة بينما تكون أماسنا ، ونحن ننظر إليها أو نسلم

عليها . وقد يجمع منها شخصيتان أو أكثر حتى الست ، في مكان واحد ، وقد تتجسد في اللحظة نفسها ، في أماكن مختلفة متباعدة . وقد تأكد لي والكثيرين غيري من شاهدها أنها لا تخضع إطلاقاً لنواميس الأرض : فهي تخترق الحواجز والجدران ، وتنتقل لمح البرق من مكان إلى آخر ، وإن يكن من أقصى المشارق إلى أقصى المغارب ، وتسيطر على الجاذبية وترتفع في الهواء ، وتمشي على الماء ، وتثقل وزنها أو تخفله حتى تتلاشي ، وهي قادرة ، بإذن الله ، على صنع ما تصنعه الروح من معجزات . ومن عجائب الشخصيات الباهرة أنه ، سنة ١٩٤٧ ، ألقي القبض على إحداها في أذربيجان من أصال إيران ، فقتلت رمياً بالرصاص ، ودفنت في البلد نفسه . وقد نشرت المصنف في لبنان وسائر البلاد العربية نبأ قتل الدكتور داهش وصور مصرعه . ومع ذلك ، كان مؤسس الداعشية ما يزال بين أتباعه يعلم طرق الحق . أسس شخصيته التي أعدت في أذربيجان فرعاً ما يميت من الموت ، لأن الموت غير قادر عليها ، فهي لا تجمع نواميس الأرض ، لأنها ليست من الأرض .

فالأنجيل إذ تؤكد صلب المسيح ، إنما تؤكد صلب شخصية من شخصياته ، لكن الإنجيليين ، لسبب روحي ، لم يوضحوا ذلك ، إنما اكتفوا بالإشارة ، بمد الصلب ، إلى أن المسيح المصلوب يميت من الموت وكان يظهر ويختفي أمام تلاميذه ، عدة مرات ، والقرآن الكريم إذ يقرر عدم صلب المسيح ، إنما يبيّن عدم صلب عيسى بن مريم الشخص البشري المولود ، موضعاً أن الذي صلب إنما هو شبهه ، وما شبهه إلا إحدى شخصياته .

ومن أراد مزيداً من الاطلاع على الخواص والمبادئ الداعشية ، فليراجع : معجزات الدكتور داهش ووحدة الأديان ، دار النشر المحلق . بيروت ، ١٩٧٠ ، وهي محاضرة ألقيتها في الجامعة الأمريكية ببيروت ، وكذلك الداعشية حقيقة روحية تؤيدها المعجزات ، دار النشر المحلق ، بيروت ، ١٩٧١ ، وهي محاضرة ألقيتها في كلية الحقوق بالجامعة اللبنانية . وقد ترجمت كلتا المحاضرتين إلى الفرنسية والانكليزية ، وصدرت الترجمات عن دار النشر المحلق نفسها .

وقد كان اضطهاد الدكتور داهش محركاً لكثير من أعلام الأدباء في المهجر الأمريكي .

كتب سليم خيبر - كولونيا البيار - في المختصر ، العدد الرابع عشر من السنة الأولى (كانون الأول ١٩٤٦) ، ص ٩ :

« فهمت من متابعة حادث الدكتور داهش أن الرجل يدعوا لتوحيد الأديان . وفي اعتقادي أن هذا صل عظيم في تاريخ البشر . ويمكن أن يكون تكلمة لما أسسه المصلحون .

فأنا أحيي الفكرة ، مع سروري أنها لا تخلو من صعوبة ، فهي تقضي بجمع الأديان الثلاثة في دين واحد وجعله على صورة تلاحم هذا العصر ، وتطابق ما اكتشفه العلم من الحقائق وتؤلف بكل تعاليمه إلى إيمان اللائقة والسلام .

فلقد أتبع لي مراراً ، كما أتبع لثلاث غيري ، أن نشهد بأنّ العين كيف ترسم الكتابة أجوبةً أو رسائل أو إرشادات روحية ... من خبر أية وسيلة مادية ، على قراطيس فارغة تكون مبسوطة في أيدينا أو مطوية ، أو مغلقة عليها ضمن ظروف (١٤) .

— وأنني من كل مفكرينا أن يدرسوا هذه القضية بنزاهة واعلاس وتسامح لأنها أحسن دواء لأمرنا الطائفية ، وهو حادث عظيم إذا أنادنا قد يفيد العالم بجدل .

ولا تستغرب ما تصادفه من المقالعات ، فإن الأصول الطيفية في التاريخ كلها لقيت اضطهادات ومساكات . نفسية داهش تدير سيراً طبيعياً من حيث المقالعات التي تلاقبها ، ومن حيث التفاف أفراد حولها يدافعون عنها إلى حد الاستماتة لاعتقادهم بصحتها ... في النهاية تريخ الحقيقة ، والحقيقة تنتج خيراً .

المسألة تستحق العرس والمناجاة والمناجاة ، ويكتفي الدكتور داهش فخر أن قصده نبيل وأنه لقي لأجبه التمثيل والاضطهاد والتشريد ، كما لقي غيره من جميع المصلحين في التاريخ . وكتب عبد المسيح حيداني في مجلة «المطلع» - عدد ١٨ تموز ١٩٤٦ :

« كل ما تدركه في حادث الدكتور داهش أن الفكرة الجديدة لا تمشي طويلاً إذا كانت غير صالحة للحياة . ولكنها تمشي طويلاً إذا تنازلت عنها أيدي الاضطهاد ، أما إذا كانت صالحة للوجود ، فلا الحكومة ولا أكثرية الشعب بما يقتلها من تروية نفوس الأقلية . ولنا في التاريخ عبر كثيرة تضع أمام أبصارنا الحق الخالد .

إننا لا نستطيع السكوت عن مقاومة داهش ومقاومة دعوته من قبل الحكومة في حين أنه لم يقدم بدعته بالسيف ... ولم يطلق سهمه إلا للجمع بين الأديان . فإذا كان تديناً كذاباً فلماذا لم يترك وشأنه ليموت دعوته من تلقاء نفسها . فالباطل لن يثبت طويلاً . ولكن الاضطهاد يحدث في تأميمه عوامل قريبة تصلهم على الثبات .

وكتب جبران مسروح في المختصر - عدد ١٠ من السنة الأولى (أيلول ١٩٤٦) ، ص ٥ :

« جميع أعداء داهش سوف ينكسرون . وأسط ما في انكسارهم هذا أنهم سوف يصلونه إلى قبورهم . لأن هذه الجريمة لا تنال في الهواء ، ولا تغرب عناصرها في الفضاء . هي تموت مع مرتكبيها وتدفن بجانبهم فتذكر كلما ذكروا ، ويذكرون كلما ذكرت . فهم وهي صفة وذكري لكل الأجيال القادمة .

(١٤) مراراً ، كنت أطوي ورقة بيضاء وأجعلها في قبضي ، فإذا الدكتور داهش ، وقد ارتعش بالروح ، يخط عليها ، من يمد ، ما اختاره أنامن عبارات ، أو يمثل القراطيس الفارغة كتابة بلسان البصر . وأنا قاطب عليه . ومن ألتصم هذه المسجرات ما حدث للشماسي والوزير السابق إدوار نون : فإنه بعد أن شاهد الكثير من مسجرات الدكتور داهش المصورة الفادحة ، أراد -

ذلك ما حَسَبْتُهُ بمصدر « الوحي » الإعجازي الذي لا يمكن الماثل
إنكار وجوده ما دام قد تمّ فعلاً ، وتأكد مادياً لدى كثيرين من المُحَقِّقِينَ ،
كما لا يمكنه تجاهل النتائج الخطيرة التي يُفْضِي إليها إثبات وجود القوة
الروحية الكونية المُخْطِبة للطاقة البشرية (١٥) .

الاستزادة من المعرفة الروحية ، فكتب في منزله التين وسبعين سؤالاً تتعلق بتاريخ البشرية
وأصولها المبهمة ، وأمر غاضبة من الإنسان والأديان بما لم يتوصل العلم به إلى تقرير
حقائقه النهائية . وقد وزعها على نحو ثلاثين صفحة من الورق الكبير المستعمل في الطباعة على
الآلة الكاتبة ، وترك فراغاً بين السؤال والآخر ، مفسحاً المجال لكتابة الأجوبة . ثم قصد
منزل الدكتور داهش . وكان الحاضرون كثيرين ؛ منهم : آل الحداد ، وحليم دموس ،
والأطباء فريد أبو سليمان وجورج خيسا ونجيب المشي . وقد اطلعوا جميعاً على أسئلة
الأستاذ فون المحققة . ثم وضعت الأوراق في ظرف ، وسرعان ما عقدت الجلسة الروحية .
ونجاة لمس الدكتور داهش الظرف المحتوي على الأوراق قائلا : أنتك الأجوبة . وكانت
دهشة الجميع عظيمة حينما فتحوا الظرف ، ورأوا التين وسبعين جواباً قد غطت بوضوح ،
وبلغ البصر ، تحت الإثنين والسبعين سؤالاً الموزعة على نحو ثلاثين صفحة . هذه الوثائق
المبائية ما يزال المحامي الكبير يحتفظ بها حتى الآن ؛ وهي تحتاج إلى أكثر من يومين لمجرد
نقلها .

وكان الأستاذ فون قد أرسلته المخططات الجينية خصيصاً ليتجسس أخبار الدكتور داهش .
وقد عرف مؤسس الداهشية بأمره ، قبل أن يزوره ، في أثناء جلسة روحية . وإذا قدم فون
إليه ، علم كتابة « الرمز الداهشي » ، وعقدت له جلسة روحية حضرها كثيرون . وكانت
قرينة الأستاذ فون السيدة إيزابيل قد أصابته بين الطلوع ، وهي في أثناء التنزيج بالقلوب ، فلم
حبر ذهبياً ، وذلك قبل تعرفها وزوجها إلى الدكتور داهش بصفة سنوات . وكانت تراقبها ،
يومئذ في رهبنة التنزيج ، السيدة رينه قرينة الشيخ فؤاد الحوري شقيق الرئيس اللبناني الأسبق .
وفي الجلسة الروحية ، وبناء على طلب الأستاذ فون ، استحضر القلم الصانع بطرقة دين . فكان
ذلك كاتباً ليخبر الأستاذ فون الرئيس اللبناني بأن ما يصنعه الدكتور داهش ليس أوهاماً
وغداً لآل الحداد وغيرهم ، إنما هو حقيقة ثابتة لا تقبل الشك ، والبرهان على ذلك استحضار
القلم الذي أصابته زوجته قبل سنوات ، وقد كانت تراقبها قرينة شقيقه الشيخ فؤاد .

(٥) نشأت في الغرب عشرات المؤسسات والروحانيات ، وحفظها السعي إلى إثبات وجود الروح ،
بمختلف الأساليب ، لكنها لم تبلغ غايتها على كل ما بذلته من جهود وأسوار . وهي في
« الجلسات الروحية الداهشية » تطلع على العالم بالبرهان الساطع الذي ظلمنا انظره ، وذلك منـ»

فانطلاقاً من الحوارات الداهشية والمعرفة الروحية المقررة بها تحسّلت مجموعة من المبادئ تُكوّن نظرةً تحليليّة تفسيرية شاملة للحياة والكون والانسان في مختلف نشاطاته . وسأقتصر ، هنا ، على ما يتعلق منها بالفنّ والفنّان مباشرة أو مُداورة ، ليتيسّر لي تحليل روحي لسلوك جبران وإنتاجه ، وهو لا يتناقض التحليل السيكولوجي الذي عرضته في دراستي المتقدمة ، لكنّه يضرب في أبعاد أعمق هي أبعاد الأسباب الروحية – أي الميتافيزيقية – التي ليس بوسع الأبحاث السيكولوجية ، في وضعها الراهن ، أن تطلّها . ولست أُلزم أحداً باعتناق رأيي ، لكنّ حسيّ أتبيّ نظرتي انطلاقاً من إثبات وجود « الروح » بالبراهين الإعجازيّة المحسوسة ، في حين أنّ المادّيين بنّوا نظامهم الفكري الفلسفي انطلاقاً من موقفهم الجاحد لوجود الروح ، من غير أن يقدّموا أيّ برهان محسوس على صحّة جعدهم^(١٦) .

وقد يسأل بعضهم : لماذا تتخذ المبادئ الداهشية منطلقاً روحياً ، وليس مذهباً من مذاهب المسيحية أو الاسلام أو الموسوية ؟ والجواب : أولاً ، لأنّ الغاية هي الانطلاق من قاعدة روحية عامّة مؤمنة بالله لا من مذهب دينيّ معيّن ، والداهشية هي المسيحية والاسلام والموسوية معاً ، متلاقية في نتائجها الأصلية . ثانياً ، لأنّ تعاليمها تتفق والعلم في أحدث نتائجه المقررة . ثالثاً ، لأنّ خبرتي فيها المنبسطة على عشر سنوات (١٩٦٣ – ١٩٧٣) درساً وتمحيصاً وتحقيقاً ، ووعبيّ إيماناً كنهرو روحيّ تنصبّ فيه الرسائلُ الموحاة وسائر العقائد الروحية كالبوديّة والهندوسية جميعاً ، يؤمّلتاني للبحث فيها . زدّ إلى ذلك أنّه بالاستناد إلى مبادئها يتيسّر كشفُ حقائق كثيرة من نفسيّة جبران ، وتحليل سلوكه وإبداعه الفنيّ ضمن مجالات ورؤى يتعدّد على

= أُرسل المشرق التي أنبتت الرسائل الروحية السالفة وصدرتها الى العالم . وحلّ المشككين ألا ينتظروا دخول نور الشمس تنازعهم ما داموا مطلقين الأبراب والقنوط دونها .

(١٦) لا ينبغي من النزعة الفكرية المادية إلا المنطلق الفلسفي المنكر لوجود الروح ، أما إيمانها السياسي والاقتصادي – وقد تكون متضاربة – فليست تمنعني .

المذاهب النفسية او الاجتهادات الدينية المذهبية الراهنة أن تطلعا ، لا سيما أن جبران والداهشية يلتقيان في جميع النظرات والمفاهيم الأساسية . فكلاهما يؤمن بوحدة الوجود الروحية ، وباستمرار الحياة والتقمص ، كما يؤمن بالروح قوة نقية أزلية وذاتاً إلهية تتخطى نوايس العوالم المادية ، كذلك كلاهما يؤمن بوحدة الأديان ومفهومها العملي الحي المتحد بالحياة ، وبأن الحرية الحقيقية هي انعتاق من شئ العبوديات والقيود الباطنية ، وإصلاح النفس أساس كل إصلاح حق ... لكن ما حبر عنه جبران تعبيراً شاعرياً موجزاً ، أوضحته الداهشية مفصلاً ، ومؤيداً بالمعجزات الملموسة ، حتى يسوغ القول إن جبران بالنسبة إلى مؤسس الداهشية أشبه « بالسابق » بالنسبة إلى « النبي » .

ذلك كان مبرر هذا « الملحق » . فلتر ما هي الأضواء الجديدة التي بإمكان الداهشية أن تسلطها على جبران ، وما التعليلات الروحية التي تكشفها ؟

دراسة جبران النفسية على ضوء المبادئ الداهشية

على قناعتي العقلية بصحة المقام والمبادئ الداهشية ، لم أجعل منها
مُسَلَّمات تستق نتائج البحث وتعرضها فرضاً مسبقاً ، كما ينهج الفرويديون
والماديون علمه ، بل إنّ التعليقات والتأويلات الروحية التي ساعدتها
مستكون مرتكزة على النتائج التي أفضى إليها بحثي التجريبي المنهجي السابق
في جبران ، ومؤيَّدة بأراء كثير من العلماء .

وإنني سأجعل بحثي هذا يتدرج من مفهوم «السيال» إلى مفهوم «الروح» ،
كاشفاً في كلّ مرحلة منه نظرة الداهشية ثم مطبقاً إياها على شخص جبران
وفتة بالاستناد إلى النتائج التي تحصّلت في الدراسة الأساسية .

— ١ —

أ - من المبادئ الداهشية أن نفس كلّ إنسان تتكوّن من مجموع
سيالات ووحية . والسيال هو وحدة نفسية ذات طاقة حيوية انفعالية ،
وإدراك نسي ، وإرادة محرّكة ، ونزعة نوعيّة ، وخصائص وظيفية .

وقوام السيال جوهر روحي إشعاعي خالد ليس بالامكان إدراكه إدراكاً
حسباً لاتصاله بسرعة اهتزاز خالقة ، ولأنّ الإنسان محدود بشبكة من الحواس
ذات حدود عليا وحدود دنيا لا يسعه تجاوزها ^(١) .

(١) مثال ذلك أن العين البشرية لا تبصر من الموجودات إلا التي تتراوح ذبذباتها بين ٢٠ و ٤٠
ذبذبة في الثانية ، وهي تتحرك بسرعة أدنى من سرعة النور (أي ٣٠٠,٠٠٠ كلم في الثانية) ،
والأذن البشرية لا تسمع من الأصوات إلا التي تتراوح بين حوالي ١٥ و ٢٠,٠٠٠ ذبذبة

ولذا فالسيالات التي هي مَقْرُونَات الإنسان الحقيقية ، يستحيل التحقق من وجودها ، عادةً ، إلا من نتائج نشاطها الباطني أو تأثيراتها في البنية الجسدية التي إنشأها صورتها الحسية النسبية المشككة من أجهزة بيولوجية فيزيولوجية عصبية خاصة تَبْخاً لما توجهه نوايس الحياة والطبيعة الأرضية^(١) .

— في الثانية (، هرتز) ، ويندر أن تنص هذا الحد ال ٢٢,٠٠٠ ذبذبة . انظر : La Grande Encyclopédie, Larousse, 1971, t II : Audition, p. 1219. Encyclopædia Britannica, 1964, t III : Hearing — phenomena of hearing, p. 214.

كذلك : يوسف مرو - العلوم الطبيعية في القرآن ، منشورات مرو العلمية ، ١٩٦٨ ، ص ١٨٥ - ١٨٦ .

وقد وردت لفظة «سيال» أربع مرات في كتابات جبران العربية :

- أ - « شعرت بأن في التأثير المحيط بي سيالا يضارع البخور وطرا ويمادل البحر فلامم .ك . ج ٢ ، صفة وابتمامة ، ملكة الخيال ، ص ١٥٧) .
- ب - « يطأب الريح قائلا : « تمرين غاشية في الصحاري تتوسين القوافل بقساوة ثم تلمسنيها بلحف لرمال .فهل أنت أنت ذلك السيل الخفي ، المتزوج مع لثة القبر بين أوراق النورن ، المسيل كالأحلام في منسقات الأودية ... (المصدر السابق ، ابنتها «الريح» ، ص ٢٠٨) .
- ج - « إن الجمال سر تقفه أرواحنا وتفرح به وتنمو بتأثيراته » أما أفكارنا فتقف أمامه بحائرة محاولة تمديده وتجبده بالألفاظ ولكنها لا تستطيع . هو سيال خاف عن العين يتموج بين مواطن الناظر وحديقة المنظور » (م . ك . ج ٢ ، الأجنحة المتكسرة ، ص ٢٢) .
- د - « إنما الموسيقى لغة الأرواح . هي سيال خفي يتموج بين روح المنشد وأرواح السامعين » (م . ك . ج ٣ ، المواصف ، ص ١٤٠) .

ومن مقارنة مدلولات الكلمة يتبين أن جبران يضمنها معنى الطاقة الإشعاعية الخطية المنصبة بانفعال وإبداع وفزوع ، هل شيء من الأهم . وهو معنى قريب جداً من مفهومها الناهشي . ولعل جبران أول من استعمل كلمة «سيال» في العربية ، بهذا المدلول .

(٢) ان الطب النفسي (psychosomatique) يؤكد تأثير الطاقة النفسية في البنية الجسدية . انظر على سبيل المثال :

THURE Von UEKKUL, La médecine psychosomatique, tr. de l'allemand par R. Laureillard, Gallimard, 1966.

كذلك لاحظ علماء النفس أن الطاقة النفسية قد تتحول في بعض نشاطاتها المنحرفة إلى أمراض جسدية . انظر :

C.G. JUNG, L'homme à la découverte de son âme, III 178-180.

أما التعلق من وجود السيالات الروسية ، بصورة غير عادية ، فيتم في أثناء حدوث المعجزات .

ولكل "سِيَال" نشاطه الخاص الذي قد يستقل عن نشاطات سائر السِيالات في وحدة الشخصية أو يتجمّع معها انسجاماً معيناً . وهذا الواقع يظهر في رغبات المرء ودوافعه المتضاربة حيناً والمتآزرة حيناً آخر ، وفي أفكاره المتنافرة تارة والمتلاحمة طورا ، بحيث يسوغ القول إن الشخصية البشرية تتكون من مجموع شخصيات جزئية هي السِيالات .

والسِيالات منها ما هو فطري ، ومنها ما يطرأ على تكوين الانسان النفسي - الجسمي في مجرى عمره . وهي تختلف في مستوى وعيها واولعها ، كما في درجاتها وسائر ميزاتها في الانسان الواحد ؛ كذلك تتفاوت في عددها وبجمل خصائصها بين فرد وآخر . وهذا ما يسبّب تباين القوى الجسدية ، صحة ومرضا ، والميزات الجنسية والفكرية والوجدانية ، واختلاف الاستعدادات والمواهب والميول عند البشر ، حتى في البيئة الواحدة ذات البنية المادية الاقتصادية الاجتماعية الواحدة ، بل حتى بين الاخوة أنفسهم الخاضعين لظروف الخارجية عينها . وإلى تشابهاها أو تباينها في الأشخاص والجماعات يعود التجاذب والتحاب أو التنافر والتباغض (٣) .

(٣) ان مفهوم الداعية النفس وسبالاتها الروحية يستوعب سجل النتائج التي أنضت اليها الدراسات النفسية المختلفة اذا نظر اليها كنتائج متكاملة لا متناقضة . فبرغسون رأى في الدوافع الفطرية طاقة حيوية ، وفي الحياة النفسية « كتلة سيالة » (masse fluide) ؛ وبرت رأى أن الحياة « تيار سيال » (flowing stream) لطاقة انفسانية عامة هي في أساس إرادة الحياة . انظر : H. BERGSON, L'évolution créatrice, p. 42-43.

C. BURT, The Young Delinquent, 1931, footnote 1, p. 423.

ودرس عدد من العلماء النزعات الفطرية في الانسان من حيث تمتد مظاهرها وأبعادها القريبة ، فذكر ولم جاييس حوالي ٣٢ نزعة فريزية ، وعدد ثورنفايك منها ١٤٢ ؛ ودرسها ماككوجل دراسة استقصائية ونسها الى نزعات فردية وأخرى اجتماعية ؛ ومن النزعات التي مدوها فطرية : حب الظهور ، وحب السيطرة ونزعة المقاتلة او الممانعة ، والفرزة الجنسية . انظر :

W. JAMES, The Principles of Psychology.

EL. THORNDIKE, Educational Psychology.

W. Mc. DOUGALL, The Energies of Men.

ولست الطاقة الكهربائية - المنطبعة التي اكتشف العلم أنها في أساس الوجود كله إلا صفة من صفات السبلات الروحية التي هي نسج الكون وقوام كائناته ، والجوهر الحيوي الخالد الذي يوحد الموجودات وان اختلفت مظاهرها المحسوسة (١) .

ومعظم السبلات التي تدخل في تكوين طاقة الانسان النفسية ، عند ولادته ، يكون قد اكتسبها بفعل الوراثة من أبويه مباشرة ، وسلالتيهما مداورة . وتنتقل خصائصها اليه بفضل وحدات إشعاعية من السبلات متناهية في الدقة سمى العلم تشكيلها المحسوس (البيولوجي - الكيميائي) « المورثات » . وهذه تحمل مقومات الطبع الأولى في الانسان والكثير من ميزاته النفسية - الجسمية التي تظهر آثارها فيه ظهوراً قوياً أو تدريجياً (٢) .

كذلك درس عدد من العلماء الدوافع النظرية في اهدافها البعيدة ، وحسروها ، إذ ذاك ، في عدد قليل ، فغرويه أرجعها الى غريزتين أساسيتين هما الغريزة الجنسية أو غريزة الحياة والحب ، وغريزة الموت وعنها تصدر ميول العدائية والكراهية والحسد... وأدرك أرجعها الى نزعة القوة والسيطرة ، ويونغ الى طاقة حيوية جمعية لاشعورية ، وآراؤهم هذه واضحة في معظم مؤلفاتهم ، فلا حاجة الى التخصيص .

وبينما تنبه يونغ لأن مايسى « بالمقدسات النفسية إنما هو » شخصيات جزئية « ذات استقلال في التصرف الى حد بعيد ، أظهر كاتل في دراساته لشخصية أن الانسان مجموع من الوحدات النفسية المتنوعة في قوامها واتجاهاتها ضمن وحدة الشخصية الكبرى . انظر :

C.G. JUNG, L'homme à la découverte de son âme, p. 181-197.

R. CATTELL, La Personnalité, t II, p. 919.

(١) لقد تنبه بعض علماء النفس ، منهم هويلز ، لكون الطاقة النفسية العامة في الانسان تتصل بالطاقة المنتشرة في الكون ، كما تنبه لذلك بعض علماء الفيزياء المعاصرين منهم جان شاردون ، وذلك بعد أن مهد الطريق له تيار ده شاردان . انظر :

R. H. WHEELER & F.T. PERKINS, Principles of Mental Development.

J. CHARON, La Connaissance de l'univers, éd. du Souff, 1961 : Le psychisme dans l'univers, p. 135-155.

(٢) يؤكد علم الوراثة أن المورثات الوراثية تنتقل الى الكائن الحي من أبويه ما . وسلموم أن حياة الفرد تبدأ لأن الحمل يتحد خليتين ممرغتين بالبويضة عند الأثنى وبالحيوان المنوي منه الرجل . ومع أن البويضة الموحدة لا يتعدى قطرها واحداً من مئتي جزء من الإنش ، فإنها تحوي ٤٦

ب - لقد تحصل من دراسي المتقدمة لجران أنه وُلِدَ في أسرة غلبَ عسْرُ العيش عليها ودونيةُ المستوى الاجتماعي ، ونشأ في بيت يسوده تضادٌ تربوي وعاطفي بين أب مُتسلطٍ غصبي المزاج وأمٌ حنون رقيقة العاطفة ، وترعرع في بيئة تتحكم فيها القيسمُ الماديةُ التصفيةُ يحالفها مناخٌ ديني تسلطي يزيدها ضراوة ، بدل أن يلطفها ، لقيامه على التعصب للكيان المذهبي ، وليس للجوهر الروحي . وكان من النتائج النفسية الارتدادية لوضعه المتخذ حركة إثبات الذات المحمومة التي نشطت في وجهه ولا وعيه ، متمثلة في سلوكه وأدبه ورسمه ، عبر عدة مظاهر كان من أبرزها عدايته لكل سلطة .

- كروموزوما (٢٣ من الأب و ٢٣ من الأم) تنطوي بدورها على الآلاف من الجزئيات الدقيقة المسماة بالمورثات ، كل مورث منها يحمل أحد مقويات الطبع ويسمى دائماً كوحدة ، أي وفقاً لقانون هـ الكل أو لا شيء ، ، فلما أن يحدث أثره كاملاً أو لا يحدث البتة . ويمكن اعتبار المورثات الوحدات الطبيعية الأولية . ويتوقف ظهور كل صفة في الإنسان على تآزر عدد كبير جداً منها . مثال ذلك أن لون العين ، وهر صفة بسيطة يشترك نحو عشرين مورث في احداثه .
انظر : WOODWORTH & MARQUIS, Psychology, p. 160-163.

كذلك : جيلفورد - ميدلين علم النفس النظرية والتطبيقية ، ج ٢ ، ص ٥٢٦ .
وهكذا تحصل الفروق الفردية حتى بين الأخوة ، من جراء تنوع تجمعات المورثات ، في صلبة تكوينها الصفات والأعضاء ، تنوعاً يكاد يكون لا نهائياً . ويعتبر التوائم المتماثلان أي المولودان من بويضة واحدة هما الأقرب إلى التشابه جساماً وصفاتاً .
وجمة هي السمات الوراثية التي تكون كاتمة ولا تظهر في الجسم إلا عند نضجها . مثال ذلك النزعات الجنسية . فهي لا تبرز إلا متأخرة نسبياً ، مع أنها متأصلة في الجسم من قبل الولادة .
انظر : R. CATTELL, La Personnalité, I, p. 166 & 173.

ومن الأعضاء الثلاثة في معنى الوراثة أن عامة الناس يفسرونها على شبه المائل بين الأبناء وأبائهم أو أجدادهم الآخرين . والحقيقة أن الآباء ينقلون إلى أولادهم المورثات التي تفلحها هم من أبائهم . فالشخص يرث من جميع أجداده ، لا من أبويه فقط ، وقد يظهر فجأة بعض الصفات الشخصية التي بقيت كاتمة لمدة أجيال ، بسبب اتحاد سمين بين المورثات ، وتكون النتيجة شذوفاً يختلف كل الاختلاف عن أبويه في ناحية ما . انظر : جيلفورد - ميدلين علم النفس النظرية والتطبيقية ، ج ٢ ص ٥٢٧ .

وقد اتضح من دراسي أن سلوك جبران وقتها كانا مسرحين تجلّت فيهما حساسيته النشطة ، متراوحة بين رقة رقيقة وخشبية حادة . وهذه الازدواجية وسَمَتُهُ منذ طفولته الباكِرة حتى أيامه الأخيرة ، واكتنفته بهالة من الغموض واللامالوف ^(١) . ولعل غير ما يمثله في تقبضي طبعه ما ذكرته برياره يانغ ، ناقلة وصفه لمواقفه في صباه : « كان تارة يلدوب حناناً على زهرة ذائبة ، وطوراً يثور كشيل » ^(٢) . إلا أن كفة التهيج الغضبي فيه كانت الراجحة ، كما يبدو . فقد كان نزاعاً إلى تذكر مواقفه الانفعالية الساخطة ، وأحياناً حدة طبعه الطفولي الثائر . يُخبرنا على لسان يانغ ، أنه كان كلفاً بالمواصف منذ طفولته الباكِرة ، وأن طاقة الغضبية المضخوة في نفسه كانت تجدد في انفلات المواصف ما يحرقها ^(٣) . ويقول : « لست أدري كيف احتملوني كنتُ بركاناً صغيراً ، كنت زلزلاً صغيراً » ^(٤) . وقد تجلّت حبه المواصف في تضاعيف أدبه ، إلى حدّ أنه سمّى كتابه العربي الأبرز « المواصف » ، كما برز في رسائله إلى ماري هاسكل ^(٥) .

وأن يتذكر جبران في كهولته أنه كان في طفولته « بركاناً صغيراً وزلزلاً صغيراً » ، لا يعني أنه كان ينطوي على سيال فطري للغضبية الحادة فحسب ، بل كان ينطوي أيضاً على سيالات فطرية مضخمة للقتال والعدائية والسيطرة ، هذه الطاقات التي عبر عنها صبيغ مختلفة في اعترافاته وأدبه ورسمه ، ولا سيما مدى المرحلة الثانية من انتاجه (١٩٠٨ - ١٩١٨) ^(٦) .

(١) انظر انطون كرم - محاضرات في جبران خليل جبران ، ص ١١ . كذلك :

B. YOUNG, *This man from Lebanon*, p. 145.

Ibid. (٧)

Ibid., p. 3 (٨)

Ibid., p. 7 (٩)

(١٠) راجع الدراسة الأساسية ص ٢٥١ - ٢٥٢ ، والملاحية (١) من الصفحة الآتية الذكر .

(١١) راجع الدراسة الأساسية ص ٧٥ وص ٢٤٧ - ٢٦٤ .

زِدْ إلى ذلك أن نزعاً جبران الاستقلالية المتطرفة التي برزت في سلوكه مع إدارة معهد الحكمة ، كما مع معلمه الخيري حداد ووالده ، وتشوُّفه إلى معاشرَة الكبار منذ نازع العاشرة ، وتصريحه في باريس بأنه حازم على أن يهزْ أصحاب الأميركان وينفخ في أوساطهم بوقه ، وكتابته إلى أمين الغريب ، وهو في الخامسة والعشرين من عمره ، أنه يشعر بأنه قد جاء هذا العالم ليكتب اسمه بأحرف كبيرة على وجه الحياة وهذا الشعور يلزم نفسه ليلاً ونهاراً ، ثم مبالغاته وأدعائه^(١٢) ، كل ذلك يدل على أن تكوينه النفسي كان ينطوي على سيّالات حيوية مضخّمة لحب الظهور وأهميّة الذات والفرور .

وقد كانت رقّة الحساسية ملحوظة في مزاج والده جبران ، بينما كانت حدّة التهيج النفسي ملحوظة في مزاج والده . ولعل استواء أمّه وأبيه على طرفيّ خط الحساسية كان من أسباب تكاثر الخلافات والمشادات بينهما ، بحيث إنّ المرأة لم تمتنع بالراحة والطمأنينة في كنف بعلها^(١٣) . ويبدو أن جبران ورث سيّالات الغضب والقتال والمدايئة من والده ، كما ورث سيّال الرقّة من أمّه ، فكانت محرّكات ديناميّة لنشاطه السلوكي والفني طول عمره^(١٤) .

كلّ ذلك يبدو أن سيّالات حب الظهور وأهميّة الذات والفرور ورثها

(١٢) راجع الدراسة الأساسية ص ٧٦ - ٧٨ و ٨٢ - ٨٣ .

(١٣) راجع الدراسة الأساسية ص ٥٩ - ٦٢ .

(١٤) أن قوة الحساسية من السمات النفسية التي أكّدت الدراسات العلمية وراثتها بدرجة عالية . وقد أوضح دالنبورت هذه الحقيقة ، جبراً ما تقرن به الحساسية ، لدى شخصها ، من قابلية التهيج والغضب ، كما أكّد ذلك برّكس مبرّكاً أن البيئة والثقافة تأثيراً ضئيلاً في التهيج . انظر :

DAVENPORT, The feebly inhibited violent temper and its inheritance, J. nerv. ment. Dis., 1915, p. 42.

B. S. BURKS, A study of identical twins..., Studies of Personality, New York, 1942.

جبران أيضا عن أبيه ، عن جدّه . ففي ذكريات جبران التي دوّنها برياره بانغ ، نقلنا عنه « ما يومىء إلى ذلك : فقد بعث أحدُ الأساقفة برسالة إلى جدّه جرحت كبريائه ، فانتفجر ثائرا يصيح بوجه حاملها : بكّفه أن سوريا أكبر ولاية في السلطنة العثمانية ، وأن لبنان تاج سوريا ، وبشري الجوهرة الألمع في هذا التاج ، وأسرة جبران أسمى الأسر البشراوية ، وأنا الرأس الأشهر لهذه الأسرة العينية » (١٥) .

إنّ السبّالات التي انتقلت إلى جبران من أبيه وجدّه ، وربّما من أجداده الأعلين كان لا بد لها كطالقات حيوية فاعلة من أن تُعبّر عن ذاتها تعبيراً حرّاً (١٦) . لكنّها اصطلمت بطروف تربويّة وبيئية حاولت صدّها وقمّعتها ، فاذا بها تنكّفت على نفسها وتكبّت (١٧) ، مُولّدة شعوراً مُضخّماً باللونية نتجت منه حركة ارتدادية عنيفة لإثبات الذات عبر نشاطات ومظاهر مختلفة فصكّت الكلام عليها في دراستي المتقدمة عن جبران (١٨) .

B. YOUNG, *This man from Lebanon*, p. 142-143. (١٥)

(١٦) لعل التعبير الحر ، فيما لو تمّ ، كان أدى بجبران إلى الكبرياء والمعرفة ، من جهة ، وإلى المشاكسة الواقعية من جهة أخرى .

(١٧) ليس أكيداً ما ذهب إليه فرويد من أن الفواغ المكبوتة هي جنسية دائماً . فمطم ما كتبه أدلر ويونغ يؤكد أن إرادة القوة وتأكيد الذات لها من العنف والرسوخ في أغلب النفوس مسا الفريزة الجنسية . وقد أبدى شارل لالو ، في معرض نقده المفهوم الأسطقيتي الفرويدي ، أن الكبت لا يصيب الدافع الجنسي وحده ، « فالجندي الباسل يكبت غريزة البقاء ، والدنيوي المزهدي ينكّته ، والناس جميعاً تقريباً يكبتون إرادة القوة لئلا تتسلط » (CH. LALO, *Notions d'Éthétique*, p. 50) . وإرجاع فرويد الأمراض والانحرافات النفسية كلها إلى النزعة الجنسية المكبوتة ، ولا سيما مثله أوديب ، على حدّ تعبيره ، « آثار استنكار وسط كبير من العلماء ، وأحدث انشقاقاً في صفوف الحركة الفرويدية حينها ، حتى اضطر فرويد إلى التصريح « سوف يترتب علينا أن ننخل عن شمولية القول بأن مثله أوديب هو قلب المصاب » .

(I. SUTTIE, *The Origins of Love and Hate*, p. 27)

(١٨) من مبادئ الفاشية أن كل سؤال لا بد أن يلقى جزاء أصاله ، غير أن أم شراً . وقد يكون الجزء مسجلاً في حياة الإنسان الواحدة ، مثلاً قد يكون موجلاً في حياة أخرى لاحقة ، ينتقل-

أ - ومن المبادئ الداعشية أن اتصال العناصر الوراثية من الأبوين إلى الولد لا يفرض تساوي في عدد السيلات الروحية المنتقلة من كليهما ، ولا في نوعيتها وفعاليتها ومآثر خصائصها ^(١٩) . فقد يرث الولد السمات الرئيسة في شخصيته من أحد والديه دون الآخر . ولذا فالعاطف الشديد اللاواعي الذي يظهر أحيانا ، بين ولد ما وأحد أبويه إنما يعني وجود سيلات أساسية مشتركة بين الطرفين المتعاطفين . وقد تزيد الظروف التربوية والبيئية في قوة هذا التعاطف ولكنها لا تخلقه من عدم ، إذ إن تأثير هذه الظروف يلحق ولا يسبق وجود جاذبية روحية فعلية تقوم بين الطرفين لم يتكوّن الجنين في رحم أمه ^(٢٠) .

= فيها السيل ال ابن أو حفيد أو جسد آخر . وعلى هذا الضوء تفهم الرواية الثانية من وصايا الله المشرقة القائلة : « لا تصنع لك منحوتات ولا صورة شيء مما في السماء من فوق ، ولا مما في الأرض من أسفل ، ولا مما في المياه من تحت الأرض . لا تسجد لمن ولا تعبدن ، لأنّ أنا الرب الهكم الله يهود انتقد ذنوب الآباء في البنين إلى الجيل الثالث والرابع من مبني ، وأصنع رحمة إلى ألوف من محبي وحافظي وصاياي » (سفر الخروج ، الفصل العشرين : ٢) . وكأنّ في عقائده جبران اللاشعورية لوالده وطعمه وجهه وذكراه ، واقفيا ورمزيا ، في كل ما كتب ، فضلا عن قمع الأب في ابنه ، لسيلات الفرور والطاعة وما إليها التي ورثها جبران عنه ، كأنّ في ذلك نأديها ينزله السيل بنفسه ، من غير أن يدري . وإن الظروف التربوية والبيئية تربتها حكمة روحية كونية من أجل إقرار العدالة الإلهية ، على المدى الطويل ، إذ إن حياة الإنسان لا تبدأ بولادته ولا تنتهي بموته ، وفق المفهوم الداعشي .

(١٩) أن تساوي عدد الكروموزومات البيولوجية الموروثة من الأبوين (٢٤ + ٢٤) لا يعني بالضرورة ، تساوي السيلات الروحية المنتقلة من كليهما ، لا في الكم ولا في النوع .

(٢٠) أن الدراسات النفسية التي أجراها تشانغ بينت أن اتجاه الولد العاطفي نحو أمه ، في الحالات العادية ، أشد منه نحو أبيه ، سواء كان الولد صبيا أم بنتا . ولعل ذلك يعود ، غالبا ، إلى كون الأم المصدر الأول للرحمة لطفة الطفل وحنانه ، فضلا عن إشباعها حاجته إلى الألفة وحسبها انزعاجه من الوحدة . أما في حال بروز تعاطف شديد بين الولد والأم ، فذلك مرده إلى السيلات الأساسية المشتركة بينهما وليس إلى « مدقة أوديب » القوي التي أشرافه فرويد ، فلا بل أن هذا « المدقة » ينشأ ، على زعمه ، من ظروف تربوية وبيئية معينة في الطفولة الأولى ،

كذلك فقد يكون بين عدة أشخاص سيالٌ روحي مشترك من غير أن يكونوا متحدّين من سلاطة واحدة . وهذا ما يجعل تجاذب بعض الأشخاص ، أحيانا ، تجاذباً عاطفياً أو ذهنياً قوياً ، على اختلاف الأسر والجنسيات التي ينتمون إليها ^(٢١) .

ولا تختلف السّيالات التي في البشر ، من حيث الجوهر الروحي ، عن سيالات الطاقة العامّة المبثوقة في الكون ، ولذلك يمكن أن ينتقل سيالٌ ما من شخص إلى آخر عبر عدة أجيال ، بعد أن يكون قد مرّ في تشكّلات متعددة ، إذ إنّ الطاقة الروحية تبدّل مظاهرها لكن جوهرها لا يفتنى ^(٢٢) .

في حين أن السّيالات الروحية المشتركة تكون قد باثرت فعلها التجاذبي اللازم منذ تكوين الطفل في رحم أمه . راجع الدراسة الأساسية ص ١٣١ - ١٣٢ ، متناً وحواشي .
(٢١) يفسر بعضهم هذا التجاذب العاطفي أو الفعلي بالميل والأفكار المتشابهة أو المتشابهة عند أولئك الأشخاص ، ولكن هذه الميول والأفكار ليست الا نشاطاً سميتا تقوم به تلك السّيالات الروحية المشتركة ، فهي حركة تعبيرية لطاقة موجودة في الكائنات وجوداً فعلياً . ومن ظواهر هذه السّيالات المشتركة ما يحدث أحيانا ، من شعور مشترك أو حدس مبهم مشترك ، في وقت واحد ، بين شخصين متعاطفين يكونان بعيدين الواحد عن الآخر .

(٢٢) ان الجوهر المشترك الذي هو قوام الكائنات كلها « انسانا وحيوانا ونباتا وجسدا وغير ذلك من موجودات اسما نعرفها ، في الأرض وسائر الكواكب ، هو جوهر روحي ذو مظهر مادي نسبي . ولعل الامور البسيطة المنة وثيقاً التي اكتشفها العلماء هي من التشكّلات المصنوعة الأولية للسّيالات الروحية في أرضنا . وقد ضرب العالم بروتوسكي مثلا على ذلك ذرة الكربون ، فقال : « من كل ذرات الكربون الموجودة في الكون سوف أختار واحدة من جسلت ... ذرة في كروموزوم X الجنس ، وهي من أسفر الأجسام التي تحدد الصفات الوراثية التي فلقها البرق أمك في القطة التي تخيلتك فيها ، والتي وضعت بترتيب في إحدى خلاياك منذ ذلك الحين حتى الآن ... وربما كانت ذرة كربونك في وقت ما جزءاً من مائة - وهي مجرد بلورة نضبة من الكربون - ثم لعلها نمت وانفجرت مع ذرتين أخريين من الأوكسجين لتكوين ثاني أوكسيد الكربون ، هذا في أوراق نبات ما ، وهناك تحول إلى سكر .. هذا النبات ربما انتهت بقرة ، ولعل واحداً من أجدادك الأولين شرب لبن هذه البقرة أو أكل شريحة من لحمها ، وقد تكون ذرة الكربون في أي منهما . وفي جسمك الأول ، تسقط ذرة الكربون إلى إحدى كروموزوماته التي تنقل تعليمات الوراثة من الأب إلى الطفل ، وكل مر

ولذلك فالدهاشية تقول باستمرار الحياة وتجدها عبر دورات متلاحقة .
 لكن مفهوم التخصّص الداهشي - المبني على وحدة الجوهر الروحي في
 الكون - لا يعني انتقال كليّة الشخص النفسية من فرد إلى آخر ، إنّما

الزمن ، أصبحت جزءا من أحد كروموزومين X اللذين حصلتهما أمك ، وهكذا أنزلنا الى
 البريئة التي نمت أنت منها .. وقد تنقل أنت بدورك هذه اللوة الى طفلك . وإذا كانت
 ذرة الكربون ما تزال في جسمك عندما تموت ، فإنها تعود الى التربة ، وهناك قد يأكلها
 نبات مرة أخرى حل مر الزمن ، ويبحث بها من جديد في دورة من حياة النيسبسات والحيوان .
 وعندما تدخل هذه اللوة من الكربون جسدا بشريا في المرة التالية ، فقد تكون جزءا من قطعة
 حزام أو ظفر إصبع أو شرة في رأس .. ثم تعود الى الهواء مرة أخرى في صورة ثاني أكسيد
 الكربون ، وتدخل وتخرج من وثائق المخلوقات البشرية الوفا من السنين .. والهواء الموجود
 في رئتي الإنسان في أية لحظة يحوي ذرات يبلغ عددها رقم واحد والى يمينا ٢٢ صفرا بحيث
 أن كل واحد منا سوف يتنفس عاجلا أو آجلا ، ذرة سبق أن تنفّسها من قبل أي شخص ينظر
 بياك أنه عاش حل ظهر هذه الأرض : مايكل أنجلو أو جورج واشنطن أو سيدنا موسى ..
 وسوف يتنفس ذرتك بعض حياقة المستقبل .

ونعني قسا .. ففي وقت مبعد قد تدخل ذرة كبريتك مجرى دم حيوان لم يلمسه التطور بعد
 ثم تعود بعد ذلك مرة أخرى الى التربة حيث تنقل حاجبة في بعض الأصلاح المصنية ملايين
 السنين ، ثم تبدأ دورة حياتها من جديد في الوقت المناسب ..

ولكن الانتهى هذه اللوة ؟

اننا لا نعرف .. فقد ظلت ذرة كبريتك دون تغيير - كدرة - أربعة آلاف مليون سنة
 وأكثر ، وليس هناك ما يدعو لظن بأنها لن تمضي كذلك الى الأبد ، وحتى اذا استقرت الأرض
 في النهاية بواسطة الشمس .. فان ذرة كبريتك قد تعود الى الفضاء ، وتجه مرة أخرى الى
 نجم جديد .

وفي نجم - ونجم فقط - يمكن أن تختفي ذاتيتها أميرا .. فهناك قد تصطم وتتفكك باصطدامات
 ذرية عنيفة ، وتبني أجزاءها في ذرات أخرى .. وبعد ذلك فقط ، ستمضي حياة ذرة
 كبريتك .. انها ستعود تلك كدرة ، ولكنها - مثلك - ستبقى بعد موتها ، وتصير جزءا
 من حياة فرد جديد ، جزءا من ذرات جديدة ذات شخصية جديدة . (ملخصة عن هـ نيويورك
 تايمز ماغازين) - المختار : فبراير ١٩٦٤ ، ص ١١ - ١٦ .

ان هذه التحولات لا تحدث ، في نظر الداهية ، صدفة ، ولكن وفق تنظيم روحي مبني حل
 الاستقلال في جميع الموجودات .

انتقال السبيل الذي يُكوّن جزءاً من شخصية الانسان الكلية^(٢٣) . وعلاقات الفرد بالآخرين من معاصريه ، رجالاً وفساء ، تتأثر ، إلى حدٍ بعيد ، بموقف سيالته منهم وموقف سيالاتهم منه في الادوار الحياتية السابقة .

ب - ويبدو أن السمات الرئيسة المكتوبة شخصية كاملة رحمة من عاطفية ورقّة وذكاء ، فضلاً عن الميول الروحانية المتجلية في التقوى والمحبة والتضحية والتجرد عن الماديات^(٢٤) ، امتدت سيالاتها إلى ابنها عبر المورثات . حتى ان جبران تنبّه لهذه الخصائص النفسية المشتركة بينه وبين أمه ، فقال : « أمّا أنا فقد ورثتُ عن أمّي تسعين بالمئة من أخلاقي وميولي ، ولا أعني بذلك أنني أشابها بالحلاوة والوداعة وكبر القلب »^(٢٥) . لقد شعر بأن جُلَّ شخصيته امتداد لشخصية أمه ، كما شعر بأن فيه جانباً لا يمتُّ إلى والدته بصلة : إنه الإرثُ النفسي الذي انتقل إليه من والده .

وعند موت كامله رحمه أحسَّ جبران أنّه هو الذي مات : « لقد كُنْتُ حَيًّا ، لا لأنها كانت أمّي بل لأنها كانت صديقي »^(٢٦) . وهذا الاحساس حقيقة واقعية ، لأنَّ موت أمّه يعني انطلاق مجموعة من السبلات المتجسدة التي كان شخصه ، في جُلِّ ما ينطوي عليه من طاقات نفسية واقية ، امتداداً واقعياً لها .

(٢٣) هذا النقص الجزئي الذي يتناول السبلات كلا بمفرده ، وليس مجمل الطاقة النفسية التي تكون شخصية الفرد الكلية ، هو الذي يدل على عجز الانسان عن تذكر ماضيه ، لأن تكونه النفسي - الجسدي الحالي قوامه مجموعة سبلات كانت متفرقة في دورة ماضية ، وموزعة في تشكيلات وتجسّدات مختلفة .

(٢٤) حدة مقابلات ، صيف ١٩٦٨ ، مع قدامى بشري ، منها مقابلة مع شمس طوق التي عرفت كاملة عن كتب إذ كانتا تسكنان بناء واحداً في بوسطن . انظر أيضاً أفراد افرام البستاني - المشرق ، مجلد ٢٧ (١٩٢٩) ، ص ٢٦١ - ٢٦٢ ، كذلك :

B. YOUNG, This man from Lebanon, p. 7-9, 142, 144, 145.

(٢٥) ورد قوله في جوابه على الكتاب الأول الذي أرسلته اليه مي زيادة (جميل جبر : مي وجبران ، ص ٢٦) .

B. YOUNG, This man from Lebanon, p. 9. (٢٦)

ولا شك^{٢٧} في أن تأثير هذه السبلات المشتركة هو الذي حرك محور الأُم في سلوكه وانتاجه ، فاذا الأمومة بمظاهرها الصريحة وتوحيدها الرمزية تحتل وجهه ولاوعيها ، وتحفل بها احترافاته وأدبه وورسه ، كذلك برز تأثيرها في عاطفته الشديدة المتجلية في مرحلته الانتاجية الأولى ، كما في نشاط المنصر الأثوي فيه طول حياته ، هذا المنصر الذي جعله يقول مرة ، لاري هاسكل : « قبل نحو أربع سنوات قلت - إنك شعرت بوجود امرأة في . ولم أفهم ما عنيته آنذ ، ولا أفهم الآن ما تقصدين إلا نصف فهم ... وأمل أن تكون المرأة التي في أمّ صغيرة »^(٢٧) . وحفاً كانت أمّه فيه .

هذه العلاقة النفسية الحميمة بين جبران وأمّه جعلته يسقط وجهها على وجه كل امرأة يحضها المودة والاحترام ، سواء في الواقع الحي أم في الواقع الفني ، وهذا الأمر أوضحه مفصلاً في دراستي السابقة^(٢٨) . غير أن التحليل الدامشي ، بتقصيه العنكبوت الروحية الأولى ، يمكنه أن ينبش دواضع ليس بوسح السيكلوجيا الحالية القبض عليها .

فالتجاذب العاطفي بين جبران وعدد محدود من النساء^(٢٩) ، دون العشرات من الأخريات اللواتي كنّ يحيطن به ، يفرض أن ثمة أسباباً روحية بسطت بينه وبينهن حقلاً من الجاذبية العاطفية . وأرجح الظن أن هذا التجاذب العاطفي مترقّ أصوله في دورات حياتية سابقة ، وهذا جزء من إيمان جبران^(٣٠) . ولعل علاقته بمميّ زياده هي المثال الأفضل لتأكيد ذلك . فهما لم يجتمعا قط ، ولم يتّحّ للعاطفة الجنسية أن تؤدي دورها بينهما ، فالتجاذب الحاصل روحي صرف ، وله من القوة والاستمرار ما يسمح

(٢٧) راجع الدراسة الأساسية ، ص ١٧٦ - ١٨٠ .

(٢٨) راجع الدراسة الأساسية ، ص ١١٥ - ١٢٠ و ١٣٧ - ١٥٩ .

(٢٩) من خلا قصصه وسلطات ثابت وإميل ميشال وماري هاسكل وماري غوري ومي زياده وبربارة بالغ .

(٣٠) انظر حل سبيل المثال : B. YOUNG, This man from Lebanon, p. 94.

بالتأكيد أن جبران ومي - في بعض سيالهما - قد تعارفا وتحاببا في دورة حياتية سابقة .

أمّا ماري هاسكل فليس مستبعدا أن تكون بينها وبين أمّه سيالات مشتركة ، شدّ ما غمرته برعاية وعطف ومحبة أمومية ، كان يردّ عليها بانجاشه نحوها انجاشا عاطفيا بنوياً صريحاً .

- ٣ -

أ - ومن المفاهيم الداهشية أن الاستعداد الفني سيال روحي ذو كيان خاص ونوعية مميزة الوظائف ، فيكون الفن ، جمالياً ، تعبيراً عن نشاط هذا السيال . ولذا فالفن ، كالعلم ، له أصوله الخاصة التي لا يجوز ردّها إلى غرائز أخرى ، ومن بينها الغريزة الجنسية ، فلكل غريزة سيالها الخاص . وعلى هذا الضوء يصبح مفهوم « الإعلاء » مختلفاً تماماً عما يريده فرويد : فيال الجنس - شأنه شأن سيال العدائية ، أو حب السيطرة ، أو حب التملك ... - بدل أن يمارس نشاطه ممارسة طبيعية ، يصرفه عبر صيغ وتحولات فنية ، في الأدب والرسم والنحت والموسيقى وما إليها ... فكل سيال سفلي التزعة أو مادياً يمكن إعلاء نشاطه بتوسله الفن ^(٣١) .

(٣١) كان فرويد يعتقد ، في أثناء كتابته وليوناردو ، أن النزعات العليا ، كالعلم والفن ، «تضم إليها بنية أن تتقوى ، طاقات غريزية هي جنسية أصلاً» (PREUD, Leonardo, p. 111) . وحل حد قول دالبيز ، « لا معنى لهذا الزعم إلا إذا كان العلم والفن أصلتهما أخلاصاً وحيزتها التي لا يمكن ردّها إلى الغرائز ، فسي ينضم شيء إلى آخر ، يجب أن يتميز عنه أولاً » (R. DALBIEZ, La méthode psychanalytique et la doctrine freudienne, t. I, p. 432) .

ولذا مفهوم الإعلاء الفرويدي ، طرح دالبيز ثلاثة افتراضات : « الافتراض الأول : أن يكون تهاوس تام بين المطلق الجنسي الأول والنهاية الفنية الأخيرة . لكن الأكثر لا يمكن أن يفرج من الأكل حسب مبدأ السبب الكافي . ونتيجة لذلك يقتضي التصريح بأن تميز الفن هو من مستويات الشعور البعيدة . وكل نظرية لا تقر بتلك المكاتبة له تعرض نفسها لخطأ . والافتراض

وأصالة الفن مرتبطة بأصالة سيالته في الفنان ، بحيث يبقى بارز الطابع الذاتي لا تغطي عليه سماتُ الاكساب الثقافي . وتتفاوت سيالاتُ الفن

الكافي : أن الفن تميزاً حاسماً ، ومع ذلك فهو يصدر عن الجنس وعن الجنس وحده ، يتطور إبداعه حتى . نتيجة ذلك وجوب ونفس مبدأ السبب الكافي . وهذا الحل نظير الأول - يتلو قبوله لاستحقاق التفسيرية بمبدأ السبب الكافي . أما الافتراض الثالث فهو أن الفن قيمة نوعية خاصة . فضلاً عنه ، يوجب مبدأ السبب الكافي أن لا يكون كمال النتيجة يفوق كمال سببها . يتلخص من ذلك أن الجنسية ليست حلة الفن الخاصة . فهما كان دور الفريزة الجنسية خطيراً في الانفصال الاستثنائي ، يبقى عرضياً لا جوهرياً .

(DALBIEZ, op. cit., t. II, p. 341).

ومن جانب آخر ، يدعو الإبداع الفني ، كما يقدمه فرويد ، كلمة آنية مستطرفة حيث انخفاض السائل في أحدها ، من جراء ضغط محلي ، بسبب ارتفاع السائل في إزاء آخر . فكأن فرويد يريد أن يشجّل وجود مبدعين كان النشاط الأمل فيهم موازياً لنشاط الجنس ، مثال ذلك فكتور هينو الذي كان شاعراً شديداً الحصب وشعرانياً كبيراً في الآن نفسه .

(STOCKER, De la Psychanalyse à la Psychoanalyse, p. 193.)

وان اعتبرنا هينو وآخرين غير . خارجين عن القناعة ، فلا يسمنا إلا بالقرار بأن الوظائف النفسية المتباينة متأخرة فيما بينها ، وأن ازدياد النشاط في أحدها يسبب ضمناً في الوظائف الأخرى . فرويد يقول : « من الواضح أن كمية السائل العصبي لا تتفق بالطريقة نفسها لدى المعنى بالرمازيات التي ينقب ، وعند من يشبع حوى جسدياً ، ولأن أي نوع من الاتفاق يحول دون الآخر ، إذ ليس في وسع المدرس المنهوي أن يستعمل لتأبين سما . »

(RIBOT, Les maladies de la volonté, p. 18. cité par DALBIEZ, op. cit. t. II, p. 377).

ويمكن دالبيز أنه يقتضى التمييز بدقة بين « كمية السائل العصبي » « حل حد تعبير ريبو ، ونوعية الصلبيات النفسية التي تنفق هذا « السائل العصبي » . فعندما تتبع صفة « العمل الرياضي » صفة « القلة الجنسية » لدى انسان واحد ، أنه يمكن القول إن الثانية هي السبب الخاص للأول ؟ بكل تأكيد ، لا ، تكون شحنة من الطاقة المحايدة ولا صفة لها يستحيل أن تستند لها وظيفة نفسية عليها إلا إذا لم تكن تنفقا وظيفة نفسية دنيا ، لا يمر عن إطلاق حل أن الحياة النفسية العليا هي أصلها حياض الفردية . حلبيات النفسية العليا . (DALBIEZ, op. cit., t. II, p. 377)

زد الـ ذلك أن الرموز الفنية التي جعلها فرويد وحوزاً جنسية أظهر ما يبرز أنها حل تنوع وتمدد كبيرين يصدر سبباً أن نرى حلماً أو فلتت الـ رف في طبع أو فتأمل صورة مقفلة إلا نطالع شيئاً يرى فيه فرويد رمزاً للأعضاء الجنسية . وذلك لا يسهو الرافع والمنطق السليم .

(C.SMYERS, A psychologist's point of view, p. 111. Cité par C. W.

VALENTINE, The experimental psychology of Beauty, p. 25).

في درجاتها ، بينما يشتد زعمها وسط جماعها لدى بعضهم ، تكون هزيلة لدى آخرين ، شاحبة .

لكن الانتاج الفني في تعقده أو بساطته ، وفي أمته أو اضطرابه ، كما في حركاته الفكرية الوجدانية ومبانيه الخيالية ، ليس ثمرة لسيال الفن فحسب ، بل هو ثمرة مُجسَل السيالات التي تتكون منها طاقة الفنان النفسية . ولذا تختطف الآثار الفنية بعضها عن بعض اختلاف ذاتيات أصحابها ، وإن يكونوا متمين إلى بيئة طبيعية اجتماعية واحدة ، وثقافة واحدة ، وعصر واحد . على أن ذلك لا ينفي التفاعل الحاصل بين سيالات الفنان وسيالات البيئة الداخلة في مجاله النفسي .

وإذا أخذ بعين الاعتبار أن سيال الفن - شأنه شأن سائر السيالات - خاضع للانتقال الوراثي أو غير الوراثي ، من شخص إلى آخر ، تبعاً لنظام روحي لمي ، فإن تأثير فنان ما تأثيراً بارزاً بفنان آخر ، يكتب معنى جديداً . فهو يدل على وجود سيال مشترك بينهما ، إذا كانا معاصرين الواحد للآخر ، أو انتقال سيال من السابق إلى اللاحق ان كان الأول قد توفي قبل ولادة الثاني .

والآثار الفنية هي ولادة إشعاعات روحية حقيقية يسقطها سيال الفن خاصة ، وسائر سيالات الفنان عامة . إنها طاقات تتخذ أشكالها من الألوان أو الأنظام أو الحروف ... ويبدو أن الرسم يحمل من سيالات

« فالرومانية حاولت أن تطبق على الفن والفنانين ما كان يجب قصره على المرضى والمصابين ، فكان ذلك على حد تعبير كارل يونغ ، « تدحورا لغزو السلم متذكرا برهانه العلم . وإذا الاهتمام ينصرف عن الصنيع الفني رويدا رويدا ، ليسمح في اشتراط شهيد للتعبير من السرائر السيكولوجية ، وحسبده يفتقر الشاعر حالة حيادية ، نموذجاً يحصل وفقاً «ميونا من أرقام سيكولوجيا الأمراض الجنسية . ولذا جاءت جميع تلك التفسيرات ذات دغوب صليب ، فكانت تلهد استشارة طبية »

(JUNG, Essais de psychologie analytique, p. 120 & 121).

الفنان شحنات قد تدوم دَوَامَ الرسم نفسه . وفي ذلك ما يفيض سرُّ الروعة والقرادة في النسخة الأصلية ، كما يُفَسِّر أهميتها . فآلات التصوير الحديثة بوسعها أن تلتقط صوراً للرسوم الفنية تكون في غاية الأمانة والدقة ، لكن هذه النسخ ، مع ذلك ، تبقى دون الأصل قيمةً وفناً ، بمراحل كبيرة ، فالآلة إنْ تَسْتَطِيعُ أن تنسخ صورة « الموناليزا » فإنها تعجز عن نقل إشعاع السبيل الروحي الكائن في الأصل ، وهو جزءٌ من طاقة ليوناردو دا فنشي النفسية انفصل عنه ليتجسد في لوحة هي امتدادٌ حقيقي له ، مُتَّخِذاً كياناً جديداً خاضعاً لقوانين جديدة . وكأنما شعرَ برنيلي بهذه الحقيقة من غير أن يعيها وعياً واضحاً ، فقال : « إن الفنان ، بقدر ما يخلق صنيعه ، يكشف نفسه ، فكانته يترع ، شيئاً فشيئاً إلى ضوء النهار ، نُتَقَاً من ذاته المجهولة » (٣٢) .

وسبيلُ الفن ، أصلاً ، غريبٌ عن الأرض ، هبط إليها من عالمٍ راقٍ قوامه الجمال ، تبعاً لنظامٍ كونيٍّ إلهي مبني على الاستحقاق العادل (٣٣) .

J. BERTHELEMY, Traité d'esthétique (1ère partie : psychologie de l'art), (٢٢) p. 60.

(٣٣) من الحقائق التي أطلعتها الجلسات الروحية العاشية أن ليس من جرم فلكي - كوكبا كان أم نجما أم غير ذلك - إلا فيه حياة وكائنات تستمد مقوماتها من عناصره ، وتتلامح مع طبيعته . وقد لا تقع تلك الكائنات تحت إدراك الإنسان الحسي إذا كانت ذبذباتها تتعدى حدود حواسه العليا أو تتغنى عن حدودها الدنيا . وتنقسم بلايين النجوم والكواكب إلى ١٥٠ درجة روحية علوية و ١٥٠ درجة روحية سفلية ؛ وتكون الدرجات حوامل النسيم ، والدرجات حوامل الجسيم . وكل درجة أو درجة تشتمل على ملايين الأجرام المادية ، كل جرم منها له أنظمتها الخاصة وطبيعته وسكانه . وفي سلم الحضارات الكونية يستوي الكوكب الأرضي بين الدرجات السفلية . ولم يصل البشر إلى مرتبتهم الأرضية الزرية ، نسبياً ، إلا لمولم وأصلهم في دوراتهم الحياتية السابقة . أما أعماق العوالم العلوية فلا تنال بصاروخ ولا بسفينة فضائية ، لكن بارتقاء روحي داخلي يرحل السبيل ، بعد انطلاقه من الإنسان ، لتجسد في العالم المادي الذي يستعمل ، وإلا فإن الإنسان إذا سفل نفسه ، وتشتت بالفتنويات ، يضع ذاته في جانبية العوالم السفلية ، فتجسده سيالاته ، بعد انطلاقتها منه ، في كوكب ينظم فيه الجهل ويتناقم

وذلك ما يُحثل شعور الفنان الحق بالغربة أينما حلَّ في الأرض وكيفما كانت ظروفه الاجتماعية : أنها غربة مَنْ يترل وطنًا ليس وطنه . وقد يزداد هذا الشعور عمقا إذا صحبت سيال الفن ، في شخص الفنان ، سيالات روحية راقية . وعلى هذا الضوء يصبح للإلهام الفني معنى جليل : إنه نشاط سيال الفن نشاطاً صافياً ، في نفس الفنان .

ب - ولدى مراجعة سيرة جبران ، يتأكد لنا أن موهبته الفنية ظهرت نابشيراً ما في طفولته ، وما كان يتثنى عن إشباع فزعته زجرُ والده أو نهكهم المحيط ^(٣٤) . وفي ذلك برهان على أن للفن دافعا حيويًا متأصلاً في نفسه منذ ولادته .

ومن التأمل في مجمل كتاباته العربية والإنكليزية ندرك أن الأصالة الفنية فيه لم يحجبها الاكتساب الثقافي ، بل أنها ، على العكس ، امتصت جميع المؤثرات الثقافية الطارئة ، وبقي سياله الفني بارز الطابع الذاتي ، زخار الحياة ، متألق الجمال ^(٣٥) .

٣٤ - الشر ويشد الشقاء والمذاب ، وذلك تبعا لنواميس كونية الهبة . وكثيرون هم العلماء الذين باتوا يؤكّدون وجود حياة وكائنات ماثلة في الكون خارج الأرض . حتى أنه في المؤتمر الذي عقد في بورياتان بأرمينيا السوفياتية سنة ١٩٧١ ، وضم أكاديميات العلوم في الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة الأمريكية ، أعلن أحد العلماء أنه قد يكون من جنون العظمة أن نعتقد أننا الكائنات الماثلة الوحيدة في الكون !

(PATRICE GASTON, *Disparitions mystérieuses, Le Cosmos nous observe*, Robert Laffont, Paris, 1973, p. 319).

(٣٤) راجع الدراسة الأساسية ، ص ٦٠ - ٦١ .

(٣٥) إن المقارنة بين أدب جبران وأدب ميخائيل نعيمة تعفنا بإيضاحات جمة في هذا المجال . فإذا حاولت القبض على الأصالة الفنية في أدب نعيمة ، صرفتك من سبيك عشود المؤثرات الثقافية والروافد الفكرية المتسجلة ، حتى تكاد ذاتية الأديب تضيق بين يديك ، في حين أن جبران يلهم من غرائفه عليك فرشاً في جل ما تقرأه ، ومرد ذلك إلى قوة سيال الفن عنده وعطو فوجسه .

وبين الأدباء الكثيرين الذين انصهرت تأثيراتهم في شخصية جبران الفذة ،
يبقى ولیم بلایک وفریدیریک نیتشه الصلاحيين اللذين اندجبا فيه جوهرياً وكبائياً .
فولیم بلایک يتحد به ، شعراً ورسماً ، أسلوباً وتفكيراً ، موقفاً ورؤياً ،
ولا سيما في المرحلتين الأولى والثالثة ، حتى يفتضى السؤال : ترى ، ألا
يجوز أن يكون سيال بلایک الفني قد تجسد في جبران منذ ولادته ، بحيث
يصبح جبران هو بلایک نفسه في بعض طاقاته الروحية ؟

إن جبران كان يعتقد ذلك . ولعل أول من ظن التشبه المميم بين
الشاعرین الرسامين كان ماري هاسكل التي لفتت نظر جبران ، في
أوائل ١٩١١ ، إلى أن بلایک توفي سنة ١٨٢٧ ، وروزي ولد في العام
التالي ، ١٨٢٨ ، وأن هذا الأخير مات عام ١٨٨٢ ، وجبران ولد في السنة
التالية ، ١٨٨٣^(٣٦) . وبين الثلاثة نقاط تشابه كثيرة ، من أهمها جمیع
الشعر إلى الرسم .

كذلك لم يكن تأثير نيتشه في جبران عارفاً ، حتى انه نفسه كان يُحسّر
بوجوده في شخصه أكثر فأكثر منذ سنة ١٩١١^(٣٧) . وقد يكون تلبس
به سيال الفيلسوف الألماني بعد وفاته ، سنة ١٩٠٠ ، وبلغ ذروة فاعليته
فيه خلال المرحلة الثانية (١٩٠٨ - ١٩١٨) عندما ساعدت ظروف معينة على
بروز^(٣٨) .

(٣٦) توفيق صايغ : أحوال جبران ، ص ١٦١ ، ١٦٢ .

وروزني هو ذاتي جبريال وروزي شاعر ورسام انكليزي .

(٣٧) انظر المصدر السابق ، ص ١٧٨ - ١٧٩ ، وراجع الدراسة الأساسية ، ص ٢٩٧ -
٢٩٨ .

(٣٨) ان البشر جميعاً تنتقل اليهم سيالات من الأجيال السابقة انطلاقاً وراثياً أو غير وراثي . ولكن
ملاحظة الخصائص المشتركة بين الأشخاص لا تستطاع الا بالمقارنة بين عتوط حياتهم النفسية
وطباع أصلهم وسنات شخصياتهم . وهذه الموازنة لا تنجح الا بين البارزين من الناس الذين
يتم التاريخ بتدوين سيرهم . وكثيرون من هؤلاء يمكنك أن تطرح الأسئلة التالية حولهم :

وقد شهدت المرحلة الثالثة من إنتاجه تراوج سيّاليّ بلايك ونبشته في نفسه ، بعد تصفيهما من حسيّة الحب والقوة ، بتأثير المسيح الذي تسلطن سيّاله في وجهه ولاوجهه ، غير متنازع ، سحابة الدور الأخير ، حسبما سألين عمّا قليل .
أمّا الغربة الروحية التي عاناها جبران فقد عرفت بُعْدَيْن : بُعْدَ السبّال الفني الراقي الذي يخلع آثاره على جميع الفنانين الكبار ، وبُعْدَ سبّال المسيح وهو خاص به .

وأمّا الالهام الفني فقد كان صريحاً في جُلِّ ما كَتَبَ ورسمَ لأن نشاط سيّال الفن فيه ظلّ صافياً لا يشوب صدقه أيّ زيف في مختلف مراحل إبداعه .

— ٤ —

أ - ومن المبادئ الداهية أن الطيعة في جميع عناصرها ومظاهرها ، ماء وهواء وتراباً ونباتاً ... فضلاً عن الحيوان ، تدخلها سيّالاتٌ روحية كذلك التي في الانسان من حيث الجوهر ، لكنها تختلف عنها وفيما بينها بالدرجة والوظيفة . والمخصائص الإدراكية والشعورية والإرادية في السيّالات لا تُلقَى في الموجودات الطبيعية الكبرى كالجبال والبحار والأنهار ... فحسب ، بل تُلقَى في كل خلية وكل ذرّة أيضاً . فالسيّال هو مبدأ الحركة والحياة في كل شيء . ونشاطه الإشعاعي - الكهربائي المغنطيسي - هو وسيلة معقّدة يتم بها التضامُّ والاتصال بين الكثير من الكائنات (٣٩) . وإذا كان الانسان

نرى ، أم ينتقل ، مثلاً ، بعض سيّالات الاسكتندر إل ناهوليون ، وبعض سيّالات الأخير إل هنري ؟ أم ينتقل بعض سيّالات أبراهام لنكولن إل جرون كتي ؟ وبعض سيّالات صلاح الدين إل عبد القاصر ؟ إن الأجوبة على هذه الأسئلة وغيرها قد تأتي صحيحة أو خاطئة إذا اعتدلت فيها وسائل المقارنة المادية . لكن الجلسات الروحية الداهية التي تحصل فيها الممرة بواسطة الروح الكونية الالهية تحصل ، وحدها ، الجواب اليقيني .
(٣٩) إن ما أعلنته الداهية سنة عام ١٩١٢ ، أخذ العلم يؤكده تدريجياً بعد ثلاثين سنة . فالحلواء ، ولا سيما السوفيات منهم ، لاحظوا أن الخلايا الحية تبحث لإشعاعات كهربائية مغنطيسية هي

لم يستطع ، حتى الآن ، أن يُقيم اتصالاً بينه وبين سائر الموجودات ، فلائحة يريد أن يطبق عليها مقياسه ومنطقه وطابعه ، في حين أن لكل عالم من عوالمها مقياسه ومنطقه وطابعه الخاصة (١٠) .

إلا أن الشعراء خاصة ، والفنّانين عامة ، مكنتهم نوايس الحياة - بما جمعت فيهم من سيالات فنية قوية الحساسية والالتقاط - من أن يتخطوا الحواجز التي تفصل الإنسان عن سائر الكائنات ، ليكتشفوا بحسهم أن في عناصر الطبيعة ومظاهرها جميعاً شعوراً وإدراكاً وجوهراً حياً . وهذا الاتصال التعاطفي ، وإنْ يَكُنْ قائماً على حدّس مُبْهَم ، هو اتصال واقعي يُثبت وحدة الجوهر الروحي الحي في الموجودات كلّها ، وليس

= واسطة اتصال ونقل مدلولات فيما بينها (جريدة النهار ١٩٧٤ / ٣ / ١) .

كذلك ينصرف فريق كبير من العلماء إلى إنشاء علم نفس حيواني . ومن بين هؤلاء يبرز اسم العالم النفسي كونراد لورنز Konrad Lorenz الذي أمضى حياته في دراسة سلوك الطيور ، وما تفرده أن طفه منطقاً ولغة وإدراكاً وشعوراً خاصة بها .

ولعل الاكتشاف العلمي الأهم في هذا المجال هو الذي توصل إليه باكستر Cleve Backster أكبر اختصاصي أمريكي في صنع الآلات المستخففة في التمييز بين الصدق والكذب ، وهو أن التنبأت يفكر ، ويشعر ، ويفرح ويتألم ، ويتذكر ، ويتعاطف والذين يجبرونه ، ويشعس الأعطال المعقدة به ويدافع عن نفسه ضدّها ، وله من وسائل الاتصال العميقة الخفية ما يدرك به أفكار الناس . وقد عد بعض الأوساط العلمية اكتشافه هذا ، مؤخرًا ، من الاكتشافات التي ستؤثر تأثيراً عميقاً في تفكير البشر ونظرتهم إلى محيطهم . انظر :

Paris Match, No. 1285, 22 Décembre 1973, p. 92-118.

(١٠) يقول العالم الفرنسي جان شاردون : « هناك طريقتان لإبراز الصفات النفسية : إما أن نتمكن من الاتصال اتصالاً مباشراً ، فكرياً ، بالكائن الذي نريد أن نزن قيمته النفسية ، فنخضبه ولاغتياره ، وإما أن نرسل حكماً تقريبياً على عمل صادر عن نشاط قواه النفسية . لكن الطريقة الأولى متممة حل الإنسان : فهو لا يملك ، من أجل الاتصال النفسي بالكائنات الأخرى ، إلا اللغة التي شكلها وهي لا تتيح له التفاهم مع أية جبروتة ... وهذا مؤسف ، لكنه لا يعني ، في أي حال ، أن الجبروتة لا تملك طاقة نفسية ، بل توسع معنى . أما الطريقة الثانية ... فنبهنا فسأل : كيف علينا أن نتلاحظ قيمة الأعمال الصادرة عن نشاط والحياة النفسية ؟ فالخالية الواحدة قادرة على أن تصافف نفسها وتتكاثر ، إلى حد أنها

مجرد لعبة رمزية كاذبة تستعير صفات الانسان لتخلعها على الطبيعة (١١).

ونوع الموقف التصانفي الذي يقفه الانسان من مظاهر الطبيعة يتأثر ،
لا شعورياً ، بدرجة سيئاته ودرجة السيئات في المظهر الطبيعي . فالنبت
والماء والهواء ، وكذلك الطيور ، بصورة عامة تتمتع بسيئات روحية

= تبي ، وجدا ويغرن أية ساعة ظاهرة ، هذا الشيء العجيب المسمى كائنات حيا . وفي سرنا
أن الانسان وحده لم يتجسسا بعد في تحقيق مهمة صعبة كهذه . فإذا اعتبرنا ، إذ ذاك ، الانسان
والخليفة شخصيتين ، فكيف نوازن بين أصال الانسان وأعمال الخليفة النفسية ؟ ان الجواب قد
يضع الذين يتجهون بمقدورهم على تصنيف الكائنات المتصفة بحياة نفسية ، في موقف
سرج . . (J. CHARON, La connaissance de l'univers, p. 140).

(١١) ان مذهب التقمص الوجداني « Einfühlung » الذي صاغ نظريته فيشر F. T. Vischer
(١٨٠٧ - ١٨٨٧) في مصنفه « الاستطيقا أو علم الجمال Aesthetik oder Wissenschaft
des Schönen » ، ثم تبناه وبسط البحث فيه الفيلسوف الألماني تيودور ليبس TH. Lippe
(١٨٥١ - ١٩١٤) في دراساته المسماة « استطيقا - سيكولوجيا الجمال والفن »

Aesthetik, Psychologie des Schönen und der Kunst

هذا المذهب يظهر أن التقمص الوجداني « يتقلد عواطف الشخص الى الأغراض
المقصودة ، يجعل ال حد ما معنى انحلال الانسان في الوجود . فإن الفعل التوقفي لا يباشر صناعة
داخلية تخيلا لولا ثم نقلها في المراتب » إنما تخيلا وتخسها ، أصلا ، في الأشياء ، منها ، إذ
ان الوحدة بين وبين الآخرين هي الأولى ، وبمدها تأتي الازدواجية . والتمسلة الجمالية إنما
تقوم في هذا التوحّد . وقد ركز فكتور باش V. Bask (١٨٦٢ - ١٩٤٤) نظرية التقمص
الوجداني على بحث الفكري وإعادة التكوين . فالاتجاه الاستطيفي يرأيه ، ظاهرة سلوكية
فريدة تقوم على تعاطف قديم بيننا وبين الوجود كله ، بحيث أصلنا أن نشعر ، رمزيا ، داخل
الشيء . كالشيء نفسه . ويرى باش أن نظرية التقمص الوجداني « باسكانها أن نحل ، نهائيا ،
مشكلة عدم الإغراض في الشعور الجمالي .

ويرى مينكوفسكي في كتابه « نحر علم الكونيات »

(B. MINKOVSKI, Vers une Cosmologie, Paris, 1936)

« ان الانسان متصل اتصالا التزاميا بالطبيعة ، وذلك ليس من حيث انه جزء منها
فحسب ، كما تريد العلوم البيولوجية ... ولكن ايضا ، وبالدرجة الأولى ، بمعنى أن كل
خلجة من خلجات نفسه تجد لها في العالم أساسا حقيقيا ، وبالتالي طبيعيا ، وتكتشف لنا هكذا
عن ميزة أساسية في بنية الكون » (Ibid, p. 169) .

أراقية ، تسمو على سيالات البشر ، في أحوال كثيرة . ولذا فالروحانية تحيط هائلتها بالطبيعة والطيور ، غالباً ، ويخصص الفنانون واقعتها بحدسهم .
كللك فالطبيعة ، أرضاً وبحاراً ، تنضح بمعنى الأمومة من حيث أنها تحوي السيالات الشكلية العامة التي تتكون منها عناصر الإنسان الجسدية . فهي مصدر تكونه الشكلي وهي معادته ^(١٧) .

ب - ومن دراستنا لجبران يتضح أن الطبيعة يكاد وجهها لا يحتجب عنك في جل ما تطالع من أدبه . وهي ليست جماداً ومظاهراً صمّاء بكماء ، بل كائن حيّ ينتج بالشعور والإدراك ، ويقوم بينه وبين الشاعر تعاطف عميق حميم متصل ، لم يحدث أن ظهر مثله في إنتاج أيّ أديب عربي قبله ، حتى يسوغ القول إن الرومنسية - المتولدة من مجموع سيالات تمتاز بحساسية بالغة ورقية نفسية ورؤيا غالطة في جوهر الكون الروحي - وجدت طريقها إلى الأدب العربي بفضلها .

وكانت الطبيعة لجبران معبداً أو حيةً أو أمّاً ، حسبما كانت رؤياه الحدسية تكشف فيها من أسرار الروح ، أو الحب والجمال ، أو العطف والحنان . ولا شك في أن ليرني بعض سيالاته دوراً في تعيين هذه المواقف .

— • —

ومن المبادئ الداهشية ، أخيراً ، أن الإنسان يتكون من جسد وسيالات وروح . وقد ألمتُ إلى أن الجسد تتكون عناصره من السيالات الشكلية العامة التي في الطبيعة . أما السيالات الروحية التي تتكون ذاتية الإنسان البشرية فقد أوضحت مفهومها فيما سبق من هذا البحث . وأما الروح فهي اللات الإلهية النقية المتخفية النواميس الطبيعية ، والكائنة في ملاء الأرواح .

(١٧) ان الصلحج الأولية الرئيسة اللاشعورية التي اكتشفها يونغ في كل إنسان قد ترد إلى السيالات العامة التي يشترك البشر جميعاً فيها ، فنترك آثارها في عقولهم الباطنة .

وقد خلقتها القوةُ المُبدِعةُ - أي الله - قبل أن يكون زمان ومكان . والأرواح هي مصدر التكوين كله وأمهات الكائنات جميعها . منها تنبثق السَّيَّالَات فتشكّل موجودات منبثقة الدرجات تبعاً لحكمة الالهة ونواياها كونية ، وإليها تعودُ السَّيَّالَات بعد أن تبلغ ذروة ارتقائها وثقافتها بتصفيتها من كلِّ كثافة مادية .

وكلُّ روحٍ أمٌ حَقِيقِيَّةٌ لمجموعة من الكائنات . تتصلّ بها بواسطة إشعاعات خفية ، فتمسّو بسموها وتنحطّ بانعطائها ، لكنّ غيبتها معنوية ، وكذلك آلامها . وغايتها العودة إلى القوة الإلهية المبدعة للاندماج بها . وإذا ذاك تُدرّك كمال سعادتها ومعرفتها وقدرتها ومحبها . لكنّ غايتها لا يمكن تحقيقها ما لم تجمع إليها جميع سيَّالاتها المتفرقة في أرجاء الكون المادي . ولذا ، كلُّ سيَّالٍ راقٍ لا بدّ من أن يشعر بحنين العودة إلى الروح الأم ، لأنّ بهذه العودة وحلّها خلاصته الحقيقي وسعادته .

وكلُّ إنسان تنزع سيَّالاته ثلاث نزعات : روحية ومادية وسفلية . والانتزان النسبي لا يتمّ فيه إلاّ عندما يحصل بين سيَّالاته تراتبٌ تهيمن فيه الفئةُ الروحيةُ على الفئتين الأخريين . والسيَّالاتُ الروحيةُ وحدها يتّاح لها مغادرة الأرض إلى عوالم أُسمى ، في حين أنّ السيَّالات المادية تبقى ضمن جاذبية الأرض . أما السيَّالات السفلية فإنها تضع نفسها ، بشرتها وفسادها ، في جاذبية العوالم السفلى من الدرجات .

ب - ويبدو أن وعي جبران الروحي أهمله لأن يميّز بين مبدأ الحياة في الجسد الذي هو النفس - أو السيَّالات - والروح التي هي أمُّ الكائنات وذاتها المجتذبة : « أمٌ كلُّ شيء في الكيان هي الروح الكلية الأزلية الأبدية المملوءة بالجمال والمحبة » (١٢) . ولذا كان حنين جبران للعودة إلى الروح

(١٢) اللجنة المتكبرة - م . ك . ج . ٢ ، ص ٦٤ ، راجع كذلك الدراسة الأساسية ص ١٨٠ -

الأم قوياً وبارزاً في أدبه وورسحه على السواء .

وقد شعر أن عودته لا تتحقق إلا بتصفية نفسه من أدرانها ، فكان جهاده ضد ميوله ورغباته المادية حتى يتصر عليها ويستحق مجد الأبدية . وهذا ما جعله يترك أن السلام الذي يحلم به في حياته هو مجرد وهم ، وأنه لن يتمتع بأية راحة قبل أن يؤسّدوه القبر — هناك وسط التلال في لبنان ^(٤٤) .

واستطاع جبران ، بوعيه الروحي الراتقي ، أن يستجلي في ذاته وكل ذات إنسانية مراتب السبلات الثلاث . فإذا هي : إلهية سامية ، وبشرية عادية ، ومسيخ دينية ، والذات الإلهية هي الغاية ، وإليها يجب أن تتجه الطلائع النفسية كلها ^(٤٥) . ولا شك في أن المراحل الثلاث التي اجتازها جبران ذات علاقة بتراتب سبلاته وفاعليتها في كل من الأدوار ، وقد فصلت ذلك تفصيلاً وافياً في الدراسة الأساسية .

وقد ساعد جبران في بلوغه مرحلة الاتزان الروحي النسي اتخذاه المسيح مثلاً أعلى وقوة تحتذى ، بحيث أصبحت القيسم الجبرانية مكسوة بظلال وجهه السامي . على أن اتحاد جبران الماهي بالمسيح لا يعني مجرد اتجاه نفسي تعريضي نحوه ، بل هو اتحاد ماهي بكل ما تحمل الكلمة من دلالة ، أي إنه اندماج سيال من سيالات المسيح بشخصية جبران ^(٤٦) ،

(٤٤) توفيق صايغ — أسماء جديدة على جبران ، ص ٢١٥ .

(٤٥) النبي - م . م . ك . م . ص ١٠٦ - ١٠٧ .

(٤٦) من الحقائق التي تكشف في الجلسات الروحية القاهشية أن يسوع القنصاري هو أحد تجسّدات المسيح الكثيرة في الأرض . وسيالات المسيح هي التي صنعت الحضارات الإنسانية وما تزال تصنعها . وهي مختلفة في الرسل والأنبياء من مثل إبراهيم وموسى وعبد ... كما في الحكماء والمهابة من مثل بوذا وكينفوشوس ولاوتسو وزرادشت وسقراط وغاندي ... وما كان ينتج لذلك أن يؤسّر الرسالة القاهشية وبهذه الجلسات الروحية التي تتصل فيها الروح الإلهية الكونية وتنعج المعجزات المازقة للقوانين الطبيعية لو لم يكن فيه بعض سيالات المسيح .

واحتلاله مكانة الضمير فيه ، واستطابته ، مع مرور الزمان ، قوى الشاعر الفنان ومرايمه . وكأنه شعر بوجود هذا السيل الراقي في شخصه ، فخطبته ميّ زياده قائلا : « أرجوك أن تسألني ريفتي المنصر الشفاف عن هذا النبي وهو يقص عليك حكايته » (٤٧) . تُرى ، أيسوغ القول إن كتاب « النبي » أملاه على جبران سيل المسيح نفسه الذي كان فيه ؟

تلك كانت التعليقات الروحية التي تيسر كشفها في جبران وإنتاجه ، بفضل الأضواء الجديدة التي أتاحها الداهية . وما دامت المبادئ والمفاهيم التي اعتمدتها في هذا الملحق ، وليدة « الجلسات الروحية » فلا بد ، لكي يستتم هذا البحث غايته ، من أن نختمه بقطعة أوحثتها روح جبران إلى الدكتور داهش ، في إحدى تلك الجلسات ، بعنوان « الضباب » .

الضباب

ضباب !

ضبابٌ كيف يُحيط بنفسِي ... ويكبّلها بقيوده !

ضبابٌ مُكبّدٌ ... في سماءِ حياتِي !

يبتاطني مثلما يبتاطُ السَّوارُ معصَمَ الحِشاءِ !

ضبابٌ جميلٌ ! يتجمّع ليعودَ ثانيةً فيتبدّد !

خيالاتٌ ، وطيفٌ غريبةٌ تترامى لي من خلال الضباب ...

والآلافُ من الميُونِ الناريةِ ترمقُنِي !

ويتبدّدُ هذا الضبابُ المكفهرُ

ليعودَ ويتجمّعَ بألوانٍ بيضاءَ مشوبةٍ بالصفرةِ

(٤٧) راجع الدراسة الأسلمية ، ص ٢٣٨ .

كالتقطن المتدوف !

ومن خلاله تظهر لي وجوهٌ ناعمة ، ولكنها حزينة ! ...

وحيونٌ ذابلة كأنها تستجدي السطفَ مننَ تنظر إليه ..

وأباد ... لا يمكن معرفة عددها لكثرتها !

بعضها منبسط القبضة !

والآخر مَقْفَل !

وأصابعٌ متشعبة ، والأعصاب ثائرة ،

وهي متوترة كالخيال الغليظة !

وأباد أخرى هادئة ، وادعة ، مستكنة ، لا يبدو عليها أي أثرٍ للحياة ...

لولا بعضُ الرُعشات بين الفترة والفترة .. !

ويعود هذا (الضباب) فينبذ !

ليعود إلى التجمع بصُورٍ وألوانٍ أخرى : غاية في الفراية !

وأنا باقي في مكاني ! .. أنعمُ النَظر في هذه المشاهد الغريبة !

وفجأة تراءت لي سحابةٌ كثيفة تجمعت واتحدت ...

مع قِطْعٍ من (الضباب) السابح في الفضاء ! ...

حتى إذا ما التفت الجميع ، تكونَ من هذا (الضباب) جبارٌ رهيب ،

وهو مُتَمَنِّطٌ بالغيوم !

ويضع مكان عينيه كوكبين يختطف بريقهما البصائرَ والأبصار ! ...

وصاح بي قائلا :

يا ابن الأرض !

بكُفِّ رسالي هذه لأبناء قومك ،

هؤلاء الأكرام الذين يظنون أنهم بلغوا من المعرفة والحكمة

الغاية التي يتشبهونها .

قُلْ لَّهُمْ يَا ابْنَ الطَّبِيعَةِ مَا أُعْطِيَكَ الْآنَ .
... ودوى صوته كهدير المياه وهي تتنازع في الأودية الصامتة ! ...
ثم قال :

يا أبناء الأرض المساكين !
منذ عشرات الآلاف من السنين ،
وأنا أشاهد أعمالكم ، وأسمع أقوالكم ،
وأراقب أفعالكم ،
وأقرأ ما يحول في أفكاركم .
وإذا هي هي لا تتغير !
فأنتم تغنون في حب (المرأة) !
وتتهاككون على (المادة) !
وتعبدون (السلطة) !
وتقدسون (السلطة) !
وتعتدون على (الضعفاء) !
وتكفرون (بالسماء) !
وتُسَوِّهون (الحقائق) !
وتُخَادِعُونَ بعضكم بعضاً ! ...
قويكم يعتدي على ضعيفكم !
وغنيكم يعتدي على أمينكم !
قسُكُمْ يتظاهرون بالتقوى وهم الأبالسة المتجسِّمون !
دسم على الوصايا !
وهزأتُم بالشرائع الإلهية !
وكفرتُم بالسماء !

وقد سم الأباطيل !
 هزأتم بالتعاليم السامية !
 واتبعتم شهوات قلوبكم الدنية !
 قرأتم ما أوصاكم به سيد الأطهار ،
 ولكنكم ... لفلاظة في قلوبكم ، ولعدم إيمان في أعمالكم ،
 لم تفعلوا بما جاء في هذه التعاليم السامية ! ...
 حتى ... ولا يبعثها ! ...
 لا ، بل كانت أفكاركم لا تدور إلا حول الجرائم والشهوات ،
 والأمانى الساقطة والنزوات ! ...
 وقد راقبتكم طويلاً ،
 وصيرت عليكم صبراً جليلاً ... أجيالاً وأجيالاً ...
 عليكم تمردون وتصلحون خطأكم ،
 وعل (التلم) يبد له مكاناً في قلوبكم .
 ولكن عبتاً كان انتظاري هنا ! ...
 فالأجيال المملة قد مضت وانقضت
 وأنتم ما زلتم على حالكم !
 لا ، بل ازدادت آثامكم أضعافاً مضاعفة ...
 عما كان يقوم به آبائكم ، وأجدادكم ، ...
 لهذا ...
 صممت ، اليوم ، أن ابلفكم (أمرى) الذي لا يرد ،
 والقاضي بتدمير (عالمكم) الحقيق هنا ...
 الذي لو تسموه بمرائكم ، وأطعاكم ، وشهواتكم ! ...
 وأصدقكم يا أبناء (الأرض) القول :

إنَّ (روحي) قد سَيِّمَتْ كُلَّ ما هو كائنٌ في عالمكم الوضيع !
 لقد ملأتُ شمسكم وقمركم ، أفلاككم ونجومكم ،
 هضابكم وأوديتكم ، أرضكم وسماكم ، أشجاركم وأطياركم ،
 سهولكم وجبالكم ، بطاحكم ووهادكم ...
 وكلُّ ما تراه العين ، ويصل إليه الإدراكُ في عالمكم الملوَّث ،
 المصاب بأعمالكم الوضيعة وأفكاركم الشائنة .
 سأعو (عالمكم) من (الوجود) ! ...
 وأجعله نسياً منسياً ! ...
 لأنَّ الاختبار أَسَدُّ لي أَنَّهُ مُحَالٌ أَنْ تسمو (أرواحكم) المتثقلة بالأوزار !
 فهي سترداد سوءاً على سوء !
 إنَّ (إرادتي) قد قضت : أَنْ تُلَاقِي (أرضكم)
 لتعود فتغمرها (بالضباب) ...
 (الضباب) الذي سيَسودُ هذا (العالم) ،
 وسأجول أنا في (عبابه) طوال الأجيال القادمة ،
 من دون أَنْ أدع لأَيِّ عنصر من العناصر المعروفة الآن عندكم ...
 أَنْ يشاركني البقاء ...
 أما (الأطفال)
 هؤلاء الذين لم يُلَوِّثُوا بعد بأوزار هذه (الأرض) وشهواتها الدنيئة ،
 فسألسُ (جبابهم) بأناملِ (الصحرة) ...
 فيرقدوا رقاداً عميقاً ! ...
 حتَّى إذا ما (استيقظوا) ...
 وجلوا (أنفسهم) في (مكان) آخر أسمى من (علمهم) القاسي !
 أمَّا (أجسادهم) النفَّسة ، البريئة ،
 فسأحوِّلُها إلى (ضباب) ! ...

للمؤلف

- ١ - أنا والله والعالم - شعر - دار مجلة شعر ، ١٩٦٣ نَقَدْ
- ٢ - معجزات الدكتور داهش ووحدة الأديان - دار النسر المخلوق ، ١٩٧٠ ، ط . ثانية ١٩٧٤ بالعربية والفرنسية والانكليزية .
- ٣ - الداهشية حقيقة روحية تؤيدها المعجزات - دار النسر المخلوق ، ١٩٧١ بالعربية والانكليزية .
- ٤ - صراع النسر والعاصفة أو ابن خلدون - تمثيلية تلفزيونية - دار الأسبوع العربي ، ١٩٧١ نَقَدْ .
- ٥ - معراج المعرفة أو ابن طفيل - تمثيلية تلفزيونية - دار الأسبوع العربي ، ١٩٧١ نَقَدْ .
- ٦ - جبران خليل جبران في دراسة تحليلية - تركيبيه لأدبه ورسمه وشخصيته - دار النسر المخلوق ، ١٩٧٣ ، نَقَدْ .
- ٧ - جبران خليل جبران مع ملحق ينطوي على « دراسة جبران النفسية على ضوء المبادئ الداهشية » ، دار النسر المخلوق ، ١٩٧٤ نَقَدْ .

قيد الطبع

في النقد والدراسة الأدبية

٨ - حركة الشعر العربي الحديث في جذورها وأبعادها

٩ - المذاهب الرئيسية في النقد الأدبي

١٠ - فن الكتابة

١١ - أعلام من أدباء العربية

١٢ - مدخل الى دراسة « حقائق الألفه وفرايس الإلهات » - وهي سلسلة من عشرين جزء تأليف الدكتور داهش .

١٣ - في هيكل الدكتور داهش ومحراب أدبه

١٤ - الدكتور داهش الأديب المعجز - مقارنة بين كتابين عملاقين : « جحيم داهش » و « جحيم دانتي »

في علم النفس وعلم الاجتماع

١٥ - مدخل الى سيكولوجيا الفن

١٦ - نصوص ومصطلحات سيكولوجية في الفرنسية والعربية

١٧ - أضواء على الانسان

١٨ - فضح السحر وكشف القناع عن العلوم المزيفة .

في المسرح التلفزيوني

١٩ - الشاعر البطل أو أبو فراس الحمداني - في جزئين

٢٠ - سراب السعادة أو أبو الفرج الأصفهاني

٢١ - جهاد البطل أو عترة بن شداد

٢٢ - الانسان بين الحرية والقدر أو أبو دلامة

٢٣ - أهل الكهف

٢٤ - الأطلتيد

٢٥ - سحر الدر

٢٦ - العباسة تحت الرشيد

٢٧ - اكتشاف أميركا

في القصص والمذكرات

٢٨ - قصتان

٢٩ - ثلاثة أيام في سجن الرمل

في الوجدانيات

٣٠ - مرثية الأرض في عصر الفضاء - شعر

٣١ - نجوى الحب

٣٢ - المجد لمطلع حزيران

في الروحانيات والدين

٣٣ - داهش الهادي الحبيب : حياته ومؤلفاته المعجزة ، خوارقه المذهلة ،
تعاليمه الباهرة (٣ أجزاء)

٣٤ - البشير والنذير

٣٥ - معجم الخوارق والمعجزات الداهشية .

في الترجمة

٣٦ - الأدب الألماني تأليف أنجلوز

٣٧ - الأدب الأسباني تأليف كامب

٣٨ - الأدب الياباني تأليف برسيهاندا

٣٩ - « مذكرات دينار » تأليف الدكتور داهش - أطروحة ماجستير بالانكليزية
لفوزي برجاس

٤٠ - شمس حزيران تُشرق على العالم للماري وزينة حدّاد

